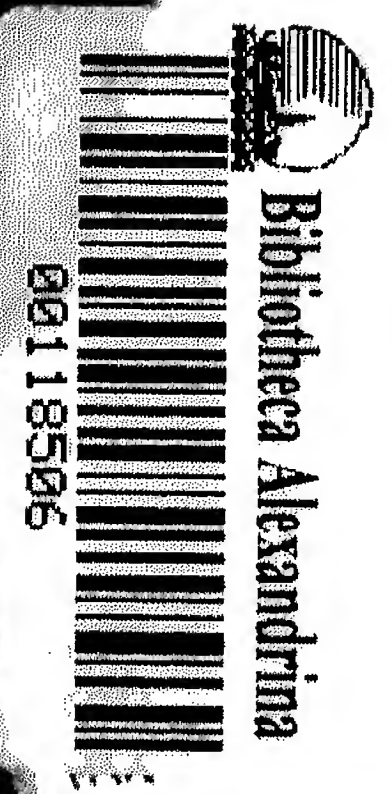


تجربی شبلی

کتابخانه خطیہ

روایت



Bibliotheca Alexandrina
00118506

دار الإحمدي للنشر

فكالتعطيّة
رواية

دار الأحمدي للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت - تليفاكس / ٥٧٥٨٠٩٨

المنيا : ٧٣ طه حسين - تليفاكس / ٣٤٧٨٠٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٦٢٠ / ٩٩

الترقيم الدولي : 5 - 13 - 5887 - 977

طبع وفصل ألوان : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

خیری شیلی

فکالہ کلاطیہ
عمومی

روایت



أغنية القمر

ياقمرنا يا هادي ..
يا لابس بغداددي ..
شيل حماتك وارقعها ..
خلي الدم يفرقعها ..
فرقعها لولي لولي ..
زي الشمع المحلول ..
حليته قبضه قبضه ..
زي الصندوق الفضة ..
خلي امي تطلع تغسل ..
تغسل لي ما تغسل لي ..
تغسل لي تو بين حرير ..
وتنشرهم ع المنديل ..
والمنديل مليون حنه ..
آخذ منه واتحنى ..
.. واطلع فوق العلوايه ..
وأقول : يا حدايه ..
ماتأخذيش حناتي ..
لما يبجوا عماتي ..
عماتي لحمسه سنه ..
يلعبوا تحت الدكه ..
والدكه يا محلاها ..
شيخ العرب جواها ..
حدث محمد في كمي ..

نط ورايا دار أمي ..
دار أمي كبيره كبيره ..
فيها عسكر كثيره ..
واحدہ تشن ..
واحدہ تزن ..
واحدہ ترن ..
واحدہ تقول : يا عسكر قوم اسكر .

" أغنية شعبية من ريف الدلتا "

ما كنت أحسب أن الحال يمكن أن يتدحدر بي إلى حد قبول السكنى في وكالة عطية . بل ما كنت أتصور أنني قد صرت صعلوكاً حقيقياً ومن زمرة الصياع القراريين ، إلى حد أن أعرف مكاناً في مدينة دمنهور إسمه وكالة عطية . إذ هو مكان لم يكن لينخطر لمثلي على بال مطلقاً ، ولم تكن لتقودني قدمي إلى هذا المكان البعيد المتطرف ، الذي قد لا يعرفه أبناء المدينة أنفسهم ، الذين جابوها من أقصاها إلى أقصاها وعرفوا كل حرم إبرة فيها .. لولا أنني - فيما اتضح لي - قد ضربت الرقم القياسي في الصعلكة والصياغة واللف على غير هدى ..

المفروض أنني طالب بمعهد المعلمين العام ، أقصد كنت كذلك قبل ما يزيد على عامين . كنت على وشك أن أصير مدرساً بعد عام واحد ، حيث أظهرت تفوقاً في دروس التربية العملية وفي نظم التدريس ومناهجه الحديثة ، إلا أنني رزئت بمدرس للرياضة كان سخيلاً وسمجاً وابن زانية : لم يعجبه أن أبناء الفلاحين المعدمين القادمين من القرى والعزب أشبه بالجرايع الحفاة ، يمكن أن يتفوقوا في التعليم على أبناء المدارس الأصلاء من أبناء الذوات والناس الطيبين ، فصار يتصدى لي في كل امتحان ، يتحداني بالنظرات الخشنة القاسية ، يحرر لي محضراً كلما اعتدلت في جلستي أو كححت أو تلفت حوالي طالباً من أحد الزملاء مسطراً أو فرجاراً أو أستيكاً ، تلك الأشياء التي لا أذكر أنني اقتنيتها أبداً طوال أيام الدراسة . وكان هو ممروراً من هذه الناحية ، وممروراً أكثر من أنني لم أشتري أي كتاب طلبه أو كراسة مربعات أوصى بضرورتها ، فما كان منه إلا أن منع الجميع من معاونتي بأي شيء ، بل عاقب بالطرد زميلاً سرب إلي فرجاراً ، ثم راح يتفنن في إهانتني، فرحت أوجه إليه النظرات حاقدة مكبوتة ، بدرجة أغاظته جداً ، فسحب ورقة الإجابة بيضاء ثم - بكل بساطة وصلف - طردني . وقفت مسمراً في مكاني أنتفض من الغيظ ، ولا بد أن عيني كانتا توجهان إليه سهاماً حارقة ، إذ كشر عن أنيابه قائلاً:

- " بتبص لي كده ليه ياد أنت ؟ مش عاجبك ؟ "

جعلت أوصل النظر لا أدري ماذا أو ما أفعل . ضربني هو بالشلوت ضربة ألقت بي على عتبة باب الفصل فانطرحت على وجهي ، أنا الذي كنت منذ قليل أتخيل نفسي مدرساً محترماً مهيباً . فطار صوابي ؛ لممت نفسي بسرعة . مثل كلب

مسعود متوحش ، رميت بنفسي في كرش وائل افندي مدرس الرياضة بكل قوتي . صرت أنهش في لحم وجهه بأسناني ، وأدق أنفه وأسنانه بمقدمة رأسي ، وأضرب بركبتي وقدمي في محاشمه وقصبة ساقه ، حتى تطوح منطرحاً على الأرض ، فبركت فوقه ممسكاً بتلابيبه وقد ماتت أصابعي الغاطسة في لحم رقبتة . هاجت اللجنة كلها . شعرت أن مدينة برمتها تنهال ضرباً على جسدي تحاول تخليصه مني دون جدوى ، ارتفع الصباح واشتغل الغش وظهر البرشام بالأكوام ، وجاء العميد يهرول فزعاً ، وجاء أكثر من شرطي وصارت الهراوة تنهال على ظهري ومؤخرتي ورأسي . كل ضربة أتلقاها أنفثها سماً في وجه وائل أفندي ، بأن أرفع رأسه ثم أهبطه في الأرض كأنني أريد تنقيضه من المخ . حتى إذا ما خيل لي أنه قد لفظ روحه وتهاوت كل أعضائه وأصفر لونه واختفى بريق عينيه تماماً تراخيت واستجبت للأيدي التي ترفعي عنه . فلما وقفت صرت أدبب بقدمي في بطنه ، في محاشمه ، في وجهه ، حتى تركته كومة من الخرق الممزقة مبقعة بالدم ، دمي ودمه ..

نقلوه إلى المستشفى في حالة خطيرة ؛ وسلموني إلى شرطة البندر في حالة يرثى لها ، تشيعني لعنات العميد ووصفه لأهلي ولأمثالي بأنهم رعاع سفلة حقراء ، ولطه حسين بأنه حرب التعليم ودنسه بأولاد السفلة من أمثالي . وكنت أعرف أنه سيقول هذا ، لكنني لم أعره انتباهاً ؛ إذ كنت واثقاً أنني قد شفيت غليلي وانتقمت لكرامتي المهذرة ، وأن الكثيرين من زملائي كانوا ينظرون بي بكثير من الأسف المشوب بشيء من الإعجاب ؛ ومع ذلك كنت أشعر أنني لم أكمل بولتي التي لا بد أن أبولها في حنك وائل افندي ، مادمت سأدخل السجن وأحرم من مستقبلي على يديه ، وأنى سوف أقتله حتماً حالماً أتملك حرיתי في أية لحظة .

إلا أن المحكمة رأفت بحالي فحكمت على بستة أشهر سجنًا مع إيقاف التنفيذ ، مع فصلي نهائياً من المعهد . ويوم ذهبت إلى المعهد بعد ذلك بعام ، بحجة سحب ورقي ، وبنية أن أغرز سكيناً في كبد وائل أفندي ، فوجئت به قد بات مسخاً شائها أعور العين حيث تبين لي أنني في جنوني فقأت إحدى عينيه ، وكانت أسناني لا تزال تحفر أماكنها في جميع أنحاء وجهه ، وكان يمشي نحو الفصل في انكسار ، متنازلاً عن عجرفته وغطرسته وقد انخفض صوته الجمهوري الشاخط دائماً

بلسانه الذواتى الألدغ . أما أناقته التى كانت تميزه فقد بهتت تماماً . لحظتها تراخت يدي على قبضة السكين فى جيبي ، وداخلى شىء من الإشفاق. علينا كلينا . ولقد نظرني بطرف عينه السليمة لكنه لم يعرفني لأن شكلي كان قد طرأ عليه تغيير حاد، إذ طال شعري وتهوش بصورة لافتة ، ونبتت لحيتي ، وترهلت ملابسي ، وتراكم الصدا على وجهي وأطرافي وثيابي لدرجة أن الكثيرين من زملائي فى الفصل لم يتعرفوا علي أثناء مرورهم بجواري فى فناء المعهد أو حجرة السكرتير. والواقع لقد استرحت لذلك فلم أشأ تذكيرهم بنفسي ، ولم أحرص على سحب الورق إلا لوضعه مطوياً فى جيب الجلباب كبطاقة شخصية عند اللزوم.

ذلك الحدث كان معناه ألا أعود إلى قريتي مطلقاً ، وأن أجعل من شوارع المدينة موطني وسكنائي . صرت طول النهار والليل أذرع شوارعها وحواريها وأحيائها من شارع السوسى إلى شارع المديرية إلى كوبرى إفلاقة إلى شبرا إلى أبو الريش إلى شارع النادى . أقضي بعض الوقت فى مكتبة البلدية أقرأ القصص والروايات والأشعار أبحث عن عالم أفضل يأويني لساعات قليلة أستقبل بعدها شوارع دمنهور المسفلتة الناشفة الطبع لاتحن بقطرة خير على غريب ولاتأمن لعابر سبيل ، أحترق شارع السوسى من شارع الصاغة بعد أن أكون قد شبعت من رائحة الفول المدمس المتصاعدة من مطعم العاصي ، أشهر صاحب فول مدمس فى مصر كلها ، إذ يقال إنه أهدي للملك فاروق قدرة من فوله المدمس ، فحين ذاق منها طبقاً فى فطوره أرسل له لقب البكوية فى برقية عاجلة ، ذلك اللقب الذى أصبح يمنحه له كل يوم عشرات بل مئات الزائرين لمطعمه من كل البلاد من أجل طبق فوله الشهير ..

حين أنعطف من شارع السوسى إلى شارع السوق تستقبلنى فواكه الفخرانى بحديقة كاملة من الروائح الشهية المهيبة ، يطيب لي أن أغرق فى السوق ، لتختلط فى خياشيمي روائح التفاح والبلح والجوافة والليمون بروائح الأسماك واللحوم والجرجير وروث خيول عربات الكارو . يلفظنى الشارع المزدهم ذو البلاطات العريضة المتشقة بأخاديد المياه القدرة ، إلى الشارع العمومى البالغ قمة النظافة ، الباديء من محطة السكة الحديد حتى كوبرى إفلاقة على ترعة الحمودية . تكون روائح الفلافل المقلية قد أسكرتنى وأدخلت فى روعي أنني أكلت حتى امتلأت مع

أن جوفي خاو تماماً . حتى إذا ما أقبل الليل احتواني الظلام فضغطني بين جنبيه في قسوة شديدة إما بالبرد أو بالخوف أو بالضيق . عرفت النوم داخل المواسير وتحت الأشجار على الطرق الزراعية وبجوار الأفران الساهرة وعلى الأرصفة المتاخمة للمقاهي الشعبية . ورغم كل هذه البهدلة لم أكن عرفت بعد ، ذلك المكان المسمى بوكالة عطية .

الوسعاية

ينعطف الصعلوك على الصعلوك انعطاف السائل اللزج على منحدر . هكذا محروس وأنا ؛ كلانا انعطف على الآخر . رأيت أول مرة على الطريق الزراعى فى مدخل المدينة يجلس أمام كومة من حزم الفجل والجرجير مفرودة فوق جوال ، ينادى الزبائن بالمواويل التى تتغزل فى فجله وجرجيره بجملة وحبوية تفوق غزل أبى نواس فى حمرة ؛ فالعيون الخضرة فى فجله ، أما الجرجير فهو رموش عين الحبيب ، وهو شراريب ستائر غرف نومها ، وهو الوشم المدقوق على صفحة قلبه باسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام . جذبتنى حلاوة مفرداته وما تحويه من مشاعر بحلاوة صادقة ؛ فوقفت بجواره مدة طويلة ؛ فإذا هو لا يكرر مواويله أبداً ، بل يخرج من موال إلى موال ؛ فلا بد إذن أن فجله وجرجيره هما رمزان لأشياء كثيرة جميلة فى نفسه . فلما شعر بأننى أستمع إليه باستمتاع فى وقفتى ، توهج حتى أمتعنى بحق ؛ فهزنت له رأسى إعجاباً ثم انصرفت ..

بعدها بأيام كنت أمشى هائماً على وجهى فى شارع الخوالقة قبل غروب الشمس بقليل ؛ فإذا بدراجة تتوقف أمامى ، وولد وسيم حلو التقاطيع خشن الملامح يقرب وجهه من وجهى فاشخاً حنكه الواسع صائحاً بود وحرارة : " إزيك " . تذكرته فى الحال : " أهلاً أهلاً إزيك انت وازى فجلك وجرجيرك ! " قال بمكر عجيب : " مالك ! حاجة ضاعت منك ؟ " . ثم قال مشيراً برأسه إلى المقعد الخلفى للدراجة : " إركب ورائى ! " . تصنعت الدهشة لإزالة الفوارق هكذا ببساطة : " لم ؟ وكيف ؟ " . تجاهل جفائى : " أعزمك على واحد شاي فى قهوة الفرانين ! هنا قريبة ! أنت تحب المواويل طبعاً ! تعال أسمعك حتى تشبع " . ركبت ورائه . صرنا فى دمنهور القديمة بجوار محطة السكك الحديدية ، حيث تبدو القضبان فى السفح العميق ، وحيث - كما قال لنا مدرس التاريخ - يقوم هذا الشارع المرتفع فوق هديم المدينة الفرعونية القديمة ، التى كانت تسمى " دمن حور " ، أى مدينة الإله حور ، ابن إيزيس وأوزوريس الذى كان من المفروض أن يثار لأبيه من

عمه " ست " إله الشر ، لكنه لأمر ما - إن لم تخنى الذاكرة - لم يستطع ، أو لعله لم يفلح . لقد نسيت التاريخ بل نسيت كل الدروس منذ ألقى بي فى نهر الشارع دون زورق أو مجداف .

تباعدت المدينة الحديثة خلف ظهرنا . مررنا ببقايا هديم عتيق ، وجدران سائبة من الحجارة كجدران الهرم ، وجدران أخرى بأسقف جملون ، تمتد على مساحات كبيرة فلا بد أنها مصانع أو محالج قطن أو فابريقات . حدثتني نفسى بأن أحيى إلى هنا صباح الغد لأسأل فيها عن عمل بالشهادة الإبتدائية . عند حارة نابتة من الفراغ المحيط توقفت الدراجة فأسندها محروس قائلاً :

- " دقيقة واحدة أرجع العجلة للعجلاتى ! "

وقفت فى انتظاره دقائق معدودة . سحبنى من ذراعى نحو عشة بديعة التكوين جدرانها من الخشب والصفيح ، تبينت أنها مقهى وغرزة لشرب الحشيش ، وإذا بمحروس معروف فيها جيداً حتى لقد جاء الشاى فى براد نظيف دون طلب . ثم قام محروس فاختمنى للدقائق ثم عاد مبتسماً ، وفى أعقابه جاء رجل يحمل الجوزة . كانت هذه أول مرة أشرب فيها الحشيش ؛ وكنت جائعاً حتى العياء ، فدخنت بعد بضعة أنفاس وشعرت بالغثيان . مع ذلك استمتعت جيداً بالمواويل التى راح محروس يغنيها بتدفق هائل كأنه مخزن لا ينتهى . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين فاجأنى محروس بمفاجأة أذهلتنى جعلت الأرض تدور بى ، إذ قال فجأة :

- " على فكرة ! أنا مرة شفتك نائماً فى عز الليل تحت شجرة ! ومرة ثانية شفتك نائماً على رصيف قهوة فى شبرا دمنهور ! فأين تنام الليلة ياترى !؟ " .
لم أرد ، ظللت متحجر العينين متصلب اللسان لا أجد ما أرد به . أخيراً

وجدتني أقول :

- " أنام فى لوكاندة بعشرة قروش ! "

- " فى الشهر ؟ ! "

- " فى الليلة ! "

- " أنت إذن غنى ! موظف ؟ من الأعيان ؟ ! "

ضحكت . قال :

- " تعالى ثم معنا بقرش واحد فى الليلة ! "

- " أين ؟ ! "

هكذا صحت بفرح شديد . قال :

- فى وكالة عطية ! يمكن أن تدفع قرشين لتنام فى حجرة ! أو تدفع قرشاً فتنام

فى الحوش ! كلها نومة سواد الليل والسلام ! والدار أمان ! "

- " وأين وكالة عطية هذه ؟ ! "

- " قم بنا ! "

فقمتم فى الحال دون تردد ..

عواميد الكهرباء ممتدة إلى مسافات بعيدة على أرض مرصوفة ينعكس فيها خيال اللمبات المضاءة . على يميننا المزارع كبحر من الخضرة الرمادية لا حدود له . وعلى يسارنا بعض بنايات عتيقة كأنها مجرد طوب أحمر مرصوص فوق بعضه وملتحم بدفء الأخوة وطول العشرة ومقاومة الزمن ، وقد أربد لون الطوب وعلاه بعض الشيب وتسلقته الشيوخوخة المقيمة . من الواضح أنها يباب تصفر فيه الريح . بعد مسيرة حوالى ربع ساعة اختفت المزارع وحل محلها جبل مرتفع ومنطرح على مساحة كبيرة على مرمى البصر . بدأت تظهر فى سفحه بعض أبنيات صغيرة تطول قامتها كلما اقتربنا منها . إذا بنا فى قلب مدينة صغيرة محندقة وذات طابع ريفى . سرعان ما فطنت إلى أن الطريق إليها يمكن أن يكون قصيراً بل قصيراً جداً إذا جئتها من ناحية حى صلاح الدين الذى يربط بين أقصى المدينة ووسطها بتخريمات كثيرة عبر حوارى عمودية ضيقة ، مما يشير إلى أن دمنهور أقيمت أكثر من مرة على امتداد التاريخ ، أو لعلها مجموعة ضواح صغيرة تزايدت مع الزمن وتمددت حتى تعاشرت فى بعضها بشكل سحرى عجيب ..

ساحة مربعة كالميدان الفسيح تحيط بها المباني من جميع النواحي . فى المواجهة مبنى عتيق جداً ، المهابة القديمة تطرح عليه ثوباً من الهوان كعزير قوم ذل . جدران من الحجارة المربعة ونوافذ مستطيلة ذات مشربيات خشبية تراكم فوقها الصدا والظلام ، وحجارة الجدران تبدو بفعل الرطوبة كقطع من الهريسة ستفتت بمجرد الإمساك بها . لها بوابة كبيرة بصدغين دائريين كالبرج ؛ نفس الطراز المعمارى

الذى رأيت كثيراً فى كتب التاريخ لوكالة الغورى والمساجد القديمة والمعابد
الفرعونية ..

- " دى ، هى وكالة عطية " . هكذا قال محروس وهو ينفذ من ذراعى نحو
فتحة البوابة . فى الحال تذكرت تراثاً كثيفاً من الصور والذكريات يتناقله الناس فى
قرانا المتاخمة لمدينة دمنهور عن وكالة عطية . إنها فى الواقع ذات شهرة تفوق شهرة
أى معلم من معالم دمنهور بالنسبة لنا نحن الريفيين على وجه خاص . بل إن وكالة
عطية فى أذهان بعض أهل القرى تعنى مدينة دمنهور وإن كانت دمنهور لا تعنى
وكالة عطية . على أنها شهرة مقرونة بالتدنى وسوء المصير والغمز الخبيث . فأى
قتال قُتلى يهرب بعد عملته يتجه البحث عنه فوراً إلى وكالة عطية ؛ وأى فتاة
فلاحة سقطت فحدث لها أمر الله وهربت قبل ذبحها بسكين أهلها أو بالسنة أهل
البلد تلجأ الجواسيس فى الحال إلى وكالة عطية فلربما تكون البنت قد وقعت فى يد
محتال من الولدان الأشقياء المستوطنين فى وكالة عطية . وفى المقابل فإن الوكالة
محوطة فى الأذهان بجو من السحر والفرفشة وليالى الأانس ، إذ يشاع أن معظم
الغوازي والغوانى والآلية وعوالم الفرحة هم من خريجي وكالة عطية فى الزمن
القديم . هذا ما كنت أسمعه وأعيه حتى قبل أن أصبح تلميذاً فى مدرسة من
مدارس مدينة دمنهور . وحين أخبرنى محروس أننا يمكن أن نبني فى وكالة عطية
نظير قرش واحد لم أكن لأتصور مطلقاً أنه يعنى تلك الوكالة الشهيرة ، ربما لأنها
كانت ذات وجود أسطورى فى داخلى يحول بينى وبين الارتباط بها أو الإقتراب
من شفير هاويتها ؛ فإذا بى فجأة مساقاً إليها بإرادتى كأننى أسعى لشيء جديد لم
أكن أعرف عنه من قبل شيئاً ، أى شىء ، فما أن رأيتها الآن رأى العين استوعبتنى
فى الحال كواقع قائم بذاته مثير للإنتباه . إستيقظت الأسطورة القديمة لتلتحم
بالواقع . خيل لى ان الوكالة على وضعها هذا أقل بكثير جداً من صورتها فى
الأسطورة ؛ أقل سحراً ربما ؛ لكننى مع ذلك شعرت برغبة عظيمة فى الإنغماس فيها
حتى النخاع . إن الأسطورة التى كان من المفترض أنها تمنعنى عن الوكالة
وتكرهنى فيها ، هى نفسها التى تكرهنى عليها ، تغرينى بالدخول فيها ، بل إنها
لتزرعنى فيها زرعاً ، بكل ما فى السحر من قوة ، وبكل ما فى نفسى من استجابة

ورغبة في الرؤية والكشف والممارسة ..

كانت البوابة مغلقة بباب خيل لى أن عشرة رجال على الأقل يلزمون لدفع هذا الباب حتى يفتح . رفع محروس مطرقة نحاسية كبيرة معلقة فى الباب ، وطرق بها عدة طرقات خفيفة . ثم أشار برأسه نحو مبنى مجاور على مبعده كبيرة يشبه مبنى الوكالة فى طرازه لكنه أجدد قليلا وأطول قامة وأكبر مساحة ، حافل بالشبابيك ونوع من الشرفات المستطيلة ، والبوابات، وعلى كل شبك وبوابة ثبت تمثال صخرى لرأس حصان شامخ . قال محروس :

- " الإسطلب الملكى ! هو الآن سوق للمواشى يقام كل يوم ثلاثاء ! تمتلئ هذه الرحبة بخلق الله من جميع الأصناف ! وهو اليوم الوحيد الذى أبيع فيه حزم البرسيم والحشيش الأخضر مع الفجل والبصل الأخضر والكرات ! يجبرنى الله فأتعشى على التمام "

ثم أشار إلى مبنى بعيد من ثلاث طوابق يشبه طراز الوكالة أيضا لكنه أحدث، تحته مقهى صغير كالبوفيه يسهر حتى الصباح ؛ وهمس بصوت راعش متهدج :

- " أما هذه فإنها - عدم المواخذة - الكرخانة ! تصور أن هذه كانت استراحة الملك ؟ هل تصدق ؟ صاحب الوكالة العجوز يصحو على تلك الأيام حيث كان للملك فؤاد أملاك هنا ! هى أملاك نسيبه شقيق زوجته التى اسمها شكار هانم ! هل الملك فؤاد كان له زوجة اسمها شكار هانم ؟ ألم يقولوا لكم هذا فى المدرسة ؟ يا أخى إن الرجل العجوز يقول أشياء غريبة ويحلف بالطلاق أنه شاهدها بنفسه !! آه ! تذكرت ! شقيق زوجة الملك فؤاد هذا كان اسمه : محى الدين شرف الدين سيف الدين حاجة كهذه ! سأجره فى الكلام أمامك مرة ليحكى ! يقول إن نسيبه هذا ضربه بالرصاص فى رقبتة فخرمها فلحق به الحكماء وسدوا الحرم بجلبة من الفضة كانت تصفر إذا ضحك أو زعق ! والملك فؤاد أمر بتسفير نسيبه إلى مستشفى الجانين فى بلاد بره !

معقول هذا ! لماذا لم يقتله ؟ ! المهم أنه استولى على أملاكه هنا ولعب القمار بنصف ثمنها وترك هذه الدار المحترمة لجارية كانت عنده ! وأخيراً جاء ابنه الملك فاروق وصرف ثمن بقية الضيعة على النسوان ! صدق ! إذا كان يغلي فى الحلة مائة

زوج من الحمام الزغاليل حتى تصير مرقاً فيشره قبل الأكل ثم يقوم فيرقع الواحد !
فمن أين يجيء بأبراج تكفيه ؟ رزق الهبل على المجانين ! الدار الآن أصبحت كرخانة
بها رخصة من الحكومة !! يوم السوق تزدهم هي الأخرى والواحد بعشرين قرشاً !
وفى الأيام العادية بعشرة ! فيها نسوان مثل القشطة والمهلبية لكن القروش هي
الأخرى فى حنك سبع ! "

طرق على الباب ثانية طرقة أشد قليلاً . لدهشتى إنزاح الباب كورقة فى مهب
الريح . أطل من خلف الدرفة المغلقة ضوء كاب منبعث من فانوس . ثمة يد كبيرة
بأصابع كالثعابين تمتد لترفع شريط لمبة الفانوس . عمّ الضوء برحاية مدخل البوابة ،
فإذا برجل يتمدد على مصطبة مبنية بالأسمنت لصق الحائط ، لا يقل طولها عن ثلاثة
أمتار ، يفترش ويتغطى بمجموعة من الأجرولة المرقعة ببقايا بطاطين الجيش . شكله
يقطع بأن جسده لم يعرف الماء طول حياته وأنها قد لا تصله فى طعام أو شراب
حتى أن الحشف والقشف جعلاه يبدو كجذع شجرة جزورين جافة أحرقتها شمس
لاهبة . أصابع يديه وقدميه طويلة الأظافر كالمخالب المخيفة ، وجهه مثل قدر
فخارى أسود ، بلحية منتصبة الشعر كالأسلاك الشائكة . تطل منه عينان كعيني
الجمال العجوز ، يتطاير منهما الشرر الأحمر ، وفم واسع كفتحة المرحاض خال من
الأسنان ، وأنف مثل كوز الذرة المشوى ..

قال محروس :

- " مساء الخير يا عم شوادفى ! "

طلع علينا صوت كهزيم الرعد ، ناشف هو الآخر :

- " أهلاً محاريسة ! من معك ؟ ! "

قال مشيراً إلى شخصى :

- " واحد قريبي ! ابن ناس طبيين ومعه الشهادة الإبتدائية ! يبيت معنا الليلة

كلشنىكان ! يفكر أن يقعد هنا على طول ! هو وظروفه ! "

قال هزيم الرعد كأنه لم يسمع حرفاً واحداً مما قيل :

- " بره ولا جوه ؟ ! "

قال محروس وهو يناوله قرشين :

- " الليلة برة ! وغداً يحلها ربنا ! "

غاب القرشان تحت مخدة صلبة لونها لون الأرض . وقال هزيم الرعد فيما يدفع الباب بشومة فيغلقه : " أنت تعرف السكة ! " . فدخلنا إلى فناء الوكالة ..
الفناء واسع جداً ، وبلا سقف ، منه للسماء مباشرة ، دائري ، تكومت على أرضه مئات الأجساد كجثث خلفتها حرب ضروس منذ قرون طويلة فتخشبت في أماكنها وأخذت لون الأرض ، مرتصة كيفما اتفق ، رأس الواحد فوق قدمي الآخر ، وأقدام غيره فوق رقاب وبطون البعض . آخرون متلاحمون كأنهم جسد واحد . ومع أن الفناء واسع فإن الجميع يتركون الساحة الوسطى ويتكلمون أمام البواكي يتحاضنون ..

الوكالة مكونة من طابقين اثنين رغم علو جدرانها ، حجرات صغيرة متلاصقة متداخلة ؛ كل حجرة يلتصق بها سلم حلزوني من الخارج متاكل الدرج يوصل إلى الحجرة العلوية . أمام كل حجرة مساحة يزيد عرضها عن المترين مسقوفة بالخشب الجملون فوق عمدان خشبية تأخذ شكل البواكي . معظم الحجرات مفتوحة في الطابقين ، يطل من بعضها ضوء خافت ، مع أصوات خافتة بلغط كالعراك ، كالمودة ، كالمزاح ، كالمناهدة ، كالمواقعة الجنسية ، كل ذلك يطن في الفناء الواسع . روائح تجثم على الأنف دفعة واحدة : عطانة ، عرق ، كحول محترق ، دخان حمص ، سردين وربيحة ، روث ، صنان ، لكن الهواء من حين لآخر يحمل لفحة عطر عابرة تلمس الأنف بزخم ثقيل كريحه . شعرت بالكآبة والقرف والهوان ؛ أكاد أتقياً أمعائى ؛ أيقنت أنني وقعت في الخيبة وسأكون الليلة صيداً سهلاً لكل هؤلاء المتشردين والصبياع واللصوص والشحاذين . يبدو أن محروس شعر برعشتى وجفاف حلقى ، فأشار إلى أكوام الجثث كأنما ليطمئننى :

- " إياك تتصور أنهم جميعاً رجال ! إن فيهم نساء كثيرات من اللائى يقابلنك فى الشارع ومعهن أطفال يطلبن منك المساعدة لله !! الأطفال لا يبيتون هنا ! بهذا يأمر عم شوادفى ! متعهد الأطفال هو الذى يبيت هنا فى حجرة من هذه الحجرات ! وهن يتسلمن منه الأطفال صباح كل يوم ! يحاسبه آخر النهار فتأخذ كل واحدة عمولتها وينهب الأطفال إلى مكان لا يعرفه غير المتعهد ! فى الصباح

يجيئون من تلقاء أنفسهم ليفطرون كل واحد شقة خبز فيها فلافل ! عمك شوادفى رجل يعجبك ! يحكم هذه الوكالة بالحديد والنار ! لا أحد يقدر يفتح فمه ! ما يريد يكره ! لولاها لباطت الدنيا هنا ولأغلقها البوليس بالشمع الأحمر ! لو ضاع منك مليم واحد هنا فسيفتش الجميع فى كل مكان ولا بد من كل بد يأتى بالسريقة، لكن عيبه أنه يأخذ نصفها كحلوان ! "

- " تقول إنها وكالة عطية ! فما شوادفى هذا ؟ ! "

- " شوادفى إستأجرها من عطية من حوالى عشر سنوات ! ولم يقدر على طرده منها حتى خسر الجلد والسقط ! فسقط مريضاً ! والمائة وستين قرشاً إيجار الوكالة فى الشهر لا تكفى دواء يومين ! وعطية لا يقدر على بيعها لأنه هو الآخر يستأجرها من الوقف من أيام زمان ! سوف أريه لك ! إنه كثيراً ما يجيء يتوكأ على العصا ليشرى الشاي مع عم شوادفى ! "

إختار محروس مكاناً فى الوسط وتوجه نحوه وأنا من ورائه أقدم رجلاً وأوخر الأخرى ، أخوض فى صرر وأجولة وقف وأقفص وعكاكيز وبراميل سوداء تبرق فيها عيون ولها أيد تلف السجائر . بقدمه دفع محروس جسداً منطرحاً ممدد الأطراف عن آخرها قائلاً بلغة فيها من العشم أكثر مما فيها من الخشونة : " إنزاح يا ابن القحبة ! " ، فاعتدل الشاب فى الحال دون أن ينطق ، فصارت المساحة تكفيننا وتفيض . خلع محروس جلبابه وصديريه . كوّم الجلباب وقدمه لى قائلاً : على ظهري ، وبدأت عيني تعتاد الظلمة المبرقشة ببطش من الأصفر الشاحب حدقت طويلاً فى السماء ؛ ثم بدأت تتراءى لى حجرات الوكالة من حوالى فى لون رمادى ، وفجأة طلع القمر . بدا أن محروس استغرق فى النوم وراح أنفه يعزف شخيراً خافتاً لكنه قلب مقرباً رأسه منى هامساً :

- ستحبها ! لو كنت جدعاً بصحيح إحجز لنفسك حجرة بثلاثين قرشاً تدفعها أول الشهر ويبقى عليك ثلاثين قرشاً ، كل ليلة تدفع قرشاً عند دخولك من البوابة ! تأخذ مفتاحاً يساوى الدنيا كلها تضعه فى جيبيك وتغلق الحجرة على ثيابك وفلوسك ! ستون قرشاً فى الشهر وتأخذ مفتاحاً يا بلاش ، الودّ وددى أن أفعل لكن الحشيش لا يوفر معى ثلاثين قرشاً أبداً ، إنه مزاجى وموالى ولا أقدر على

الاستغناء عنه ، لا أرى النوم إن لم أضرب الحجرين آخر الليل كما رأيت ! واليوم الذي أوفر فيه عشرة قروش بعد حشيشي أقطع بها تذكرة لبلدتنا الطود لأرى أمي وأرجع ! والفجل لا يباع في بلدتنا وليس فيها حشيش فلماذا أقعد بجوار أمي ؟ ثم قطع الكلام فجأة ورفع شخيره . بدأت الأصوات تتضح ، وكل شيء بدأ وفي أكثر من حجرة ناس يلعبون القمار وطرقعات الورق عالية . وفي أكثر من حجرة ناس يسكرون ويتعابون فيما يشبه العراك ، وفي أكثر من حجرة نساء تعلن عن لذتها بشكل واضح ومثير ، دونما حرج أو حياء . الأصوات مكتومة تحت ستار من الصمت الكاذب ، حتى خيل لي أنني أتوهم ، خاصة أنني ألاحظ على نفسي في عنفوان التعب أنني كلما لامست ظهري صفحة الأرض تدب اللذة الجنسية في أوصالي ؛ لولا أن صرخات ماجنة مقطوعة كانت تندلع من حين لآخر من حجرة لأخرى ، يعقبها سكون تام لبرهة

انطفأت كل الذبالات في كل الحجرات واحدة وراء الأخرى ، حدثت كركبة استمرت بضع دقائق تعكس وقع أقدام تنزل من السلم وتمضي هنا وهناك ؛ أعقبتهما حركة فتح أبواب وإغلاقها وصوت طقطقة عظام هشّة ثم مالبت السكون حتى عاد مرة أخرى مصحوباً بملاءة رمادية اللون منسوجة من خيوط القمر البارز كأصبع الموز في طبق من الفضة . كان كل شيء يغرى بالإنصات والتأمل والإستغراق ، لكنني كمن عثر فجأة على لقية ثمينة في الطريق العام فأخفاها موجلا فحصها حتى يحين وقت فحصها بمزاج وفي نفس الوقت إمداد لخيط الأمل الخفى ودرء للتشاؤم والخوف من محتوياتها . رأيتني أستسلم لنوم عميق لم أعهده في حياتي من قبل حتى على الفراش الوثير . ثم رأيتني أمشي متمسكاً بمزاج رائق وبلا أدنى خوف داخل غابة كثيفة الأشجار لأول لها ولا آخر ، مجرد كتل من السحب المتراكمة ، أغوص فيها فإذا هي مورقة مفرعة تتسرب من خلالها خيوط ضوء رمادي باهت ؛ وكانت الذئب والثعالب والكلاب والسباع والنمور نائمة تحت جذوع الأشجار تتشاءب في ملل غير عابئة بخطواتي النشوانة الحمقاء ، التي كثيراً ما لمست بعض أقدامها وفرائها ودست في بطونها ؛ فلا يصدر عنها أكثر من زارة أو هبة على سبيل المزاح ترتفع لها فروة رأس قليلا ؛ وكان يبدو أنني أعرف كل هذه الوحوش معرفة

شخصية وأنها هي الأخرى تعرفنى حق المعرفة وأن بيننا ودأ قديماً لعله رابطة البحث عن لقمة فى النهار ومأوى فى آخر الليل ؛ بل خيل لى أن بعضها يكاد يعزم على بنظرة جانبية ، يكاد يترك العظمة التى ينهمك فى نهشها ليقول لى : تفضل والحس لك لحستين ؛ وكنت أكاد أفعل ، لأن رائحة مرق المواسير والكوارع العجالى الساخنة كانت تسكر أنفى قادمة من مكان ما ، محملة برائحة التقلية التى أسمعها تطشطش . ظللت أنفذ من سحب مضيئة رطبة إلى سحب مظلمة أكثر رطوبة حتى امتد الخلاء أمامى فجأة عارياً من كل شئ ، والشمس كانت تميل برأسها الذبيح على كتف السحاب تنضح فوقه دماً قانياً ، فصرت أشعر بحرارة الجو شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت أتفصد عرقاً ، والثياب تلتصق بجسدى ، وثمة حركات عابثة لعلها أظلاف بعض حيوانات الغابة مشيت خلفى وصارت تخمش ظهرى وتتقافز على وجهى ، ولامس التراب شفتى فحاولت النهوض ، ففتحت عينى ... فإذا بى نائم وحدى فى قلب الفناء ، ويد شوادفى الغليظة الخشنة تدفعنى بقوة تهزنى لكى أصحو. فلما تخلصت جفونى بصعوبة من العماص المتكلس بينها رأيت وجهه الشبيه بوجه حيوان خرافى يتسم ويقول فى نبرة تشبه الود :

- " يا هـ لم تنم منذ سنين ؟ لما كل هذا النوم يا ابن الحلال ؟ أليس وراءك عمل ؟ " انتفضت قاعداً ، دعكت عينى. أشار بذراعه الشبيه بفرع شجرة جزورين نحو بقعة رطبية فى آخر الفناء قرب البوابة. قال :

- " قم طس وجهك بخفانين من المياه ا " ...

تمعت حيث أشار ، فتبينت طللمبة مياه بحوض صغير من الأسمنت ، نفضت نفسى واقفاً ، مشيت نحو الطلمبة مترشعاً. أمسكت بيد الطلمبة ، حركتها إلى أعلى ثم إلى أسفل عدة مرات وفم الطلمبة يصدر فحيحاً وخرخشة هواء . تذكرت أننى يجب أن أضع فى فمها قليلاً من ماء الحوض لكى يستدر المياه من جوف الأرض تركت يد الطلمبة وكورت حفتى واغترفت بها الماء من الحوض ، فإذا هو رطب مريح مغر ، فضربت وجهى ويدي بخفنتين ثم جففتها بمنديل شبيه بالأرض يتكور دائماً فى جيب سروالى الجانبى ، وكانت رائحة العرق فيه أشد استنفار من رائحة عطن المياه. تاهبت للخروج من الوكالة.

البوابة

حدوت جانباً لأعبر البوابة ، رأيت شوادفي متربعا على المصطبة وأمامه منقذ النار مشتعلا بالقوايح وفوقها كوز من الصفيح اسود له يد من السلك مبرومة حوله بإحكام . أمسكها شوادفي وجعل يهز الكوز برفق ورائحة الشاي النفاذة تصعد إلى خياشيمي...

- " أفوتك بعافية يا عم شوادفي "

- " إقعد اشرب لك شفقة شاي ! "

- " تشكر ! كتر خيرك ! "

- " إقعد قلت لك ! "

قالها في حسم وبساطة وأريحية ، وأشار إلى طرف المصطبة ، فجلست أراقب الضحى العالى ينحبس في قلب الفناء الكبير ويحتجزه عن الصباح المبكر الذى انضغط في فتحة البوابة الرطبة ، التى كانت مفتوحة على الخلاء الرمادى. وفجأة دهمتنى رائحة المرق الساخن والكوارع والليمون البنزهير. تلمظ شوادفي قائلاً :

- " المرأة القرداتية هذى تطبخ كوارع من صبحية ربنا لما نشف ريقى ! ما أعرف ما الذى تضيفه إلى الشورية لتصير مسكرة الرائحة هكذا ! إن لم ترسل لى طبقاً على الغداء سأؤكد عليها عيشتها طوال الليل ! " ...

ثم فشخ حنكه الواسع بابتسامة عريضة ، وراح يصب الشاي فى الكوب فوق السكر ثم يعود فيدلّقه فى الكوز ليصب من جديد فى الكوب الصغير الصاج ذى الأذن .. شاي أسود محمر القلب. وضع أمامى الكوبة : " إشرّب وهو ساخن ! ". باستمتاع شديد شفطت أول شفقة. لم أصبر على الشوق ، تابعت الشفط بصوت عال حتى أتيت على الكوبة وأعدتها إليه لكى يملاًها لنفسه. شفط شفقة سطحية ثم وضع الكوبة وسحب كيساً كالحا أخرج منه دفتر البافرة فنفخ فيه فارتفع طرف ورقة فأمسك به ونزع الورقة ووضع فوقها قدراً من التبغ تبينت أنه أعقاب مفروطة. لف السيجارة ثم وضعها بين شفثيه ومال برأسه فوق المنقذ تاركاً إياها تلامس

القوالب المشتعلة وهو يجذب الأنفاس باستمتاع هائل ، ورائحة التبغ الحمص يعثرها
الدخان حول أنفى. شفت شفطة أخرى أتبعها بنفس أعمق ثم قال:

- " اعمل حسابك الليلة ؟ ! "

- " إن شاء الله ! "

- " فى الحوش أم فى حجرة ؟ ! .. "

- " أنا وظروفي ! ربنا يسهل ! .. "

- " تدفع عربونا ؟ ! .. "

- " سادفع حين أجي ! .. "

- " تعال سواء كان معك أو ليس معك نقود ! "

- " يساويها ربنا ! "

- " تقول إنك من حملة الشهادة الابتدائية ؟ ! "

- " وكنت على وشك أن أخرج معلما لولا أننى فصلت من المعهد لكثرة

الغياب ! "

سدد إلى عيني نظرة مخيفة من عينين واسعتين محمرتين بلا رموش ولا بياض :

- " لا بد أنك ولد بايظ ! وذيلك نجس ! أهلك يجرمون أنفسهم من الفاكهة

والأكلة الحلوة ليصرفوا عليك فى مدارس البندر وأنت تتصرمح هنا ؟ ! لك عين

تقول : لكثرة الغياب ؟ ! لماذا الغياب بحق الشيطان ؟ ! أين تذهب ؟ ! .. "

ندمت على قولى ، خاصة أنه فعص رأس الدمى بقوله إن أهلى يجرمون أنفسهم

من أجلى وهذا حقيقى إلى حد كبير جدا . لقد تكلم بلسان أبى حرفيا. رحى

أبحث عن ذريعة أخرى ؛ لكنه عاجلنى :

- " أنت الآن صايح رسمى ! عدم المزاخذة ! فما الذى تفعله الآن ؟ ! كيف

تعيش ؟ ! هل تستغل ؟ ! "

- " أبحث عن عمل ! "

- " تبحث ؟ ! "

ثم قدم لى قدحا آخر من شاي الدور الثانى الخفيف :

- " هذا أكبر دليل على بوظانك من غير مواخذة ! إن أحدا لا يبحث عن العمل ! إنه يجده ! يخلقه من الهواء الطائر ! العمل فى كل مكان على قفا من يشيل لكن مثلك لا يراه لأنك بسلامتك تبحث . يا رجل أذهب إلى محلج بركات أو محلج داوود أو محلج القفاص فى دمنهور محالج قطن كثيرة لا يكفيها آلاف من أمثالك إذهب إلى فرن إلى مقهى إلى فابريقة إلى محل تجارى لإشتغل بائعاً سرينجاً أم أنك تريد مكتبا وجرنانا وفنجان قهوة وسيجارة ؟ إن عدوك أهبل الحكومة أفسدتكم وملاؤكم بالنعرة الكذابة تربي لنا أفندية بجرائد وفناجين قهوة يعيشون على قفا الشعب المسكين ، عندى هنا فى هذه الوكالة جدعان يجلبون النقود من الهواء الطائر يلعبون بالذهب لا شهادة ولا دياولو ، الحياة لا ينفع فيها غير الولد المفتوح أبو مخ منير ! إسمع يا أخانا مادمت تركت المدارس فانس المدارس وأمورها وخبش فى الجدد ، تشرب دخانا ؟ طبعا إن ذلك واضح على شفطيك وبين أصبعيك خذ لك نفسين من هذه "

سحبت نفسا فكأنه سن المحرث يخرق صدرى . زكمت أنفى رائحة " السبارس " العطنة ، فصرت أكح بشدة ، لكننى سحبت نفساً آخر ، أعدت اللفافة إليه واقفاً :

- " عندى موعد مع شخص من أهل الخير سيجد لى شغلاً "

- " إقعد خمس دقائق أخرى فرما احتجناك "

وقدم لى قدحاً من شاي الدور الثالث الأخف والأحلى . ماكدت أنهى آخر شفقة فيه حتى دخل علينا اثنان : رجل وامرأة . أما الرجل فطويل كعمود نور برأس كراس المهدد وجهه ممسوح برى كوجه العصفور ، أهتم ، أبيض البشرة كخواجة أحنى عليه الدهر فمرغه فى التراب والوحل ، يلبس جلباباً يمتلى بالرقع من كل ناحية تبدو كجيوب سحرية . وأما المرأة فسمينة إلى حد ما ، ربة القامة ، مبطرحة من كل ناحية ، بصدر بارز مترهل كأنه يضم مع الثديين طفلين صغيرين رأسها مستطيل مبروم كنمس البطيخ ، تعصب رأسها بتريعة كالحة مبقعة بالزيت والوسخ ؛ من تحتها شعر اسود خشن مضافور ، منتفخة العينين ضيقتهما كأن جفونها مشغولة بإبرة التزى بعد أن طواهما إلى الداخل طوية عريضة كطوية رجل

السروال ، فبدت كأنها تتلقى الضرب المبرح على عينيها باستمرار. متهدلة الخدين ، تبدو بالقياس إلى الرجل في عمر أمه وإن كانت لا تزيد على الخمسين من العمر في حين لا يبلغها هو . كانا يتسمان في كثير من الغبطة والخجل وكثير من السذاجة .
هتف شوادفي بوجه باش :

- " أهلاً بالعريس ! وأهلين بالعروس ! جئتما في وقتكما ! هيه ! جبرتما بإذن الله !؟ "

أقعى الرجل أماننا على الأرض:

- " الحمد لله على كل حال ! "

وتدحرجت المرأة نحوى وانحطت بجوارى على المصطبة وهى تلهث . وضعت يديها على ركبتيها ناظرة لى فى تفحص من بين عينيها الضيقتين المزورتين :
- " إزيك يا جدع ! باين عليك ابن حلال ! "

صاح فيها شوادفي :

- " خلينا هنا ! تكلمى فى المهم ! بينك وبينه معرفة !؟ "

تبسمت المرأة فى شئ كالحياء المصطنع . دبت يدها فى سيالتها ثم أخرجتها قابضة على حفنة نقود. صارت تعد الشلنات والبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية المضلعة والقروش الفضية المحرومة والبرونزية الحمراء المشرشرة وعشرينات الخردة والملاليم الحمراء. عدت حوالى ستين قرشاً قدمتها لشوادفي ، الذى كان يتابعها فى العد باهتمام. قبض شوادفي على النقود ودسها فى جيبه قائلاً:

- " هذا هو إيجار الحجرة ! المهم عندى هو الأجر الذى اتفقنا عليه أين هو !؟ السكن عندى لن يتم لكما إلا على سنة الله ورسوله ! ... "

نظرت المرأة إليه بطرف عينيها كما لو كانت تريد أن تثبت لى وله أنها خبيرة بأمور الغزل والدلع والإغراء النسائى. والحق لقد ظهر فى هذه النظرة كثير من العهز الذى تتمتع به . ثم لعبت حاجبيها فى سرعة عجيبة ، وأبرزت طرف لسانها فمررتة على شفثيها بجرعة ذات معنى. فغرز شوادفي نظرة مدببة فى عينيها كأنه يفرز سلاحه فى بطنها وقال من أنفه :

- " تحشمى يا امرأة ! أنا خلاص ! لم يعد فى ركبى حيل ! خلصتنى العاهرات من أمثالك ! من زمان ! الدور والباقي على الشباب ! "

- " وحق دى الليلة ومساها ما معنا ! هذا كل ما أكرمنا به الله طوال الجمعة الفائتة بعد تعبنا وشقانا ! اعتقنا لله من خمسة قروش ينوبك ثواب ! من أجل خاطر هذا الضيف الكريم ! "

- " لا شأن لك بالضيف ! "

ثم قبض على القروش فصار يقلب فيها ، فانتخب نصف مليم أعطاه للرجل الأهم :

- " إشتري لنا فرخ ورق ! عريضة مسطرة ! من أى دكان ! "

نهض الرجل متناولاً نصف المليم ومضى ، وحس شوادفى القروش فى جيبه ، وبحث عن كيسه التبغ حتى وجدها تحت وركه ، فتحها ولف سيجارة رماها بجواره ، ولف غيرها وقدمها لى : " عفرا ! " ، ثم لف ثلاثة لنفسه أشعلها من بقايا الجمر ثم أشعل لى . جاء الرجل بالعريضة المسطرة فناولها لشوادفى فناوله السيجارة :

- " نريد أن نزوج هذه المرأة لهذا الرجل !! "

لم أفهم ؛ صرت أنقل البصر بينهم فى حيرة :

- " ماذا قلت ؟! "

شوح كأنه ضاق بغبائى :

- " نريد كتابة عقد زواج ! إيه ؟ الا تفهم ؟! "

- " لكن هذا من عمل المأذون ! هل أنت مأذون شرعى ؟! "

سلقنى بنظرة جافة :

اخترعوه حديثاً كسبوبة !! الزواج الشرعى هو موافقة الطرفين على النكاح !! "

لسعتنى السيجارة فرميتها بغیظ :

- " ولكن هذا عمل غير قانونى ياعم شوادفى ! "

شخر شخرة كبقلة المياه فى القلل :

- " كانون ؟! شى الله يا كانون ! الكانون يطبخوا عليه فى البيت ياأخانا!
أنت تفعل ما أقوله لك على ضمانتى ! سأعطيك أجراً على ذلك هاك قرش صاغ
بجالة نظير كتابتك للعقد!! .."

ورمى فى حجرى بقرش فضى مخروم ، فأزحته بعصبية :

- " لست أفهم فى هذه المسألة يا عم شوادفى فاعفنى منها ! .."

قبض على ذراعى بأصبعين كالكماشة :

- " سأملك ما تكتب ! لاتكن غشيماً وإلا زعلت منك ! أنصحك بعدم

اللماضة معى ! حاول أن تكسبنى لمصلحتك ! هيا ! إكتب ! .."

عدلت الورقة على اللوحة :

- " أكتب ماذا ؟! "

إعتدل فى جلسته رافعاً ركبته اليمنى سانداً فوقها ذراعه ، وراح يمليني :

- " أقر وأعترف أنا عبد الفضيل بيومى الطودى من بلدة الطود بحيرة ومقيم

بو كالة عطية بآخر شبرا دمنهور القديمة وشغلتنى حانوتى أى مغسل الموتى - أننى قد

نكحت أى تزوجت من صبيحة البرشومى حسنين وشغلتنها داية أى مولدة ومقيمة

هى الأخرى بو كالة عطية ايضاً ، نكاحاً على سنة الله ورسوله بالمهر الشرعى

المسمى بيننا ومؤخر صداق قدره خمسة جنيهات أتعهد بدفعه على داير مليم فى

حالة انفصالنا بالمعروف. هل كتبت هذا؟ إذن فمن أول السطر : أقر وأعترف أنا

صبيحة البرشومى حسنين وشغلتنى داية أى مولدة ومقيمة بو كالة عطية بآخر شبرا

دمنهور القديمة قد رضيت بهذا النكاح على سنة الله ورسوله وقبضت المهر المتفق

عليه وأصبحت ملك يمينه يفعل بى ما يشاء فى حدود الشرع ! ويتعهد الطرف

الأول عبد الفضيل أن ينفق على ويقوم بمطالبى من مسكن وملبس ومأكل وخلافه

... خلافه دى حظها بين قوسين عشان معناها الواجبات الزوجية المعروفة - ويتعهد

الطرف الثانى صبيحة البرشومى حسنين بأن تكون زوجة مطيعة ! ويتعهد الطرفان

أن يكونا سمنا على غسل .. هل كتبت هذا ؟ عال عال ! هات أصبعك يارجل

وهات أصبعك يا امرأة .. إكتب فى وسط السطر : المقر بما فيه ، وتحتها عبد

الفضيل بيومى الطودى وقصاده فى آخر السطر صبيحة البرشومى حسنين!"

ثم نزع الورقة من يدي ؛ وأمسك بأصبع الرجل فبلله بريقة وجرى بسن القلم الكوبيا فوقه حتى صبغه ، وضغط به على الورقة ، فترك بصمة واضحة . وهكذا فعل بإصبع المرأة . ثم طلب كتابة صورة من نفس الكلام على الطرف الآخر من العريضة ، ففعلت ، فاجرى عليها نفس البصمات ثم أعاد الورقتين لي :

- " اكتب هنا : تحريراً فى يوم كذا ! " كتبت التاريخ ، فأخذ الورقة والقلم ، وبخط عاجز مرتعش رسم حروف اسمه ؛ ثم قدم لي الورقة ثانية :

- " اكتب نفسك شاهداً على العقد! "

- " لا! إعفنى من هذه أرجوك! "

إندب شعاع عينيه فى عينى بجدة :

- " يا خسارة الرجال ! إن لم توقع فأنت ولد حول ! من غير مواخدة ! ولن أحترمك بعد الآن ! هيا ! كن رجلاً واشهد معى ! أنت لست أجدع منى!! " ..

فأمسكت بالقلم وشخبطت وشخبطت غامضة غير مفهومة . أخذ يتأملها بإمعان :
- " ولا توقيع رئيس المحكمة ! براوه عليك ! والآن ! سأخذ القرش منك عربوناً للمبيت ! أنت بالطبع ستبيت هنا الليلة ! فلك عندى قرش ! إن أردت المبيت فى حجرة فجئى بقرش آخر أو فتنم كالأبس فى نفس المكان ! تستطيع الآن أن تتكل على الله ! ربنا يوقف لك أولاد الحلال فى سكتك ! " ..

وقالت المرأة :

- " رح إلهى ربنا ينور لك سكتك ! "

وقال الرجل :

- " معرفة خير بإذن الله ! "

أما شوادفى فإنه أطبق الورقتين وسلم واحدة لعبد الفضيل وأخرى لصبيحة فرد كل منهما ورقته إليه طالباً أن يحتفظ بها معه حتى لا تتعرض للفقء معهما . ثم قال لهما :

- " حجرتكما هى الحجرة التالية بعد حجرة القرادتى ! إغربا عن وجهى !! أريد أن أسمع غنجك الآن يا امرأة ! وإن خسَّع معك هذا العجوز فنادنى أكن عند حسن ظنك ولو اقتضى الأمر أن أعصر عليك ليمونة !! " ..

شخرت المرأة :

- " فشرت ! والنبى أشرف خلقه الله ما فى أنصف منى فى الدنيا اللى ارتوت
بالنيل ! " ..

وحين خرجت من البوابة إلى الخلاء كان الحر قد اشتد ، وأسفلت الطريق يسخ
اللهب فى قدمى ، فانطلقت فى ضحك أهتز له جسدى كله ، ولكن كلمات
شوادفى الخاصة بالعمل راحت تطن فى دماغى فتبدو منطقية إلى حد كبير .

حارة بنت عمي

شارع السوسى من أهم الشوارع التجارية فى دمنهور ومن أشدها زحاماً وحيوية . أستطيع أن أمشيهِ رائحاً غادياً طول النهار دون أن يلحظنى أحد . هو حميم جداً ، تفتننى زحمته الشديدة وروائح الفاكهة والمأكولات والأقمشة الجديدة، ومناظر الفلاحين المتقمشين القادمين من القرى المجاورة يتسوقون طلباتهم ويحضرون جلسات المحاكم فى قضايا لهم لاتنتهى ويعرضون أنفسهم على أطباء ومستشفيات المدينة ، ويأكلون أم الفلافل التى تعتبر بالنسبة لهم فاكهة يتذوقونها باستمتاع كبير..

علاقتى بهذا الشارع قديمة ، ففى الشارع الخلفى له مباشرة توجد مكتبة الحوفى التى توجر الكتب القديمة للقراءة مقابل خمسة مليمات ، وعلى مبعده خطوات منه - فى الشارع الذى يقطنه محل العاصى المتخصص فى الفول المدمس - تسكن " وديدة " إبنة عمى ، المتزوجة من الحاج " مسعود القبانى " ، الذى يعمل صرافاً فى مبنى المديرية . ربة القامة هو ، ضخمة الجثة ، واسع الفم غليظ الشفتين إلى حد لافت للنظر بصورة تبعث على الضحك والإشمئزاز أحياناً . يرتدى القطنية الشاهى وفوقها الجلباب الصوفى ذو الكم الواسع ، صيفاً وشتاء ، والطربوش الطويل فوق رأسه المكليظ ، يزيحه دائماً إلى الخلف كى تظهر جبهته العريضة المنتفخة . يمشى نافحاً صدره مطوحاً ذراعيه كتجار القطن والباشوات . فإذا استدار ظهرت رقبته الغليظة من الخلف تتمدد فوقها بالعرض كتلة من اللحم الميت على شكل العرسة ؛ قيل إنها مرض جلدى وإنه صرف الكثير من الأموال على الأطباء وعلى الوصفات البلدى فلم يفلح فى إزالتها . إنه من أسرة كبيرة غنية بعض الغنى ؛ لكن مهنة الصرافة كانت فاتحة الثراء الحقيقى بالنسبة له فاشتري فى البلدة أفدنة كثيرة من الأرض الزراعية يفلحها أبناء إخوته الكيثار ؛ واقتنى الكثير من قطعان الماشية والخراف ، ومد المحتاجين بأموال يقبضها بزيادة الربع والنصف أحياناً فى مواسم الحصاد ، واشترى ماكينات للرى تشفط المياه من أماكن شحيحة ، ووابورات للحرث وماكينات للتذرية وللدريس ، وابتنى سراية فى البلد ليقضى فيها

الإجازات؛ واشترى منزلاً في هذا الشارع من قلب عاصمة البحيرة ، مكوناً من خمس طوابق كل طابق عبارة عن شقة واحدة مكونة من ثلاث غرف ؛ أقام فيه وأولاده البالغ عددهم أحد عشر شخصاً : سبع ذكور وأربع إناث : "حواس" الكبير في نهائي كلية الحقوق ؛ و "بديع" في نهائي كلية الهندسة ؛ و "مجيد" في كلية التجارة ، و "كرم" في معهد المعلمين ؛ ويعتبرونه قد باظ وفسد بدخوله معهد المعلمين الذي لا يدخله إلا الرعاع والفقراء الحفاة ، وكثيراً ما يعيرونه بفشله في السلك الجامعي الموصل إلى المحاماة والطب والهندسة والمناصب العالية المرموقة . و "صفوت" في التوجيهية ؛ و "شريف" في الإعدادية و "ميمي" في الابتدائية . أما الإناث فكبيرات مسنات ؛ "تهاني" متزوجة من ابن عمها في البلدة وهو يقارب أبها في السن ؛ و "بدرية" التي قيل إنها ولدت ليلة ظهور البدر ؛ و "يسرية" و "شكرية" ؛ وهن عوانس بلغن سن اليأس ولم يشفع لهن ثراء أبيهن لأنهن يشبهنه تماماً في غلظة الشفتين وتكور الجبهة وانتفاخ الكرش وعدم اتساق الجسد فيما عدا بدرية التي ورثت جسد أمها ووجه أبيها . لكل من هؤلاء وأولئك غرفة خاصة بفرش وثير نظيف . وثمة غرفة للمسافرين ، أي الضيوف ، في أعلى السطح مع عشش الدجاج والبط والإوز ..

كنت أسمع عن ابنة عمي وديدة هذه منذ طفولتي المبكرة حيث لم تكن سيرتها تنقطع من مندرتها العتيقة ذات الدكك الخشبية العارية بعد أن كانت - يقولون - حافلة بأطقم الكراسي المنجدة قبل أن تتدحدر الأحوال بأبي الموظف الحكومي المحال إلى المعاش من سنين طويلة والغشيم في أمور الفلاحة إذ أخذ يبيع أرضه الموروثة قيراطاً وراء الآخر لينفق على أولاده الكثيرين من أربع زيجات . كان أبي يتوهج حينما تجيء سيرة وديدة ابنة عمي ، ويقول وقد أشرق وجهه العجوز الأمل :
 - " إن شاء الله تكمل تعليمك في دمنهور وتسكن عند ابنة عمك بالجحان وتبقى تحت إشرافها وإشراف أولادها !! "

وكان أولادها هؤلاء يزورون مندرتنا في البلدة في بعض الأعياد فإذا هم أفندية وبكوات وهوائم يتأفنون من تراب أرض المنذرة وخشونة دككها ومن شاي أبي الأسود ومن منظر القلل المجير وحوافها المكسورة دائماً . وكنا مع ذلك نحتفي بهم -

وتحتشد مندرتنا بناس يسلمون عليهم ويتفرجون على ملابسهم الأنيقة ويكتمون الضحكات الخجلى لظهور عورات الرجال مجسدة مكورة في حجر السروال كما أن المؤخرات مفلوكة كل فلقة في ناحية ، ناهيك عن المخنقة المتدلية من أعناقهم ؛ أما العطور الفواحة فكانت تملأ حارتنا كلها بالبهجة والفرح. وكانت أمى وكل أقاربي يتمنون أن اصبح مثل حواس ابن بنت عمى أو أى واحد من إخوته. وأنا أيضاً كنت أتمنى ذلك ؛ إلى أن حصلت على الشهادة الإبتدائية من مدرسة البلدة التى كانت تمنح هذه الشهادة لأول مرة فى حياتها ، وتقدم مدرسنا الجليل بأوراقنا إلى معهد المعلمين فى دمنهور ، وتقدمنا للكشف الطبى ، الذى شرط قبولى بعد عمل نظارة طبية ؛ فلما تجمع ثمن المنظار بعد لآى شديد سلمنيه أبى قائلاً :

- " إذهب إلى حواس ابن بنت عمك ! وقل له جدك فلان يسلم عليك ويقول لك انزل معى إلى الطبيب للكشف وإلى محل النظاراتى لعمل النظارة! وإن نقصت الفلوس قليلاً فيدفع ! "

فلبست جلبابى الزفير المقلّم الجديد ، المدخر من العيد الفائت لمثل هذه المناسبة ، والحذاء الأسود والشراب الأبيض ، وسافرت إلى دمنهور بعنوان ابنة عمى. فإذا بى أمام امرأة كدلفين الماء ، برأس صغير جداً ورقبة طويلة جداً ، وجسم مبروم باللحم المكتنز ، تتلوى رقبتها عند الكلام فيتمايل رأسها الصغير كراس الثعبان ؛ ضيقة العينين مليئة الوجه بالتجاعيد ، فى عينيها نظرة تجمدت على شىء من الإشمئزاز والتأفف أو لعله القرف. نظرت لى من فوق لتحت وصارت تلوح بأصبعها فى تنديد وسخرية مريرة:

- " إيه ده !! معندكش جلابية أحسن من دى؟! أو حتى حذاء أنظف من هذه البرطوشة؟! هل ينوى عمى أن يفضحنى هنا وسط الجيران.؟! ماذا يقولون؟! عائلتها شحاذين متسولين؟!.. " "

صارت الدموع تتجمع فى عيني وتبخر صانعة ضباباً كثيفاً ينذر بالعودة والبروق . وكان أولادها قد انزوا فى أركان فوق الأسرة والكراسى واندججوا فى القراءة وهم يخلسون النظر إلى من حين إلى حين فى كثير من الإستنكار الممزوج بالخيرة والخرج ؛ فيما كنت ما أزال واقفاً أمام ابنة عمى ممسكاً بجفنة النقود

المصرورة في طرف مندبل محلاوى ، بعد أن سلمتها خطاب أبى . أخيراً رمت
بالخطاب بجانبها وأشارت إلى ابنها حواس قائلة في اشمئناط :

- " قم فإذهب معه ! "

في صوتها نبرة تقول إن هذه ضريبة علينا لا بد منها وأمرنا الله ، وكان حواس
قصير القامة عريض الوجه والكتفين . وجهه ممسوح من أى ملامح ؛ والغلظ في
شفثيه أقل بكثير جداً من أبيه وإخوته . في عينيه بلادة كطبقة من التبن فوق مياه
أسنة ؛ وإذا يتكلم تنتقب البلادة لتنتظ من ثقبها ومضة حارقة شريرة جارحة . في
لسانه عوج قليل جعلته اللهجة البندرية طابع حسن في صوته المنطلق المتدفق ولكن
بغير وضوح كامل ، حيث يختلط السين بالثاء والذال بالزین . من مكنه خلف
مكتب صغير فوقه أباجورة تكب الضوء في عز النهار ؛ قال :

- " ولماذا لم ينجى أبوك ؟ "

قلت مغالباً الدموع الحارقة :

- " هو متعب هذه الأيام ! " فزام وانكفا على المكتب مفكراً

حولت ابنة عمى بصرها إلى ركن بعيد :

- " تروح معه يا بديع !؟ "

كان بديع مضطجعاً على السرير ممسكاً بإحدى الجملات المصورة . ورغم أنه
الإبن الثانى فى الذكور فإنه يبدو دائماً كأنه الأكبر ، لرصانة فى ملامحه المنضبطة
التي ورثها من عائلتنا ، واستقامة فى لسانه ومنطقه ، وصفاء فى عينيه الواسعتين
كعينى أبى طبق الأصل ، وقامته المستطيلة النحيفة كقامة خاله محمود ابن عمى
الذى يسكن فى جزء من دارنا فى البلد ، وبشرته البيضاء الحمرة كبشرتنا ؛ ثم
لكونه حصل على لقب الباشمهندس منذ ثلاثة أعوام مضت ولم يبق سوى شهر
قليلة ليصبح هكذا بالفعل . أزاح الجمل عن وجهه ، وبجدية هائلة قال :

- " كان المفروض أن ينجى أبوك نظراً لاحتمالات كثيرة ! "

هنا ظهر الحاج مسعود هابطاً من سلم داخلى قرب الشرفة ، يرتدى جلباباً
منزلياً من البوبلين بياقة وأساور ، وفوق رأسه طاقية من نفس قماشة الثوب ، صار
يرطم فى صوت يشى بالطيبة ، ويغنى بلسانه الأكثر عوجاً من لسان ابنه حواس ،

ولاينى يمسح شفثيه الغليظتين بظاهر يده ، ومع ذلك لا يفلح فى إيقاف اللعاب والرداذ المتناثر من بينهما . فهمت أنه يقول لإينه حواس :

- " ياابنى كيف يجى أبوه وهو رجل مُسِين ؟! أنه فوق السبعين من العمر ؟ وأنه صاحب وجع ؟ وأولاد كثار؟ قم يا ولدى ينوبك ثواب ! لاتكسف الجدع ؟ "

نفخ حواس بعصبية ، وأزاح الأوراق من أمامه فى غضب ثم نهض فاختمى فى باب سحرى مغطى بورق الديكور . كل ذلك وأنا واقف فى مكانى لا أريم ، دون أن يقول لى أحد : إجلس ، وقد صارت الدنيا فى وجهى ملاءة سوداء مبسوطة تتماوج . أخيراً خرج حواس مرتدياً بدلة كاملة برباط عنق ، وحناء يلمع كالمرآة كشعره المصفف بعناية فائقة ، والمنديل الملون بلون رباط العنق عل شكل الأهرامات الثلاثة فى جيب سترته على الصدر. اشار لى فى ود مفتعل : " يلاً يا حبيبى ! " . فمددت له يدى بصرة النقود ، فحأها جانباً بيده : " خليها معاك ! " . فوضعتها فى سيالتي ، ومضيت وراءه كالخادم الجربوع . ولحظة أن شرعت أهبط السلم خلفه بخطوات مبطوشة جمعاعة أدركت أن المسافة بينى وبينه موغلة فى البعد ، وأنى لن أكون مثله ابداً حتى لو وقفت السماء كلها فى صفى . إن العمر المقبل كله ليس يكفى للحاق بذيله . ثم كرهته ، وقلت فى نفسى إننى لا يشرفنى أن أكون مثله .

ها أنذا اتوقف أمام محل العصير القائم على ناصية شارعهم من إحدى الحوارى الموصلة اليه . ملايين المرات ضبطت نفسى متلبساً بالإنسياق وراء خواطر توغز لى بأن أفعلها وأمرى إلى الله : أزورهم محاولا اقتراض جنيه كامل أو خمسين قرشاً من ابنة عمى أو حتى ربع جنيه أو على الأقل تغدينى غدوة دسمة فيها لحم وخضار وأرز ، وقد يشفع لى أننى لم أزورهم منذ سنوات طويلة ؛ فلأزعم لهم مثلاً أننى قادم من البلد أنقل إليهم سلام خالطهم محمود وستهم نجية ، أمكث عندهم ساعة أو نحوها فلربما يكونو قد تغيروا خلال هذه السنوات ودخل التراحم إلى قلوبهم . وملايين المرات يدهمنى نفس المشهد برمته فكأنى أعيشه لأول مرة : كان النظاراتى قد أعطانا موعداً بعد خمسة أيام لاستلام النظارة إمتدت إلى اسبوع نظراً لأننى غريب ومسافر ؛ النظاراتى اسمه عدس ، ويهودى ، وهو فى الأصل ساعاتى ، ومحلله أمام مبنى المديرية مباشرة ضمن صف من المحلات الفاخرة ذات البتارين المختشدة بكل

مثير وغريب ولم يكن هذا بدعاً ، فجميع صانعي النظارات إذ ذاك هم في الأصل ساعاتية ، والعدسات والشناير معروضة بين الساعات. انتقى لي حواس شنبراً على ذوقه وصورة طبق الأصل من نظارة غاندى . إضطرت للبقاء هذا الأسبوع ضيفاً على ابنة عمى. السرير الوحيد الذى اتسع لي هو سرير الولد شريف لأنه ولد ضئيل الحجم. هو سرير بعمدان وناموسية تلفه من جميع الجهات ، فوقه حشيتان ووسادتان وملاءة وكوبرتة ولحاف ملبس فى كسوة من الدبلان. قارنت ذلك بالحصيرة فوق أرض القاعة فى دارنا على المصطبة الجاورة لفرن الخبيز؛ وتذكرت سهراتنا فى الجرن نستمع بإيمان حقيقى لسرحات الولد جنوم الذى كان يؤكد لنا أن القمل شئ طبيعى فى جسم الإنسان كدود المش منه فيه ، وأن الملك فاروق نفسه لا بد أن يكون فى جسمه قمل وبراغيث. فلما انزلت على الفراش الأملس تحت اللحاف الرطب الجميل وصافحت أنفى رائحة الصابون المعطر أيقنت أن الدنيا أعمق وأدهى مما كنت أتصور ؛ تم طرت على أجنحة النوم إلى مسافات بعيدة كنت أصحو خلالها على انتفاضة الولد شريف وهو يرمى بنفسه على الأرض صارخاً بغيظ شديد وحقد دفين : " مش معقول ! مش ممكن ! " . فلما صحوت قرب الفجر على الإستغائة لاحظت أنه ليس ينام بجوارى. وفى الليلة التالية ترك لي السرير وحدى . وفى أحد الأصبيحة أحاطونى بغمز ولمز وضحكات ماجنة مكتومة ومنفلتة ، وكلمات كثيرة فهمت منها أننى طول الليل أفسو وأملاً الحجرة كلها برائحة البكبورت ، ناهيك عن رائحة نفن الجورب فى قدمى ، والبراغيث التى جلبتها معى من حصيرة البلد وكيف أنها ستكلفهم قلب البيت كله رأسها على عقب فى الشمس. وفى صبيحة اليوم الأخير اقتادنى الحاج مسعود إلى محل عدس فاستلمت النظارة وراجعها معى على لوحة الكشف فى المحل وتثبت من أننى رأيت بها العلامات الدقيقة. ثم اقتادنى إلى محل العصير هذا ، حيث سقانى كوباً من عصير القصب فاستطعمته لدرجة أن تمنيت واحداً آخر فى الحال كأننى أشرب ماء الحياية الذى أسمع عنه فى الحواديت والأمثال. ثم مشينا إلى شارع المديرية ، حيث سلم على بيد غليظة كفردة البلغة ، قائلاً فى هلزمة :

- " مع السلامة ياابنى ! شلم على ابوك ! "

وتركنى ومضى نحو المديرية بخطوات سريعة. وحينما أوشك على الإختفاء تذكرت أن ماتبقى معى بعد ثمن النظارة حوالى أربعة قروش ونصف، فى حين أننى محتاج لسبع قروش أجرة العودة إلى بلدتنا. وكنت أهم بأن أجرى وراءه لأوضح له هذا الأمر ، لكننى لم أستطع ، فمضيت نحو المحطة ملتزماً بوصية عدس بالألا أخلع النظارة أبداً حتى اعتادها ، فكانت الأرض تبدو تحت قدمى كالمنبعجة ومائلة ، مع أن الأشياء كلها مزهزجة ومضيئة ، والطرقات بدت لها أعماق بعيدة لم أكن أراها من قبل. قطعت تذكرة إلى مدينة دسوق ؛ ومن دسوق قطعت تذكرة إلى سنهور المدينة. وكان فى مخططى أن أزوغ من الكمسارى فى المخطتين الباقيتين لكننى لم أفجح ، وأصر على تطويقي ، لولا أن كرامة النظارة أتت بشمارها فى الحال ، إذ تمعن فى منظرى رجل طيب وقال: " باين عليه ابن ناس طيبين ! سيبه ياعم وحد فلوسك! " .. فتركنى الكمسارى أنزل فى محطة البكاتوش لأمشى إلى قريتنا ثمانية كيلو مترات .

إلا أننى أحس الآن أن لى مأرباً فى السير فى شارع السوسى غير مجرد تضييع الوقت والشبع من ريحة الطعام المجانية . سرعان ما تبينته . هأنذا أحوم حوله ، إنه محل " محمد أبو سن " ، تاجر الأقمشة المتوسط الحال ، لا هو بالثرى ولا بالفقير ؛ يكفى أن محله فى شارع السوسى ، على واجهة ، ورفوفه ملامى بأثواب من جميع الأنواع والألوان لكنها ليست مكتظة وليست تنم عن مخازن خلفية أو راس مال كبير. غير أن المحل فى رواج مستمر ، خاصة بالنسبة لزبائنه الفلاحين القادمين من القرى والعزب المجاورة ؛ إذ أنهم يجدون فى المحل شخصاً قريب الشبه بهم ، يفهمون عنه بسهولة وبساطة ومصادقية ، ولذلك يستريحون له ، وكلمته عندهم واحدة. هو شخصية منبسطة حبوبة ؛ ضيق الجبهة والعينين قصير الأنف واسع المنخرين واسع الفم يفرج دائماً عن أسنان مصفرة مفردة بين كل سنة والأخرى مسافة واضحة فكأن كل سن يتسم وحده على طول الخط. غمازتان فى صدغيه ، وعلى الوجه مسحة من الصفاء والطيبة والبراءة تجذبك إليه كأنه أحد أقاربك ؛ لما فيه من الفة شديدة. يثق جميع زبائنه أن أسعاره أقل من سعر السوق بقرشين وربما عشرة قروش فى المتر الواحد؛ كما أن أقمشته مضمونة

الجودة . أما القياس بالمتر فيده فيه برحة ، قبل أن يقطع يتعد عن نقطة القياس بخمس قراريط. ولقد كون هذا المحل بعرقه وشقائه المتواصلين على امتداد عشرين عاماً منذ كان بائعاً سريحاً بعربة يد. ذلك هو محمد أبو سن ، عضو بجماعة الإخوان المسلمين ، زبيبة الصلاة كالعصفور على جبهته. لم يتعرض لتجربة السجن رغم أن جميع أصدقاء عمره الأعزاء قد أمضوا نصف حياتهم في السجن. السبب أنه ذكي جداً ، يتعد عن التظاهرات والعمل السياسي المباشر ، يلتزم بالفروض والواجبات والسنن ، يتطوع بالوعظ الهادئ النيرة الخالي من أى غمز أو إثارة سياسية ، بكلام شديد الحلاوة رسخ في ذهنه من عتاة المتكلمين الذين كانوا ينفردون بنا في مقر الجمعية في شارع النادى فيقسموننا إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية . هو الذى اقتادنى إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية. هو الذى اقتادنى إلى هذه الجمعية بطريقة غاية فى اللطف والحميمية. فأنا وإن كرهت الحاج مسعود و بنت عمى وأولادها كرهاً حقيقياً. بإرادة وتصميم وبدرجة تكاد تصل حد النعمة والعدوان ، إلا أننى مع ذلك استفدت من قرابتهم. فباسمهم تمكنت من التجوال فى هذه المنطقة بكل أمان وأريحية دون أن أتعرض لما يتعرض له الغريب فى مدينة كهذه ، يكفى أن يعرف أحد أبناء المنطقة أننى ابن عم الحاجة وديدة لزم ، حتى يتركنى جالساً فى مقهاه فترة طويلة بطلب واحد بل وأحياناً دون أن أطلب شيئاً بل ربما جاءنى طلب على سبيل التحية ؛ أو أن يعطينى صاحب الدكان الأمان فيتركنى أسليه وقتاً فى انتظار الزبائن أو بين الزبون المنصرف والزبون القادم ، أو أن يسلم على بحرارة إذا قابلنى فى شارع آخر أو أن يدفع عنى عدواناً طارئاً..

بيت محمد أبو سن فى مواجهة بيت الحاج مسعود مباشرة ؛ والود العميق متبادل بين النسوان عبر الشرفات والمنازل ، وكلمات : ياطنط وياآيه وياآنسة تملأ الأصباح والأصائل بأصوات نسائية رخيمة بلهجات بندرية تشوبها لكنه فلاحية قاطعة. من حسن حظى أن محمد أبوسن رآنى فى الشرفة قبل أن ينزل إلى المحل بعد قيلولة جميلة ؛ ثم مررت عليه فى المحل مع حواس أكثر من مرة أثناء عمل النظارة لأنه فى طريقنا . ثم إننى أصبحت أمر عليه بعد أن انتظمت فى الدراسة وسكنت

مع ثلاثة من أبناء بلدتي في حجرة في كوبرى إفلاقة على الشاطئ الآخر لترعة الحمودية حيث أن مقر المعهد فيها في بيت مستأجر من أحد المراكبية ، فكان أبو سن يلتقيني بحرارة شديدة ويقدمنى لزبائنه وضيوفه بتفخيم كبير ينجعل تواضعى ، وقد لاحظ أننى أهوى القراءة وأحمل روايات ودواوين شعر وكتباً فى الأدب ومجلات ثقافية ؛ فصار يناقشنى فيها بشكل أذهلنى ، مما أكد لى أنه قرأ كل هذه الكتب والمجلات وله رأى فيها، بل صار يزودنى بكتب أسمع عنها ولا أجدها، حتى روايات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى التى يهاجمها خطباء المساجد كانت فى مكتبته ويعيرنى ما أطلبه منها شرط أن أردّه نظيفاً . هو الذى نبهنى إلى سلسلة شهرية اسمها الكتاب الذهبى متخصصة فى نشر القصص والروايات لكبار الكتاب ، وإلى سلسلة كتاب الهلال التى كانت عنده كلها ، كما نبهنى للجانب السياسى فى مؤلفات العقاد ؛ وقد أشبعنى بكل مؤلفاته ومؤلفات طه حسين والمازنى ومصطفى صادق الرافعى وهيكىل وأحمد حسن الزيات وأحمد زكى أبو شادى والمنفلوطى ومحمد فريد أبو حديد ومسرحيات أحمد شوقى . الأجل من كل ذلك أنه نقل لى خبراً أذهلنى، أنبأنى أن فى دمنهور جمعية للأدباء ومقرها مقهى المسيرى ورئيسها عبد المعطى المسيرى صاحب المقهى ، وأطلعنى على بعض كتب هذا الأديب القهوجى الأعجوبة ، وكتب الأدباء الدمنهوريين من أمثال أمين يوسف غراب ومحمد عبد الحلیم عبد الله وأحمد محرم وعلى الجارم . وهو الذى نصحنى فى النهاية أن أنسى عبد القدوس والسباعى وأمثالهما لأقرأ بانتباه كاتباً مجهولاً يدعى نجيب محفوظ يصور الحكاية على حقيقتها ، وكم كان جميلاً أن يدعونى لزيارة قهوة المسيرى على مبعده خطوات من دكانه ؛ حيث جلسنا على ترابيزة قريبة ورحنا نحتسى الشاي ، ونراقب الأدباء وهم يضمون الترابيزات ويتناقشون ويقرأ بعضهم وينصت الباكون بإمعان ؛ والمسيرى يتابع كل ذلك فيما يتابع سيل الماركات المنهال على منصته من يد الجرسون الذى هو ابن أخيه فى نفس الوقت . فى تلك الليلة اعترف لى محمد أبو سن أنه توقف فى التعليم عند الشهادة الابتدائية وانتبه للقراءة منذ وقت مبكر ، فازداد نهمه للقراءة بحكم عشرته لمثقفين كبار من جماعة الإخوان المسلمين ..

كان محمد أبو سن يعطف على كثيراً ، ويصر على أن يعيشني أو يغديني،
وينفحني بعض القروش على سبيل السلفة الطويلة الأجل ، لكنني منذ فصلت من
المعهد لم أراه ؛ أصبح الخجل من الفشل يمنعني من المرور عليه. ثم بات سوء المظهر
وشدة الرهق يحولان بيني وبين باب دكانه ؛ فأراني ألف من ورائه حتى لا يراني
مع أنني في الواقع كنت أتمنى أن يراني بشرط أن يبدو ذلك صدفة محضة. فما بالي
اليوم، مثل أيام كثيرة مضت ، أشعر أنني أدبر كى يراني دون أن يبدو على أنني
أتعمد ذلك ؟..

شارع الإخوان

مع أننى كنت بعيداً عن دكان أبى سن بمسافة كبيرة ؛ خلفه مباشرة ولكن من الحارة الملتفة حوله ، فإن قرينه قد التقانى . إذا بى أسمع صوتاً يهتف باسمى منادياً : يا فلان . ولأننى تذكرت الصوت فى الحال فإنى قد أسرعت فى خطوى . فإذا بالصوت ينادىنى مرة أخرى من مسافة أقرب ، فضاغت سرعتى ، حاولت الذوبان فى زحام حارة بنت عمى الواسعة الموصلة إلى شارع المديرية الكبير ؛ حيث يبدو مبنى المديرية أمامى ممتداً فى مواجهة الحالة كلوحة جدارية كبيرة تجعل القادم نحوها من الحارة كأنه شرع يدخل قاعة فى منزله . إلا أننى فوجئت بمن يقف أمامى قابضاً على ذراعى :

- " ماتريد أن ترد ياخسيس ياوغد ؟ "

رفعت رأسى كالمفاجأ ؛ صافح عينى وجه أسمر مشطور ككسرة الفول والطعمية . كل شئ فى وجهه مشطور أو مشطوف ، الأنف والخدين والذقن والجبهة ، كأن كل ملمح من هذه الملامح تم شطفه قبل تركيبه ، مع أن ظلالاً دائرية تتماوج تحت الجلد المدبوغ بحرارة الشمس وفوقه ، حتى لحيته السوداء المطلوقة ، هى الأخرى مدببة بشكل هرمى مستفز . يرتدى بذلة فوق فائلة قطنية خفيفة ويضع حزمة من جرائد مطوية تحت إبطه ، واضعاً يسراه فى جيب سرواله فيما قبضت يميناه على ذراعى . أخذنى الروع لبرهة لكننى سرعان ماضحكت فيما اسلم عليه بحرارة ..

إنه عبد الله أبو حنطور ، الصديق الصدوق لمحمد أبو سن . ذو مركز مهم جداً فى شعبة الإخوان المسلمين ، ومن عتاة المتكلمين فى أى مناسبة يشاء دون أن يبدو عليه أنه متطفل أو خارج عن الموضوع . تعرض للسجن أكثر من مرة منذ أيام إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء زمن الملكية ، وشارك فى المقاومة الشعبية فى الإسماعيلية وبورسعيد والسويس . يعمل مفتشاً للغة العربية بوزارة التربية والتعليم . ذو سطوة رهيبية بين جميع معلمى اللغة العربية فى مدارس المحافظة كلها ، لأنه رغم ما طبع عليه من روح خيرة سمحة متواضعة إلى أقصى حد ، فإنه لا يقبل الترخص

فى شعور العلم مهما كانت الظروف والأسباب ، ولا يقبل الوساطة ، كما أنه ينفر كل النفور من التلاميذ البلقاء الأغبياء ويلعن معلمهم قبل آباؤهم. أغلظ لعنة عنده فى أقصى حالات غضبه هى : " جاك عمى فى عينك " ، أو : " الله يساعده بقى اللي علمك ". منذ أن عرف بأبنى طالب فى معهد المعلمين عاملنى باعتبارى معلماً وخاطبنى دائماً بالأستاذ. لم يينخل على بكتب ثمينة . وكنت فى حضرته أشعر بأبنى شخص نجيب ذكى محترم وناجح ؛ أشعر بالخوف أن تهتز صورتي هذه فى نظره لسبب من الأسباب ..

أهلاً أهلاً الحمد لله بخير . وكنا قد استأنفنا السير فصرنا على بعد خطوتين من مبنى المديرية المستطيل اللامع ، فجدرانه بيضاء رصينة ونوافذه المستطيلة المهيبة مزركشة بكرانيش من اللون الكنارى ، ودرفاتها مدهونة بالبني المحروق ، وللنوافذ أفاريز بارزة من الرخام ، أما الباب الرئيسى فى وسط الجدار فيرتفع عن الأرض بدرجات رخامية ، وشكله مهيب يغرى بصعود الدرج والدخول ؛ وأنواع متعددة من الناس مابين أفندية بطرايش ومشايخ بعمائم وفلاحين بطواقى يصعدون الدرج أو يهبطون فى مهابة وأبهة ، فكأننا تتفرج عليهم فى مشهد سينمائي ، حيث تبدو هذه الصورة من بعيد كخلفية تسد الحارة ، تتباعد كلما اقتربنا منها ، لتظهر بعد قليل ناصية شارع المديرية المار من أمامها مباشرة. لم يبق أمامنا سوى أن نكسر يمينا فى شارع المديرية ، لنمر بمقهى المالية الكبير المزدان بالمرايا فى جميع الحوائط ، والترايزات ذات المفارش النظيفة ، والنوادل بأجنحة بيضاء كالملائكة ، ورائحة المياه المكررة والشاي والبن والقرفة وتبع النارجيلة تعطر الشارع بمزيج فريد من العطر. بانتهاء رصيف المقهى لا يبقى سوى خطوتين نكسرهما يمينا أيضاً فى شارع السوسى لنصير أمام دكان محمد أبو سن القمامشى ..

عبد الله أبو حنطور ليس سهلاً ؛ كسر بي كسرة حادة إلى اليمين فإذا بنا فى قلب المقهى من الداخل . إختار تراييزة مجاورة لشرفة مطلية على شارع المديرية ؛ فأتار لى على كرسى فجلست فى قدر كبير من الخجل على الكرسى الملاصق للحائط ، ورميت ببصرى فى المرآة المواجهة لى ، رحت أتفرج على القادمين نحوى فى الشارع وهم فى الأصل قادمين من خلفى . صفق عبد الله فجاء النادل فطلب

إليه التكرم ببراد شاي ونارجيلة نادية. فكأن المطلوب كان في انتظار تشریفنا . قال عبد الله ، وهو يقلب السكر في الشاي ناظراً في عيني نظرة ثاقبة قوية لن ترضى بغير الصديق المباشر دون لف أو دوران:

- " إيه ، ماذا حدث لك؟ ما هذه البهدلة ؟ "

كان منظرى في المرآة غير سار على الإطلاق : القميص يتكاثف عليه الوسخ عند الكتفين من أثر النوم به فوق الأرض ، والياقة متأكلة الأطراف، والسروال منبعج الركبتين منسول في الأطراف وتنتيه أيضاً متأكلة ؛ أما الحذاء فقد تكور وجهه وامتلأ بالتجاعيد والدمامل وتاكل كعبه تماماً . أما وجهى أنا ، فكان قريب الشبه منه إلى حد كبير. وجدتنى أنخرط فى البكاء ؛ نهر من الدموع انهمرت تحت عدستي النظارة التى كانت ملحومة الإطار فوق الأنف لحاماً ظاهراً ؛ رمى عبد الله بمنديله نحوى فوق الترابيزة بحركة سريعة حاسمة ، وقد تقلصت عضلات وجهه بقسوة شديدة كأنها تشنط فى صائحة : كف عن هذه المعيلة . فمسحت دموعى على الفور ، ثم صادرتها بقوة ..

الواضح أننى حكيت له الحكاية من أولها إلى آخرها ؛ إذ بدا عليه الحزن الشديد؛ ركبته الهم حتى صار يشد أنفاس النارجيلة ثم ينفخها بغيظ . بقى صامتاً لدقائق طويلة . نهض واقفاً وانتزع من جيبه ورقة مالية بعشرة قروشرمى بها فوق الصينية وجذبني من ذراعى ومضى ، واضعاً ذراعى تحت إبطه . تجاوزنا شارع السوسى ، فاسترحت لذلك بعض الشئ ؛ لكنه حرم بنا من شارع السوق إلى شارع الخيرى ، ثم إلى شارع السوق مرة أخرى . مررنا بمطبعة التوفيقية .. دهمتنى ذكريات مفجعة مبهجة معاً تخرج من هذه المطبعة مع رائحة الورق والأحبار مختلطة برائحة زفارة السمك وعطن الجارى : هذه المطبعة طبعت لى كتيباً يحمل قصة من تأليفى بعنوان : [الخد الأسيل] جمعت ثمنها بإيصالات مطبوعة من زملائى ومعلمى فى المعهد ثم وزعتها عليهم ؛ وكانت أقرب إلى إمساكية شهر رمضان لكننى أحبيتها بعمق ؛ إذ كان إسمى مطبوعاً فوقها بكليشيه كبير أسود ككبار الكتاب ، إلا أننى أصبحت أشعر بقلبي يهبط إلى ساقى كلما تذكرتها الآن ، إذ أن أهلى وأهل بلدتى كلهم وضعوها مع نسوان المدينة اللعوبات على رأس قائمة الأسباب

التي افسدتني وحولتني إلى ولد ساقط صايع. تذكرت أنها لم تعجب عبد الله أفندي أبو حنطور على الرغم من أنه شجعني على طبعها بأن دفع لي جنيهاً كاملاً مقابل إيصال فارغ من أي بيانات ، مثلما فعل جميع معلمي في المعهد. وحين قرأها في ربع ساعة ونحن جلوس في دكان محمد أبوسن لامننى بشدة على أنني لم أعرضها عليه قبل طبعها لكنه قرص أذني على الفقرات الإنشائية اللامعة الكثيرة التي نقلتها من المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب ويوسف السباعي ثم حشرتها حشراً في السياق، إذ كلما اردت وصف الحبيبة ذات الخد الأسيل إستعرت فقرة كاملة من أحد هولاء الكتاب قالها في وصف حبيبة أخرى، والأمانة تقتضى الا أفعل شيئاً من هذا ؛ وإذا لزم الأمر فكان يجب أن أضع هذه الفقرات بين مزدوجتين وعلامة تنصيص تثبت في الهامش بأنها مأخوذة من الكتاب الفلاني في الصفحة الفلانية من الطبعة الفلانية؛ هذا إن جاز أن يحدث ذلك في القصص والروايات. إضافة إلى هذا الدرس القارص لم يعجبه أي شئ في القصة سوى حماستي إلا أنها زادت عن حدها فجرأتني على الطبع والنشر بغير تبصر..

توقف بنا عبد الله عند محل كبير لبيع الأسماك والفسيح ، حافل بالبراميل والطاولات والزبائن . في ركن قصي منه يجلس رجل مربع الوجه ابيض البشرة كالشمع طويل اللحية في جبهته زيبية الصلاة كالتمرة الأبرمى ، غمزني عبد الله بأن أبقى واقفاً في مكاني ، ثم اخترق المحل . نهض الرجل المربع الوجه واقفاً في تبجيل شديد ؛ فانحنى عبد الله على أذنه واندمج في حديث هامس ولاحظت أن الرجل يختلس نحوي نظرات خاطفة مليئة بالحياء والتلقائية ؛ فابتعدت عن الباب معطياً ظهري للباب . بعد برهة طويلة خرج عبد الله فتأبط ذراعي ومضى. دخلنا شارع الخيري ، حيث خررنا نحو حارات جانبية ، توقف فيها عبد الله عند محلات ومتاجر ثم اختفى قليلاً وعاد ؛ ليمضي بنا إلى ميدان الساعة. كان الميدان جميلاً بحق ؛ أسوار مدارس معيطي ، وسينما البلدية ، وخلفها مكتبة البلدية ، الشبيهة بكل المباني الرسمية في كل العواصم تقول أنا مبني حكومي ؛ وقهوة الطلبة ذات الجدران الزجاجية والردهة المستطيلة كالسامر والرصيف العريض المرتفع عن الأرض، حافلة دائماً أبداً بالرواد معظمهم من الطلبة والمعلمين وبعض الموظفين ورجال الأعمال ،

أجسام فتية مفتولة وأنسات ذوات مرايل زرقاء وطاقية بيضاء وحقائب تحتضنها الصدور الناهدة ، صخبها لطيف يميل إلى الأنس والبهجة ، اصوات زهر الطاولة وقشاط النرد وتفنيط الورق وكركرة النراجيل وضحكات الإناث الرنانة ؛ والأكواب والبراريد والصوانى براقه لامعة ، وكذلك الأرض ، ومفارش المناضد ، وزجاج الجدران ، حتى لتبدو المقهى فى الليل كحمام سباحة تحدد جدرانها لمبات النيون المتلائلة . أمامها شارع النادى ، مفخرة المدينة بنظافته وحديقته الممتدة الوارفة ، ونادى الموظفين ، وقطار الدلتا الذى يخترق جزءاً منه قادماً من قرى مجاورة ذاهباً إلى قرى أخرى او ضواحي متاخمة، يطلق صراخه الشبيه بصراخ الثكالى ، وعرباته شبه الفارغة إلا من بعض الفلاحين والأفندية والطلبة والمواشى المساقاة إلى السوق أو إلى المذبح ..

كان عبد الله يتوقف عند بعض المحلات ثم يهيم بالدخول ثم ينصرف فى آخر لحظة. إلى أن فوجئت به يتجه إلى مبنى شركة بيع المصنوعات المصرية ، يسحبني داخلاً ، ليتوقف لحظات قليلة عند بعض الأركان والبنوك ، فيشتري لى سروالاً من قماش " الوتر بروف " الجميل الأزرق ، وآخر من صوف الفانلة الرمادى وقميصين بياقة عريضة ، وغيارين داخليين ، وجلباب للنوم ، وحذاء شبانى بدون رباط ، وجوربين ، ومنديلين . قاس كل ذلك على جسدى بإحكام وتدقيق فى مسألة اللون والذوق والخامة . ثم دفع مبلغاً كبيراً أذهلنى وأغرقنى فى بخار من الخجل والعرق على ارض خفية من الغبطة والسرور . حمل شيئاً وحملت أشياء ؛ ثم استوقف عربة حنطور ، دفعنى إليها ثم ركب بجوارى هاتفاً الحوذى:

- " صلاح الدين يا أسطى "

فشد الحوذى اللجام ؛ وانتظمنى قرع سنابك الخيل على أسفلت الشارع ، ثم على البلاطات العريضة فى حوارى حى صلاح الدين المقلقلة كجزر متلاحمة بين أنحاديده من مياه الجارى والصرف. نزلنا أمام بيت عتيق ذى ثلاث طوابق بثلاث شرفات فوق بعضها متشابهة .. تقدمنى داخلاً ، صعدنا سلماً رخامياً متآكل الدرجات متعرجاً فى الطابق الثالث توقفنا أمام باب ذى درفتين يقابله باب آخر ؛ طرق هو على باب ، ثم استدار ووقف أمام الباب المقابل ، الذى انفتح بعد برهة

وظهر منه طفل صغير سرعان ما تركنا واندفع يجرى فى الداخل . الكنب البلدى فى المواجهة منجد ومكسو بالقטיפه . فى مقابله طاقم من المقاعد الصالونيه المنهبة ، وعلى الأرض قطعة من السجاد الثمين مزهرة اللون . على الحائط فى المواجهة صورة للشيخ حسن البنا ، بوجهه الوديع السمع وطربوشه القصير ولحيته القصيرة المتسقة كأنها مجرد دهان بالفرشاة خطته يد منضبطة. وعلى الحائط الجانبى صورة للكبكباشى جمال عبد الناصر يلعب الشطرنج فى استغراق شديد. وعلى الحائط المقابل صورة عتيقة جداً لشيخ طاعن يرتدى العباءة والطاقيه الصوف المبطوشة على شكل الطربوش المغربى ؛ تقول ملاحظه إنه مغربى الأصل ، وأنه جد عبد الله أبو حنطور ..

أغلق الباب ووضع الأشياء على الكنبه ثم استأذن فدخل ؛ شد الستار على ممر مكشوف . جلست ، رأيت على الترابيزة الرخامية ذات الشكل البيضاوى أعداداً كثيرة من مجلات : الدعوة ومنبر الإسلام والرسالة والثقافة، وبعض مسرحيات إسلامية مدرسية من تأليف الشيخ عبد الرحمن البنا ، ومصحف كبير بتفسير الجلالين ، ومختار الصحاح ؛ ومن خلفى مباشرة دولاب كبير عريض بأبواب زجاجية مغلقة تظهر فيها صفوف المجلدات الثمينة مكتوب على كعوبها بماء الذهب أسماءها . ماكدت أقلب فى أعداد مجلة الرسالة حتى انزاح الستار وظهر عبد الله افندى مرتدياً الجلباب والطاقيه الدبلان ؛ قال : تعال . فقمى ، مضيت خلفه فى الممر المستطيل ، مررنا بمطبخ مفتوح تظهر منه صفوف الحلل والأطباق وثلاجة وبوتاجاز ، وروائح سمن مقدوح وشواء شهى . عند الباب الجاور توقفنا ؛ إنه دورة المياه . أشار لى أن أدخل ، ثم أتى بيديه حركة دائرية حول رأسه وصدره وجسده . فدخلت ، رأيت الدش والليفة والصابونة المعطرة فوقها ، والبشكير الكبير معلقاً على مشجب فى ظهر الباب ، الذى انسحب بيد عبد الله من الخارج حتى طرقت التراباس فى بجراه . نخلعت ملابسى كلها ، فتحت الدش ، صرت أدعك جسدى بالليفة والصابونة فى نشوة هائلة تحت وابل من المطر والوشيش ، الذى اختلط بصوت المذياع فى الردهة الجاورة ميزت فيه صوت محمود الشريف فى برنامج : " قِسَم " وهو يغنى طرباً : ياخال أنا خالى رَوُقت لك بالى ! واللحمة تهنالى بين

أهلى وعيالى . ماكدت أغلق اللش فينقطع صوت الوشيش حتى علا صوت المذياع فجأة بصوت الناي المكثف بالزفرات الحارقة وفى أعقابه صوت رفيعة الشال يزفر : ياترى أنت فين يامرزوق. فى أعقابه صورة أمى وهى متربعة على عتبة دارنا فى البلد تبكى إذ تسمع هذه الجملة نفسها خلف هذا الناي مباشرة ، فكأنها لها هى الأخرى مرزوق غائب يأكلها الحنين للقياه.. شعرت بخطوات أمام الباب ، ونخنحة، وصوت نقرات خفيفة . لفتت نفسى بالبشكير ، واربت الباب ، تلقفت الغيار الداخلى والجلباب الأبيض ، فأسكرت أنفى رائحة القماش الجديد. ثم خرجت من الحمام شخصاً آخر تماماً ، حتى أن عبد الله أفندى نظر فى وهز رأسه فى رضاء تام وهو يتقدمنى نحو الردهة التى بها المذياع ، لأجدها محتلة بترابيزة السفره بكراسيها ودواليبها الزجاجية الحافلة بأطعم الأطباق الصينى والأكواب والفناجين والفضيات. كانت أطباق الطعام مرتصة فوق الترابيزة كالوليمة الحافلة يتصاعد منها البخار والأريج الشهى الحريف . جلس قبالتى مقدماً لى فوطة صغيرة مربعة فردتها تحت كوعى . بسمل ثم شرع يأكل ؛ فتبعته : أرز وفاصوليا وملوخية باللحم ؛ ودجاج محمر وسلطات ومخللات ، وموز وكمشرى وجوافة ، وأطباق مهلبية..

فى حجرة الجلوس أشعل سيجارة له وأخرى لى ثم قال:

- " قم جرب هذه الهدوم ! "

إرتديت قميصاً مع السروال الأزرق الخفيف الرطب ، والجورب ، ثم الحذاء الجديد . رأيتنى غارقاً فى رائحة عطرة جميلة كأننى فى يوم العيد أتأهب لقبض العيدية من أبى وللنزول للبرطعة فى الشوارع حيث أركب الأراجيح وأشترى الحلوة الشعر والبخت وأعواد القصب والهريسة . إختفى عبد الله أفندى ، لم أدر إلا وهو داخل وقد ارتدى ثياب خروج غير التى كانت عليه عندما قابلته . كان ممسكاً بحقيبة ملابس قديمة مفسخة مترهلة لكنها سليمة الأقفال واليد على كل حال. أسندها على الكنبه وفتحها ، فرأيت فيها ثيابى القديمة. قال وهو يشير إليها بلحيته :

- " يمكن أن ترميها فى أى مكان أو تتصدق بها! "

تم فرد فوقها جريده نفس اليوم ، ووضع بقية تيابي الجديدة ، بعناية ؛ ثم أغلق الأقفال وأعطاهما لي فأمسكتها فشعرت رغم رثاة منظرها أنني قد صرت أفندياً بحق وحقيق. تقدمني فسحب الباب فنزل وأنا في أعقابه ..

عربة حنطور أخرى أسقطتنا في أول شارع السوسى ، حيث حودنا على دكان محمد أبو سن مباشرة . كان جالساً كالعادة خلف البنك بجوار الباب، تاركاً أمر البيع لولدين كبيرين في مثل سنى لكنهما مدرّبين تدريباً هائلاً ، الولد منهما عفى يمسك بثوب القماش على كف يسراه ، وينطقه كالكرة ليفك ثنياته قبل أن يشرع فى القياس بالتر الذى هو مجرد علامتين بالحفر الخفيف على خشب البنك نفسه ؛ لديه صبر طويل مستمد من إيجاءات معلمه أبو سن ، يتمشى مع الزبائن خاصة النساء الفلاحات اللاتي جئن يقطعن كسوة للعروس ؛ لامانع أن يصعد السلم بدرية ورشاقة عشرات المرات لينزع بعضد الأثواب من بين كتل الرصبات المتجاورة ، ثم ينزل فيفرده على البنك ، ممسكاً بطرفه فيفركه بأطراف أصابعه بحركة ذات معنى ليثبت للزبون أن القماش سخى ولا يتكرمش متين النسيج ولا ينسل ؛ ربما أشاح الزبون بوجه فى الحال وطلب ذلك الثوب البنفسجى الذى قرب السقف ؛ ففي الحال - دون أدنى غضاضة - يصعد فيأتى به وبشبيهه له بالمرّة؛ إلا أن الزوج أو الحماة قد ترفضه قبل لمسة مشيرة إلى ثوب فى ركن بعيد ؛ فيسحب السلم الخشبي النقالى ويمضى به إلى ذلك الركن البعيد فيأتى بالثوب . المهم أن يرضى الزبون على البضاعة ؛ أما الخلافات حول الأسعار فإنها لاشك محلولة . بمجرد أن يتدخل أبو سن فى الحوار بالكلمة النهائية ، لينصرف الزبون شاربياً مرضياً أربعة وعشرين قيراطاً .. نهض محمد أبو سن منتفضاً ، أخذنى بالحضن فى تهليل كبير :

- " يا ...!...!...ه يا عكروت ! وهل هذا ينفع !؟ أنت كنت !؟ ما الذى لمّكما على بعضكما !؟ كنا فى سيرتك بالأمس ! عبد الله افندى هو الذى تذكرك وهو اللى التقاك فلا إله إلا الله !! " ..

رفعت غطاء الممر الناقد فى البنك وعبرته إلى الداخل أما عبد الله افندى فقد اقتعد البنك ولعب بساقيه قليلاً فى مرح الأطفال ثم برم جسده إلى الداخل ونزل. لحظتها مر القهوجى الجوال حاملاً الصينية عليها الأكواب والبراد الكبير الساخن ؛

صب لنا الأكوام الصغيرة المهندقة . شاي أميز من شاي المقاهي بنكهة عجيبة طازجة ذات طابع بيتي حميم ...

في بضع رشقات موجزة ، وبلغة فائقة لخص عبد الله أفندي مشكلتي بكل حذافيرها ، - كأنها شيء لم يكن - غطاها بقوله:

- " المهم الآن أن نبحث له عن عمل يستند عليه ربما تمكن من تغيير سلك تعليمه أو يفعل الله به ما يشاء! " ...

حينئذ كانت عينا محمد أبو سن قد سافرتا إلى مجاهل بعيدة ، فبدا مثقلاً إلى حد الرهق ، حتى لقد شعرت أن أبي نفسه لم يحزن لأجل كل هذا الحزن. ثم إنه تنهد من أعماقه ، واستل صوته من جراب صدى

- " والحاج مسعود؟! ما موقفه؟! هل علم بما حدث؟! "

نكست رأسي بحثاً عن جواب مناسب ؛ لكن عبد الله أفندي عاجلة بذكاء حمدته له :

- " حاج مسعود من ياعم؟! خليها على الله! أنت تعرف الأمر وما فيه! الحاج مسعود يستطيع التبرؤ من جلده! أنسيت كيف اشترى هذا البيت الذي يسكنه؟! كيف تنس هذه المأساة البشعة وأنت جاره وشاهدتها بعينيك وأنت طفل؟! .. "

ثم وجه الحديث إلى ، لثقتي أنني ربما لم أعرف شيئاً عن قصة هذا البيت الذي امتلكه زوج ابنة عمي في أهم وأخصب منطقة في هذه المدينة التجارية الكبيرة:

- " هذا البيت ورثة رجل غلبان حرمه الله من الخلفة! كان مصاباً بداء القمارا وكان مديناً للحكومة بسلفية من البنك بضمان حجة البيت! خسرت السلفية في صفقة تجارية مغامرة خائبة! حجزت الحكومة على البيت! وكان الحاج قرد هو المنوط بمهمة التحصيل خاصة أنه يسكن في نفس البيت! قام بلعبة جعلت الميزان يرسو عليه فاشترى البيت كله بثمن غرفة واحدة منه! بعدها مباشرة مات الرجل! وقيل إن الحاج قرد قد دس له السم البطي في كئوس من الخمر! والله أعلم لكن الحاج قرد لا تؤاخذني ليس رجلاً!! " ..

كان الحرج الشديد ظاهراً بوضوح على وجه محمد أبو سن ، بعد أن رفع يده عدة مرات لإسكات عبد الله أفندي مشيراً بذقنه نحوي إشارة إلى أن هذا الطعن

يسئ إلى لأن الحاج قرد هذا هو فى النهاية زوج لابنة عمى التى هى فى مقام شقيقتى. إلا أن عبد الله أفندى كان ممروراً من هذا الرجل، ليس فحسب لأنه لص ضلالى مستتر فى ثياب الحجاج ، إنما ، بالأخص ، لأنه : " معندوش أى وفاء لقرايه! " .. وأضاف باشمزاز :

- " شف كيف تعامل مع ولد غلبان كهذا !! اليس هذا فى مقام شقيق زوجته؟! شف كيف احتقره واشماز منه ! لو كان عنده ذرة دم واحدة لأسكنه فى أى حجرة فوق السطح !! " ..

تذكرت أننى لا بد قد حكيت لهما طرفاً من المعاملة التى عوملت بها يوم جئت لعمل النظارة الطبية وكيف استقبلونى على مضض ، كما حكيت لهما اطرافاً كثيرة عن ابنى المسن وماضيه الحافل فى الثراء والسياسة وحزب الوفد ، وكيف كان يفصل من عمله بمجرد سقوط الوزارة الوفدية . نعم لا بد أننى قد حكيت ذلك دون أن أدري ثم نسيت أننى حكيتة ؛ ولا بد أن هذا هو سر تعاطفهما معى . قال عبد الله أفندى بحسم :

- " مهمتنا الآن أن نشوف له شغلة عاجلة ! "

قال محمد ابو سن وهو يزفر مفكراً :

- " المحل عندى لا يَحتَمَل ثلاثة ! لكننى سأكلم خالى أمين صقر ليكحقه بمحلاته الكبيرة تحت رعاية أخى ! إن خالى رجل طيب ! وأخى الصغير محمود يعمل عنده على بنك الأزرار! المحلات كبيرة تباع جميع أصناف الخردوات! قسم الأزرار وحده يحتاج لكثيرين من نوع خاص ! لبائع رقيق الطبع هادئ الأعصاب عطر الأنفاس مؤدب حلو اللسان لأن معظم زبائن هذا البنك من النساء ! أرى أنك تصلح لهذا البنك وسأكلم أخى محمود لياخذك معه ! المهم الآن أين تسكن ؟! كيف تبيت واين؟! " ..

غمز له عبد الله أفندى بشفتيه غمزة ذات معنى ، إضطر إلى توضيحه قائلاً :

- " إنه يامولاي كما خلقتنى ! وقد أكرم الله الإخوان فجددنا له الثياب !

فعسى ان نجد رزقاً آخر للمبيت ! وهذه مهمتك! " ..

قال أبو سن :

- " هل تركت الحجرة التي كنت تسكنها مع زملائك؟! "

- " من زمان! "

- " فأين كنت تبيت؟! "

- " فى لوكاندة الفردوس خلف المحطة! "

لوى الإثنان شفتيهما اشمئزازاً ؛ وقال أبو سن :

- " ألم تجد غيرها ؟ مرتع الصياع واللصوص والنصايين والمختالين والشواذ جنسياً! والقمل والبراغيث والبق!! عمرها لا يقل عن مائة عام! فرشها لم يتغير منذ افتتاحها! وزبائن القرى الطيبين يتعرفون على البق بحكم العشرة الطويلة!! من بيت فيها لا يحترمه أحد! الحكومة تهاجمها باستمرار لتأخذ منها النزلاء بالجملة .. شعرت برعشة الخوف ؛ فإذا كان هذا الكلام يقال عن لوكاندة مرخصة وذات إسم براق ، فما الذى يمكن أن يقال عن وكالة عطية؟ بل ما الذى يمكن أن يقوله لو علم أننى فى أعماقى أميل إلى وكالة عطية. فإذا كانت لوكاندة الفردوس التى تعمل برخصة رسمية وتتقاضى عشرة قروش فى الليلة عن أحقر سرير ، وتطالب النزول ببطاقة شخصية وبيانات دقيقة ، لها مثل هذه السمعة التى يذكرها أبو سن ، فإن وكالة عطية لا تمثل مستوى أدنى .

فجأة قال محمد أبو سن :

- " ما رأيكما فى عشاء؟! "

نظرت حولى فوجدت الليل قد احتاط بنا منذ وقت طويل ، وأنا قضينا وقتاً طيباً فى كلام لم اسمع ثلاثة ارباعه على الاقل. وقال عبد الله أفندى :

- " تغدينا عندى ولكن الله ليس ضد العشاء! خاصة عشاءك الذى تتفنن فى

صنعه!

- " ورقة اللحمه هى الوصفة الناجحة! "

وأشار للولد حندوقة على البنك المواجه ، فقفز عابراً البنك كالبهلوان ثم اختفى فى شارع السوسي . وبعد حوالى ربع ساعة عاد يحمل على صدره جعبة كبيرة فيها لحم وبصل وليمون وطماطم وثوم وجرجير. خرط كل ذلك إلى قطع صغيرة وضعها فوق بعضها فى مستطيل لفة بورقة سلوفان ثم لفة ثانية فى ورق اللحم التخين ثم

ذهب بها إلى الفرن البلدي حيث دفع بها الفران إلى جوف اللهب لمدة ساعة ؛ ثم عاد بها محمولة على كومة من الأرغفة الساخنة. فوق فرشاة من الجرائد انفتحت اللفة فإذا سمفونية من روائح عبقرية تنبعث فتبعث الشوق والطرب والإنسانية. فليات شارع السوسى برمته اصحاب دكاكين وزبائن لكي يشاركونا الوليمة فحتماً سوف تكفينا وتفيض ، لكن آه من وسع البطون ؛ إخرطنا فى الأكل حتى أتينا على كافته فى دقائق معدودة . مر بائع الشاي وبائع الفانلات والسراويل الواقف بعربة يد بجوار محل ابي سن ، وصبي محل العصير الذى ما إن رأنا وهو يمر حتى طاف بلهنه أربعة زجاجات اسباتس يمكن أن تطلب منه الآن ، فتلكاً حتى أكل نصيبه هو الآخر وجاء الولد الذى يشحم مجارى الأبواب فوجد الورقة ماتزال تحفل باللبن وفتافيت اللحم وكلايغ البصل والطماطم والجرجير وبقايا أرغفة ، فأكل بشهية ، ولم ينس إزاء كل لقمة أن يرسل الدعوات لنا بالستر وعمار البيت ، ثم تكفل بجمع الورق والبقايا واحتجازها معه ليرميها فى علبه القمامة المعلقة فى عامود النور فى الشارع العمومي ؛ وتطوع فمسح البنك بكم قميصه . إنبسط منه محمد أبو سن فأمر له بزجاجة اسباتس هو الآخر حتى لا نكون قد أجحفناه بأخذ دعوات اقل مما أعطينا ؛ وفوق ذلك غمزه بالحسنة المعتادة مقابل تشحيم الباب..

بعد هذه العشرة الدسمة مضينا نحو حي أبو الريش ، لكننا لم نكد نبتعد حتى توقفنا أمام مبنى مضاء من الخارج بلافتة مكتوب عليها : لو كاندة الأمراء . دخلنا . إستقبلنا رجل بلحية طويلة وزبيبة صلاة بارزة على الجبين كحبة التين ، يمسك بيده مسبحة . تقدم منه محمد أبو سن ممسكاً بكتفي :

- " إزيك يا حاج صلاح ! الراجل ده يهنا أمره ! دعه يبيت عندك مدة من الأيام ! خل بالك منه ! إختر له سريراً فى حجرة مستقلة تليق بشخصه ! هاك أجر اسبوع كامل ! بعد ذلك يحاسبك هو يوماً بيوم أو ربما شهراً بشهر ! "

بسم الحجاج صلاح وحوقل ثم فتح الدفتر الطويل السميك المبطش بالوسخ وزيت العرق . طلب بياناتى . أمليتها عليه ..

- " معك أمانات ؟! "

- " معى حقيبة هدومى ! "

- " خلها معك فالدار أمان ! إنما قصدت بالأمانات أشياء ثمينة مثل النقود الكبيرة أو المسبوكات الذهبية أو خلافة مما يغري بالسرقة لكي نضعها لك هنا في دولاب الأمانات لتأخذها وقتما تريد ! " ..

- " تشكر يا حاج صلاح ! أنا على فيض الكريم ! "

نادى : ياريس . فنحن إلينا شاب أسود خفيف الظل مفلوج السن . قال الحاج صلاح وهو ينزع من لوحة خلف راسه على الحائط مفتاحاً ملحقاً برقعة نحاسية عليها رقم محفور :

- " إذهب بالأستاذ إلى نمره خمسة وأربعين ! " ..

الحجرة كانت محدقة ، فيها سرير جميل بعمدان نحاسية ، مع دولاب مستطيل بدرفتين ، وتراييزة خشبية صغيرة ، وكرسی من الخيزران . فوق التراييزة جرنال مفروش قديم ، وطفاية سجائر ، وكوب ماء . دفعنى أبو سن إلى الداخل واضعاً يده فى يدي فإذا بجنيه كامل يستقر فيها ؛ فاقشعر بدننى من الغبطة والشعور بالعرفان . ثم وضعته فى جيبي . قال :

- " دعنى اراك باستمرار ! أعطنى نصف شهر لتدبير العمل مع خالى ! تصبح على خير ! "

ودعتهما حتى باب اللوكاندة. عدت إلى الحجرة. تذكرت أننى طوال النهار اشتاق لسجارة ؛ فقفلت عائداً إلى الشارع لأشترى سيجارتين ماركة هوليدو. فلما نزلت شعرت بمدى لذة أن يمضى الإنسان ليلاً فى شوارع المدينة وهو موقن من أن له مأوى فى المدينة سيعود إليه وقتما يشاء ؛ فمضيت أجدول شاعراً بلذة فائقة .

يا عيشى يا واكل عيشى

واظبت على زيارة محمد أبو سن فى دكانه كل مساء ، فأمكث معه حتى تبدأ السهرة فى بيت صديق يدعى " سيد عيشى " . هو طالب فى السنة الثالثة بكلية الحقوق ، وعضو بارز فى جمعية الإخوان المسلمين ، وله نشاط حافل فى الشعبة ، إذ يحبه الشبان يلتفون حوله للبحث فى مشاريع فنية ورياضية وكشفية كثيرة . كان يغرم بالرحلات ، خاصة إلى الأماكن البعيدة كالوادي الجديد والفيوم وسفاجة والغردقة للتعرف على شباب القطر من إخواننا الكثيرين . مبدؤه أن كل شخص جديد تعرفه إنما هو كتاب قرأته وتعلمت منه ، فضلاً عن العزوة التى تشعر بها كلما كبرت عائلتك من الأصدقاء والمعارف . يتميز باللطف الشديد . ربة القوام ، مدكوك الجسد جالس الملامح ، كل ملمح فيه مستقر فى مكانه راسخ ؛ كبير الرأس والوجه، حليق الشعر على طريقة الأفندية المحترمين ، حليق اللحية أيضاً احمر الوجه كقرص الشمس ساعة الغسق ، باسم على الدوام متأهب لإطلاق ضحكة جزلة جبورة بصوت لاذع كدق الهاون . منضبط السلوك مهذب الحديث على قدر هائل من الأدب والخجل . محتشم فى ملبسه واختيار الوانه. متحفظ فى مشيته ونظراته . بما يليق بوكيل للنائب العام أو محام كبير بعد شهور معدودة . أبوه تاجر غلال كبير عتيق ، ورث هذه المهنة أبا عن جد ، لدرجة أن المسنين من أهل حي صلاح الدين يقولون إن المحل الذى يتركز فيه الحاج سالم العيشى الآن هو نفس الدكان الذى تركز فيه جده وجد جده من قرون طويلة مضت ؛ كل ما طرأ عليه من تغيير هو تحديد طلائه وإضافة بعض المقاعد الحديثة الطراز ، حتى الدكة الخشبية العتيقة المثبتة فى مكانها بجوار الباب يقال إنها من عمر الدكان . يقولون إنه من عصر المماليك إلى عصر الحرب العالمية الثانية تكررت الهتافات أمام باب هذا الدكان ، يقوم بها الفقراء وجموع الناس الجوعى ، يهتفون فى تنديد :

- " يا عيشى يا واكل عيشى !! " .

ذلك أن الجد عيشى الأكبر كان متكفلاً بمحاصيل المديرية يجمعها للسلطان من الفلاحين ؛ فكان يتفق مع السلطان على كمية معينة من المحاصيل يدفعها من مخازنه

ليتصرف هو مع الفلاحين ، على أن يتكفل السلطان بدعمه بالحراسة والشرطة التي تساعد في التحصيل باستخدام القوة إن لزم أو نزع الملكية إن اقتضى الأمر. ورغم أن هذا النظام قد بطل مع الزمن فإن العليشي الثالث أو الرابع أو الخامس كل منهم في عصره كان خبيراً بأمور السياسة في البلاد يدرس أحوال الإقتصاد وأحوال المحاصيل الزراعية فيقوم بتخزينها وقتاً طويلاً لبيعها وقت التسحبة بأضعاف اضعاف ثمنها ، خاصة في أوقات الحرب أو الجفاف ؛ مما جعل الناس كلما تأزم وضع الخبز تنصرف أذهانهم إلى العليشي الذي بات رمزاً لشحة الخبز ، فيتجمعون أمام هذا الدكان العتيق وينددون به في ثورة غاضبة : يا عليشي يا واكل عيشي ..

سيد عليشي نفسه هو الذي يحكى هذا التاريخ في كثير من المرح والسخرية بأهله تجار الحبوب والمحاصيل الذين أصبحوا يملكون نصف عمائر حي صلاح الدين الجديدة والقديمة ، وأرضاً زراعية في زمامات كوم حمادة وإيتاي البارود وغيرها ؛ ومعظم أراضيهم جنائن تنتج العنب والبرتقال والجوافة والمانجو والكمثرى والموز ؛ يقوم على حراستها ورعايتها نفر من أبناء العليشين الجدد الذين تزوجوا واستوطنوا حيث توجد هذه الحدائق . هدايا العليشي لأصدقائه وزملائه تتراوح بين أقفاص العنب وصناديق المانجو وسلال البرتقال واليوسفي وسبائط البلح بجميع أنواعه . ورغم أن الأكل في بيوتهم بغير حساب فإنه يعشق العشاء ليلاً في مطعم ختعن الشهير النظيف ، حيث يلقي فيه عناية كبيرة تليق بمقام أهله المادى ، فتجى له أطباق الكباب والخضراوات بالموزة والأرانب والحمام المحشو بالفريك . في أربع ليال في الأسبوع يعزم شلته المفضلة التي منها أبو سن وأبو حنطور ، ومحام عتيق يدعى محمود أبو طور ، ومحام شاب يدعى سليمان بلبع ، ومدرس لغة إنجليزية في المدارس الثانوية يدعى صلاح العسكري ، وطالب في كلية الآداب اسمه عمر اللقاني. هؤلاء لم تكن صلتى بهم تتجاوز معرفة الاسم والعمل واللقاءات التي تجمعنا بسيد عليشي ، حيث يغلق أبو سن دكانه في حوالى العاشرة مساء ، أو ينصرف في التاسعة تاركاً ابن شقيقته الذي كثيراً ما يخرج من المدرسة الثانوية ويحجى لكي يساعد خاله فيجلس على " الكيس " يقبض ثمن المبيعات بدلاً منه في لحظات غيابه ؛ وهو ولد مؤدب ذكي اسمه فكري فايد ويشبه خاله في كل شئ ..

عبد الله افندى حنطور ومحمد أبو سن وأنا نتوجه إلى مقهى فى شارع الخيري ، حيث يتجمع الأصدقاء . يتوجه الراكب إلى مطاعم نحتن لتناول العشاء ، أو عند سليمان بلبع أو عمر اللقاني فى منازلهم فى الليالي الثلاث الباقية من الأسبوع ، فىقل مستوى العشاء بكثير جداً ، وربما يتم بشكل تلفيقى مثير للثناء خاصة عند عمر اللقاني نظراً لظروف أمه المريضة لأنه مضرب عن الزواج مؤقتاً احتجاجاً على موجة التهتك والإباحية التى أحدثتها ثورة يوليو بين الفتيات المصريات باسم التحرر والسفور وما إلى ذلك من تحلل يبشر بقيام الساعة . بعد العشاء نتوجه إلى بيت العليشى فى شارع صلاح الدين ، فى سيارة أبيه ماركة البويك ، التى يستخدمها فى الليل فحسب كانت تستوعبنا جميعاً بكل راحة ؛ فىتر كنا ويرتد عائداً فى لمح البصر لياتى بأبيه الذى يكون قد شطب العمل فى المحل ومكث فى انتظاره والباب نصف مغلق .. البيت مهيب ، مبنى على مساحة كبيرة تحتل ناصيتين ، بأربع طوابق ، وشرفات دائرية واسعة مزركشة بأفاريز ودرابزينات من حديد مخروطى ملون. الغرف واسعة، حتى السلم درجاته عريضة جداً وطويلة من الرخام النقى الحر. نصعد الطوابق كلها حتى السطح . أرضية السطح مغطاه بالبلاطات العريضة الملونة . أصص الزرع مرتصة فى حلقة دائرية على حوامل حديدية مثل حوامل الأزار . أما السور الدائري السميك ففي جوفه أحواض مستطيلة مبنية بالآجر ومزودة بترية سمراء تنبت فيها ورود وزهور عطرية . فى المواجهة فى ركن كبير من السور بناء جميل تظله أشجار اللبلاب وعناقيد العنب وخبوط من زهور الفل والياسمين ؛ تلك هى الحجرة الخاصة التى كانت فى الأصل معدة لغسيل الثياب ولكن سيد استولى عليها منذ امتحان الشهادة الابتدائية وجعل منها محرابه الخاص للمذاكرة والقراءة واستقبال الأصدقاء . هى تحفة حقيقية ، على مساحة تصلح لإقامة شقة كاملة . ما أن تدخلها حتى تفاجأ بمكتبة كبيرة حافلة ؛ الحوائط كلها أرفف أنيقة ملهونة بالأوباما ، تمتلئ بعشرات من المجلدات الكبيرة والصغيرة لكتب ومجلات وصحف ، وثمانيل من النحاس والبرونز والرخام ؛ الأرض مفروشة بسجاد ثمين ؛ فوقها عدد كبير من المقاعد من طراز فرنسى ، وكنب بلدى . ثمة درابزين صغير يلتحق به مايشبه الباب على يمين الداخل . تفاجأ بأن سلماً خشبياً شديداً

الأناقة والنظافة يهبط إلى أسفل ، إلى الشقة التي تسكنها أم سيد وإخوته ، فى حين تسكن الشقة المقابلة زوجة أبيه الأقدم من أمه . وفى بقية الطوابق يسكن أعمام سيد وأولادهم المتزوجون . كثيراً ما يتركنا سيد ويهبط هذا السلم الداخلى ، ليعود بعد قليل حاملاً الشاي أو القهوة أو عصير البرتقال والليمون وأطباق الفاكهة النادرة فى غير مواسمها ، مثلجة شهية ثم تبدأ السهرة بقراءة عبقریات العقاد ، أو الفتنة الكبرى لطفه حسين ، أو : من هنا نعلم ومحمد والمسيح وإنه الإنسان والوصايا العشر لخالد محمد خالد . كل واحد يقرأ حتى يجف ريقه فيترك الكتاب لغيره . وبين كل بضع صفحات ترتفع الأصوات كلها دفعة واحدة فى مناقشة غوغائية بعض الشيء ، سرعان ما تنتظم قليلاً ليقطعها القارئ مستأنفاً الإسترسال طالباً تأجيل النقاش حتى ينتهى هذا الفصل على الأقل ..

تنبهت فى الأيام الأخيرة إلى سيد العليشى ؛ إندهشت كيف كان غائباً عن فطنتى منذ بدأت عصر التشرد الأليم ؛ ما بالى لا أكلمه الآن عن ظروفى الشخصية عسى أن يجد لي عملاً فى مخازنهم العامرة العتيقة ، أو على الأقل يتوسط لى لدى واحد من طبقة كبار التجار فى المدينة أولئك الذين تتكوم البضائع أمام محلاتهم بغير حساب كما يكثر عندهم عدد العاملين . إن مدينة دمنهور حافلة بالمحلات ذوات البنوك الكبيرة الممتدة على مساحات عميقة ، مثل محلات محمود الخوالقة تاجر الصيني ، تحتوى محلاته على كل ما يخطر او لا يخطر على البال من أشياء تخص مطابخ المنازل وجهاز العرائس حتى لقد يحتاج الزائر لمحلاته إلى يوم بلييلة لكى ينتهى من المرور على جميع بنوكه وأركانه . ومثل محلات المسيرى تاجر الفانلات والسراويل والمنسوجات القطنية ولوازم الفرش والحمامات ، يملك مصانع كبيرة ويصدر للخارج . ومثل محلات غراب تاجر الخردوات الذى تعلن لافتات محلاته عن وجود مائة ألف صنف بدون مبالغة . كل واحد من هؤلاء له حياة هى العجب العجائب ؛ وأعجب ما فيها أن أهل المدينة كلهم يرونها رؤية العين ويلمسونها لمس اليد ويصيبهم من جرائها بعض الخير او بعض الشر ومع ذلك لا يصدقونها إن هى حكيت لهم ؛ فليس يصدق أحلمهم إذا قيل له إن تاجر الصيني أو أنداده لديه محل خاص بالجزارة مهمته بالدرجة الأولى تمويل البيت باللحوم الطازجة المضمونة ، أما

البيع فغناوة على الهامش ؛ أو أن أحدهم لديه شقة ليس فى الإسكندرية فحسب بل وفى لندن وباريس وفرانكفورت وسويسرا ؛ فضلاً عن محلات جانبية للحضراوات والفاكهة والدواجن . كل هذه المحلات الفرعية ليست تعاني من أى نقص فى المواد، لأنها تمول من مزارع وحدائق يمتلكها الواحد منهم فى ريف البحيرة الخصيب . وليس ثمة من مشاكل بين هؤلاء القوم وبين مصلحة الضرائب ، لأن الجميع بيت متعشياً أربعة وعشرين قيراطاً .. فكم يكون جميلاً ورائعاً لو أن سيد العليشى - وهو أخ فى الله كما يُرينا دائماً - استطاع أن يلحقنى بمعية واحد من هؤلاء الأباطرة ككاتب للحسابات أو بائعاً على بنك . وكم يكون أروع وأجمل لو أنه تآثر بظروفي النفسية والسكنية فأذن لى بالسكنى أو حتى بالمبيت معه مؤقتاً فى هذه الغرفة البديعة النظيفة ..

وهكذا استقرت نيتى على اختيار لحظة مناسبة لأكله فى أمرى ؛ ولكن خاطراً طاف بنهني : إذا كان ذلك ممكناً بالنسبة لسيد العليشى فلماذا لم يطف بنهن محمد أبو سن وهو يفكر فى كيفية تقديم المساعدة لى ؟ .. خفت ؛ إن أنا كلمت العليشى فى موضوعي أن يغضب أبو سن .. رأيت تأجيل ذلك حتى يبلغني أبو سن أنه قد يمس من محلات خاله . وفى الليلة التى اقتنعت فيها بأنني يجب أن أعطي العليشى مجرد فكرة عن ظروفي أمهد بها لما سوف اطلبه صراحة ؛ حدث ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق : كنا قد تعشينا على حسابه حماماً مشوياً عند ختعلن ، فتخدرت أحسادنا من الإفراط فى الشبع ، وفترت حماسنا للقراءة خاصة أننا انتهينا بالأمس من كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق فى طبعة نادرة مهربة ، ولم نستقر بعد على الكتاب الجديد الذى نبدأ فى قراءته . تمطرنا فوق الشلت على السجادة ندخن بشرافة ونرشف الشاي الثقيل . حينئذ قال اللقاني فجأة للعليشى :
- " الأخ عبد الحميد مهينة سأل عنك مرتين فى الشعبة بالتليفون وبشكل ملح " تكرشم أنف سيد العليشى ، وشوح بذراعه علامة القرف والإشمزاز ؛ مما حدا بعمر اللقاني أن يستدرك : " أو شككت أن أجيء به معي " فانتفض سيد العليشى جالساً يلوح بأصبعه فى تهديد جاد :
- " إياك إياك إلا إذا كنت تريد أن تخسرنى "

فاحمر وجه اللقاني كقلب البطيخة الشيليان من شدة الحرج وعدم التوقع :
- " ليم ؟ إنه ولد غلبان ومكافح قلبه أبيض يحبك حباً صادقاً لا رية فيه . ثم
إنه مؤدب وملتزم بفروضه وقرآنه ومشاعر اصدقائه وحسب علمي أنك تحبه " .
عقد سيد العليشي ما بين حاجبيه ولوى عنقه إلى بعيد علامة الضجر ؛ ثم كأنه
يتذرع بالهدوء :

- " كل هذا أعرفه ! وهو صحيح وإلا ما كنت ساعدته ، أنت تعرف أنني
أنفقت عليه مئات الجنيهات ومستعد لمواصلة الإنفاق مئات أخرى ، مستعد لدفع
مصاريق دراسته في الأزهر حتى يتخرج وشراء كسوته وكسوة أهله من جعل
الزكاة الذي يخصصه أبي كل عام وهو كثير والحمد لله . لكنني غير مستعد لان
أجالسه أو أعطيه فرصة لأن يكون صديقي يجالسي نداءً لند ، إنه من بيئة وضيعة
جداً فأبوه من قبائل العجر الرُّحَل ثم إنه حسود وأنا أكره الحسود ، إنك إن جالسته
انكسرت هيبتك في نظره وإذا انكسرت هيبتك تجراً عليك وهزاً بك واستحالت
الصدقة التي تمن عليه بها إلى شبه إتاوة ، إنني أعرف هذا الصنف من الناس ، دكان
أبي معرض كبير أوراني الكثير منهم وأوقفني على طبائعهم . وعلى كل حال دعنا
منه الآن نريد أن نضيف أذهاننا لنقرأ كتاب " إبليس " للعقاد .. فصمت اللقاني
صمتاً كظيماً كأنه قد أهين . الغريب أن أبا حنطور وأبا سن كلاهما لم يراجعه في
كلامه ؛ لكن شيئاً من الإمتعاض ظهرت آثاره على وجهيهما بوضوح . بعد هنيهة
مد أبو حنطور رقبته الطويلة بوجهه المشطوف الذي بدا في انعكاس الأضواء
الركنية كمجموعة من المثلثات متداخلة في بعضها ؛ وقال بنحس جميل شديد العمق
والتورية في صيغة نكتة مرحة :

- " وما الداعي لإبليس الليلة ؟ إننا محتاجين الآن لطرده بدلاً من استحضاره ..
فتبسم أبو سن عن أسنان كبيرة ، بسمة تنضح بالذكاء والغباء ؛ أسقط فكه
الأسفل بحركة ذات معنى كأنه يخشى مغبة هذه الغمزة القارصة . وهكذا أيقنت في
الحال أن عشمي في سيد العليشي مساو لعشم إبليس في الجنة . كما أيقنت أنه لو
علم يأتي شوهت حلقة مدرس الرياضة وانقضت عليه فانفصلت من المعهد
وصرت متشرداً إضافة إلى أنني في الاصل ابن ناس فقراء معدمين فلسوف يحتقرني

أشد الإحتقار ، وربما أوصى بعدم اصطحابهم لي عند الحجى إليه ، فاستفزنى ضميري أن أبالغ فى احتقاره ، أن أمتنع عن الحجى من تلقاء نفسي ، أن أشعره بعدم الاهتمام إذا لقيته صدفه ؛ ذلك أنى لن أذهب إلى شعبة الإخوان بعد الآن مطلقاً ، فلست عضواً بعد فى الجماعة ، كما أنى لم أعد أنبهر بمواعظهم كلما تقدمت فى القراءة معهم أو مع نفسي ، وإن كنت أحب الكثيرين منهم حباً عميقاً وأحترمهم أشد الإحترام .. ولقد حدث . فأما الشعبة فلم أكن فى الأصل متعلقاً بها منذ أن وجدت ضالتي فى مقر الحرس الوطنى بخديقة نادى الموظفين الحافلة بملاعب الكرة بجميع أنواعها ومنصات للملاكمة والمصارعة الحرة بل وساحات للجري وللقفز على الحواجز العالية ورمى الجلة والتدريبات العسكرية وما إلى ذلك . صلتى كانت بفريق التمثيل ، الذى يضم نخبة من شباب المدارس والجامعات من أبناء دمنهور الذين يتعلمون فى الإسكندرية ويسافرون إليها كل يوم فى القطار ، ونخبة أخرى من راسبي الشهادات مثلي ومثل وائل أبو النصر أحد راسبي التوجيهية الذى يجيد العزف على العود والساكسفون والأوركورديون ويموت عشقاً فى التمثيل نظراً لإتساق شكله ووسامة ملامحه ؛ إذ هو مديد القامة ، ممشوق القوام ، غزير الشعر مصففه بخصل تنحدر قليلاً نحو الجبين مفروقة من الوسط . هو ممثل جيد بالفعل بل لا يمكن إلا أن يكون ممثلاً من خصلة شعره هذه إلى حدائه اللميع الأنيق . وقد أصاب شهرة كبيرة فى المجتمع الدمنهوري من الساحة الشعبية إلى نادى الموظفين إلى حفلات المدارس الكبيرة إلى الحفلات الرسمية التى تقيمها المحافظة أو هيئة التحرير فى المناسبات الوطنية كعيد الجلاء أو عيد الثورة ؛ بل إنه كان يظهر فى الأفراح العائلية سواء فى مسرح سينما البلدية أو منصة فى الشارع يؤدي بعض منولوجات من تأليفه وتلحينه أو تأليف أحد رجالي دمنهور كحامد الأطمس أو حمدي النعناعي أو عبد المطلب منجي ، يتخلل المنولوج مشاهد تمثيلية على درجة كبيرة من الإتقان فى الأداء إذ هى نكات أو نواذر مروية حول أنماط شعبية ملموسة لكافة المجتمع الدمنهوري . كان يقوم ببطولة مسرحية (الشرف الرفيع) التى ألفها ويقوم بإخراجها لفرقة تمثيل الحرس الوطنى ، ودوره هو دور الشاب الجامعي الذى يتميز غيظاً من الإحتلال الإنجليزى وحقداً عليه فيتطوع للقتال فى مدينة الإسماعيلية مردداً

بيتاً شهيراً من قصيدة لأمير الشعراء : " لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم " ؛ إذ أن للحرية الحمراء باب بكل يد مضرحة يدق . وكنت قد أعجبته ، وتأكد من صدق ميولي نحو التأليف والتمثيل ومن وعى ملاحظاتي الفنية على بناء مسرحيته وعلى تمثيل الإخوة ؛ فوضعتني في دور الباشا كبديل إحتياطي لصديقنا مأمون فريد غانم الطالب بأداب الإسكندرية الذي قد تمنعه ظروف المرض المفاجئة من الحضور ، فحفظت الدور عن ظهر قلب وصرت أؤديه في التدريبات الليلية في الأوقات التي يغيب فيها صديقنا كان ذلك مما يسعدني غاية السعادة يجعلني أمشي في شوارع المدينة آخر الليل وأنا شاعر بأن لي بعض كيان ، على الأقل لساعات معدودة ينهار كل شيء بعدها على رصيف النوم . وإذا تذكرت أنني انقطعت عن التدريبات لبعض الوقت داخلني شعور عميق بالإبتهاج كأنني اكتشفت برأحاً جديداً في سجن الليل . في الحال فتشت في ذاكرتي عن السبب الحقيقي الغامض الذي منعي من حضور التدريبات في الليالي الكبيرة الماضية ، فتبين لي أن الثياب الرثة والمظهر البائس هما اللذان أخرجاني من الظهور في ساحة النادي أو حتى المرور من أمامه . فلما رأيتني متقمشاً بالجديد الذي لم يفقد نكهته بعد ؛ وجدته أمضي في حماسة إلى النادي في خطوة شبه عسكرية حاولت دائماً أن أقلد بها مشية الأفندية من أولاد المدينة . غير أنني في الغالب كنت أصل إلى هناك بعد التاسعة مساءً إذ أنني أمر على دكان محمد أبو سن لأمكث معه ريثما أشرب كوباً شاي في انتظار أن أسمع خبراً عن الشغل الذي يحاول تدبيره لي في محلات خاله . إلا أنني ما لبثت حتى سمعت من المرور اليومي عليه بدون جدوى ؛ فصرت أذهب يوماً وأفوت يوماً . وكانت مدة الإقامة في اللوكاندة قد انتهت لكنني مستمر في المبيت على حساب أبي سن . إستمر ذلك شهوراً طويلة ؛ حتى فوجئت ذات صباح بالرجل السنّي يوصيني - بكل أدب جم - ان أخذ معي حقيبة ملابس ، ففهمت تلقائياً أنني لا ينبغي أن أعود إلا وفي يدي نقود . تقبض قلبي ، هاهي ذي الثياب النظيفة ستؤوب إلى الوسخ من جديد باستئناف التشرذم في وساحة الليل و تراب ارضفته وبلبل طله .

بدرية

لم يكن معي أى نقود على الإطلاق ، وقد بدت الحقيبة كعبء ثقيل كمشكلة عويصة ، فأنا لا يمكن أن أظل ماضياً بها فى الطريق إلى مالا نهاية . كان لابد من التخلص منها فى مكان أمين . ألهمنى الله بالمرور من أمام دكان صديقى حمدي الزواوي بائع السجائر والدخان المعسل وبعض أنواع الحلوى . كثيراً ما كنت أقف معه ساعات طويلة نتحدث فى أى حديث ، فإن طال الحديث وندرت الزبائن جلست فوق البنك مدلداً ساقى فى عتبة الدكان وكوب الشاي فى يدي ، وحمدي الزواوي بجوارى من الداخل يميل مرتفعاً البنك ينبهني إلى أجساد النساء اللاتي يراهن تحفاً فنية صورها جل جلاله تبارك الخلاق فيما خلق . كنا فى الظهيرة والشمس تضرب خيامها أمام دكانه توقد ركية نار فى أفقها ؛ مما اضطره إلى فرد التندة الكتانية ، ووقف خلف البنك منهمكاً فى عصر ليمونة فوق طبق الفول الذى تهتف رائحته قائلة : يحيا فول العاصى ..

حودت ، فامتد ظلي المطوط فغطى طبق الفول والرغيفين والبصلتين وطبق السلاطة بالطرشي . رفع قامته ، جحظت عيناه فيما يقرب من زهول المفاجأة . لم يكن رأني منذ وقت طويل جداً ، فأنحنى فارداً ذراعيه عبر البنك ، مبربشاً بعينه اليمنى ذات الغشاوة الخفيفة ، ماداً أنفه المستطيل الرفيع كقلم مبطط ، وحاجبيه الرفيعين الثقيلين بظلال سوداء ، وفمه الدقيق ينوء بشارب كثيف سوى بعناية الملقاط والفتلة ، حتى أن بقايا النتف واضحة وضوح الشارب . ملت عبر البنك فحضنته بادلته القبل فى خديه ، ثم ركنت الحقيبة على سطح البنك بطريقة فهم منها أننى أحملها وألف بها فى الشوارع منذ شهور طويلة مضت . قفزت جالساً بجوار طبق الفول مباشرة . مد رقبته الطويلة المبرومة نحو الشارع صائحاً : ياد يافهمي . فجاء صبي فى العاشرة من عمره مثل رجل صغير القوام يرتدي بذلة كاملة محندقة برباط عنق ، يقابله قدر كبير من اللباقة واللياقة معاً ، ذلك هو فهمي الناظر ابن أخت حمدي الزواوي من الصائغ الجاور لدكانه مباشرة ، وهو تلميذ فى الإبتدائية وعضو فى فريق تمثيل الحرس الوطنى ويمثل دور ابن الباشا اللبيب المتكلم

بكفاءة مذهشة حقاً . سلم فهمي على بجمارة الرجال ، باعتبارنا زملاء فى فرىق واحد ونمثل معاً فى مشاهد عديدة نداءً لند . صاح فىه خاله : " طبق فول واربع أرغفة بسرعة " . فىى الحال لم نره ، وفىى الحال ظهر من جديء ملوحاً بذراعىه للخلف فى حركة رشىقة تعنى القول : جاي حالاً . وبالفعل ، ماكدنا نأتى على الطبق حتى دنحل علينا شاب ىرتدى المريلة البىضاء مكتوب على صدرها اسم العاصى بفرز الترىكو الأحمر وبجواره رسم لقدر فول تطل من فوهتها ىء الكبشة الأنىقة . وضع صىنية الطعام بأطباقها الثمىنة وانصرف ..

ماكل هذه الشهىة ؟ كان حمىءى الزواوى قد انسحب فى هءوء فأشعل وابور السبرءو ءمء البنك ووضع فوقه براد الشاى الذى راح ىغلى وىرسل عطر الشاى النفاذ ، فىما أنا مسءمر فى فرد اللقىمات ومسح أطراف الطبق بها فى لذة هائلة . وءىن أمسكء بكوبة الشاى الزجاجة الصغىرة المءملىة المرغىة كان فىى ىلوك آخر لقمة طوءتها فىه . فبلذة فائقة رشءء رشفة شاى لءءلء ببقاىا الطعام ، إلا وحمىءى الزواوى ىغمزنى بسىجارة هولىوء طازجة النكهة ، ورض الأطباق وازاؤها إلى بعىء وارءفق مكانها بجوارى كعهءه ءائماً صبار ىجذب أنفاساً من السىجارة فءنضفظ أصءاغه غائصة فى فراغ حنكه فىما ءءكرمء شفاءه كأنه ىرشف القبل العمىقة من ءعر بنت من بنات الحور ، فىى كل حرءاته وسكناءه وكلماءه كءىر من الشهوانىة الغرىزىة الىقظة ، والشبق العمىق الءفىن ، راح ىرسل سحب الءحان الغزىرة ، وصوءه ىبعءرها فى حلقة :

- " ىءو أنك لا ءعاشر ! أىن كنت ؟ هل هذا ىنفع !؟ "

لكزءه بأطراف اصابعى فى شعر رأسه الجعء :

- " الحىاة هو وقرف وطىنة ! هكءا اءفقنا ءائماً ! "

كعاءءه لم ىسألنى عن ءفاصىل أى شىء ، رغم اسءءءاءه الءائم للإسءماع إلى مالا نهایة ، ولأنىى كنت موثقاً من ءقءه الءامة فى وفى كل ما أقول ، وإءساسى بأنه لن ىءورع عن إفراغ ءرج البنك فى جىبى إذا طلبءه على سبىل السلفة أو على أى سبىل ، لءلك كنت ءائماً أبءا أحجم عن مءاولة الإءراض منه ، إذ ءءجلى الطبىبة فى عىنیه ، فاءخىله - لا أءرى لماءا - بائساً مضءوكاً علیه فى نصابة كبىرة أوءء

برأسمال دكانه وهو واقف حائر وديع لا يدري ماذا يفعل سوى أن الدمع يبكي من عينيه إذ يتلقى تقرير أهله المسبوتين وتعييرهم له بأنه الوحيد الذى خاب فى إخوته لشدة طبيته وغفلته ، فكل إخوته بين محام وطبيب وضابط شرطة ومدرس وناظر مدرسة وصاحب مانيفاتورة ، إلا هو ، حصل على الابتدائية بشق النفس وشطر على نفسه الطريق المدرسي حتى بات معرة أبيه وأخوته لبضع سنوات ، إلى أن ساعدته أمه الميسورة باستئجار هذا الدكان وملء رفوفه بالبضاعة تاركة إياه يسبح فى بحر الحياة مسئولاً عن نفسه ، فكان ان تعب أشد التعب لكي يقف على قدميه ، ولولا أن الشقة التى يقيم فيها من ملك أبيه فى بيتهم لضوعف تعبهم . وقد نوى حمدي ألا يتزوج حتى يستريح تماماً ..

شكله دائماً فى نظري مثير للشفقة خاصة حين يستعد لـجى "التروسيكل" بالسجائر ، فيروح يدبر قيمة الفاتورة ، فيبدو فى غاية من الإرتباك والتعاسة ، مع أنه يكون قد تبرع منذ قليل بـجنيه كامل لعمل خيري لو احتفظ به لاكتملت قيمة الفاتورة على التمام . الوحيد الذى يمكن أن يقرضني أى مبلغ دون تلك أو سؤال عن أى تفاصيل ، أجدني غير متحمس على الإطلاق للإقتراض منه ، مكتفياً بتدخين السجائر التى يقدحها على بغير حساب طوال وقفتي معه ، مع الشاى أكثر من مرة.. كان ثمة طنين يملأ سماء المدينة يصنع أرضية كثيفة لأصوات السيارات وآلات التنبيه ونداءات الباعة فى سوق الخضار وسوق السمك وشارع السوسى خلفنا مباشرة . سرعان ماراح الطنين يقترّب شيئاً فشيئاً يتجسد فى موسيقى القرب والطربيت والبروجي والآلات النحاسية ، إنها فرقة موسيقى الشرطة ، ما لبثت حتى ظهرت طاغية مدوية زاحفة على أرض الشارع تجر خلفها أرتالا من العماليق لابسى الأصفر فى اصفر متمطين بالأحزمة والأشرطة الحمراء ، خلف الفرقة طوائف من عساكر الشرطة يمتد موكبهم الطويل على مدى البصر يمشون فى خطو عسكري مبهج على إيقاع الطربيت ، بعض السيدات فى الشرفات يتطوعن لتحياتها بالزغاريد ترفرف فوقها رنانة ريانة تدفع حمدي الزواوي إلى الهتاف بهمس مبجوح متهدج بنار الوجد :

- " ياو... ا... ال... د.. آدي الجد ولا بلاش ، هذه هي الشرطة الحقيقية فى البلاد ، الشرطة تستعرض قوتها براحتها كما تريد إنما شرطة الزغاريد هي الأنقى والأقوى " .

مع ذلك يخلو لنا أن نخرج مثل كل الناس لنقف على الباب نتفرج على استعراض الشرطة الذى تقيمه مديرية الأمن بشكل منتظم كل أسبوع تقريباً كل طائفة وراء الأخرى بلباسها المميز : شرطة المرور ، شرطة الأمن العام ، شرطة المطافئ ، شرطة المرافق ، شرطة التموين ، فى ذيلهم طلبة المدارس يحملون الأعلام واللافتات بأسماء مدارسهم أو معاهلهم بموسيقاهم الخاصة على قدهم يلبسون لبس الكشافة بأشرطة خضراء وحول الرقبة وسراويل قصيرة وقمصان من الكاكي الأصفر . بقليل من الإنتباض تذكرت أننى كان من المفروض أن أكون بينهم الآن لولا أنى بسوء مسلكي طردت من جنة الأفندية وأصبحت شريداً أو مندساً فيه بغير رخصة شرعية ..

وكانت أذيال الموكب الصغيرة القصيرة القامة تنسحب بطنينها الشديد وتباعد حينما سلمت على حمدي الزواوي ورجوته أن يحتفظ بحقيبتى عنده لحين عودتى لاستلامها بعد وقت قد يقصر أو يطول حسب التساهيل. ماكدت أخطو حتى ناداني وهز علبة هوليدو كانت فى يده ونظر فى جوفها مضيقاً عينيه فوجد بها ست سجائر ، طوح بها نحوي ، تلقفتها دون كلمة شكر ومضيت مسرعاً كأن ورائي مسئولية الدواوين . رحى أتسكع فى شارع الصاغة بغير هدف وقلبي يحدثني بأن أتوجه إلى وكالة عطية لكن كيف أذهب بغير نقود؟ إمتلاً عقلي بالضباب فرحت أمشى على غير هدى اتفرج على الفتارين كأنى أخطط لسرقتها أو احتلالها.

مرق من جوارى طيف يطرق الأسفلت بكعوب ثقيل منغومة فى رشاقة موقعة : تك .. تراك .. تك تراك . تأملت الجسد من ظهره . إنه ليس غريباً على ، هذا الظهر القائم فى رسوخ واضح الفلقتين من الكتفين العريضين حتى الخصر الرفيع ثم العجيزة الكبيرة المستديرة كالقبة . هيكل ينضح بالأنوثة والشهوة ، عملاق يوحى بأنه غير قابل للشبع إلا من إله الجنس ذاته . ساقان مبرومان ، سماتان فى بياض وسخاء الرخام . كعبان فوق كعبي الصندل اعتقلت فيهما الدماء الغضة القرمزية .

كانت فرجة ، خاصة أن الثوب الذي ترتديه ضيق يبرز كل نتوء خفى في جسدتها بوضوح تام ، وشفاف ، تظهر من تحته حمالة القميص الداخلي ذي اللون البمبي المتسق مع لون الجسد نفسه ، الذي تظهر منه جزر صغيرة بين الكتفين والذراعين والعنق المنخفضي تحت شعر أسود غزير لامع، معتقل على الجبين بشريط أحمر منطرح على الظهر على هيئة المقشنة ، كل من كان يمشي وراءها أسرع في خطوه حتى حاذها ليهمس في أذنيها بشئ فيما هي مارقة كالسهم المنطلق لا تلوي على شئ وإن بدا عليها أنها سعيدة مبتهجة مختالة بما تحدثه من ربكة في الشارع ، لكن المار بجذاتها ما أن يقع بصره على وجهها حتى يتقهقر منسلخاً عنها لاوياً وجهه ، وربما أطلق صيحة استنكار مصدومة وربما تمتم في غير خجل ولا حياء بـ : " أعوذ بالله - سبحان الله اللهم لا اعتراض " ذلك أن الفرق شاسع وهائل بين وجهها الخلفي ووجهها الأمامي ، لكن الأمر مع ذلك لا يعدم ناساً ثقلاء يمعنون في التعرض لها ومضايقتها ، فحينئذ تتوقف هي لبرهة ، ناظرة إليه في غضب جنوني وتأنيب حاد ، وربما بصفعة على وجه أحدهم بجرأة مخيفة رادعة ، وربما طلبت له الشرطة ..

أسرعت بدوري خلفها كأنني غير منتبه اليها . وكانت قد توقفت وراحت تهدر بكلمات غاضبة في صوت خفيض متوعد ، في وجوه بعض الشبان الواقفين على إحدى النواصي ، تجاوزتها قليلاً ثم استدرت عائداً كأنما بطريقة عفوية ، لأصير في مواجهتها تماماً . ياللحرج ، إنها بدرية القباني ، إبنة بنت عمي ، التي شارفت سن الأربعين ولم تتزوج بعد ، نظراً لغلظ شفيتها فحسب ، إذ كانت سبحان الله كالقمر المنير حقاً ، يتفجر وجهها بالضوء والحيوية والجاذبية ، لولا أن غلظ شفيتها بهذه الصورة المدهشة غير الطبيعية كان يصدم الرائي على الفور ، ولا بد من عملية جراحية تختصر هذين الكيسين الدهنيين ؛ لعله يتصور نفسه وهو يقبلها ليغيب برأسه كله بين شفيتها اللتين تبدوان كزلومة الفيل أو كحنك جوال مربوط بحبال متينة . قلت لها :

- " مالك يا بدرية ؟ ماذا حدث ؟ "

تدفق الدم في وجهها واتسعت عيونها فوق اتساع حتى شعرت أنني غرقت في عينيها السوداوتين ، قالت بترحاب حقيقي حار : " أهلاً أهلاً " وسلمت على

بحرارة ، فغابت يدي النحيلة في قبضة يد رخوة ندية ناعمة بذراع بضة ورسغ ملىء
بالأساور الذهبية .

ثم قالت :

- " لا شىء ، عيال صباغ يقفون على النواصي "

وكان الأولاد قد انزروا فى ركن بعيد وتصنعوا الإنشغال فى حجل وخرج
شديدين . قلت لها : " لا يهملك أى خدمة ؟ "

قالت : " شكراً " واستأنفت السير محررة رأسها حركة تعني : تفضل وامشي
معي . فسرت بحداثتها . قالت بعد برهة :

- " كيف حالك ؟ لم نرك منذ مدة طويلة عامل إيه فى المعهد ؟ "

قل لي ما هذا الخبر السيء الذي نقله أخي كرم من المعهد ؟ هل صحيح أنك
أردت قبل مدرس الرياضة ففصلوك من المعهد " ؟

شعرت كأن الأرض تميد بي . قلت : " نعم حدث " نظرت لي باستنكار غير
مصدقة :

- " كيف ؟ لماذا هل هذا فعل تفعله يا راجل ياطيب ؟ منذ متى كان فى أسرنا
قتالين أنا لا أصدق أنك فعلت هذا ؟ "

حكيت لها بسرعة وإيجاز حقيقة المسألة ، فبدأ عليها التأثر والأسف الشديدين .
قالت :

- " حرام ضيعت مستقبلك فى شربة ماء وماذا تفعل الان ياترى ؟ لقد زعلتني
والله يا شيخ "

- " سوف أسافر إلى الإسكندرية للعمل فى مصانع كبريت البنا - إنه كما
تعرفين من أعز أصدقاء أبي قبل أن يغتني أيام كان فقيراً معدماً فى بلدتنا "
تدلت شفرتها السفلى عن أسنان متسقة جميلة ، قالت :

" وهل يفتكر البنا أيام فقره ؟ وكيف يتأتى لك أن تقابله ؟ هل عندك
واسطة ؟ "

لم يكن قد خطر في بالي هذا الموضوع من قبل على الإطلاق ، ولا بد أنه كان مدخراً في باطني ولم يظهر سوى الآن بهذه العفوية .. وحدثني أقول ما افكر أن أفعله :

- " معي جواب من أبي وجواب من عم البنا في البلد سأبعث بهما من بوابة المصنع وأنتظر الإذن بالدخول "

- " إه .. ربنا معاك "

فوجدت بأننا صرنا أمام بيتهم ، فتوقفت أنا فيما واصلت هي . وإذا بها ترد نحوي خطوتين :

- " لماذا وقفت ؟ "

- " أدعك في رعاية الله "

نظرت في وجهي باستنكار لا يتفق مع برود أهلها :

- " وهل هذا يصح ؟ هيا ادخل "

ووضعت يدها على كتفي ودفعتني برفق لأعبر الباب إلى السلم مباشرة . قلبي بين الضلوع ينتفض في رقصة غامضة سريعة الإيقاع تفح في داخلي مزيجاً من مشاعر الخوف والبهجة والإغتراب والقلق ..

حركة البيت على غير العادة ساكنة سكون الموت. درجات السلم نظيفة مغموسة بالمياه حديثاً . باب الطابق الأول مغلق ، وكذلك الثاني ، والثالث . عند الطابق الرابع توقفت بدرية على البسطة فيما توقفت أنا أسفلها ببضع درجات مستنداً على درابزين السلم ، فكان أنفي يكاد يغوص بين الإلپتين الضخمتين القويتين ، ورائحة عطر أنثوى فياض تسكرني تطير لي . فتحت حافظتها فأخرجت المفتاح وفتحت الباب ثم دخلت ، فدخلت وراءها . في هذا الطابق تنام كل من بدرية ويسرية وشكرية ، في شقة مكونة من أربع غرف وردهة مربعة مفروشة بمقاعد على الطراز الأسيوطي . من هذه الردهة ينزل سلم حلزوني رفيع إلى الطابق الثالث المكون هو الآخر من أربع غرف وردهة حيث ينام الحاج مسعود والحاجة وديدة ، ومن ردهتها ينزل سلم إلى الطابق الثاني حيث ينام كل من ميمي وشريف

وصفوت وكرم . أما الطابق الأول - فوق الأرضي المشغول بدكانين لبيع الأثاث -
فيقيم الثلاثة الكبار : حواس وبديع ومجيد ، وفيه تستقبل ضيوف الأسرة كلها ..
جلست فى الردهة على المقعد فميا اختفت بدرية فى غرفتها ، وبعد برهة قصيرة
خرجت من غرفتها ترتدي قميصاً منزلياً واسعاً بغير أكمام ، ههاف من الحرير
الشفيف ، وقد عقصت شعرها فى ربطة واحدة كالقبعة ، ثم سلطت عينها فى
عيني :

- " أحيب لك جلاية ؟ "

ودون أن تنتظر جوابي اختفت فى السلم الحلزوني فأخذت الدرجات تثن
وتصدر صريراً. اخذت أجيل البصر حولي منهشاً : أين ذهب القوم؟ إن البيت
خال تماماً إلا منها ومني . بدأ صرير الدرجات الخشبية ، ظهرت بدرية حاملة إحدى
جلايب أخيها كرم الذى يماثلني فى السن لكنه اضخم بعض الشيء. رمت الجلاب
بمرح تجاهي متعمدة أن يسقط منفرداً فوقى ، ثم أطلقت ضحكة رنانة وهى تتفرج
على إذ أخلص رأسي من الثوب. قالت :

- " هيا خفف نفسك من الثياب وقم لتساعدني فى المطبخ "

ثم مضت نحو المطبخ الذى لا يبعد أكثر من خطوتين . قمت واقفاً فككت
حزام السروال تركت السروال يسقط ثم خلصت قدمي منه ، خلعت القميص .
طويتها فوق ظهر المقعد وارتديت الجلاب ودست على الأرض حافياً :

- " أنت وحدك هنا يا بدرية ؟ أين ذهب الناس ؟ "

- " سافروا كلهم بربطة المعلم إلى البلد العقبى لك لحضور فرح سمير ابن أخي
تهاني تركوني فى حراسة البيت لأن أعداء الحاج كثيرين والجميع طامع فينا لسوف
الحق بهم بعد أسبوع يكون الحاج انتهى من محاسبة الناس هناك بشأن محاصيله
الزراعية فيجئ مع أخي شكرية لأسافر أنا أعمل لك شاي ؟ أم تشرب كازوزة
مثلجة؟ سنتغدى معاً بعد وقت قصير "

كان الفول متكلساً فى بطني :

- " اشرب كازوزة "

فأشارت بذقنها نحو الثلاثجة فيما راحت تغسل بعض الأواني على الحوض كانت هذه أول مرة فى حياتى أفتح فيها ثلاثجة وأراها من الداخل ، فإذا هى طاقات من الضوء الملون حافلة بالرفوف والأركان والأدراج الممتلئة بلحوم وأسماك ودجاج وأطباق فاكهة وزجاجات مياه وكازوزة . تفرجت على ذلك بلذة وسحبت زجاجة كازوزة ثم أغلقت باب الثلاثجة ، ورأيت فاتح الزجاجات متديلاً فى حبل من مسمار فى الحائط . فتحت الزجاجاة وصرت أرشف السائل الغازى اللازم فى استمتاع كبير. صارت بدرية تتحرك أمامى بكل حرية ، تميل لتفتح خزانة ، فينحسر طوق القميص عن صدرها فيندلق الثديان نافرين طليقان بينهما برزخ لا يبغيان وتزئقنى مؤخرتها فى وقفى فأتصيب عرقاً. رمت لى بشرش البصل: - " قشر هذا البصل سأغديك حماماً محشواً بالفريك الصعيدي تراك لم تذق طعام الحمام منذ مدة "

- " أكلته منذ أيام قليلة فى مطعم ختعن "

- " أكلت عصافير ناحلة الحمام الحقيقى ستأكله الآن وختعن لا يحشو بالفريك الصعيدي وختعن ليس بدرية طبيخ بدرية ليس له مثيل فى دمنهور ولا فى البر المصرى كله ، سئ الحظ من لم يتزوجنى لأنه يحرم من أحلى طعام فى حياته " - " هذا من حسن حظي يا بدرية "

وصرت أقشر البصل وعينى تهطل بالدمع وبدرية منغمسة فى الضحك على منظرى. كنت أحاول طرد خاطر خبيت يتسلط على خيالى. يجعلنى أمعن فى مراقبة جسد بدرية وهو يتلعبط تحت القميص الحريرى كبلطية فى قلب الموج ، يكاد يحصرها الرفيع يتلاشى تماماً من فرط رفته حتى لتبدو كأن نصفها الأعلى بصدرة البارز وكتفيه العريضين يرتبط بصفها الأسفل بإليتيه البارزين القويتين بواسطة جاذبية خفية وما بينهما بمجرد هيكل يمثل من الأمام بطناً ضمراً أن ينحدر فى تكور وانسياب مخروطى كالقرطاس ، وتحت القميص الشف سروال كرقعة صغيرة كورقة الثوت التى قيل إنها كانت تغطى عورة أمنا حواء . رغم رغبتى القوية فى طرد الخواطر الخبيثة ، ومحاوله كف البصر عن هذا الجسد العبقري ، وتركيز الإنتباه، فحسب ، على تلك اللعة الخفية بين الملامح تذكرنى بهيكل أمها ولعة

ظللتها لا بد أنها شفرة الدم التي ارى لمعتها الخفية فى جميع وجوه عائلتى وإن تغيرت
ملاحظتهم وتباينت رغم ذلك شعرت بأننى فى حقيقة الأمر أشتهيها حقاً أم أنها نار
الكبت والحرمات تضطرم بأعماق فيرتفع لظاها ليحرق أذنى؟ ..

أسرعت فغسلت يدى وعينى وجففتها ، ثم خرجت الى الردهة . انتبهت إلى
وجود راديو كبير ماركة فيليبس موضوع على خزان فى الممر بجوار باب المطبخ .
فتحتة بلدى ، فانبعث صوت عبد الحليم حافظ مدندناً بهدوء متسلل بالشجن :
ظلموه ظلموه القلب الخالى ظلموه وعدوه . صاحت بدرية من المطبخ فى طرب :
إرفع الصوت شوية . طغى صوت بدرية على الصوت رغم ارتفاعه مصاحبة لعبد
الحليم فى الغناء بشكل مؤثر جداً ، وصوت أرق من صوت عبد الحليم كثير جداً
بل أشد حساسية لإلتقاط الأنغام الدقيقة الزخرفية . وقع بصري على الغرفة
المواجهة، من الواضح أنها غرفة شكرية ، فها هى ذى صورتها فى برواز على
الكومدينو بجوار السرير ، وبعض ثيابها وقمصانها متدلّية من مشجب خشبي واقف
بجاء الدولاب ، أما السرير فخشبي حديث الطراز غراق فى الفرش الوثير الملئ
بالزخارف . إقتحمت الغرفة بلذة راعشة ، تمددت على السرير ، صرت أتمرغ فيما
لم يكن مباحاً لى ، كأننى أتمرغ فوق جسد شكرية لأسحق كبريانها الزائف ،
صغراهن هى وأحلاهن ، ها أنذا أضغط نفسى فى السرير . ثم انتابنى شعور غامض
باللذة والعدوان معاً ، فنهضت واقفاً صرت أمسك بالقمصان والثياب أشمها امررها
على وجهى وشفتى ثم أعيدتها حيث كانت . ثم رأيتنى أنتقل إلى الغرفة المجاورة ،
أنها غرفة يسرية ، بنفس النظام وإن كانت أكثر انضباطاً وأميل إلى الحشمة ،
تمددت على سريرها أتمرغ أدفن رأسى بين الوسائد ، انتقلت الى غرفة بدرية أكبر
الغرف واوسعها ، تطل على المنور وعلى الشارع الخلفى بشباكين يحاصران الشمس
والقمر فى زوايتين يستبقيانهما مدة طويلة فى الحجرة أما السرير فمن النحاس
اللامع بعواميد مضلغة وناموسية وردية اللون مفتوحة كباب الخيمة ، دخلت فيها ،
صرت أتمرغ فوق السرير أتذكر أن لو كان الحاج أو الحاجلة أو أحد الإخوة هاهنا
الآن لما قدرت على دخول البيت بل أن أتمرغ فى أسرة البنات هكذا بكل حرية .
إرتعشت أوصالى قليلاً ، لكننى بكل لذة صرت أمعن التمرغ كأننى - بكل لذة

أيضاً - أهزأ بالحاج والحاجة وبكل أنوف أبنائها المتعجرفة الثقيلة الظل . ساءلت
نفسى بحيرة : كيف جرؤت بدرية أن تدعونى للدخول فى عرينها وهى لاشك
تعرف مشاعر النفور المتوفرة فى أهلها تجاهى ؟ ماذا لو طب علينا الآن أحدهم ؟ إنه
الدمار لاشك ، لى ولبدرية ، لا بد أنها واثقة تمام الثقة من أن سفرهم سيطول كن
كيف تحدث مشاعر اهلها ودعتنى هكذا بكل بساطة وتتحرك أمامى بكل حرية
شبه عارية، صحيح أنى - فى العرف العائلى المنقرض - أكاد أكون فى مقام خالها
إذ أن أمها بنت عمى لزم ، ولكنها لم تكن لتسلك معى هذا السلوك لو أن أحداً من
أهلها هنا ، فى الأسبوع الذى مكثته هنا ذات يوم لم يكن يسمح لى بالصعود إلى
الطابق الرابع بالذات وكن هن ينزلن إلى الطابق الثالث للغداء الجماعى حيث تراييزة
السفرة الكبيرة التابعة لجهاز أمهن العتيق متمركزة فى ردهة هذا الطابق منذ أن
دخلت فيه عروسة بالإيجار قبل أن يصبح البيت كله ملكاً لهم . كن ينزلن بملابس
رسمية محتشمة ولا يضحكن بمرح . فما الذى - ياترى - حدا بدرية أن تتحرر معى
هكذا ؟ أتكون الأسرة كلها قد تغيرت فى غيبتى فرقت مشاعرها ؟ أم أن بدرية
مختلفة عنهم جميعاً ؟ ..

سرعان ما صار قلبى يدق بعنف ؟ إذ تذكرت فجأة كثيراً من الأخبار المقلقة
كانت تتردد فى محيط اسرتى فى سنوات طفولتى وصبأى حول بدرية هذه بالذات
فمرات كثيرة تنهى إلى علمنا أن البنت ليست طبيعية وأن عقلها ممسوس بعشرة
خفيفة بعض رجال اسرتى أرجعوها الى عقدة نفسية ألت بالبنت نتيجة بوار سوقها
وعدم تقدم أحد للزواج منها رغم ثراء أبيها وما قد ترثه منه فيعلق سعد ابن عمى ،
الذى يكبر أبى فى العمر ومع ذلك يقول له بكل توقيير : يا عم ، يعلق قائلاً إن
الحاج مسعود لا يعاشر وأن البنت حتى لو كانت سنيورة ملكة جمال ، حتى لو
كانت بلا شفايف على الإطلاق فإن أحداً لم يكن ليتزوجها منعاً للإحتكاك بأبيها
ذى الطابع الحيوانى المادى الفظييع ، الدليل على ذلك أن البنات كلهن فاتهن قطار
الزواج ، ولو لم يجن أبناء عم يتزوجنهن كأختهن تهانى فسوف لن يتزوجن بالمره ،
وحتى ابناء أعمامهن لا يفكرون فيهن . بعد صمت طويل يعلق أبى فيقول إن بنات
الحاج مسعود كلهن غليظات الإحساس من المستبعد أن يصبن بأية عقد ، إنما لا

تنس أن اختلال العقل ظاهرة متكررة فى عائلة القباني ، بسبب زواج الأقارب أنسيتم أن أم الحاج نفسه وهى بنت عم أبيه قد ماتت فى مستشفى العباسية ؟ أنسيتم أم العز العبيطة التى كانت تمشى مع الدراويش لابسـة خرق الصوفية؟ إنها بنت عم الحاج لزم ، ولماذا تذهب بعيداً ؟ الحاج نفسه كثيراً ما يخرج عن طوره لأقل الأسباب فلا يرى ما حوله وتتقطع الأسباب كلها بينه وبين كل شىء فى الحال ، فى مرة أطلق الرصاص على حصيرة مبرومة مستندة على الحائط نسيها نسوان عمه وكان هو مقبلاً آخر الليل من سهرة مفى سقى الأرض ، فأحترقت الرصاصة الجدار واستقرت فى رأس ثور مسكين فى الزريبة ، ومن شدة خلله واستعباطه رفض أن يدفع لعمه نصف ثمن الثور كما حكم بذلك كبراء العائلة ، واشتبط فشنع على عمه تشنيعات كثيرة مدعياً أنه كان يتربص به لقتله وأنه كان ملتفماً بالحصيرة ...

خطوات الشبشب الحرىمى تزحف مقتربة مع صوت بدوية: "هو راح فىن إ؟" ..

دخلت الغرفة فتشت ، لحتنى ممدداً خلف الناموسية، تبسمت رغماً عنها ، صاحت بلهجة لم أدر إن كانت تستنكر ما فعلت أم تغرينى بالإستمرار :

- "عينى ياعينى !! فرصة !! إياك أن تنام ! الغداء يجهز بعد دقائق !"

وترددت فى وقفـتها قليلاً كأنها تفكر فى ماذا تفعل ، كلنها اتجهت إلى مرآة التسريحة وأخذت تنظر فى وجهها وتمر بالمشط على جوانب شعرها ، وكنت أرى نفسى بالسريـر فى مواجهتها فى المرآة ، وكنت فى وضع يمكننى من رؤية ظهرها كاملاً ووجهها كاملاً ، فلم أستطع السيطرة على نفسى ، شعرت بدبيب نمل فى عروقى ، ثم صرت أتمدد شيئاً فشيئاً حتى أرتفع الثوب فوق ساقى ، فشعرت بالخرج الشديد فدفت نفسى بين الساقين بقوة لكننى انتفضت متمرداً بقوة أكبر ، لحظئذ وقع بصرها فى عينى فى برهة خاطئة ، فتبسمت بسمة ذات معنى ، ثم أردفت فى نبرة تحاول الإنتصار على شعور دانحلى بالحسرة :

- " بدمتك ودينك يافلان هل أنا دميمة ؟ هل فى أى عيب حقيقى ؟"

صارحنى بدون أى نجمل !".

لاحظت أنها تحاول تقليص شفيتها قدر الإمكان بحركة تلقائية . فوجدتني أنتفض قاعداً ، ثم أهبط عن السرير وأمضى نحوها فأقف خلف ظهرها واضعاً ذقني على كتفها بجوار رأسها ، هكذا مباشرة ، لأقول :

- "جمالك أمر لاشك فيه ! لا ينكره سوى أعمى أو غشيم لا يتذوق النساء !" وكنت أتوقع أن تصفني أو تدفعني عنها وتعطيني ردياً في الأدب ، لكنها سلطت عينيها في عيني بدهشة تنم عن رضاء ، بل إنها مالت بصدغها فوق رأسي هامس بصوت متهدج :

- "بجاملني ياعكروت ؟!"

قربت نفسي من ظهرها بأن صلبت قامتي :

- "أنت وأبي تتفقان في هذا الرأي ! هو دائماً يقول لي مثل هذا الكلام حتى لا يكسر خاطري ! يحس دائماً بالذنب نحوى ! يقول إن غلظ شفتيه هو المسئول عن عدم زواجي ! هلى شفتي غليظة بشكل منفر ؟! أشعر بهذا من وجوه الناس وكلامهم حين ينظرون في وجهي ! حتى البنات يبدو عليهن النفور من وجهي !!"

ألصقت نفسي بظهرها حتى اختفيت تماماً بين الإليتين ، ومددت ذراعي فطوقت صدرها متلقفاً كل ثدى بيد ، صر أضغط عليهما برقة مرتعشة مضطربة باللهفة السخنة ، أقو بصوت متهدج :

- "أرني هاتين الشفتين حتى أختبرهما ؟!"

شبيت على أطراف أصابع قدمي حتى اقتربت بشفتي من شفيتها ، ثم عوجتها قليلاً فانطوت ، كالخيزرانة ، فانقضت على شفيتها لثماً وتقبيلاً ، فوجئت للهشتي باختفائهما تحت شفتي وتحولهما إلى شفرة شديدة الحرارة . إذا بها تتراخي وتتهاوى فوجئت بأني قد سحبتها نحو السرير ، طرحتها ، نزعت قميصها فإذا هي لوحة حية كالتى أراها لكبار الرسامين بمفاتن قاتلة ، أصابني الجنون غبت في حلم سرمدي لا أدري كم مر من الساعات لكنني كنت أرى خلال الغيوبة النشوانة وجوه الحاج مسعود والحاجة وديدة وحواس وبدعي وكرم وتهاني ويسرية وشكرية تطوف بنهني أثناء الفوران ، فلا تزيدني إلا حماسة واندفاعاً وانخراطاً ولذة فائقة كأنني أعجنهم جميعاً اطحنهم تحت سيفي البتار ، مما كان يضاعف لذتي يعمها

يمنحنى الراحة الشاملة والفرحة الغامرة ، أما هي فكانت امرأة أخرى تماماً ، كانت كتلة من اللهب تتلظى وتقطع وتصدر عشرات الأصوات والفحيح بصورة طيرت كل أبراج عقلى ، إلا أنها انتفضت فجأة تصيح وقد أفاقت :

- " الطعام على النار! زمانه احترق! "

أفلتها ، فاندفعت تهوول نحو المطبخ فاندفعت خلفها أطفأت النار ثم مضت عارية كالفهد فدخلت الحمام فدخلت ورائها هطل المطر فوقنا تبادلنا الدعك بالليفة نشفتنى بالبشكير كأننى طفلها ..

تناولت أشهى طعام فى حياتى أيقنت أن من ينس شكل هاتين الشفتين سيظفر بامرأة لا مثيل لها فى الوجود ، شربنا الكازوزة واكلنا الفاكهة الثلجة وقمنا إلى جولة أخرى كنا فيها أكثر جنوناً أشد قوة أطول مدى بعدها استغرقت فى نوم عميق ، رأيت نفسى خلاله أقوم بنفس الفعل مع الحاج وديدة نفسها أمام الحاج نفسه وجميع أبنائها وكانوا جميعاً راضحين بأنف كسير ، حين فتحت عينى كان القمر قد نزل ضيفاً على الفرقة وكانت بدرية جالسة أمام المرأة تسرح شعرها انتفضت جالساً قالت بدرية :

- " على فكرة ! يمكن أن تبيت هنا الليلة ! وفى هذه الحالة تنزل لتبيت فى

حجرة الصبيان فى الطابق التحتانى ! "

- " لماذا !؟ "

- " تحسباً للمفاجآت ! فرمما طب علينا أحدهم فيراك فى الموضع الطبيعى ! "

ثم وجهت لى نظرة ساحرة :

--- " تعشى !؟ "

- " لا بأس ! "

أعدت تراييزة المطبخ " الإيديال " فردت عليها بعض ارغفة مغ اطباق من انواع مختلفة من الجبن والعسل النحل والزبادى والبيض المسلوق .. اثناء الطعام وجدتنى أقول :

- " هناك سؤال يحيرنى ! "

- " أعرفه !! "

- " إذن فما جوابه ؟! "

- " إنه صاحب هذا البيت لا تجوز عليه إلا الرحمة ! إغتصبني في بئر السلم وهو سكران ! كنت صبية صغيرة ! بعدها عرض أن يتزوجني ! أبي لم يوافق ! جاء أولاد عمي فاعتقلوه في مكان بعيد وهددوه بالقتل ! في النهاية تنازل لي عن هذا البيت كثمان لغلظته بشرط الا يشتكوه أو يثيروا فضيحة ! بعد التنازل دسوا له السم في زجاجة خمر فمات حتى يظل الخبر سراً !! كان ذلك منذ عشرين عاماً ! وقتها كنت عبيطة و كنت مريضة بالأعصاب ! ولكن قل لي أنت : اين تبيت ؟! "

قلت لها إننى قد استأجرت بالأمس حجرة فى حى إفلاقة كمسكن رخيص وأننى محتاج لبعض نقود كى اشترى بعض الفرش . قالت :

- " لا تحمل همأ ! جهزها مؤقتاً حتى نستأجر لك شقة فى مكان نظيف

لكى أجم لك فيها !! "

- " ما رأيك لو تزوجنا ؟! "

ضحكت بمرح :

- " سنفكر فى هذا الأمر من عدة نواح "

بعد العشاء توجهنا تلقائياً الى الغرفة من جديد . ثم ادركنا ضحى اليوم التالي ، فالثالث فالرابع فالخامس ، على نفس الوتيرة بنفس الجنون الشرس الأعمى ، فى ضحى اليوم السادس كنت أهبط السلم وحدى ، أحمل على كتفى لفة تحتوى على بطانية ولحافة ووسادة من مخلفات الأسرة دبرتها لى على مسعوليتها ، وفى جيبي ثلاث جينها كاملة ، ورقم تليفون منزلهم على قصاصة من الورقة لكى أطلبها حينما أريدها باسم محسن الكوافير ..

فى الشارع توقفت لبرهة . إستوقفت عربية حنطور . مررت على حمدى الزواوى فاستعدت الحقيبة ، ووجهت الحوذى نحو وكالة عطية . وقد ادهشنى وسرنى فى نفس الوقت أنه لم يعرفها ولم يسمع بها ، فشعرت بزهو كبير وأنا أشير له أن يحود شمالاً أو يمينا ، وهو من حين لحين يرسل لى مبن فوق كتفه نظرة فيها الكثير الكثير من الدهشة والإسترابة .

حجرة بمصطبة

وقع حوافر الحصان على اسفلت الشوارع ، وقعقة عجالات الحنطور ، لهما صوت يسكرنى يشعرنى بالتدلل والغندرة ، تلقائياً أجد جسدى يتمايل مع حركة العجل ، ليس لأن الحركة تدفعنى إلى التمايل والتململ فحسب ، بل لأننى كنت ارى فى طفولتى مفتش الوسية وأبناء البكوات أصحاب الضياع فى بلدتنا يتمايلون فى طرب ونشوة مع حركة "الكارتة" التى يجرها الحصان فى شوارع البلدة ، حتى ليترنج شعر النساء على وجوههن فى نشوة هو الآخر ..

حركة الحنطور ليست سريعة لأن الشوارع ماتزال حافلة بالمسارة والباعة والمركبات . عينى على الشارع وفى أعماقي أمنية بأن يرانى على هذا النحو بعض الذين سبق لهم رؤيتى على نحو بائس ، عليهم يتأكدوا بأننى لست فى كل الأحوال بائساً ، لكن أحداً لم يرنى مع الأسف ، مع أننى رجوت الحوذى أن يطوى سقف الحنطور إلى الخلف حتى أظهر بكامل هيأتى منجعباً ، ولفة البطانية واللحاف والوسادة تحت قدمى ، وفى فمى سيجارة مشتعلة . شيئاً فشيئاً بدأت الحركة تقل والزحام يخف . فطنت إلى أن الحنطور يخترق الشارع الموازى لمحطة السكك الحديدية ، فيدخل إلى الحى الهادئ القابع فى بطن المدينة القديمة والذى بدا كمنشأة جديدة تميل إلى الطابع الشعبى . هو عبارة عن شارع طويل ممتد إلى تخوم اراض زراعية بعيدة تبدو عند انطباق الأفق شريحة نحضراء مرمدة . ها هو ذا الحوذى يخترقه لكى يطيل المشوار . تلك حيلة فطر عليها ، إذ أن كل من يركب الحنطور اليوم إنما يركبه للنزهة أساساً ومن ثم فعلى الحوذى أن يفرجه على أماكن كثيرة طمعاً فى بقشيش إضافى كبير . إلا أنه توقف عند إحدى النواصى ، واستأذن فى أن يشتري بعض العلف للحصان ، ففهمت أنه جاء بنا من هنا لهذا الغرض على وجه التحديد منتهزاً فرصة سكوتى عن توجيهه . صرت أتأمل فى الشارع ؛ إحتذبنى منظر امرأة تشبه بلدتنا تمام الشبه ، تجلس على الرصيف مرتدية جلباباً من الشيت الرمادى وعلى كتفها ملاءة سوداء تغطى رأسها حتى الرقبة والصدر ؛ يمكن أن تكون أما لبضعة رجال محترمين ؛ بوجه بيضاوى دقيق الملامح وإن امتلاً

بالتجاعيد والأخاديد والكرمشات ؛ وفمها أهتم ومطبق يشبه حافظة نقود النساء الصغيرة ؛ لكن عيناها واسعتان جداً بصورة لافتة للنظر قوية الإشعاع تبعثهما هنا وهاهنا في شبه تلصص خفى كالمستريب من شئ غامض . أمامها قفص من الجريد كبير ، وضعت فوقه لوحاً مسطحاً من الخشب ذا حواف بارزة ؛ نثرت فوقه ألواناً من الحلوى الساذجة : نيوت الغفير، موز من عجينة سكرية هشة ، عسلية ، كفوف حلاوة سمسمة ؛ لعلها هي نفس المرأة التي تجلس في مدخل بلدتنا على الطريق ، تتصيد الأطفال القادمين من الحقول لتبيعهم هذه الحلوى بأى ثمن ، بكوز من الذرة، حفنة قمح ، حزمة برسيم ، حزمة حشيش أخضر للأرانب ، رغيف وقطعة جبن . عجبت حقاً أن توجد مثل هذه المرأة فى المدينة البندر ؛ وراق لى أن أعرف بأى مقابل تبيع هي الأخرى ، بأشياء أم بنقود ؟ لكننى حمنت أنها تبيع بالنقود لأن يجوارها مقطف من الخوص مقلوب على فمه . وقد وقعت عينى فى عينيها عدة مرات فخيل لى أنها تعرفنى ؛ حيث كانت هوايتى وأنا صغير أن أتسلل فى الضحى والناس نيام لدى القيلولة ، فأعبر سطح بيتنا إلى سطح منزل عمى ، لأحشو جيوبى بكيزان الذرة التى ينشرونها فوق السطح لتحمصها الشمس فتصبح قابلة للطحن أو التدشيش بالرحاية ؛ ثم أنطلق من فورى إلى تخوم الغيطان فى مدخل البلد ؛ أو ربما صادفتنى فى الطريق أكثر من امرأة أخرى فأشترى من كل واحدة منهن شيئاً آكله فى الطريق إلى الأخرى . هممت بالنزول إلى هذه المرأة لأكلمها ، والواقع أن لعابى سال على موزها الذى كنت أضع الأصبع منه فى فمى فأقرشه فإذا به قد ذاب فى الحال كأنه هواء متجمد لا يبقى منه شئ أبتلعه ؛ لكن الحوذى عاد ، فاهتزت العربة هزة شديدة فيما هو يقفز عليها متخذاً وضعه . شد الشراع فاستأنف الحصان الهرولة. وفيما كان مبنى الوكالة يقترب ، كنت من مكاني فوق عربة الحنطور أتكشف أبعاداً لم أرها من قبل ، مثل المنزل العتيق المكون من طابقين خلف الوكالة مباشرة تفصل بينهما حارة ضيقة ؛ ينحدر بجذائه صف من المنازل المتهالكة يتضاءل حجمها إلى أن يصير مجرد عشش من البوص والطين والجريد . كان باب الوكالة موارباً . فبدفعه يسيرة إنزاح . إصطدمت بعينين صقريتين يطق فيهما الشرر ؛ فما أن خطوت نحو شوادفى المضطجع على المصطبة يسلقنى بنظرات حادة لا يبدو فيها

أدنى معرفة بشخصى . قالت السلام عليكم . فمن ضجعته رفع ذراعه مشيراً لى نحو الباب فى نبرة خشنة حادة : " إخرج فى الحال كما كنت ! " . فتسمرت فى وقفتى متأبطا اللفة التى تضم البطانية واللحاف والوسادة ؛ وقد اضطربت مفاصلى من شدة الذعر . إن الذى أراه الآن لىس شوادفى الذى شربت معه الشاى والسبارس فى ود عميق وشاركته فى كتابة عقد النكاح لمخبولين من نزلاء وكالته . لىس أمامى الآن سوى وحش حقيقى إن لم أمتثل لأمره فى الحال فرىما انقض على وغيبنى فى جوفه . شعرت بكثير من التشاؤم فىما أستدير ببطء ذليل لكى أخرج . إلا أننى فوجئت بوجهه ىنبسط قليلاً كأنه تذكرنى وداخله الأسف على سوء استقباله لى ؛ ثم أردف مع مشروع ابتسامة :

- " أخرج ثم اطرق الباب اولاً فأقول لك ادخل أو لا تدخل "

فعلت ذلك بشكل مسرحى ساخر . فاعتدل فى جلسته وسلم على بجرارة حقيقية . وسع لى مكاناً بجانبه ، مال نحوى قائلاً فى ود عميق : " اعمل لك شاى ؟! " . شكرته ، عزمت عليه بسيجارة بلمونت من علبة كانت معى . فتأمل العلبة بغبطة وأتى بأصابعه حركة ذات معنى كأنه يقول بها : " دهده دهده ! إيه العز المفاجئ ده ؟! " . ثم سحب سيجارة ؛ وبسرعة أشعل لى ثم له ؛ ثم سحب منقذ النار ، وكسر فىه بعض القوالح المتفحمة ، ونفخ فى الرماد حتى كشف بصيص اللهب فأوصله بالقوالح الجديدة فشبطت فىها النار ؛ وأمسك القلة بيميناه والكوز الصفيح الصدىء بيسراه فدلق فىه بعض الماء ثم هزه ومصمصه وألقى بالتفل فى عتبة البوابة الرطبة ، ودلق ماءً جديداً فى الكوز ووضع وسط اللهب الهادئ الرزين ثم مدد ساقيه بعرض المصطبة فطقطقت ركبته ومفاصله برنين كثيف :

- " أين أنت من زمان ؟! "

- " كنت فى البلد طوال الأيام الفائتة ! "

- " وازى الجماعة ؟ بخير والحمد لله ؟! "

- " يسلمون عليك ! "

- " الله يسلمك ويسلمهم ! "

ثم راح يطوف بنظراته في ملبسى وشكلى النظيف المستحم ، ويقف عند حقيبة ملبسى ، واللفة الموضوعه فوقها تحت المصطبة . رفع ذراعه باسطاً كفه العريضة الطويلة الأصابع كالمسامير الحدادى ؛ فارتسمت على صفحة وجهه عبارة : " آخر شياكة ونظاكة " ، أما فمه فقد نطق عبارة أخرى تكمل العبارة غير المنطوقة :
- " أنت الآن تصلح عدة !! "

تمايلت على المصطبة وتقبضت كل عضلاتى استياءً من هذه العبارة السيئة السمعة فى بلدتنا . فلفظة " عدة " تطلق على الولدان الشواذ جنسياً ؛ أشاعها فى بلدتنا التلاميذ الذين يتعلمون فى المدينة مقلدين بها لهجة أبناء البندر ؛ وهى من العادات القبيحة الكثيرة التى لحقت ببلدتنا من جراء اتصال أبنائهم بالبندر الفاجر القبيح . على أن شوادفى لم يكن فى وجهه أى بارقة تشير إلى هذا المعنى ، بل إنه فى الحال إستدرك : " لو رآك سيد زناتى لضمك إلى فريقه ! "

وانحنى يتابع غليان الشاى ، يمسك باليد السلوكية للكوز فيهرزه ليخرط الشاى ويختلط ببعضه فيما يقول :

- " على فكرة ! إياك أن تكون أخذت على خاطر ك من شخطتى فيك ! أنت فجعتنى بدخلتك وبهدلت أعصابى ! ظننتك منهم ! إخواننا البعداء ! المخبرين السريين الذين يرمون بلاعهم علينا وعلى الناس كل ساعة ! تصورت أنك مندوب المباحث أو بوليس الآداب جاء يتسلى بإثارة أعصابى حتى أغمزه فى النهاية برشوة مقدارها مقدار ما بثه فى قلبى من رعب ! لكن على من ؟! إننى أعاملهم مثلما رأيت ! بنفس الطريقة ! فحينما يكشف لى عن شخصيته فإننى أبالغ فى تطيب خاطره بكلمتين أو كله الأونطة أشعره بأنى عبده وهو سيدى ولكن بالذوق ! أخيفه قبل أن يخيفنى ! لابد أن يعرف أن لحمى زفر وهو على البوابة حتى إذا ما أعطيته شيئاً قليلاً بدوت فى نظره كأننى أتعطف عليه إذ أننى فى النهاية قادر على شلفطة وجهه !! "

يصب الشاى فى لذة فائقة . قلت ساخراً :

- " ياعم شوادفى وهل يعقل أن ضابط سيجيئك حاملاً لفة كهذه وحقيقية كهذه ؟! "

ركز عينيه فى عينى كأنه يدق مسمارين ملتهبين فى محجرى ؛ ثم سحب شجرة
رنانة كصوت الرعد :

- " إنهم يجيئون فى ثياب النساء صابغين وجوهمم بالبودرة والأحمر واللبن
يطرق تحت أشداقهم ! أنت عدوك أهبل أم ماذا ؟! "

وقدم لى كوبة الشاي ، وتناول كيس تبغ ليلف سيجارة ، فقدمت علبتى ، فمد
أصبعيه ليسحب واحدة لكنه تردد ثم شوح بيده :

- " لا يا عم ! هذا دخان رهيف لا يكيفنى ! إنما يكيفنى هذا الدخان الخشن ! "
وجعل يلف سيجارة على مهل :

- " نويت الإقامة عندنا إن شاء الله ؟! "

- " نعم ! "

- " إذن فهى حجرة بقفل ومفتاح ! "

- " يستحسن ! "

- " ما رأيك فى هذه الحجرة ؟! "

وأشار إلى حجرة تجاور الحجرة الملاصقة للبوابة :

- " إنها من نصيبك ! يبدو أنك ابن حلال فهى تنتظرك ! هى الوحيدة التى بها

مصطبة كهذه ! كانت موجرة لولد أفندى مثلك وابن حلال أيضاً لكننى لا أدرى

ما عمله بالضبط سوى أنه يجى ليملك بها أسبوعاً أو عشرة أيام على الأكثر

ليختفى شهوراً طويلة حاملاً مفتاحها فى جيبه دافعاً أجرتها على طول المدة ! يدفع

شهرأ شهرين ثلاثة مقدماً ! فإن طالت غيبته فإن طواف البوستة يجى لحد عندى

بحوالة بريدية أرسلها لى من المكان الذى هو فيه ! فأخطف رجلى لأصرفها من

مكتب البوستة ! إنما هو فى هذه المرة طالت غيبته ! دخلنا الان فى سنة لم يصلنى

منه أى مكتوب ! وأنا أشعر أن هذا الولد وقع فى شر أعماله فقفشته الحكومة

متلبساً بشئ فسجنته ! أقطع ذراعى إن ما كانت نظرتى سليمة ! شف يا أخانا !

خلها من فمى ! الشخص منا إذا لم يكن صريحاً صادقاً فى كل شئ فإنه يكون

لثيماً خبيثاً خسيساً بمقدار مافيه من قلة صراحة وصدق ! تعرف ؟! إننى لا أخاف

من الكذابين الصرحاء ! يعنى الذى يعرفون أنك تعرف أنهم كذابين !! يكذبون

بوضوح دونما أى حرج ! هولاء لا أعمل لهم حساباً بل أعطيهم مؤخرتى لا ليعبثوا بها بل لتشبع وجوههم الكريمة ضراطاً وروائح زكية !! إنما الخوف كله من الذى يدعى الصراحة ويلبس قناع الصدق متسقاً عليه ! أعرفه فى الحال ! أكرفه ! إن القناع سيضغط على وجهه لا بد ! وسيتألم فيبدو الألم على وجهه ! سيحاول تريح عضلات وجهه من ضغط القناع ولو لبرهة ! حينئذ يقع بين يدى ! فأتلقاه قائلاً : تعال على حجر أخيك الشرقان الشقيان التعبان ! ياويله منى !! إنما هناك عيالاً تكذب بخفة دم وقلب أبيض لكى تمشى حالها وهى فى العادة لاتضر كثيراً وشرها قليل !! إلا صاحبنا مستأجر هذه الحجرة ! كنت أحبه وأقدره وفى نفس الوقت أرى أن وراءه أمور وأمور ! لأنه لم يحدثنى عن نفسه أبداً ! ولا عن أى شئ سوى الكلام فى الأمور العامة ! فإن سألته شيئاً عن نفسه عن عمله عن أهله عن بلده عن أوضاعه زوّغ منى بصنعة لطافة وقال عبارة غامضة تفهم منها ماتفهم ! وآخر فهم وافقنى عليه أن شغلته مفتش فى البلدية !! ههأوأوأو !! مفتش من هذا الذى يجى ليسكن هنا ؟! صحيح إنه نظيف الملبس لا يرتدى إلا المكوى المنضبط ! وكلامه حلو ! ومؤدب ! لكنه فى النهاية بائس من جواه ! المهم أننى يئست من عودته ! فتحت القفل جمعت كراكيبه التى هى عبارة عن حقيبة قديمة وبعض مجلات وجرائد وورق يحوى عناوين وأرقام تليفونات وأسماء بلدان ! وبعض ملابس بالية وأحذية مبرطشة ولحافاً مثقوباً من كل ناحية وحصيراً منسولاً ! عبأت كل ذلك فى جوال رميت به فى مخزن المهجورات حتى يبين صاحبنا ! للحجرة شبك على الشارع له أرضية عريضة تتسع لهذه الحقيبة ولصفوف من الكتب !! إن فتحت درفته العليا وواربت باب الحجرة تصادم الهواء واجتمع عليك كأنك على شاطئ الإسكندرية !!

والآن كم شهراً ستدفع ١٩ ..

فوجئت بالسؤال. تدبرت أمرى قليلاً ثم اندفعت قائلاً :

- " شهرين ! أو قل ثلاثة ! "

- " قبضنى ! "

قبضته مائة وثمانين قرشاً ، نزعته مغمض العينين بسرعة ، كالذى يغمض عينيه ويسد أنفه وهو يجرع الدواء المر . كنت أخشى التردد والرجوع فى كلامى

لضخامة المبلغ ضخامة تهز ميزانيتي هذا عنيفاً ؛ لكننى سرعان ما استرحت ؛ إذ
ضمنت أننى وجدت مكاناً يأوينى لثلاثة أشهر كاملة قادمة ؛ أستريح فيها من
العذاب اليومي بحثاً عن مأوى حتى لقد أصبحت أمنية كبيرة أن أستقبل الليل يوماً
واحداً بدون رعب أو قلق أو كآبة . إن ليل دمنهور جميل خفيف الظل نعم ؛ لكننى
مع ذلك لا أحبه لأنه فى النهاية ليل يلبسنى فلا ألبسه . كم تمنيت الجلوس ليلاً فى
مقهى المسيرى لأستمع إلى مناقشت الأدباء بدماع صافية، أو السهر مع محمود نعينع
تاجر الخردوات ومولف الأغنيات الطريفة التى يسميها بال " مودرن " ؛ أو السهر
فى نادى الموظفين مع الفرقة المسرحية ؛ أو التمشية على ترعة المحمودية فى الشارع
المرصوف مروراً بمدرسة الصنایع ومدرسة الزراعة حتى قرية شرنوب نتكلم فى الفن
والأدب؛ كم تمنيت أن أفعل هذا دون أن يخفق قلبى مع كل خطوة يزحف بها
لكل الليل فوق يافوخى . الآن فحسب أستطيع أن أفعل ذلك لمدة ثلاثة أشهر
بمائة وثمانين قرشاً لاغى ر . أما الأكل فمقدور عليه ؛ لقد اكتسبت قدرة هائلة على
احتمال الجوع أياماً طويلة؛ كما أن أكثر من صديق أو غير صديق فى دمنهور يمكن
أن يغديك أو يعشيك لأكثر من مرة ولكن ليس من صديق واحد يستطيع أن يأويك
فى بيته ليلة واحدة ..

قال شوادفى وهو يسحب مفتاحاً صغيراً من تحت مخدته :

- " معرفة غير بإذن الله ! إطمأن قلبى إليك لأنك صريح لا تعرف اللف
والدوران ! وطالما أنت هكذا تكسبى على طول الخط تجدىنى فى صفك على
الدوام ! وأما مسألة الشغل هذه فلا تحمل همها ! ربنا يقدرنا ونحلها لك ! "

تذكرت كلمته التى أوجعتنى ، قلت بابتسامة مرتعشة:

- " ما معنى قولك أننى أصلح عدة !؟ أنت قلت هذا منذ قليل ولم تشرح لى

قولك !! " ضحك بخشونة ضحكاً مكتوماً :

- " عدة شغل يعنى ! سوف تفهمها بحكم العشرة ! لا تتعجل فستفهم وترى

أشياء كثيرة ! عندى هنا سيلما وأفلام فشر أفلام جميع السيلمات ! ولكن أنا لم

أقصد إيداعك بأى معنى يخطر على بالك ! أعرف أن هذه الكلمة عندكم فى

الفلاحين لها معنى معين لكننى لم أقصده ولم أنتبه إلا بعدما رأيت الإنفعال على وجهك منها ! والآن قم ضع أشياءك فى الحجره وعابنها واسترح قليلاً ! "

قمت إلى الحجره ففتحت قفلها الحدادى الغليظ المشبوك فى رزة تفرزت فى خشب الباب عشرات المرات فانخلعت وأعيد تركيبها عشرات المرات بمسامير معوجة . نويت أن أعيد تثبيتها جيداً وربما تغييرها وتغيير القفل نفسه فى فرصة مناسبة . إندفع الباب متقهقراً . تقدمت ففتحت درفة الشباك العلوية المطللة على الشارع العريض الواسع كالميدان اللامع بالأسفلت ؛ فتدفق الضوء الجميل فغمر الحجره بلون السماء التى لم يكن يظهر سواها . المصطبة جميلة جداً ، ممتدة خلف الباب بطول الحائط ، ويستطيع المتمدد فوقها أن يتكى بمرفقه على أرضية الشباك ليقرأ وينظر فى فناء الوكالة . الحجره جميلة بالفعل وأرضها مستوية . رأيت على أرضية الشباك بقايااً جرائد ففتحتها فإذا هى بضعة أعداد من جريدة الأهرام تحمل صفحاتها أخبار القرار الجمهورى بحل الأحزاب . كانت أوراق الصفحات الأولى مصفرة شائطة أما الصفحات الداخلية فما تزال جديدة بيضاء . فرشتها على طول المصطبة وعرضها الذى يتسع لجسدين . فرشت البطانية مطوية بالطول . وضعت المخدة لصق الحائط فوصل طرفها إلى حافة أرضية الشباك . طويت اللحاف أربع طيات ووضعتها فى نهاية المصطبة ، ثم وطنت النفس على شراء إبره وخيط لكى أخيط هذه الخروق القليلة التى تطل منها نتف القطن . وضعت الحقيبة على أرضية الشباك . طوفت ببصرى فى فراغ الحجره بنظرة استطلاعية أخيرة ، فلاحظت وجود مسامير كبيرة معقوفة مدقوقة فى الحائط كمشاجب لتعليق الثياب عليها ؛ ففرحت بها فرحاً شديداً ؛ وباستمتاع كبير خرجت ساحباً الباب خلفى ، حشرت ناية الرزة فى ذكرها وشبكت القفل ضاغطاً عليه حتى تك منغلقاً فشددته بيدي بقوة لأختبر انغلاقه فوجدته متيناً فاطمأن بالى ففتحته ثانية ودخلت الحجره وقد خطر لى خاطر نفذته فى الحال : أخرجت النقود المتبقية معى وحشرتها فى قاع الحقيبة بعد أن لفتها فى ورقة وبعد أن احتفظت بعشرة قروش فقط للصرف منها على القوت الضرورى ؛ ثم خرجت فأغلقت القفل ، وانطلقت إلى شوارع المدينة حراً رائق المزاج كأننى أتعرف على دمنهور لأول مرة .

شوادفى

كنت جالساً مع شوادفى جلستى المفضلة عصر كل يوم أرقب الشمس أثناء انسحابها من فناء الوكالة ، لتبدو الحجرات تتحلق الفناء يغمرها لون رمادى ، وكبقايا أطلال من العصور الوسطى يدهشك أن أنفاس الحياة مازالت تنبعث من ثناياها . وفجأة رأيتها تدخل من البوابة ، تلك المرأة التى رأيتها ذات يوم تبيع الحلوى على الرصيف . هاهى ذى تحمل القفص الجريد وقد امتلأ بالدجاج المستكن يطلق قاقاة هزيلة خافته كشفت عن وجوده إذ أن القفص كان ملفوفاً بخرقة ، ومن فوقه القفة ملآنة هى الأخرى . قالت :

- " سالخير يا شوادفى ! "

- " ما أخبار الفراخ ؟! "

توقفت . همت بالجلوس وكشف بضاعتها . إكتفت بالقول :

- " فل بالصلاة على الحبيب ! لكنك لا تشترى ! "

مضت إلى حجرة فى مواجهة حجرتى تماماً على الصف المقابل . هى إذن تسكن هنا . كان فى وجهها شئ قريب جداً لى ، أكاد أجزم أنها هى بنفسها التى تجلس فى مدخل بلدتى وكل القرى ، بنفس الملامح الطفلية الودودة التى كانت تنادىنى بها طفلاً لكى أشتري منها ، وهاهى ذى الآن تنادىنى لكى أتحدث معها ، متوقفاً أن تسألنى عن صحة الجماعة أهلى . لكنها مدت ذراعها خلف ظهرها عبر كتفها فسحبت ضفيرة من الخيوط الصناعية مضمفورة ببقايا حصل من شعرها الأحمر المضمحل . فى فتلة من شرابة الضفيرة مفتاح قفل مربوط ؛ أمسكته بأصبعيها ، بحركة مدربة غرزته فى أسفل القفل وحركته فانزاج قوس القفل منطورياً لأعلى فعوجته وخلصته من دكر الرزة . بركبتهما دفعت الباب ؛ هبطت بقامتها قليلاً حتى تمكنت من الدخول ثم تربعت فأنزلت القفص ؛ فهاجت الفراخ وقاقأت فى دعر بشكل جماعى فوضى ..

حينئذ رأيت على سلم الحجرة التى فى مواجهة بوابة الوكالة تماماً ، رجلاً ربعة القوام متين البنيان ، أحمر الوجه كخواجة متنكر ، كالبرنس ، وجهه كالقطيرة ممتلئ

الخدود يتسلقها شارب شامخ الجناحين يكاد شعرهما المبروم الواقف يتصل برموش عيين صغيرتين لكنهما جوهرتان ثمينتان تترقان بريقاً يخطف البصار يجذبها بقوة ، فإذا الأبصار المنجذبة تبحث لنفسها عن خلاص بعد برهة وجيزة من فرط الرعب وربما الربكة التي تثيرها نظراته القوية الثاقبة المقتحمة لا تعرف حياءً ولا خشاً . عريض الصدر ممتلئ الكتفين والثديين بعضلات بارزة مثل كتل من الصخر تتحرك تحت جلد صدره وسمانتى ذراعيه المشمر عنهما كم جلبابة الفلاحى الواسع ، ذى اللون السمى من الحرير الذى يسمى بالسكروثة والذى لا يلبسه سوى أبناء الذوات والعمد . ينتعل خفاً منزلياً من الجلد الرقيق قوامه نعل وشريحة على هيئة مثلث يحشر فيها أصبعى القدمين . ولد عايق حقاً ، تفوح منه رائحة عطر صابون الوجه المختزن ..

نزل الدرج فى غبطة طفولية ورشاقة كراقص الباليه لا صوت لوقع خطواته . إقرب ؛ عمره لا يزيد عن منتصف الثلاثينيات أو أقل قليلاً . بجرعة مودبة جداً رفع يده نحو رأسه بالتحية العابرة على طريقة العياق فيما هو يتبختر نحو حجرة المرأة حاوية الدجاج ، وقد أزاح طاقيته الدبلان البيضاء عن مقدمة رأسه الملى بشعر غزير خشن . قلت من ربكتى رداً على تحيته : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فمن وراء ظهره العريض الصلب حيانى بيده مرة أخرى ؛ وساقاه يبرزان من شفافية الجلباب فى ضوء الشمس كقرعين من السنط أحسن تشذييهما وإن بقيت كتل الشعر المتكورة عليهما كنتوءات استعصت على سلاح التشذيب . قال بلهجة ممطوطة قصد بها أن يقلد لهجة البندريين وفى نفس الوقت يسخر منها :

- " سألخير يا قطيب .. ي .. طه ! "

- " تعال يا معلم سيد ! فضلة خيرك اليوم حظك من السما ! فراخ برابر هندی ! "

وأمسكت إحداهما من أسفل جناحيها لتعرضها عليه مبرزة انتفاخ وركيها وصدرها باللحم المكتنز :

- " ستلافى فى بطنها عنقود بيض طرى ! "

شوح بأصابعه الطويلة الحافلة بخواتم ذهبية:

- "على البركة ! نقي سبعة !"

ثم ارتد خارجاً :

- " تعالی ورايا هاتي واحدة واحدة !"

تقرفص في الفناء ، أخرج من جيبه مطوأة قرن غزال فتحها بسرعة فتدرج صوتها إلى التكة الأخيرة فاستوى النصل حاداً لامعاً . جاءت قطيطة بالدجاجة ممسكة بها في وضع الذبح مقربة رقبتها منه . فمد أصابع يسراه فأمسك الرقبة متمتماً في خشوع حقيقي :

- "باسم الله الله أكب را اللهم صبرك على ما بلاكى ويجعل موتك أفضل من

حياكى !"

ونحرها بحزتين فرمى بها في الفناء فاندفعت تجرى بسرعة ورقبتها منكسرة تبخ

الدم ..

صار الفناء يشغى بدجاج يجرى مكسور الرقاب يخطط الأرض بالدم ويتهاوى هنا وهناك . كان كثيرون من سكان الوكالة قد جاءوا لا أدري متى فاشتروا فراخاً من قطيطة هذه لكي يذبحها لهم سيد في وقفته هذه بالمرّة . أخيراً مسح سيد نصل المطوأة في خرقة قدمتها له قطيطة ثم اعتدل فاتجه إلى الركن الذي رمى فيه بفراخه فجمعها ؛ وأخرج من سيالته ورقات مالية كورها وغمز بها يد قطيطة فوضعتها في سيالته دون أن تعلمها . وهكذا فعل الآخرون ، وكأنهم متفقين على سعر معين ليس من حقها أن تناقشه . راح سيد زناتى يصعد السلم حاملاً على يديه الاثنتين كومة هائلة من الدجاج المذبوح ؛ فيما رحلت أتابعه من جلستى على المصطبة بجوار شوادفى ، وكوبة شاي الدور الثالث في يدي ..

هذا إذن هو سيد زناتى . هكذا قالت عين شوادفى وهو يشير بأصبعه نحو السلم

في حركة من يتغزل في فتاة عذراء هو شديد الوله بها . قلت :

- " ما شغلته !؟ "

قال بغبطة وحسد مبطنين بالإعجاب :

- " عنده عدة !! "

شعرت بدبيب الخجل يسرى في قدمي :

- " العدة مرة أخرى ١٢ "

- " ولد عترة يستاهل السلامة! ولد يعجبك! مع الرجل أرجل! مع الذ
أندل! مع الحرير كورقة البافرة!! فى نعومة شفرة الموس!! إذا استشعر خشونة
إحداهن كشطها لكى ينعمها! إنه فنان فى كشط الخشونة من طباع البنى آدم
أن يريق قطرة دم واحدة! وإنى لأحسده على هذه الموهبة! إن أثنى ضابط بوليه
لا يخطر فى يديه غلوة! فنان فى أكلهم والمزمنة بعظامهم وهم مع ذلك يقدم
أنفسهم له طواعية لكى يسكر ويمز بلحومهم!! لولاه لأغلقت وكالتى هذه بالض
والمفتاح! إنما هو يعرف الخروم التى فى شخصيات البوليس فيسلها بطريقتها الفنى
مرة بالفلوس ومرة بالكلام الحلو ومرة بتسليم رؤسائهم قضايا كبيرة لم يكون
يحلون بإمساكها لو ضاجعوا أنفسهم وهو مع ذلك لا يفدر بأحد أبداً!! فكيف
يعرف القضايا! لن تصدق! إنه يفلى الجرائد كلمة كلمة ويدرس الحواد
المنشورة فيعرف مداخلها ومخارجها ويكشف عن شخصيات المتهمين فيها!
يلهب إلى المسئول فيقدم له أوراقاً مكتوبة بخطه يقول فيها بما أن كذا كان ك
وحدث كذا بسبب كذا فإن الجريمة تكون كذا وكذا ودوافعها كذا وكذا وأصله
وفصلها وبناء عليه يكون الفاعل هو الشخص الفلانى أو عليكم يا حكومة الإبحر
إلى الشخص الفلانى ففیه مفتاح القضية أو إلى المكان الفلانى فتعشرون على دليل
ولد سخه جوهرة يا أخانا! لو تعلم لصار الان وزيراً للداخلية!! "

إزداد أمره غموضاً فى نظرى :

- " لكنك لم تقل لى ما شغلته بالضبط؟ وهذه العدة ما تكون ١٢ "

باستمتاع شديد انخرط فى لف سيجارة من كيس السبارس :

- " اللقمة التى تفتش لا توكل!! والبيوت أسرار يا أخانا!! إن طاب لنا
العيش هاهنا فسوف تعرف كل شئ من تلقاء نفسك! أما أنا فلا أقول شيئاً!
إننى فى قعدتى هذه أرى كل شئ يدور فى كل هذه الحجرات حتى وهى مغلقة
الأبواب! لكننى الباب الأكبر الذى يقفل فى النهاية على أسرارهم ويسر
عوراتهم!! هم يعرفون أننى أعرف ولذلك لا أحد يخفى عنى شيئاً! هم يعتقدون أ
أى مشكلة يقع فيها أحدهم أو تقع بينهم وبين بعضهم البعض فلانى الذى يحلها فى

النهاية ! يعنى لابد أن تعرض علىّ فى نهاية المطاف !! هم يتكتمون على بعض المشاكل والخلافات ظناً منهم أننى لست على علم بها ! وأنا لا أسألم ماذا فعلتم فى الشئ الفلانى لأننى واثق أن الواحد منهم لابد أن يجيى من تلقاء نفسه فيجلس فى مطرحك هذا قائلاً : بأقول لك أيه ياعم شوادفى ! فلا أفتح فمى تاركاً حنفيته تسرب كل ما فيها من مياه مخزونة عطنة !! يقول ما كنت أعرفه قبل أن يقوله !! أنا لست أضرب الرمل طبعاً يا أخاننا لكننى تجيئنى الأخبار كلها وأنا فى قعدتى هذه دون أن أطلبها ! تجيئنى من خلل العراك ! من العتاب ! من لوى البوز من تجاهل العين للعين ! من ناس يتطوعون بتفسير ما يرون ! بحكى مادار فى بلاد الهند والسند وبلاد تركب الأفيال !! عمرى فى حياتى ما قلت لواحد عبارة : إيه الحكاية ؟ أو ماذا حدث ؟ أو حتى مالك يا فلان !! هذه عبارات لم يعرفها لسانى أبداً !! ولماذا أحياها ؟! إننا يا أولاد العرب نحب دائماً أن نفتح الخُرج خاصة عندما نجلس للراحة !! نحن أبناء الفضفضة والبهجة !! مغزى كلامى كله : إياك إياك أن تستغفلنى أو عدم المواخذة تستلطنى فى أى شئ !! هذا إن كنت تريد أن تكسبنى وفى نفس الوقت تكسب الراحة والأمان !! ..

مرت قطيطة أماننا ممسكة بزجاجة فارغة متجهة صوب البوابة :

- " سألخير ! "

رشقها شوادفى بنظرة :

- " السبرتو ؟! "

- " نعم! "

زام زومة عميقة ذات معنى . وضح أنها فهمت معناها ، إذ شوحت بالزجاجة فاشخة حنكها الأهم. بما يشبه الإبتسام :

- " تعرف أننى لا أحب سوى شاي السبرتو على السبرتاية ! "

قال بخبث شديد :

- " طبعاً طبعاً يا قطيطة ! مرادى أن تديقينا هذا الشاي مرة واحدة ! ولو

شفطة ! ..

أشارت إلى عينيها :

- "من دى شفقة ! ومن دى شفقة ! يا رجل يا أبو شفقة !"

شوح بذراعه :

- " طب روحى يا قطيطة ! .."

مشت خارجة ..

- " قطيطة هذه ما حكايتها يا عم شوادفى !؟ "

- " أظنك رأيت بنفسك ! "

- " لكننى رأيتها تبيع الحلوى للأطفال ! "

- " فهذه شغلتها الأصلية !! "

- " ولكن ! الدجاج !؟ "

- " فهذه شغلتها الجانبية !! الإنسان الجذع يقلب عيشه ! تجده فى كل مصيبة !

يفوز باللذات كل مغامر ! ويموت بالحسرات من يدري العواقب ! ألم تأخذ هذا

الشعر فى المدرسة !؟ إذا لم تكن أخذته فخذة الآن منى بالمجان ! إسمع كلام شوادفى !

إذا كنت تريد أن تفعل شيئاً إفعله حتى لو خربت الدنيا !! أما إن رحى تفكر

وتفكر فإن الوقت يفوتك وأنت لم تنته من التفكير بعد ! يكون كل من هب ودب

ركب البولمان وأنت فى السبنسة ! أنت مثلاً تجى لتسكن فى الوكالة مع أنك

متعلم فلا بد أن لك هدفاً معيناً ! وهنا أنصحك بالمشاركة ! المشاركة مهمة أيضاً

خصوصاً لمن هم فى مثل سنك ! النصيحة غالية حتى لو لم تفدك فى الحال ! إنها

رصيد سوف تجده فى اللحظة التى هى !! الدنيا ملائنة بأولاد الحلال يمكنك أن

تبحث عن رجل محرب مثلى فتعرض عليه مشروعك حكايتك نيتك !! أوصانا

سيدنا النبى أن نخلص النصيحة لمن يطلبها منا ! الولد عبد العزيز مثلاً ! عبد العزيز

القصاب ! الذى كان يسكن حجرتك قبلك ! لم يطلب النصيحة أبداً !! كان طالعاً

فيها ! يظن نفسه سليمان الحكيم ! وكنت أراقبه الليالى الطويلة وأنا متأكد أنه

جوعان عطشان عريان بردان واقع فى ألف مشكلة تشتت دماغه تصادم فى هريق

عينيه ! وكنت أتمنى أن يجلس مكانك ليحدثنى عما يوجهه لكى أساعده ! لكنه أبداً

لا يرينى وجهه ! يعوى من الألم وحده ! أنا الآخر صرت أتلذذ بعذابه تاركاً إياه

فى حالة لعل حاله تنفعه !! هاهوذا قد اختفى حسه وانمحي اسمه ! والله كان بودى

أساعده بشرط أن يتكلم ! كنت أحب الإبقاء عليه لأنه زبون هادئ في حاله لا تأتي من ورائه المشاكل ! نهايته ! الله يكرمه مطرح ماهو الآن !! " ..

وعادت قطيطة بالزجاجة ممتلئة بالكحول الأحمر ذى الرائحة القوية النفاذة ، وفي يدها الأخرى لفة فيها شاي وسكر وورقة دخان مضغمة وعلبة نشوق ؛ وتحت إبطينها رغفين وحزمة فجل وقرطاس طعمية . صاح فيها شوادفي مشيراً إلى الطعمية والفجل :

- " يا وليه بررى نفسك ! أنت تقبضين الشئى الفلانى كل يوم ! هات لك بيضتين اسلقيهما أو نصف كيلو لحمة أو حتى علبة سلمون ! " توقفت رافعة حاجبيها :

- " فشرت ! وشرفك عندى ستشم رائحة الفراخ المحمرة بعد قليل ! هذه تصبيرة حتى أطبخ الطبخة ! "

- " طبعاً سأشم رائحة الفراخ المحمرة ولكن ليس من عندك يا قطيطة ! بل من عند الذين استأهلوها بالهناء والشفاء ! أهم شئى عندنا الآن هو انتظار شاي السبرتو ! "

- " عيني ! "

ومضت تهزول نحو حجرتها . بعوجة يسيرة من رقبتى كشفت نظرتى عمق حجرتها فى الركن . لا حظت أنها اندفعت بسرعة فسحبت شكاراة صغيرة ، أمالت فتححتها فوق حلة صغيرة ، رفعتها ؛ فاندلق فى الحلة سرسوب من حبات الذرة الشامى ، كادت الحلة تمتلئ ؛ فأمسكت بخناق الشكاراة وأعادتها إلى القفة . ثم أمسكت بزجاجة الكحول ، صببت منها فوق الذرة حتى غطته بالكحول ، واستبقت مقدار عقله أصبع من سائل الكحول فى الزجاجة صبته فى وابور السبرتو . وأمسكت بالقلة فصبت منها بعض الماء فوق الذرة . وبيسراها أمسكت بالكنكة الصدئة فدلقت فيها قليلاً من الماء وهزتها بنشاط ثم دلقتها على الأرض ثم ملأت الكنكة بالماء ووضعتها فوق وابور السبرتو ثم أشعلته بعود من الكبريت ، وقلبت فى اللفة حتى أمسكت بقرطاس الشاي ففكته ودلقته كله فى قلب الكنكة ثم فتشت فى اللفة حتى أمسكت بقرطاس السكر ففكته ودلقته هو الآخر فى قلب

الكنكة فوق الشاي ثم سحبت كوبة من الصاج صغيرة وكوزاً من الصفيح كان فى الأصل علبه سلمون فغسلتهما وأعدتهما بجوار الوابور . أخيراً استدارت وراحت تقلب بكفها فى حلة الذرة ثم غطتها بغطاء محكم وجلست ساحبة الرغيفين وقرطاس الطعمية وحزمة الفجل وجعلت تلوك الطعام فى صبر شديد ..

رائحة الكحول كانت فاقعة ، بشكل غير طبيعى ، تفوح به كل أركان الوكالة كأننا فى مصنع خمور بدائى . جاءت قطيطة بالشاي ممسكة بالكوبة والكوز بيديها . قاربتنا . شوحت بذقنها فى وجه شوادفى مبرطمة بخنكها الأهمم :

- " الكوبة الراقية ذى اسم الله على مقام أمه ! أصلك لا تعرف تمسكها يا شوادفى ! الشرب منها لا يكيّفك ! "

وقدمتهالى، والكوز لشوادفى . رشفت رشفة ، كاد صوابى يطير من لذة الشاي ونكهته الدسمة الشهية . لاحظ شوادفى تلذذى ، فأوماً بحاجبيه فى تأييد وأضاف :
آه ؛ وواصل الشفط بصوت علا :

- " الله يعمر بيتك يا قطيطة ! ويوقف لك فراخ الحلال فى كل ناصية ! أقصد ولاد الحلال ! أقصد العيال الذين يشترون منك الحلاوة ! إنهم فراخ أيضاً ! .. "

واستأنف الشفط؛ فبدت على وجه قطيطة وفى عينيها نظرة بليغة تقول دون أن تنطق بحرف : آه يانا منك آه ؛ ثم شوحت تستحته على الإسراع : " إشرب وهات الكوز " . قدمت لها كوبتى : " كتر خبيرك يا خالة قطيطة ! " . سطع وجهها بالبشر : " صحتين وعافية ياخوية ! كل ما تحب تشرب شاي نادنى ! فى أى وقت يعجبك ! لو جعان أغديك ! لو عريان أكسيك ! .. "

ونظرت إلى شوادفى وأكملت بلهجة ذات معنى : " .. ولو مبحتر أملك !! " حدجها بنظرة داعرة ؛ سحب النظرة ووضعها بين ركبتيه فوق تكة السروال ثم أرسل خيطاً من النظرة إلى عينيها قائلاً :

- " إتلمى يا مرة ! يا عجوزة يا هتمة ! هو الداء فيكم فيكم من المهد إلى اللحد؟! خذى ! إمسكيه جيداً !! " .. "

كان يقصد الكوز بالطبع ، لكن لهجته الداعرة كانت ترمى إلى شىء آخر . فشدت منه الكوز بعنف مصطنع ، ومضت سعيدة بحيائها الأنثوى المفاجئ .

قطيطة

- " الفاضى يعمل قاضى ! " ..

رنّ هذا المثل فى أذنى فيما كنت مضطجعاً على مصطبة حجرتى وقد شبعت نوماً لكننى لا أجد مكاناً أذهب إليه . كانت قطيطة هى صاحبة الصوت ، فعرفت أنها تشاكس شوادفى وهى خارجة لتبدأ يومها الجديد ، فكأننى اكتشفت اكتشافاً مذهلاً ؛ إذ تفضت نفسى بسرعة عن المصطبة واقفاً فى الأرض . خلعت الجلباب وارتديت القميص فالسروال فالخذاء ، وانطلقت خارجاً . صبّحت على شوادفى ، لاحظت أنه مندمج فى قتل حبال من ليف النخيل بمهارة فائقة ..

احتفظت بمسافة طويلة بينى وبين قطيطة . تركتها تقودنى حيث تشاء . خطر لى أننى يمكن أن أفضى صبحية جميلة بقروش معدودة بين كسرة فول ساخن ما أحلاها وكوبة شاي بالحليب على مقهى ما أروعها ، وأتفرج على الناس وهى تتدافع مذعورة ملخومة ملهوجة فى الطريق إلى مكاتبها مصانعها محلاتها مدارسها قطاراتها ؛ كأننى أريد أن أقول لنفسى : ها أنذا أستمتع بجمال الصبح فى المدينة دون أن يدفعنى الذعر والخوف إلى اللهاث وراء موعد رسمى لا مفر من الوفاء به ؛ أغلب الظن أن وجود ثمن الكسرة وكوب الشاي واللفافة هو الذى يعطينى هذه الروح المفعمة بالسعادة المطلقة . متعتى الوحيدة الآن هى قطيطة ، وكيف تسوى حياتها ، كيف تخرج من منزلها صباح كل يوم كالموظفين لتودى عملها فى مكان ما من المدينة ، لتعود عقب النهار كسبانة ربخانة ما تشتري به رغيف وحزمة الفجل وقرص الطعمية . ومن المؤكد أنها تدخر الكثير ؛ أما لمن تدخره أو لماذا أو لآى زمن تدخره فعلم هذا عند الله ، وربما عند شوادفى كذلك ..

دوختنى من السير ؛ شحطت قلبى ، أكثر من مرة نظرت فلم أجدها تحت بصرى مخفية بين الزحام أو داخل بعض المحلات لتشتري منها بضاعتها التى ستفرش بها على ناصية حارة ما من هذه الحوارى . أيتها الملعونة اللطيفة لكأنك تقودينى بقصد ووعى لكى تفرجينى على الحوارى الدمهورية الحقيقية العتيقة ، التى كم تمنيت رؤيتها ، والتى لم يكن يدور بخلدى أن أستطيع الوصول إليها بغير دليل مثلك ..

أما الحى الذى صرنا فيه فإنه حى أبو الريش . أعرفه ومشيت فيه كثيراً وطويلاً ؛ لكن ما كان يبدو لى سابقاً أنه مدخل بيت عتيق إذا به الآن يتضح أنه مدخل حارة شديدة العمق والعجب . كأننى دخلت مدينة مسحورة ، بمعنى الكلمة ؛ إذا بى فجأة داخل سرداب ممتد كالشرخ فى قلب المدينة بل فى أحد أركان أمعائها الخفية : صفان من البيوت العتيقة على الطراز المملوكى ، كلها متشابهة من الخارج ، وكلها من ثلاث أو أربع طوابق - الطابق الأول بالطوب ، بقية الطوابق من خشب البغدادلى المغفوق بالجير بعد لياسة الطين ؛ الشبايك مستطيلة كنزة ، بمشربيات علاها الصدا الرمادى الكالح لكن الزمان رطبها بزخم جذاب حلو التقاطيع ؛ الأبواب بوابات تشبه إلى حد كبير بوابة الوكالة ؛ تظن وأنت فى مواجهة الحارة من بعيد أنك داخل إلى بيت مستقل ينتهى عمقه بعد مسيرة قصيرة عند هذه الشرفة الخشبية ذات الإفريز الحديدى التى تبدو من بعيد كأنها تسد الفراغ النهائى المواجه لك ؛ وتشعر كلما مشيت تجاهها أنك قاصدها إذ عندما سيتم استقبالك كضيف سمح له بالتوغل فى أحشاء البيت ؛ لكنك بعد قليل تتجاوزها دون أن تدري ؛ تشغلك عنها شرفات ثابتة وثالثة ورابعة بنفس الشكل ونفس الموضع المائل الذى يحتل فراغ ناصية الهواء من اليمين أو الشمال فتبدو وكأنها فى الصدارة ؛ تشغلك أيضاً عن العمائر الحديثة العالية التى تواكب امتداد الحارة على الجانبين كأنها ديكور كونى أعد خصيصاً لاحتواء هذا العالم القديم فى شرخ طويل متعرج . يدهشك أيضاً وجود محلات بقالة مخندقة وترزية وقماشين وورش نجارة أبرز مافيهما عدة وبنك ، وورش بلاط بأبواب قزمية ضيقة وأعماق ممتدة كالسرداب ؛ ومقاه على غاية من خفة الدم ؛ عبارة عن رصيف ضيق تحت باب كان فى الأصل شباكاً وعليت أمامه الأرض فحولته إلى باب ، تهبط منه إلى مندررة رطبية حميمة يتصاعد من أرضها بخار ورائحة مياه الجوز والشيش التى تندلق باستمرار ، ورائحة جاز الوابور الذى يوش تحت الرماله وشيشا عذبا مؤنسا ، ورائحة احتراق الشاى المطبوخ النفاذة ، ورائحة الفول المدمس الطازج من المحل المجاور أو القدر فى عربة يد مارة أو فى الطبق أمام العيال الصناعية إذ يفطرون فيقرشون البصل فى شهية فاتحة للشهية . ورائحة مياه الحموم المندلقة لتوها فى البالوعة أمامك بشكلها القريب جداً من لون الدخان ؛

دلقتها كاعب حسناء ناهده الصدر بسيطة اللباس يكشف عن جسدها بقاع ضوء
كهرمانى لامع شهى ، ومضت تتبختر عجيزتها المبرومة تحت جذع سمهري وفوق
ساقين عبلاوتين حاملة " البستلة " الفارغة تحت إبطها المكتنز السخى ؛ ثم تختفى
فى عطفة جانبية أو داخل بيت أو ربما اتجهت إلى حنفية " الصدقة " المنتصبة على
مقربة فى ساحة ضيقة مليئة أرضها بالبلاطات العريضة المتشققة ومن حولها المياه غير
مقطوعة ولا ممنوعة ومن فوقها دكة خشبية صغيرة يقتعلها خفير معجبانى لعل اسمه
الأسطى حسن يفتح الصنبور بالعدل والقسطاس لسرب من الصبايا تحلقنه يمضغن
اللادن ويسرسعن بكلام غير واضح ويضحكن فى مجون مفاجئ بصوت تنفتت فى
رنينه كل الأسرة والألحفة والحشايا واللون الوردى الشهى الراض من أظافر القدم
إلى شعر الرأس ؛ يرد عليهن نداء الباعة كأنما الحوار قائم ومرسوم سلفاً : " باسم الله
عليك يا حلو ! " ؛ والحلو عنب وتين ورمان وبصل وطماطم وسمك وبطيخ سارح فى
الحارة . النسوان ينادين من الشبايبك من خلل المشربيات يستمهلن البائع يسألنه عن
أسعار يفاصلنه بصبر جميل قبل أن ينزلن للشراء فإن نزلن فرما صدمهن مستوى
البضاعة فيرتدن على أعقابهن كالفهود المألوفة يتبخترن بقمصان البيت بكعوب
حمرء مكتنزة حافية لكنها تبدو مع ذلك كأنها لم تطأ الأرض من قبل ..

أوشكت أن أنسى قطيطة. فمنذ ان شفتنى فى الحارة شفاط سحرى دفع بى
إلى قاعها البعيد المسدود بعمارة هائلة لعلها محلج قطن أو فابريقة تبغ ؛ رحى أهدى
وأعيد رائحاً غادياً إلى أن اجتذبتنى هذه المقهى فارتميت عليها لا من التعب بل من
شوق عارم كما يرتمى طفل على ثدى أمه بعد اغتراب طويل مع بزازة اللبن
الصناعى . الكراسى مصنوعة من القش المصفور على قوائم من الخشب ، بعضها
بمسند وبعضها بغير مسند ، قريبة إلى الأرض ؛ وثمة ما يشبه المناضد أو الطقاطيق
مصنوعة من أعواد حديد التسليح بسطح من الصفيح المشعث بطول الزمن
والإستعمال. جلست فى الداخل قليلاً ، فشعرت بمتعة لا حدود لها ، إذ أرى الناس
فى الحارة مجرد سيقان وأقدام منتعلة أو حافية تتهادى أو تهول تبطئ أو تسرع
تتعثر أو تسلك فى انسياب بين عربات يد ودراجات وزحافات تحمل زجاجات
الكوكاكولا . كان الصناعية قد شرعوا يفطرون ، فوحياة دين النبى محمد لا بد أن

أن أجابر الزاد . أفطرت معهم بالجحان ؛ كنت أطلب كسرة فإذا بي أطوح فى جوفى رغيفين ونصف دون أن أرى من حلاوة الفول والبصل والجرجير والليمون واللفت المحرق والباذيجان المتبل . بالهناء والشاء، هكذا قال الولد القزم وهو يتسم فيما يرانى أملس بكفى على بطنى علامة أنها امتلأت ؛ ثم هتف فى صوت خافت وأخوى : "شاي ؟" . قلت : " نعم " ، ثم أضفت : " هى الشيشة عندكم بكام ؟!" فقال : " مايهمكش ! " ؛ وهروا بنشاط نحو النصبه البدائية البديعة ، فسكب الشاي فى الكوب الزجاجى الكبير الشديد النظافة واللمعان ، فوق ثلاث قوالب من السكر كحجر الدومينو ، وملاً كوباً أكبر منه بالماء ، وسحب صينية صفراء لامعة بحجم الكراسى ؛ وضع فوقها الكوبين وجاء نحوى . بخرقه مشبوكة فى ثوبه بدبوس أعاد مسح الطقطوقة ووضع الصينية ثم استدار فسحب الشيشة ونفخ فى ليها مفرغاً ماءها ؛ ثم نزع قلبها فملاها بالماء فأعاد تركيب القلب ثم أعاد النفخ حتى ضبط صوت الكركرة تماماً ثم جاء فوضعها أمامى أنيقة شاخه مزركشة تتدلى من حرف طاستها ماشة نحاسية صغيرة مشبوكة فى سلسلة . ما أن جربت صوتها حتى جاء الولد القزم بالحجر الكبير فوقه نار ، ألپسه فى قلب الشيشة ضاغطاً عليه لضبطه ؛ ثم وضع فوقه الكسوة النحاسية المخرمة التى تقيه هبوب الهواء والمطر حتى لا يشيط التبغ أو ينطفئ قبل شربه ؛ ثم نظرتى قائلاً : " أي خدمة " . أحببته حباً عميقاً عبرت عنه بشكرى الحار ؛ إذ رفعت كف يمنى مفروداً بجذاء أذنى على الطريقة العسكرية لا هازعاً بل جاداً بكل القصد والنية . فلما شعرت باطمئنان عظيم شعرت أيضاً بحالة لذيذة جداً كأننى قد توافقت أخيراً مع نفسى . صوت أستشعر بكل لذة طعم الصباح وهو ينضج على مهل تحت حرارة الضحى ؛ وصوت جلال معوض العميق النيرة يقرأ نشرة الأخبار كأنه يحدث نفسه بغير انفعال . فى عمق الشعور باللذة والراحة النفسية الخالية من كل أنواع الهموم تذكرت قطيطة . إنتفضت واقفاً ؛ خايرت نفسى ؛ تذكرت القعدة على الرصيف ، طلبت شاياً جديداً واقتعدت ركناً بديعاً قائماً بين جدار المقهى وجدار المنزل المجاور البارز عنه فى الشارع بمقدار عرض الرصيف ، كأنه معد لى وحدى وفى انتظارى منذ زمن بعيد..

وهكذا ركنت الكرسي الصغير فى تجويف الركن وجلست فى شبه خلوة واستقلال . أول خاطر استهوانى لحظتئذ هو كتاب حميم أمسك به فى جلستى هذه على وجه التحديد لأسير غوره على النحو المرجو . شعرت أننى سأجلس هذه الجلسة مرات قادمة لا حصر لها ، ففرحت لذلك فرحاً يفوق الوصف . و..

هذه هى ، قطيطة ، متربعة على الأرض على ناصية عطفة بعيدة تخلو تماماً من المارة ، هى على وجه التحديد كما هو واضح عبارة عن منور مستطيل كحارة سد . كانت قطيطة فارشة حلواها على لوح فوق القفص ؛ ممسكة بيدها مذبة تنش بها الذباب عن الحلوى ؛ وعينها لا تستقر على حال ، تتلفت يمنة ويسرة فى تلصص طفول ؛ ثم ترمى بالمذبة وتسرب يدها فى حجرها وتخرجها قابضة على حفنة من الذرة ثم تميل بجنبها وتنثرها فى الحارة بدرية هائلة ثم تعود إلى الإمساك بالمذبة ؛ وبعد برهة وحيزة تواصل نثر الذرة مرات متوالية حتى نفضت حجرها . هاهى ذى تعتدل فى جلستها محاولة نسيان الأمر تماماً ؛ راحت تطلق بعض نداءات ساذجة الصوت نبراتنا بعيدة عن الحرفة وإن كانت الكلمات مصكوكة بعناية تستحث الأطفال على المجئ لتذوق موز الملوك وبراغيث الست ونبوت الفقير . يتضح من صوتها أنها تمنى ألا يسمعها أحد أو يستجيب لها أى طفل . جاءنى القزم بالشاى فرضعه أمامى قائلاً وهو يدارى عينيه عن وجهى :

- "الشاى الأولانى علينا ! هذا نظامنا عدم المواخذة ! مع كل وجه جديد على رأى بتوع السيمما ! أولنا هذا الشاى مع هذه الشيشة ! أجهز لك حجراً جديداً؟"

- " كل شئ منك حلو !"

- " كسبنا صلاة النبى !"

إستدار ومضى . فما إن انتهيت من تقليب الشاى حتى رأيت مبسم الشيشة يمتد نحوى ، فعدلت قعدتى تبعاً لراحة الشيشة ؛ إنجعت مستنداً للحائط ورميت بصرى فى نهر الشارع الذى امتلاً فجأة برجال شيوخ مكحكين ، وبعض رجال أشداء ، وبعض فتية ، يهرولون ممسكين بالمسابع ، تابعتهم ، رايتهم يدخلون بابا بعيداً على اليمين بحماسة مندفعة . بعد برهة سمعت أذان العصر ينبعث من هذا الباب من رجل واقف على عتبه . ثم شاهدت التزى وهو ينحى الثوب عن

ركبته وينهض ؛ والبقال المسن يعبر البنك ويمضى تاركاً الدكان مفتوحاً لطفل يجرسه ؛ وسمعت أكثر من صوت يردد فى أماكن مجهولة : الله أعظم والعزة لله . شعرت باهتمام مفاجئ يغمر الجو كله بمناخ متهدج حتى نحيل لى أننى تخلفت عن شئ شديد الأهمية وأننى يجب أن أمضى مهرولاً فأنضم إلى هؤلاء ؛ لولا أننى كنت فى تهجد آخر وصلاة أخرى ؛ أجذب أنفاس الشيشة وأنفاس العصرية الطرية . أرى شباناً يرتدون القمصان الأنيقة والسراويل المحزقة على أحدث طراز والأحذية بكعوب عالية مدقوق فيها وفى نعلها فصوص من الحديد ويصدر عن بعض الأحذية أزيز رتيب من ضغط الهواء يسمى بالمزيكة يضبط إيقاع المشية ؛ وفتيات ناهدات عائدات من المدارس يحتضن الحقائق ؛ ونساء خارجات على سنجة عشرة لابد أن وراعهن مواعيد عند سينما الأهللى أو سينما البلدية أو حديقة نادى الموظفين أو ترعة الحمودية أو قهوة الطلبة ..

تذكرت قطيطة مرة أخرى ؛ رميت بصرى إلى الناصية . لم أجدها . شعرت بقليل من الذعر ، داخلنى شعور طفل تاهت منه أمه فى الزحام ، كدت أصرخ من خوف ومن فزع فى طلبها . ضحكت ؛ وقفت ؛ ناديت القزم . طلب ثلاثة قروش ، يابلاش . أعطيته ثلاثة قروش ونصف . رد لى النصف شاكرأ :

- "لواخذة ! لا نأخذ بقشيشاً ! نحن أصحاب المحل !"

ربت على كتفه فى امتنان ، مضيت عجلاً ملهوفاً إلى تلك الناصية . رايت أرض الممر مبدورة بعدد كبير جداً من الدجاج منطرح على الأرض فاقد الوعى سكران بفعل الكحول الذى شربه الذرة بالأمس وألقى إليه منذ قليل . كانت قطيطة مندججة فى الإمساك بها من أرجلها ثلاثاً ثلاثاً أربعاً أربعاً ؛ لترمى بها فى القفص حتى امتلأ فصارت تحشر فى القفة ، وطرحت فوق القفص جلباباً قديماً وطرحت آخر فوق القفة وثبتت القفة فوق القفص ، وركست بركبتها على الأرض ، بدرية هائلة رفعت الحمولة بيد من أعلى ويد من أسفل ثم أسندتها على ركبته واستعدلتها ثم رفعتها على رأسها ثم نهضت كما ينهض الجمل واستدارت لتمضى ؛ فأدرت وجهى بسرعة ومضيت نحو المقهى . بعد قليل نظرت إليها فرأيتها تمضى بخطوات واثقة راسخة لا تلوى على شئ .

تعارف

أدمنت زيارة هذه الحارة الشبيهة بجيب سحرى فى بدن المدينة المنتفخ المليء بالكروش . وذات عصرية فيما أنا أتسكع تمهيدا لمغادرة الحارة رأيتته مقبلاً من نهاية الحارة مركزاً بصره على بشكل أرابنى ؛ فرأيت ان أتحداه أنا الآخر بتركيز البصر فيه، لكنه ابتسم فيما يقبل نحوى قاصداً إياى . كان شكله مألوفاً لى ..

- " مساء الخير يا سيدنا لفندى ! "

- " مساء النور ياخويه أهلاً وسهلاً ! "

- " يلزم أى خدمة من هنا ؟! "

قالها بغمزة خفية أنبأتنى بأن هاهنا أشياء خفية يمكن أن يطلبها الزوار . لكننى نظرت فيه بمزيد من الإستراية . فأتسعت ابتسامته :

- " إنت لمواخذة مش فاكرنى ولا إيه ؟! "

رحت أتأمله ؛ عجوز أهتم رفيع كالزعزوعة ، يرتدى ثوباً من الكتان الزرق ملطخ الجنين بتراب الفحم ووسخ العرق . أخرج من حيبه على صدره سيجارتين ملويتين ؛ قدم لى واحدة ووضع الخرى فى فمه ..

- " شكراً شكراً ! "

- " على الطلاق لازم تولعها ! ما تكسفينش ! "

- " ماشى ! "

أشعلها لى . فى عشم كبير سحبنى من إبطنى :

- " تعال اشرب شاي ! فرصة سعيدة أن أراك هنا ! "

ولما رآنى متردداً ومندهشاً توقف صائحاً بلهجة احتجاج :

- " يا سيدنا لفندى ! لحقت تنسى ؟! لم يمض وقت طويل على كتب كتابى

الذى كتبته لى بخط يدك الكريمة ! مع شوادفى فى الوكالة ! "

لم أتمالك نفسى من الصياح :

- " أهلاً .. ن .. ن ! إزيك يا عريس ! ما حال الزواج ؟! "

- " عال العال ! نحمده ونشكر فضله ! ربنا أعطاني بنت الحلال بحق ! ونعم الأخلاق التعاونية على المعاش !! زى بركة ورثى وبركة ورثها أيضاً ! فأنا ولد أعجبك !! "

مشيت معه بقليل من الحرج . قال بشئ من الصراحة :
- " ظننتك تريد حاجة من هنا قلت اخدمك قبلما تقع فى يد العيال التى لا ترحم ! "

- " حاجة مثل ماذا ؟! "

- " أن تشرب لك حجرين ! "

- " حجرين معسل ؟! "

- " حجرين حشيش ! هذه الحارة منبع الحشيش والأفيون فى العبّ كله ! فيها عيال كالقشاط وعيال كالعسل وأنت ونصيبك حسب ضميرك ! "

ونخلص ذراعه من إبطى ؛ أشار لى وهو ينعطف إلى مدخل بيت متهدم الأطراف يبدو من الخارج كأنه بقايا هديم . إذا بالهديم هو بيت كان مجاوراً وقد تخلفت عن سقوطه باحة صغيرة وارتفعت أكوام الهديم حتى غطت الطريق إلى البيت المجاور فحجبت مدخله ؛ فمضينا فى باحة داخلية عريضة تطل عليها مجموعة حجرات كلها مغلقة البواب فيما عدا حجرة واحدة على اليسار يتصاعد منها لغط ووشيش وكركرة وكحة وضحكات ، وأنفاس عطرة . مال على أذنى هامساً :

- " أنا أشتغل عند الرجل صاحب هذه الغرزة ! نسقى بالمصفاة ! سأسقيك حجرين فى التمام !! "

تطلعت إليه فى دهشة :

- " أنت قلت فى عقد القران إن شغلتك حانوتى !! "

إنفشخ حنكه الخرب عن ضحكة خشنة تزيق أصدائها فى صدره كصهيل الخيل :

- " الطب تقدم يا سيدنا لفندى ! أصابنا بوقف الحال ! أصبح الموت نادراً !! نحن الآن فى موسم الولية امرأتى !! سوقها رائجة على الآخر !! تولد فى اليوم الواحد خمس نساء ! الواحدة منهن تلد اليوم وبعد تسعة أشهر تلد مرة أخرى ! "

نسوان مصر باسم الله ماشاء الله يجبلن على الأربعين !! الله طارح فيهن البركة
بصورة مدهشة !! " وتقدمنى داخلاً :

- " سا الخير عليهم !"

تطلع إليه الجالسون كلهم بنظرة استرابة . كفت الكركرة لبرهة وجيزة مشحونة
بتوتر خفى دفين ؛ ثم مالبت الكركرة حتى عادت متباطئة حينما سجدت الرجل
إلى جوار النصبه فأجلسنى على دكة خشبية تترقص وتجمع . بمجرد اللمس . قال
للواقف خلف النصبه :

- " عشرة حجارة هنا يا معلم وواحد شاي على حسابى ! اليه تبعى !"

ثم استدار ساحباً جوزة من برميل المياه فصار ينفخ فى جوف البوصة طارداً
بعض المياه ليضبطها ؛ ركنها على الحائط بجوارى وراح الى الوجاق الكبير المشتعل
فانتخب جمرة كبيرة أخذ يطحنها فى المصفاة . أمامى ثلاثة رجال من الواضح أنهم
سماسرة فى سوق الخضار يتكلمون عما فعلوه اليوم كأنهم يحكون لشخص مجهول
معنى . معرفة التفاصيل وتفاصيل التفاصيل مع أن ما حدث حدث لهم هم ، وشافوه
بأعينهم بل عاشوه . بجوارهم شاب فى حوالى العشرين من العمر ، أمامه حجارة
مضادة بالحشيش فى انتظار الصبى الذى راح يغير ماء الجوزة . بجوار الباب رجل
ممصوص شارد لا يطرف له جفن وليس أمامه شيئاً ..

أزاح المعلم كوب الشاي على رخامة النصبه بجوار كتفى قائلاً بشئ من الخشونة
وعدم الصفاء : " الشاي ! " . هزرت رأسى أن شكراً ؛ وجعلت أقلب سكره
بالمعلقة . جاء الرجل الحانوتى فألقى أمامى على الأرض ، فنزع من خلف أذنه قطعة
حشيش فى حجم حبة الفول السودانى ، صار يقطع منها نثناً كقشر اللب يضعها
فوق الحجارة . قدم لى البوصة : " مساء الخير ! " . أمسكت طرفها بأطراف أصابعى
وسحبت نفساً خفيفاً فاستحسنتى بأن خبط بحافة المصفاة على البوصة فعمقت النفس
فضرب البوصة ثانية فسحبت النفس بكل قوة ثم تركت البوصة لتندفع من فمى
ومنخارى سحب الدخان الأزرق كثيفة ذات نكهة منعشة . التعميرة فعلاً نقيه
وجيدة . شعرت بالمعلم ينظر لى من تحت لتحت فى شئ من الإندهاش والحسد ، لم
يكن يظننى حشاشاً قرارياً ، هكذا تقول صفحة وجهه حينما رفعت عينى إليها

مستطلعاً سر نظراته . البوصة دخلت عليه ، أمسك بها وسحب أنفاساً متمهلة
وقعتها كركرة الجوزة في ترتيل متصاعد كصوت محرك السيارة حين يدوس السائق
على البنزين ، ثم أسار إلى قائلاً للخانوتي :

- " أمال اللفندي يبقى مين ؟! مين ؟! "

تردد الخانوتي وتخير . أسرع قائلاً:

- " تعرف صراف المديرية ؟! "

تفكر قائلاً :

- " أظن اسمه الحاج مسعود ؟! "

- " بالضبط ! الحاج مسعود القباني ! "

- " ماله ؟! "

- " إنه زوج أختي ! وأنا محسوبك فلان ! طالب ! "

- " أهلاً بيك ! باين عليك حشاش جامد ! "

ذوعب غرورى :

- " إن بجوار بلدتنا قرية صغيرة معظم أهلها يتاجرون في الحشيش ! وهو تقريباً

بلا سعر في نواحيننا !! كل الناس تشربه ولا تشربه في نفس الوقت لأنه إن لم يجيء

فلا احد يسأل عنه !! "

- " بكم القرش عندكم ؟! "

- " بجوالي عشرة قروش ! "

- " يابلاش !! "

هكذا قالوا معاً ، وأضاف المعلم :

- " هنا بخمس وعشرين للبريمو ! "

واستدرك الخانوتي :

- " خذنى إلى بلدتكم مرة أو مرتين ! "

- " يساويها ربنا ! "

وقال المعلم :

" على فكرة ! أنا أعرف هذه البلدة ولى فيها أقارب فى عائلة الجعيدية ، هل تعرفها ؟!"

قلت مشوحاً بما يعنى أنهم نار على علم :

- " مصباح الجعيدى والحاج مسلم الجعيدى وشعبان الجعيدى وعلى الجعيدى!"
أشرق وجهه فهتف :

- " آ.. يوه ! شعبان الجعيدى هذا ! أمه تقول لأمى يا بنت خالتي!"

- " نحن أصهار إذن!"

- " وأنا أى خدمة فى أى وقت ! المحل محلك!"

كانت الحجارة العشر قد انتهت، فتأهبت للقيام فاستبقانى المعلم بحركة من يده:

- " عشرة من عندى سأمضيها أنا ببصمتى ! تعميرة أحلى!"

- " يكفى هذا فقد انبسطت!"

شوح بذراعه ، لَعَب ملامح وجهه المكبظة الشبيهة بوجه الممثل حسن فايق :

- " مادمت من نواحي بلدة الغلاوشة فأنت لا تشبع ولا تنسطل ! إسألنى

عنكم!"

ثم إنه استدرك بسرعة فيما يقضم تعميرة الحشيش يبططها بأصبعيه ليفردها فوق

التبغ المعسل :

- " لكن من أين عرفت هذا الجدع ؟!"

وأشار إلى الخانوتى . قال الخانوتى :

- " البيه أصله صاحب شوادفى بتاع وكالة عطية ! صاحب الروح بالروح !!"

برقت الدهشة المنهلة فى عيني المعلم ، فشعرت بنجمل شديد :

- " إنها صدفة والله ! عرفته قريباً جداً بواسطة صديق ! أقصد بواسطة واحد

أعرفه!"

- " ظننته من نواحيكم ! هو على فكرة حريف كبير فى التخزين !!"

إنزعجت :

- " تخزين ماذا ؟!"

- " الحشيش ! لكن ! يظهر أنه الآن خفف من هذه العملية ! لكنه منذ مدة كان خبيراً في إخفاء البضاعة للتجار الكبار ! ولو فتشت الحكومة وكالته شقاً شقاً فلن تجد أى شئ ، مع أن الحشيش ربما تحت أقدامهم وعيونهم لكنهم لا يروه !! ياما فتشوا عنده لدرجة الفحت في الأرض ! وفي الآخر يمسوا منه فتركوه في حاله يحزن كيفما شاء !! إنه جبار ! كفاك الله شره ! يخرج من المصيبة كالشعرة من العجين !! "

كان الخانوتي قد جعل يرتعش من الحرج والتوجس ناظراً للمعلم محاولاً تحذيره من الإستمرار في الكلام . فلما لم يستطع قال لي هاتفاً :
- " أنا لم أقل لك شيئاً مما سمعت ! ولم أسمع أحداً قال لك شيئاً !! إعمل معروفاً أنا لست جمل شوادفي !! "
إنفجر المعلم ضاحكاً في مرح كبير ، وغرق الخانوتي في ضحك طفولي مضحك وهو يقول :

- " لا داعي يا معلم نُنُّه ! "
لكن المعلم النُنُّه حدَّجه بنظرة ماكرة :
- " يا جبان ! إحك للأفندي كيف كان يخفي البضاعة ! "
ثم وجه الكلام لي مشيراً إلى الخانوتي بيده :
- " صاحبك هذا كان يشتغل صبيّاً لتاجر كبير ربنا يغممه السلامة في سجنه ! كانت مهمته الجحى بالبضاعة من مخزن شوادفي إلى مكان التسليم ! قل له يا جدد ليعرف فجر هذا الرجل ! لا تخف ! إن شوكته انكسرت الآن فلم يعد يخيف !! "
حينئذ اتفشخ حنك الخانوتي وبدأ كطفل شقى عابث قليل العقل :
- " أتعرف كيف كان يخفي البضاعة ؟ في جوف بالوعة الجارى في عتبة البوابة الثابتة للوكالة ! التي كانت تفتح على زريبة المواشى ! فلو وكالة زريبة جنب الطلمبة لنتام فيها ركائب السكان والمواشى التي سيطلعون بها السوق في الصباح ! وفي مكان آخر من الوكالة أيضاً كان يخبي المسروقات !! كان لابد أن أدخل في صورة شخص جاء يكسح مجرور الوكالة أو يسلكه ! لم تكن الجارى دخلت بعد ! فألبس الخرق القديمة ! أجيء بالجردين والشومة لأعلق كل جردل في طرف منها

أجعلها نيراً أحمله على كتفى ! جردل وراثي وجرذل قدامى ! أغرف الغائط من
البالوعة وأمضى به بعيداً لكى أدلقه فى حقل بعيد أو منطقة مهجورة حيث ينتظرني
طفل أو شحاذ أو بائعة فجلى أسرب لها أكياس البضاعة الملفوفة فى قماش وورق
لاصق ومعبأة فى أكياس من الجلد !! البضاعة تكون موزعة فى عيون مبنية فى
جدران البالوعة من الداخل ليضع النازل قدميه فيها عند النزول إلى عمقها لتسليكهأ
أو كسح قاعها !! فضونا من سيرته عليه اللعنة !!"

ووقف متناولا الشيخ فراح يسيخ الجوزة بعناية فائقة وبنشاط يحسد عليه من هو
فى مثل سنه وشكله الصحى ، فيما راح يواصل الحديث بصوت مغلغ خشن بسبب
الأفيون الذى ينشف الريق ويذبذب الحبال الصوتية كما قرأت ذات يوم فى إحدى
مقالات مجلة المختار من الريدرز دايجست فى مكتبة الحوفى . كان الحانوتى يبدو
وكأنه وجد موضوعاً يعشق الحديث فيه :

- " يوه يا سيدنا لفندى ! هذه الوكالة أكلت عمري ! كرهتها ألف مرة !
لكننى لم أسلها أبداً ! ياما جاءتنى الفرص للسكنى فى بيوت محترمة بإيجار رخيص
وأصحابها يصبرون عليك فى مسألة الدفع شهراً وشهرين وثلاثة ! لكن هذه
المخروبة بنت المخروب تسلبنى عقلى ! معمول لى فيها عمل !! وكل من يسكنها
لأكثر من شهر توقعه فى هواها فلا يسلوها حتى لو أسكنوه فى قصر المنتزه !! فيها
ناس يسكنون منذ أربعين سنة ! لا يخرج الساكن منها إلا مطروداً أو ميتاً !! تسألنى
ماذا فيها يجعلها هكذا ؟ أقول لك لا أعرف ! يمكن أن يكون لأنها مثل صندوق
الدنيا ! ويمكن أن يكون لأنها مثل السيلما ! ولكن عقلى يقول لى أن الحياة فيها لها
طعم مختلف ! إن الواحد فيها يستطيع أن يفعل كل مشتتهاه ! كل مالا يستطيع فعله
فى سكن غيرها ! فلا أحد فيها ينتقدك أو يتدخل فى شعونك أو له أى دعوى بك !
إن عرف أنك عدم المواخذه لصاً أو قتال قتلى أو قاطع طريق أو حتى معرساً فإنه لا
يحتقرك ولا يخاف منك ولا يضايقك !!"

وانتهى من غسل الجوزة وتغيير مائها ، فركنها بجوارى ، وجعل يطحن النار فى
المصفاة بقوة ، ويحرك ذراعها بالمصفاة كالمرجيحة فى سرعة هائلة دون أن تسقط
جمرة واحدة . ثم ألقى أمامى ومد البوصة نحوى :

- "الوكالة يا سيدنا لفندى دولة وحدها !! ملكها ورئيسها هو شوادفى ! هو جمال عبد الناصر بتاعها ! إنتزعها من صاحبها عطية ومن وزارة الأوقاف كما انتزع عبد الناصر حكم البلاد من الملك فاروق إلا أنه كان أبرع من عبد الناصر لأنه أخذها بدون جيش أو ثورة مباركة ! بصراحة ربنا يا سيدنا لفندى هو أجدع من عبد الناصر فى حكم الوكالة !! ناب أزرق لا تعرف له ملة ! قالوا إنه فى الأصل قبلى من أسيرط ! وقالوا بل يهودى بدليل طباعه ! وقالوا إنه مسلم موحد با لله ! أما هو نفسه فيقول إن أجداده خليط من الترك والعرب وإن جده الكبير البعيد كان من خصيان السلطان عبد الحميد القديم !! لا يارى ! هذه الإشاعة الأخيرة أطلقها عليه عطية صاحب الوكالة !! وحينما سأل الخبثاء شوادفى عن حقيقة هذا النسب شخر لهم قائلاً : مالى أنا ولجدى إن كان خصياً المهم أن لى طرفاً أدكه فى عشرة نسوان يقفن وراء بعضهن لينفذ من مؤخرة الواحدة إلى فرج الأخرى وأستطيع به رفعهن جميعهن ومرجحتهن كيفما أشاء وهن مشكوكات فيه !! إنه تحفة نادرة يا سيدنا لفندى ! إنه متعة لمن يفهمه ويحبه ! من يحبه هو الوحيد الذى يستطيع احتمال له ليستمع بنوادره واطواره . يكفى يا سيدنا لفندى أنه يحكم فى الوكالة مللاً وأجناساً !! .."

سحب البوصة منى ليسحب الأنفاس المتبقية ؛ كتم الدخان فى أنفه فأحدث زعيقاً كصوت فرملة السيارة المفاجئة . ثم استطرد من خلال سحب الدخان المتدفقة من فمه وأنفه :

- " شف يا سيدنا لفندى ! فى الوكالة عجر وحلب وتتر ونور !! "

- " فما العجر وما الحلب وما التتر وما النور ؟! "

- " المرأة العجرية مثلاً تلف الغيطان كغازية ترقص لتخدم عصابتها ! تبيع جسلها بالشبر والبوصة لتعود آخر الليل متعشية اربعاً وعشرين قيراطاً ! هكذا العجر ! "

- " فما الحلب ؟! "

- " هم أعفّ الناس من ناحية العرض والجسد ! لكن نساءهن يسلبن الرجال

أموالهم الكبيرة بحيل جهنمية !! "

- " والتتر ؟!"

- " أنتن الخلق ! نساؤهم يتخصصن فى سرقة النسوان الهوانم بحيل جهنمية !
ورجالهم يتخصصون فى سرقة حبال الغسيل ! وجمع السبارس !"
- " يبقى النور !"

- " أبارك الله منهم !! أوطى طائفة ! رجالهم ونساؤهم يبيعون شرفهم !
الصراحة هم بلا شرف ! لكنهم بقدره قادر رائجون ! يستأجرهم الناس للكيد
والتفطيش والتفضيح والقتل والشهادة الزور فى المحاكم وخطف النسوان الغريبة
وتقديم نسوانهم للزبائن الغرباء كله ماشى عندهم !!"
سحب نفساً عميقاً من الجوزة ، واستدرك :

- الله لا يكتبها عليك يا سيدنا لفندي ! يبدو عليك أنك ابن ناس طيبين ! فما
الذى رماك فى طريق شوادفى ؟ إنه لا يقع فى يديه سوى الضائعين المشردين من
أمثالنا والهاربين من الحكومة والقانون والمجتمع !! .."

لم أتبين ما إذا كان هذا الحانوتى اللطيف قد كرهنى فى الوكالة أم أغرانى بها ؛
إذ راح قلبى يرتجف لدى استماعى لهذه الأساطير لكن خيالى فى نفس الوقت قد
اتقد وشببت فيه نار حامية تدفعنى إلى الجرى نحو الوكالة لا خارجها ، كأنها
المكان الوحيد الذى يستطيع إطفاء هذه النار ..

وراح المعلم النن يواصل إمضاء الحجارة بتعميرة سخنة ؛ وراح المساء يطل من
ناروزة فى السقف ضيقة . ومن نافذة أمامى بدت العمائر الشاهقة بظهرها العارى
من الطلاء على الطوب الحمر كعضلات بطن قوية سوف تهضمنا إن عاجلاً أو
أجلاً . ثم إنها اختفت فاستقر بصرى فى داخل القاعة مستنهماً إلى الضوء الشاحب
المنبعث من كلوب معلق فى السقف لا أدرى متى اشتعل . وحين كان الحانوتى
يوصلنى إلى منتصف الحارة ثم إلى نهايتها كنت كأنى أخرج من أعماق زمن
سحيق انقطع فيه التاريخ تماماً . ولم أكن أشعر أننى قد صرت فى دمنهور مرة
أخرى إلا حين رأيتنى أتطوح ذائباً فى الهواء ؛ بينما أعبى الجسر المرتفع المحاذى لمحطة
السكك الحديدية ، فى طريقى إلى الوكالة .

دُميانة والقرد

كنت موقناً أنني لن أستطيع النوم بسهولة هذه الليلة ؛ لأنني نمت طول النهار فوق هذه المصطبة الجميلة نوماً عميقاً لم أشهد خلاله أية أحلام على الإطلاق كأنني في موت مؤقت . وهاهي ذى الساعة قد جاوزت منتصف الليل بكثي ر، وأطفأ شواذفي لمبته الصاروخ وسحب البطانية الكالحة فوق رأسه واستغرق في النوم . كان باب حجرتي نصف موارب ؛ وكنت في ضجعتي على المصطبة أستطيع رؤية الجزء الداخلى كله من الفناء الواسع ، وزاوية من أبواب بعض الحجرات العلوية التي كان معظمها مفتوحاً ومضاء تسمع منه أصوات ساهرة من الواضح أنها تلعب القمار أو تسكر أو تتضاجع أو تتعاطب أو تخطط لأعمال وربما لمصائب وكوارث ستحل بأبرياء مجهولين غداً أو بعد غد . يبدو أنني قد أدمنت هذه الضجعة على هذه المصطبة في مثل هذا الوقت من كل ليلة ، وأننى أصبحت أميل إلى النوم مبكراً لكي أتمكن من الصحو للفرجة على هذه الحجرات وما تحويه من أسرار يقشعر منها البدن . ورغم مرور عدة ليال على هذا النحو فإننى مازلت في حيرة كالواقف على شاطئ بحر عريض عميق لا يعرف من أى بقعة آمنة ينزل إلى عبابه ، حيث كل البقاع تبدو آمنة وسطح الموج يبدو ساكناً .. إلا أنني واثق أن الخطر كل الخطر إنما يكمن تحت هذا السطح الساكن الهادئ . إن كل الحجرات تستثيرنى فأرانى أتنقل بسرعة نحاطفة كالمطائر المذعور من باب إلى آخر دون أن أستقر على حجرة أبداً بتركيز الإنتباه عليها ..

على أن الجدار المواجه لنومتى على المصطبة راح يسخر من هذه اللحظة الهادئة ، إذ ينبعث من خلفه هدير وهبد ورزع وقلقلة مفزعة لا يمكن أن تعطى النائم على هذه المصطبة فرصة للنوم . رأيت أن لا مفر من القيام وإيقاظ شواذفي من النوم فربما استطاع إسكات هذه الزلزلة التي تهدر بجوار أذنى مباشرة . وعندى مبرر قوى للشكوى ؛ فهذه الظاهرة تتكرر كل ليلة أو كل ليلة والتي تليها . وكنت أتصور أنها مجرد شئ عارض فإذا هي طقس متكامل يستغرق زمناً طويلاً ربما امتد إلى ساعتين أو ثلاثة ؛ فلا بد أن جارتى دميانة لا تدرب قرودها الأربعة إلا فى عز الليل

هكذا . ثم قفزت واقفاً فى غضب ؛ خطوت خارجاً فى الإتجاه إلى مصطبة شوادفى . ناديته فى همس رقيق :

- " عم شوادفى ! يا عم شوادفى ! "

دفع الغطاء واعتدل جالساً تاركاً ساقيه ممددين :

- " من ؟ ماذا ؟! "

- " أنا فلان ! .. "

- " خير يا فلان ؟! "

جلست على حافة المصطبة ، ملت نحوه مدمماً بصوت واطئ فى غضب مكتوم :

- " ما أنا بقادر على النوم يا عم شوادفى ! هناك زلزال فى حجرة دميانة القرداتية ! كأنها فوق راسى ! الجدران تهتز ودرف الشباك تصطك فى بعضها!! .. زام بلهجة فهمت منها أنه كان واثقاً من أننى سأقدم بهذه الشكوى ذات يوم . ورغم أن عتبة البوابة كانت ظلماء تماماً فإننى شعرت بابتسامة صفراء تنضح خبثاً فى الكلام :

- " هذه المرأة المجنونة لا تنوى أن تجئ البر !! الذى فيها فيها !! لا فائدة من الكلام أو حتى الضرب !! إننى والله مبق على العشرة فحسب !! يصعب على منظرها ساحبة قرودها باحثة عمن يقبل أن يسكنها فى بيته ووراءها أربع قروود أشقياء !! .. "

وسحب كيس السبارس ، وجعل يلف سيجارة لم يستغرق لفها أكثر من ثانية ؛ فجأة رأيته مشتتة بين أصبعيه ، ولا يضعها بين شفثيه ليسحب النفس ، إنما يكور قبضته ويضع بوزة على حافة القبضة ويشفط ، فتوهج السيجارة فيخرج الدخان من منخرية معبقاً الجو برائحة حريفة فى العطن . واصل كلامه بهدوء دون أن يرفع صوته :

- " إنه القرد العجوز عليه اللعنة ! يدوخها ! لأنها تدوخه ! إنه معذور يا أخانا ! ليس يكفيه أنه شقيان طول النهار مع من يستأجره ؟ هو الوحيد الآن الذى يجرى عليها ليطعمها ويكسوها ويسكنها !! مع ذلك تقسو عليه بنت القحبة هذه !! ما

أدرى والله كيف يحتملها؟! مصيره أن يخرج عن طوره ذات لحظة فيمزق لحمها!!..

أصابني الخرم ودب الصحو المستثار في عروقي، فاشعلت نصف السيجارة الذي كنت حفظته في جيبى منذ حوالى ساعتين ، حاولت التأثير عليه :

- " أنت يجب أن تنذرنا بشدة ! تحتم عليها أن تدرب القروود في النهار وتترك الليل لنا نرتاح فيه ! فأنا بصراحة لا أستطيع أن أفهم أى تدريب هذا الذى يزلزل الأرض ويحدث أصواتاً كرعد السحب حين تتلاطم؟!.."

قال كأنه يتضامن معي :

- " تدريب مهيب بهباب الفرن !! القرد العجوز دائماً أبدا يحرن ! يتمرد على أوامرها ! تسوية بالخيزرانة على الجنين ! يقفز من ركن إلى ركن فى عنف واندفاع وخوف كأنه صخرة تقع من قمة الجبل إلى الأرض !! أعرف هذا يا أخانا بل سمعته بنفسى ! الجنزير مع ذلك فى يدها ترخيه وتشده ! فمن عنف اندفاع القرد المكتم ينشد الجنزير من قبضة يدها فيكر على الأرض خلف القرد فتظل هى تحاول الهجوم عليه من ركن إلى ركن تصطدم بالقروود الصغيرة المربوطة من أعناقها فى أوتاد متينة فى الأرض ! ولا بد أن تمسك به فى النهاية ! إنها امرأة جبارة حقاً يا أخانا ! ذويت فى حياتها خمسة أزواج كأنهم أزواج من الأحذية السوقى !! شاهدت منهم ثلاثة ماتوا فى وكالتى فى حجرتها هذه واحداً بعد الآخر ! آخرهم كان رجلاً حكيماً طيباً وعجوزاً قال لى إن لحمها زفر !! ليلة ينام فى حضنها لاصقاً بطنه بطنها يصبح شاعراً أن لحم بطنه قد ساح وصار مثل الرقاقة ! أصبح واحد فيهم وكان شاباً استهلكته فى سنتين اثنتين ! إنها فى الأصل من النور أباً عن جد ! النور كلهم من نواحي سيناء !! طولها ثلاثة أمتار وعرضها عرض الباب وموخرتها تملأ زكية وكل ورك من وركيها كورك الجمل !! حين تتخائق تستطيع أن تهزم بلداً بحالها دون أن ترفع سلاحاً أقوى من لسانها وإن اضطرت للضرب فبالنبوت كالرجال وبالركبة والفأس والدماغ وكل ما يقع فى يدها !! وجهها دائماً منفخ كالكرة لا يتثنى ولا يتكرمش لأنها كما صرح لى زوجها الأخير تدعك لحم وجهها بمنى الثور ولست أعرف يا أخانا كيف تحصيل هذه الشيطانة على منى الثور!! وفى صباحها وشبابها

تربت على أطعمة غريبة يا أخانا ، وحتى الان تذهب إلى السواق في آخر الدنيا
لتشترىها بغالى الأثمان : كبد الذئب وقلبه ! بيض نسر ! أحليل الحصان ! ثم إنها
طباخة ماهرة مع ذلك يا أخانا لا يسكرنى طيخ كطبيخها ! وهى كريمة أيضاً !
كلما طبخت شيئاً نادراً أرسلت لى طبقاً وربما فرقت على بعض خلصائها فى
الوكالة ! لا تعرف الأكل إلا بالمخلاب ولا اللحم إلا هبراً هبراً !! يكفيك الله
شرها يا أخانا فحاول أن تكسبها فى صفك أحسن لك !! إنها مفيدة ويمكن إذا
وثقت فيك أن تقرضك مالا لحين ميسرة !! ..

وسحب الغطاء فوق ساقيه ، إشارة إلى إنتهاء المقابلة ؛ فلما لم أقم تمدد من
جديد ساحباً الغطاء نحو رأسه . ثم قال كأنه ينهى المقابلة بالفعل :
- " وعلى كل حال فإن الأمر على وشك النهاية ! فما تكاد تصل إلى حجرتك
وتتمدد حتى يكون القرد قد همد من شدة التعب واستكان وامتل لها !! " ..
وأكمل سحب الغطاء فوق رأسه فغطاه تماماً ؛ ثم سرعان ما انتظم تنفسه .
قمت متجهاً إلى حجرتى بخطوات لا صوت لها . فلما دلفت إلى الفناء جابهنى على
الأرض منظر فى غاية من الجمال والإبداع : خريطة مبهرة مرسومة على أرض الفناء
بخيوط الضوء المنساب من خصائص الأبواب المواربة والمفتوحة والمقفلة فى الطابقين ،
تتداخل فى بعضها كخيوط النسيج صانعة دوائر وقباب ومآذن وأسهما وأشكالاً
غريبة كعرائس الخيال كالجنيات المحلولات الشعر ؛ تصنع بطانية ثمينة الشكل فوق
جانب كبير من الأجساد المتمددة فى الفناء أمام البواكى وتمتد بقيتها إلى مسافات
كبيرة لترق كلما تباعدت فتلتحم خيوط الضوء بجسد الظلمة الغامرة لكن شبح
الظلمة يحوضها الأسمتى المستطيل تبدو كشاهد قبر موحش . أخذت أتمشى فوق
هذه الخريطة مخترقاً رسومها وأشكالها بجذء أقدام النائمين ؛ فإذا هى تتسلقنى قبل
أن أدوسها ، فتظل عالقة بقدمى وصدري ورأسى حتى أجتازها إلى الهامش المظلم .
وهكذا رائجاً جائياً عدة مرات مشبكاً ذراعى خلف ظهرى كمدرس اللغة العربية
وهو يمضى بين صفوف التخت فى الفصل أثناء قراءة فى حصص المطالعة ليتوقف
من برهة لأخرى مستديراً إلى الإتجاه المعاكس ، فى رجعة من الرجعات سلطت
عينى على باب حجرة دميانة ؛ فلاحظت ماسورة من الضوء رفيعة جداً تنبعث من

خرم فيه رجحت أن يكون خرم كالون تم نزعها لتركيب رزه قفل بلا منه ؛ وهو أمر يحدث لكل هذه البواب لضياح المفاتيح من أصحابها أو حلول سكان جدد يخشون من الأعياب السكان القدامى الذين يحتمل وجود مفاتيح معهم . تتبعث ماسورة الضوء حتى الباب ، فإذا الخرم فى حجم المليم البرونزى الأحمر ؛ لكننى انعطفت على باب حجرتى فدلقت داخلاً ؛ فما كدت أدخل حتى جابهنى صوت الهبد والرزع ولكن مكتوماً هذه المرة وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة : دبدبة سريعة ثم تخاذل مفاجئ ثم نفضة مفاجئة قوية أهدت فى الحال . ظللت واقفاً فى مكاتى لاصقاً أذنى بالجدار لدقائق طويلة شملها السكون المزيف حتى وضحت من خلاله أصوات نقيق الضفادع فى الغيطان البعيدة ، وأصوات ورق اللعب وهو تطرقع فى بعض الحجرات ، وطشات عيدان الكبريت وهى تشعل السجائر ، وصوت سائل يصب فى الأكواب مقرقراً . ثم مالبت أن تسلل صوت جديد سرعان ما راح يعلو ويتضح ويسيطر ، صوت فحيح نشوان قوى يخرج من الحلق ولكثافته الشديدة يضيق به الحلق فيخرج من الأنف مجلجلاً فى هدير أو مكتوماً فى غنج . إنسابت مفاصلى ؛ تكورت أصابع قدمى فى الشبشب الزنوبة ، صرت أرتعش ، تتلاحق أنفاسى بشدة ؛ أسمع دقات قلبى . إندفعت خارجاً ، على أطراف أصابع قدمى تسللت بجنبى خطوتين حتى صرت أمام باب دميانة . وضعت عينى على الخرم ؛ هالنى ما رأيت ؛ كتمت صرختى بقوة كادت توقف قلبى عن الخفقان ، بل كدت أتهاوى على الأرض من فرط النفضة المنذهلة ، إلا أننى سرعان ما التصقت بالباب متناسياً كل شئ وقد أغرق البلل ساقى : دميانة كالذبيحة الفطسى ، منجضعة على ظهرها ، رقبته معوجة إلى الأمام ، كجذع شجرة جميز عتيقة ، فاشخة وركيها كاسرة ساقىها فوقهما بلياقة بدنية منهلة ، والقرد العجوز مغروز بين ساقىها تعلو مؤخرته الحمراء وتهبط ، بنفس الطريقة التى يقلد بها عجيب الفلاحة ؛ فيما هي بمسكة بخاصرته لتمكن من تحريكه ؛ تدفع نفسها نحوه لتطوله ، وتجذبه نحوها لبطولها . دقائق طويلة هكذا ؛ والقرد مغلوب على أمره مذعور مندهش متألم ، يطلق سرسعة تتبعها زومة فحمومة فلهات ؛ يفرك ذيله الطويل فى الأرض ينتفض .

فما أن فكت ذراعها عنه حتى انسلت منهاوياً برجليه الأماميتين على الأرض
موجهاً إليها نظرة ارتياب مذعورة ؛ ثم قفز ناجياً ، لينكمش في ركن قصي ..
إنسحبت بظهرى إلى حجرتى ؛ فارتيمت على المصطبة متمدداً على ظهرى
أحاول ضبط دقات قلبى المتسارعة العنيفة ، فيما أشعر بغثيان شديد .

على ريق الصُّبح

بزغت خيوط الشمس فامتلاً فناء الوكالة بالخلق من مختلف الأشكال والألوان .
إرتفع ضجيج هائل ، أبرز ما فيه صوت الطلمبة وهي تدور ليغسل الناس وجوههم
وأرجلهم ؛ كل واحد يدير للآخر يد الطلمبة . معظمهم يجفف وجهه ويديه في
ذيل جلبابه ، أو يترك الماء على وجهه ويديه حتى يجففه الهواء. ثم بدأ الزحام في
الفناء يخف تدريجياً . في ظرف دقائق معدودة كان آخرهم يخرج وهو ينفذ الماء
عن يديه . أولئك كانوا الذين ينامون في الفناء على الأرض مقابل قرش واحد .
وحل بالفناء هدوء صباحي رطيب انبعثت خلاله روائح طازجة . لم يستمر سوى
دقائق معدودة ، بعدها انفرطت الحياة في الفناء ..

صارت المشاهد تترى أمامي عبر فتحة الباب : هذا أفندي محترم جداً ، سعادة
الباشا يرتدى بذله أنيقة على أحدث طراز ، فوقها المعطف الجبردين المعتبر ، يتعلل
حذاء شديد اللمعان ، يمسك بيده حقيبة جلدية لامعة الأزرار كحقيبة القاضي أو
الوزير ؛ إنه من عليه القوم ، حليق الذقن مصفف الشعر تفوح منه رائحة كولونيا
الپاسمين ؛ إلى جواره ، متأخرة عنه قليلاً ، سيدة كهند رستم الممثلة بل أجمل منها
وأوزن ، محتشمة في لبسها بعض الشيء ، الفستان الحريري المقور الصدر لا يظهر منه
سوى النحر بجذعه المضيء تشف عنه الطرحة الحريرية من الحبرة ، الكم حابك على
الرسغين ؛ الصندل اللامع يكشف عن كعبين كريالين من الفضة ؛ قوام لا يتمتع به
إلا بنات الحور اللآئي نسمع الكثير عن أو صافهن ؛ في المعصمين البضين أساور
وفي الأصابع خواتم وعلى الصدر عقود وفي الأذنين قرط كل ذلك ذهب فيما يبدو
؛ وكأى سيدة بالغة الإحترام تتأبط حافظة يد سوداء . أفى الوكالة مثل هؤلاء الناس
من ذوى المهابة والأبهة ؟! هذا بك آخر يمضى وبجواره سيدة أنقح من السابقة .
وهذا حضرة العمدة ، يرتدى الجلباب الكشمير وعلى كتفيه العباءة الجوخ السوداء
وفي قدميه مركوب من الجلد الطبيعي وعلى رأسه طربوش أحمر زاهى اللون أسود
الزر ، والعصا البنوس في يده يوقع بها خطوة الوثيد المتزن . بجواره السيدة حرمه
المصون بحق وحقيق كما تبدو ، إذ تلف نفسها بالملس الأسمر الملئ بدروب من

الكشكشات والبروزات ولكن لفة الجسد المحكمة تشير إلى أنها سيدة بكل معنى الكلمة ، إضافة إلى الوجه البارز من تحت الطرحة بملامح مضيئة بأنف مستطيل ورموش مشرعة كأعواد الخلفاء . بحق الله ما كل هذه ؟. هذا شاب أشقر سمهري القوام يرتدى سروالاً من صوف الفانلة وقميصاً وشرزا من الصوف المصفور باليد بدون أكمام فلا بد أنه من طلبة الجامعة بدليل حافظة الورق الجلدية الأنيقة التي يتأبطها . وهذه أمه بلاشك ، تمشى بجواره ملفوفة فى الملاء بطريقة محتشمة غير حابكة على تفاصيل الجسد فلا بد أنها ست الحاجة متوجهة فى صحبة ابنها إلى سفر أو زيارة أضرحة لتشتري له شيئاً ..

جعلت الحجرات تسرب إلى فناء الوكالة أشكالاً وألواناً من البشر يمضون فى احترام ووقار شديدين ؛ حتى ليصعب التصديق بأن هذه الوكالة فيها كل هذه المستويات المهيبة ؛ فلو قابلك أحدهم فى أى مكان لأعطيته حقه الواجب من التقدير والإحترام . كنت قميناً بأن أهتز من مناظرهم وأرتج رهباً ؛ لولا شوادفى كان يشيع كل عمدة أو باشا أو بك أو شهندر تجار باللقب الذى يستحقه عند الوداع : "مع السلامة ياد يا ملعب !" .. "نهارك فل يا زقلط !" .. "ربنا معاك يا زعبلة !" .. "قلبي معك يا ابن القحبة !" .. إلخ .. إلخ .. مما أدخل فى روعى أن حجرات الوكالة هذه ليست إلا كواليس مسرح وهامم الممثلون يخرجون إلى خشبة المسرح مرتدين ثياب ادوارهم ، فداخلى شعور بأننى يجب أن أقوم أنا الآخر لأرتدى ملابس دور ينبغى أن أخرج لأؤديه . لحظتُذ جوبهت بحقيقة تقبض لها قلبى بشكل قارص حاد ، حتى كدت أطلق آهة عميقة ضجرة ، تلك هى أننى ليس لى أى دور على خشبة أى مسرح ، ولا حتى دور الكومبارس . رأيتنى أنخرط فى بكاء عنيف مكتوم أجاهد حتى لا يصل صوته إلى خارج الحجرة . لقد تنبّهت إلى أننى أصبحت خاوى الجيب تماماً . كما أننى خاوى البطن منذ ليال طويلة ماضية . رأيت فى الضباب أبى الكهل يتوكأ على عصاه عند القيام وعند الجلوس ومع ذلك يسعى إلى الرزق فى مدينة البندر كل يوم ؛ تنطق عيناه اللوزيتان الكليلتان بالصدمة الأسيفة كلما رأى . رأيت أمى تحوش بيض الدجاج كى تبيعه لتغمرنى عند السفر بعشرة قروش زيادة على المصروف ؛ هاهى ذى قد تقرحت جفونها من البكاء حزناً

على ما حدث لى . رأيت كذلك جدتى - أم أمى - تتكفل بملبسى وإيجار مسكنى فى هذه المدينة ترسل كل شهر من بلدة بعيدة تعيش هى فيها ؛ هاهى ذى فى ناظرى لم تعرف خبر طردى من التعليم حيث أشفقنا عليها من الصدمة فلم تبلغها ، وما تزال تعتقد أننى على وشك التخرج . رأيت زملائى الذين أصبحوا الآن مدرسين فى وزارة التربية والتعليم يقبضون راتباً شهرياً ويجهلهم القوم فى الرواح وفى الجمع ؛ وفى حين أرانى بلا راتب بلا مركز بلا مسكن بلا كيان ؛ حتى وكالة عطية التى يأنف الناس من ذكرها سأعجز عن الإستمرار فيها وربما طردت منها بعد ايام قليلة ؛ وصديقى محمد ابو سن ، بهتت من المرور عليه بين ليلة وأخرى .. فماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لماذا أظل متراخياً دائماً حتى أجد نفسى ذات لحظة مفاجئة مضطراً إلى البحث عن حل سريع مؤقت ؟! ..

طرات بدرية على بالى ؛ إستحسنت فكرة الإتصال بها : أنا محسن الكوافير أعطنى الأنسة بدرية من فضلك . بحثت عن رقم الهاتف ، وجدته ؛ تقبض قلبى ثانية بنفس القرصة المؤلمة ، إذ تبينت أننى لا أملك القرش الذى يجب أن أدفعه ثمناً للمكاملة . ضاق صدرى ؛ كورت الورقة ورميتها فى جيبى ؛ تهاويت جالساً على المصطبة فكأننى أجلس بعد عام كامل من الوقوف على قدمى ..

يزحف ظل تخين جداً على الأرض فى بحر الصفرة الساخنة الذى ذقته الشمس فوق حوض الفناء . بعد برهة مرت الداية . فى أعقابها زحف ظل آخر ولكن بشكل عمودى متجه نحوى : الخانوتى يقف أمامى وجهاً لوجه ، على وجه بسمة طفولية لطيفة ينفرج منها حنكه الأهمم . هتف بنبرة أسيفة أليمة :

- " وقعت فى الخية يا ابن الناس !؟ لا عليك ! كنت أعرف أنك لا بد ستقع فى هوى الوكالة ! الآن لا أقول ربنا يتوب عليك منها فهذا لن يكون أبداً عدم المواخدة !! هذا هو الدعاء الوحيد الذى لا يستجيب له الله سبحانه وتعالى ! كل ما أدعو به ينجيك من شرها !!" ..

لم تكن دموعى قد جفت بعد ؛ لكن الخانوتى رآها شيئاً آخر ، إذ بخلق فجأة فى عينى متسائلاً :

- " أنت لتترك صباح من النوم ! يظهر من عينيك أنك نمت نوما عميقا لمدة طويلة ! " ..

صفعنى الشطر الخير من العبارة :

- " نعم ! ومازلت نائما ! " ..

- " أليس وراءك مدرسة ؟ " ..

- " عندي إجازة مذاكرة !! " ..

حلو ! أنا أيضا عندي اليوم إجازة ! شغلي يبدأ بعد المغرب فأنا جمعة بالنهار وجمعة بالليل ! الولية امرأتى ذهبت فى مشوار إذا وفقها الله لك الحلاوة ! ستوفق رأسين فى الحلال ! العروس غنية والعريس أغنى ! " ..

- " سوف يوفقها الله بالتأكيد ! إنها ولية واعية ! " ..

- " إدع لها يا سيدنا لفندى ! إن المسألة ليست سهلة كما نتصور !! العروس غنية أى نعم ! وسوف تنغنج عريسها بالعفش والمفروشات والأطعمة والمدخرات ! لكن منظرها أستغفر الله العظيم يا جدد !! صراحة ربنا هى جسمها حلو مفيش كده ! يوقع اجعص جعيص ! لكن وجهها أستغفر الله !! " ..

وجدتنى أقول على سبيل المزاح والتداعى :

- " شفتها غليظتان !! " ..

- " عليك نور ! بالضبط كذا !! " ..

ثم استدرك وقد تضاعف ذهوله :

- " الله ؟ أنت تعرفها ؟ كيف ؟ " ..

استرسلت فى المزاح المرتجل :

- " ولا بد أن بيتها فى شارع الصاغة ! أمام محل الفول المدمس الشهير ؟ " ..

بدا عليه التشكك والحيرة ؛ صباح :

- " أنت تكلمت مع الولية امرأتى ؟ كلمتك عنها ؟ إن هذا الموضوع سر لا

يعرفه أحد سواها وأنا !! " ..

ذهولى كان أشد من ذهوله . أردت أن أقطع الشك باليقين ، وقد داخلنى شئ

كاليقين أن النكتة لا بد أن تكتمل نهايتها بالتطابق المنهل . قلت :

- " .. وبالأمانة اسمها بدرية ؟! " ..

فتح الخانوتي فمه وبقي صامتا يهر يديه ورأسه في حركات موتورة ، وبدا عليه أنه يتخيلنى عفرينا أو ساحرا يضرب الرمل . ثم زاد التوتر فى ملامح وجهه المضطربة بين الشعور بالخرج والخوف والمرح ، فشعرت أنه يستريب فى أمرى الآن بصورة جدية، وثمة خاطر يجول بذهنه ويجد حرجا فى مجابتهى به . شجعتة :

- " تريد قول شئ ! قل ! "

فتسلح بابتسامة خجولة لطيفة والقى بالقنبلة فى وجهى :

- " الخوف يا سيدنا لفندى أن تكون مخبرا او ضابطا !! أنا على كل حال لم أقل لك شيئا واضمن أن الولية امرأتى لم تقل لك شيئا هي الأخرى فكيف بحق من جمعنا على غير موعد عرفت هذا الموضوع ؟! على فكرة ! أنا شخصيا لم أر العروس إلا مرة واحدة ! الصلة كلها بأمها ! إنها والحق يقال إمرأتى سخية اليد ! إننا نعيش على حسابها شهورا وأعواما ! نأكل من طبيخهم ونلبس من خليعهم ونصرف من هباتهم ! هذا الجلباب الذى ألبسه الآن فى يوم اجازتى جلباب زوجها الحاج ! " ..

قاطعتة:

- " الحاج مسعود ! والحاجة وديده ؟! " ..

وقف فزعا :

- " شف يا سيدنا لفندى ! هذه المرأة بنت أصل ! ما أستطيع أن أنكر ! لكنها مسكينة ! تريد أن تزوج ابنتها المسكينة هي الأخرى بأى شكل !! والولية امرأتى لم تغرها بشئ ولم تشجعها على شئ لكنها تعرفها من زمان إذ كانت تخدم فى منزل مجاور لمنزلهم والست دائما أبدا هي التي تغرى الولية امرأتى بأن تبحث لابنتها عن عريس لقطة !! وامرأتى لا تتوصى فى هذه المسألة ! تعمل بكل وسيلة لاصطياد عريس محترم !! أنها تتعشم فى مكافأة كبيرة وتتعشم فى توفيق رأسين فى الحلال !! إننى وامرأتى يا سيدنا لفندى جدعان نعجبك ! وليس فى طبعنا أن ننصب على أحد ! عمرنا ما فعلناها !! " ..

وقدم لى سيجارة هوليود ، فاعتذرت قائلاً إننى لم أفطر بعد . فرمى بها فى حجرى : " سنفطر سويا بعد قليل ! . وأشعل العود وقربه منى ؛ فأشعلت السيجارة فجذبت نفساً شعرت على أثره بدوخه لذيذة . قال وهو يكاد يضول ويتلاشى :
- " لكن حضرتك فى الآداب ؟! قصدى بوليس الآداب أم فى المباحث العامة ؟! " ..

ضحكت رغماً عنى :

- " ياعم وحد الله أنا ماقلت لك يوم التقينا فى تلك المقهى ! طالب ! وبصراحة لكى أطمئنك : المعهد ردفنى بسبب الغياب ! وأنا الآن أبحث عن عمل ! " ..

نظر لى بطرف عينه نظرة ارتياب صارخة بالمرح والسخرية والتوجس :
- " آ .. آ .. آ .. ها أنت ذا تثبت لى أنك فعلاً فى المباحث ! على كل حال لا يهم ! أنا يمكن أن أساعدك فيما تود معرفته عن سكان هذه الوكالة فرداً فرداً بشرط أن تراعينى ! أنا رجل غلبان وأريد أكل عيش بعرق جبينى ! لا يغرنك شغلى فى الغرزة ! إننى مجرد صبى باليومية ! وأنا أقطع ذراعى إن ما كنت تعرف كل هذا حق المعرفة ! " ..

جال بذهنى خاطر خبيث يوحى لى بأن أترك الخانوتى على عماء فيعتقد أننى ضابط مباحث ؛ فرمى استفتدت من هذه الرتبة التى لاشك سيمنحها لى على نطاق واسع ، فتكون لى هيبة ؛ لكنى سرعان ما رأيت الجميع كأنهم حضور فى حالة سخرية منى حينما أقع فى يد البوليس متلبساً بتهمة انتحال شخصية ليست لى . رأيت أن حجاً حاجزاً قد قام بينى وبين الجميع ؛ يعاملوننى بخوف أو بحذر أو بكذب ، وحتى إذا أمكن لواحد كشوادفى أن يصدق هذه الإشاعة الكاذبة فلاننى لا يجب أن أقبل هذا الوضع الذى يصر الخانوتى على وضعى فيه . فجأة قال كأنه يبادر بتقديم الرشوة لى :

- " ماذا تحب أن تفطر ؟ على حسابى ! أنت اليوم ضيفى من طقطق لسلام عليكم ! على فكرة ! إذا نحن أفطرننا هنا فإن شوادفى لابد أن يشاركننا ! فالأحسن أن تقوم فتلبس هدومك لنفطر فى البلد على كيفنا ! دعنى أفطرك على مزاجى ! " ..

- " أشكرك على هذه الدعوة الكريمة ، ولكننى أحب أن تكون واثقا من شخصيتى الحقيقية التى عرفتك بها اليوم التقينا فى قهوتك ! " ..

إنتفض كالملدوغ بالسم :

- " يقول قهوتك ! يا سيدنا لفندى قلت لحضرتك أننى مجرد رجل على باب الله ! " ..

- " أقصد القهوة التى تشتغل فيها ! " ..

- " إذا أردت أن أتركها ! بل أضربها بالجزمة !! أشوف لى شغلة أخرى ! أزور محلات الحانوتية التى كنت أتعامل معها وهى ستكون سعيدة بعودتى ! الأرزاق على الله والرجل المجدع مثل حالاتى لا يغلب ! الكريم لا يضام يا سيدنا لفندى !! " ..

إنى أعترف لى نفسى بأنه رجل جدع ، وصاحب واجب ، ومن الخطل أن أخسره وأنا فى احتياج لكل من هب ودب . قمت إليه مبتسما ، وضعت يدي على كتفه فى ود شديد :

- " يا رجل يا طيب ! هل تظن أن ضابطا أو حتى مخبرا كحيانا يمكن أن يكون فى وضع كوضعى هذا ليس معه سيجارة ولا يجد ثمن فطوره !؟ " ..

رفع وجهه مركزا بصره فى عينى بنظرة ثابتة متشككة فيها مع ذلك عشم كبير :
- " يعملونها كثيرا يا سيدنا لفندى ! هذه هى شغلتهم وأنت سيد العارفين ! يا سيدنا لفندى أنت قلت لى عن شىء لا يعرفه مخلوق فمن أدراك بكل هذه المعلومات التى قلتها لى !؟ " ..

- " يا راجل يا طيب ! إلا تذكر يوم سألتنى معلمك عن بلدتى وأصلى وفصلى !؟ " ..

- " نعم أذكر يا سيدنا لفندى ! " ..

- " ألا تذكر أننى قلت له إن الحاج مسعود القبائى صراف المديرية هو زوج لابنة عمى ! بل قلت إنها أختى ! حاول أن تتذكر هذا " ..

برقت لمعة الفرح فى عينيه فأخذت تتسع شيئا فشيئا ثم صاح :

- " أى نعم ! صحيح ! أى والله صحيح هذا حدث ! أنت قلت هذا فعلا " ..

- " والحاجة وديدة إذن هي بنت عمى لزم ! وبدرية العروسة تقول لى : يا
بحال ! يعنى أنا فى مقام خالها .."

إنطفأت لمعة الشك فى عينيه تماما ، ويظهر عليه الهدوء والإطمئنان ؛ وحلف
بالطلاق أن أقوم فأرتدى ملابسى لنفطر فى أحسن المطاعم ، على حسابه . رغم
عدم ثقتى - وعدم ثقته أيضا - فى جدية يمين الطلاق هذا فإننى طاورته ؛ فتناولنا
وجبة الفول المدمس فى المطعم المتاحم لبيت ابنة عمى ؛ وزرنا الغرزة التى يشتغل
فيها صبيا ، حيث جلس بجوارى كزبون هذه المرة من حقه أن يخدمه صبى مثله ،
وأن يتأمر عليه ، ويلفت نظره إلى نواقص الخدمة واصول إكتمالها . قضينا يوما لا
بأس به ، ثم تواعدنا على اللقاء بحجرتى فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل إن
عشنا وكان لنا عمرا ، أو كما قال .

القرء يحسب غلته

أصبحت مفتونا بالأصبحة فى فناء الوكالة أتفرج عليها من ضجعتى فوق المصطبة فى حجرتى . أصبحة فاتنة ، تغير ألوانها فى بطاء جميل ساحر ، من الإردوازى إلى الطباشيرى إلى الوردى إلى النهبى ، عابقة بروائح طازجة . وفى مرحلة الإردوازية من هذا الصباح كنت مندجما فى قراءة ديوان بىرم التونسى تستلبنى حواريه المصرية العتيقة بناسها ولبطها ووحلها ونسوانها الشبقات السليطات ؛ حينما سمعت صوت شوادفى يخاطب شخصا على البوابة بقوله :

- " إنها هناك فى ثانى حجرة على يمينك وأنت داخل .."

ثم هتف بجعير نحشن :

- " واحد يسأل عنك يا دميانة .."

إنفتح باب دميانة وخرجت هى صائحة :

- " يا مرحبا .."

وأقبلت حتى باب حجرتى ، ليلحق بها الرجل . نظرت فى حجرتى قائلة بوجه زعزعت الإبتسامة هضابه وتضاريسه المكتنزة السمراء :

- " صباح الخير يا جدع .."

إعتدلت جالسا :

- " صباح النور ياخاله دميانة .."

دخل الرجل فى الصورة أمامى : شاب فى حوالى الثلاثين من العمر، صدىء الوجه نحشن الملامح رث الثياب ، يلبس فوق رأسه طاقية من الصوف تنسدل تحتها خصل من شعره كالأنثى ؛ يلف رقبته بتلفيعه حائلة منسولة الأطراف ، ينتحل بلغة فلاحية لكنها بيضاء كأبناء سوق المدينة ؛ يمسك بيده خيزرانة رفيعة . كان طويلا بعض الشئ ، نحيفا ، ناشفا . صار هو ودميانة فى فتحة بابى كعامود يلتصق بصخرة جبلىة رمادية اللون . قال لها :

- " أنا محسوبك عبد الحسيب الشبشيرى .."

بشت فى وجهه :

- " عارفاك يا حبة عيني ومربياك ! إزي أبوك وأخواتك ؟! " ..

- " أنا من طرف عم حسن زررور ! اليوم هو بعافية ! ما يقدر يقوم من الفرشة فبعثنى أسرح بالقرود بدلا منه ! بأمانة ما عندك رهينة القرود ساعة جيب ماركة الترمای وخاتم ذهب " ..

- " يادار ما دخلك شر ! أدخل فخذة ! لكن الشمس لا تغرب عليك إلا هنا ! أتسمع كلامي ؟! " ..

- " ياذن واحد أحد ! " ..

تركها ومضى إلى حجرتها . بعد برهة قصيرة خرج ساحبا القرود العجوز ، الذي راح يتبختر في رهق شديد ومزاج منحرف ولا مبالاه ؛ وقد أضيف إلى عبد الحسيب رق صغير بلا شخاليل . شيعتهما دميانة .

- " ربنا يسهل لكما ويفتحها في وجهكما يا كريم يارب ! إلهي يرجعكما مجبورى الخاطر بحق جاه النبي ! " ..

وقال شوادفي من فوق مصطبته بلهجة مسموعة :

- " ياولية غدى هذا الشقيان ! إذبحي له أرنبها أو دجاجة ! حرام عليك هذا ! ها هوذا يجر ساقيه مهدود الحيل !! " ..

صار القرود أمامه ، فشيعه بنظرة إشفاق :

- " ربنا يقويك يا بطل ! يا عائل اليتامى والأرامل يا قائماً بالواجب كأحسن الرجال ! روح العب عجين الفلاحة وعروس ابن العمدة وارقص ما شئت ! والله لك الجنة !! " ..

- " بطل نق ياخويه ! أحسن أخليه يرجع ياخذك قلمين " ..

ومضت ترفع إلية وتخفض أخرى ، ليميل جنبها اليسر مع ارتفاع إلتها اليمنى ، وجنبها الأيمن مع ارتفاع إلتها اليسرى . ثم اختفت في حجرتها ..

وصل الصباح إلى المرحلة الطباشيرية حيث ألت السماء على أرض الفناء بصمة سحبها الشبيهة باللبن المتخثر . لحظتها كنت أفكر بأننى ربما أكون قد رأيت دميانة هذه فى غير هذا المكان من قبل ؛ وحين أمسكت بديوان بيرم التونسى تذكرت قصيدة أم خليل فجعلت أبحث عنها بين صفحات باشتياق شديد ..

- " السلام عليكم ! " ..

رفعت رأسي كان الخانوتي قد دخل حاملاً على صدره لفة كبيرة في جعبة ورقية ، وضعها على المصطبة . إعتدلت جالسا ، يضمخني شعور فارط بالخجل وربما الأسف . وخرج الخانوتي في اتجاه حجرته ؛ فسمعتة يتبادل مع شوادفي كلمات غامضة لم أتبين منطوقها جيدا لكنني لم أهتم بها . فبعد دقائق معدودة دخل ممسكا بعدة اشياء ، وابور سيرتو ، وعلبة من الصفيح كانت في الأصل علبة سمن هولندي ، ونارجيله من النحاس من النوع المسمى بالبوري أقرب إلى الجوزة لكنها بمقعد يثبت على الأرض ، بدلا من البوصة أو اللّي خرطوم من البلاستيك المزوق بخطوط حمراء وخضراء . هبط على الأرض بكل ذلك ؛ فوضع كل شيء بجوار الآخر ثم وقف مشمرا ذراعيه وراح يتكلم في غبطة كبيرة وصدغاة ينصفطان ويتفخحان مع حركة شفثيه الضامرتين بحنكه الأهم الضيق :

- " ناطر اليوم فطور الناس الذوات أصحاب الميسرة الشبعانين ! كل يوم ناطر الفول والفلافل ! فلنعمل اليوم مثل الأغنياء من نفسنا !! هم ليسوا أجدع منا ! نحن أيضا نستطيع إقامة سفرة كسفرتهم !! " ..

فرط اللفة : ورقة ملفوفة على قطعة من الجبن الأبيض ، وأخرى من الجبن الرومي ، وثالثة على حفنة من قطع البسطرمة ، مع بيضتين ، وعلبة بولوبيف صغيرة، وستة أرغفة ساخنة من الخبز البلدي ، وباكو من التبغ المعسل ماركة الغزالة، وكيس صغير من الفحم المفتت ، وجريدة الأهرام . فرد كل ذلك على المصطبة بعناية ثم تراجع قليلا ونظر إليه نظرة شمولية متمنعة كفنان يلقي نظرة أخيرة على اللوحة بعد انتهائه من رسمها :

- " منه فطور ومنه غداء ! " ..

ونزع المفتاح الملتصق بعلبة البولوبيف ، شبكه في ذيل بارز في حافة العلية ، لفه حول نفسه مع دوران العلية فزال غطاها ثم دلقتها في الطاسة ، كسر البيضتين فوقها ؛ وضع الطاسة فوق وابور السبرتون أشعله وصار يقلب في الطاسة بعود نظيف من الحطب ، فإن هي إلا ثوان حتى ارتفعت رائحة شهية ؛ تركها تطشطش وخرج صائحا : " يلا ياعم شوادفي ! " . دخل حجرته ثم عاد يحمل البراد وكوبتين

من الصاج وعلبتين من البلاستيك فى إحديهما شاي وفى الأخرى سكر . رفع الطاسة عن الوابور وركنه فى ركن ووضع البراد فوقه ؛ ثم وضع الطاسة على المصطبة ..

جلس الخانوتى على الحافة المتاخمة للباب ، وبقيت فى قعدتى ، واقعى شوادفى على الأرض مبسلا . على عكس ما توقعت كان شوادفى أول من شبع ؛ لم يكمل الرغيف . أما الخانوتى فقد أكل رغيفين ، وأكلت أنا رغيفين واللقمة المتبقية من شوادفى ..

مع الشاي كان الفحم قد اشتعل ؛ وخرج شوادفى إلى البوابة متعجلا ليستأنف شغلته الإضافية التى يجنى من ورائها ربحا كبيرا : قتل حبال من ليف النخيل لحساب بعض المراكبية ومقاوى البناء والصيادين . قدم لى الخانوتى مبسم النارجيلة بيد ، وجريدة الأهرام باليد الأخرى هاتفا :

- " شف لنا ماذا فى الجرنان ؟! يظهر أن فى الأمور أمور خطيرة الشأن ! رأيت الناس يتزاحمون على باعة الجرائد بلهفة يتضاربون كأنهم يطلبون خبزا ! والبلد ليست على بعضها ! شكلها لم يعجبني ! الناس تبرطم بكلام لم أفهمه ! وبعض التجار شاردين يبيعون بنصف انتباه !! شف لنا ما الحكاية ؟! "

سحبت الجريدة ففردتها . فى الصفحة صف من الصور لوجوه بعضها ملتح وبعضها حليق ؛ تحت عنوان كبير : القبض على مجموعة من أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين .. العثور على أسلحة ومتفجرات بكميات كبيرة فى حوزتهم .. العثور على أوراق ومستندات وكشوف تضم أسماء شخصيات عامة كبيرة من المرجح أنها مرشحة للإغتيال . قرأت ذلك بصوت علا فيما الخانوتى يستمع فى اهتمام شديد ويعلق من حين لآخر تعليقات سريعة تدل على أنه يفهم ما معنى الجهاز السرى للإخوان بل ويفهم طبيعة العلاقة بين الأعضاء ، وبينهم وبين الحكومة الثورية الناصرية كما أسماها . قرأت عليه أيضا كل أخبار الصفحة الأولى . ثم باعدت بين ذراعى فاتحا الجرنان ؛ فاقتربت الصفحة الأولى مفرودة أمام وجه الخانوتى ؛ فإذا به يصرخ كالملسوع بالنار :

- " هو ! هذه صورته ! أسرع يا معلم شوادفى ! تعال شف صاحبك ! "

ونهب مهرولا ينادى شوادفى بحماسة ورعب . قفز هذا عن المصطبة وجاء يهرول :

أسرع الخانوتى فاخطف الجرنان ، فأشار باصبعه إلى صورة فى الوسط هاتفا :
- " أهو ! عبد العزيز افندى ! " ..

صاح شوادفى كمن أفاق من خديعة محكمة :

- " يا بن الكا.. ا.. لب . فعلا هو ! نظرتى فيه جاءت سليمة ! نظرتى لا تقع الأرض أبدا ! " ..

راح يتأمل الصورة بإمعان ؛ ثم قدم لى الجريدة طالبا أن أقرأ عليه ما فيها ؛ وجلس على حافة المصطبة منكسا راسه فى تمن وإنصات . طلب أن أعيد القراءة ثانية ؛ ثم : معلش ، مرة ثالثة . أخيرا رفع ذراعه كأنه يبرى ذمته أمام تحقيقات النيابة :

- " يعنى إسم الوكالة لم يجى فى الخب را ! هل تعتقد يا أخانا أن سيرة الوكالة يمكن أن يجى فى التحقيق مع هذا الجدع ؟ وعلى فرض أنها ستجى ! مالى أنا ؟ أتذكر يا أخانا ما قلته لك ؟ لم أكن مطمئنا لحد الجدع ! كنت أشعر أن وراءه شىء ! يموت المعلم وهو بعد لم يتعلم ! هذا ولد استطاع أن يخدعنى ! يؤكلنى الأونطه ! الله أعلم كم من أمثاله سيضحكون على ذقنى ! " ..

ووجه لى نصف عين ، فأحسست أن الغمزة قد أوجعتنى . مع ذلك ابتسمت وقلت له على سبيل المزاح :

- " ربنا يستر يا عم شوادفى ! دعها على جناب الله ! " ..

حيث شد شرع فى النهوض واقفا ، لكنه استدرك فجلس ثانية :

- " قلبى يحدثنى بأن أقوم الآن فأحرق متروكاته التى جمعتها فى جوال فى المخزن ! أم أنكى معرفته من الأساس ؟ بما ذا تشير أنت يا أخانا ؟ " ..
قلت محذراً :

- " أياك أن تفعل هذا ؟ إن الحكومة التى قبضت عليه على علم بأنه كان يسكن عندك ما فى ذلك شك ! فإن حاولت أنت أن تنكر معرفته من الأساس فإنك تضع الشك فى نفوسهم من ناحيتك ! ستجعلهم يفتشون عن السبب الذى

دفعك لذلك ! وأنت فى غنى عن التفتيش ووجع الدماغ ! لقد قلتها كلمة حكمة :
مالى أنا ؟ نعم ! مالك أنت ؟! هذه وكالة وكل الناس من كل لون تسكن فيها !
فهل أنت مسئول عمن يسكن عندك ؟! هذه واحدة ! الثانية هى الأشياء التى تركها
عندك ! تستطيع أن تكسب بها ود الحكومة إذا جاءت تسألك ما الذى تعرفه عن
هذا الشخص باعتبارك عاشرته فترة طويلة عن قرب ؟ فتقول لهم : والله ياسعادة
البيه ما كنت أعرف عنه أى شىء لأنه لم يكن يتكلم مع أحد وأنه اختفى دون أن
يدفع الحساب وهذه هى كل متروكاته خذوها فرما تنفعم ! سيشكرونك فى هذه
الحالة بدلا من ضربك أو تسميع الوكالة !..

وكان قد راح يرقبى بعينيه الإثنتين فى ترقب شديد كأنه يشرب كل حرف
أقوله لعله يعرف منه حقيقة أمرى وشخصيتى . لحظتُكِ كانت تدور بخلدى نية
أبيتها على أن أغريه بعد أيام بأن يعرض على هذه المتروكات لأتفحصها جيدا فلربما
أفادتني فى معرفة شىء من تفاصيل هذا العالم المثير الذى يلعب دائما بخيالى : عالم
التنظيمات السرية المناهضة للحكومة واقتناء الممنوعات من منشورات وأسلحة ،
والتدريب على الإغتيالات السياسية التى كثيراً ما خلبتني منذ رأيت صورة العيسوى
قاتل أحمد ماهر باشا فى الجرنال واقفا كالفراس الأسد وكل الناس تنظر إليه بدهشة
وإعجاب . لهذا فضلت أن أترك شوادفى حائراً فى تفسير شخصيتى ، فلا داعى
للمبالغة فى طمأننته بخصوصى ، دعه يفرك ، يتصورنى ما يتصورنى ؛ فلعل على
هذه الأرضية النفسية الممهدة أستطيع التأثير عليه فلا يتردد فى إطلاعى على
متروكات عبد العزيز ؛ ولا يزمزق عندما أتأخر فى دفع الإيجار . وجدتنى أقول له
فيما يشبه الأمر بلهجة واثقة :

- " إفعل ما قلته لك ؟ وانس الموضوع تماما حتى يطلبوك للتحقيق ! وعموما
فربنا معك ! لا تخف !.."

واكتشفت أننى نطقت : لا تخف ، هذه ، بلهجة من يقول : أنا معك أسانديك
وأنجيك من أى مأزق ؛ الأمر الذى جعل شوادفى يحملق فى وجهى وقد خفقت
الدماء تحت جلد وجهه الصدىء ، فبدا على وشك الإرتعاش ، وبدا كأنه يتضاءل
حجما ، كالقط الشرس الذى يتوتر من الخوف والغضب معا . هز راسه فى امتثال،

وكان واضعا يديه على ركبتيه كتلميذ مذنب ، فرفعهما فى تلويحَة هزيلة قائلا فى تسليم :

- " خلاص ! أمرك ! لن نخسر شيئا على كل حال ! " ..

ثم نظر متوترا إلى النارجيلة وصار يتشمم رائحة الحشيش مصطنعا الدهشة كأنه لم يكن يعرف أننا نفعل ذلك . وصار ينظر إليها فيما يشبه الإحتجاج ، ويتمتم على مضض :

- " أظن أن هذا ليس وقته الآن ! فرنما يهبط إخواننا علينا الآن ! إنهم كالقضا المستعجل كما تعرفون ! " ..

خطر لى أن أصيبه بالضربة القاضية ، خاصة بعد أن لاحظت استعداد الخانوتى للخوف وشروعه فى لم عدته وإيقاف الشرب ، مددت ذراعى بحركة واثقة معناها: دع كل شئ كما هو . ثم قلت لشوادفى :

- " أنا المسئول ! هذه حجرتى ! وإذا هاجمنى فيها فأنا المسئول عما يدور فيها لا أنت ! " ..

بصوت خافت قال :

- " الشرارة تصيبنا جميعا يا أخانا " ..

- " لى كلام معهم ! " ..

رشقنى الخانوتى بنظرة استدراك على مافات من حديث بيننا ، كأنه يقول : ألم أقل لك إنك من أخواننا البعداء !؟ .. تبسمت وكتمت ضحكة عالية ، لأننى كنت على شئ من الثقة بان أحدا لن يجيى ولن يسأل . مع ذلك ظل شوادفى جالسا معنا يشار كنا شد الأنفاس فى شهية مفتوحة ، كأنما خاف أن ينتقل إلى مصطبه فى البوابة وحده . ظللنا طول الوقت نتكلم فى عبد العزيز نفس الكلام بخدافيره نعيده مثنى وثلاث ورباع ، نتوقف عند نفس الصفات ، ندلى بنفس التعليقات والتعقيبات، يحكى الخانوتى حكاياته وملاحظاته عن عبد العزيز للمرة المائة دون أن يضيف شيئا . وشوادفى الذى كان يعترض على الشرب صار على امتداد الجلسة ينسى فيسأل الخانوتى ، لماذا توقفت عن الرص فيقول الخانوتى : نفذ المعسل ؛ فيقوم شوادفى فيأتى له بورقة معسل ؛ ثم يعود فيسأل مرة أخرى بعد حين : لماذا

توقفت عن الرص ؟ فيقول الخانوتي : نفذ الحشيش ؛ فيقوم شوادفي فيختفي في مكان مجهول ثم يعود بعد دقائق فيرمي في حجر الخانوتي بقطعة حشيش تزن درهمين . لحظتها تبادلنا أنا والخانوتي نظرة هلعة ، فقال شوادفي : " الباقي ترده لي ! " ، فرد الخانوتي وهو يغمز بعينه وخديه غمزات مرنة : " طبعا طبعا ! " . ثم هبر منها هبرة ملء أصبعيه دون أن يشعر شوادفي فسربها تحت مخدتي بحركة من يبحث عن شيء ؛ ثم أخذ يواصل الرص بإخلاص وإتقان شديدين ؛ فتمتد إلينا عدوى الحماسة للشرب فتمعن في جذب الأنفاس بشغف واستمتاع .

فرغ النهار ، ونامت الشمس في الفناء تحت ملاءة رمادية رقيقة . وإذا بمطرقة الباب تدق على البوابة ؛ فانتفضنا جميعا في رعب حقيقي . تحامل شوادفي على نفسه واقفا ثم خرج إلى البوابة ؛ فخرجنا في أثره واقفين على الباب نتابع الطارق . فلما فتح شوادفي باب البوابة إندفع القرد العجوز داخلا يتبختر تهتز مؤخرته الحمراء العالية ، ومن خلفه ذلك الذي أخذه في الصباح ..

- " إتفوه عليك وعلى أصحابك ومن اقتنوك ومن سرح بك ! " ..

فتوقف عبد الحسيب محتجا . فصرخ فيه شوادفي : خش ، فانتفض عبد الحسيب واحمر وجهه لكنه مضى خلف القرد ..

وكانت دميانة قد سمعت فخرجت من حجرتها والتقت بغائبها في منتصف الطريق حيث مالت لتلقى القرد في أحضانها بشوق ولهفة . القرد العجوز الخبيث يستكن في حضنها وتلقائيا يهز مؤخرته رائحة جاثية ، مما جعلنا نضحك دفعة واحدة . تناولت دميانة مقود القرد ، فشدهته قليلا فانسلخ القرد ولف حولها . قالت لعبد الحسيب :

- " حاسبني ! " ..

مدَّ عبد الحسيب يده في سيالته ثم أخرجها مطبقة على حفنة من البرايز والشلنات وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش والتعاريف والعشرينات الخردة . تلقتها دميانة في راحة يدها ؛ بدربة شديدة فنطت القطع كما تنط ورق اللعب ، إذ جعلت البرايز متجاورة ومن بعدها الشلنات والقروش المنحرومة فالقروش المصمتة فالتعاريف فأنصاف الفرنكات فالعشرينات الخردة ؛ حتى تكون من ذلك حسر

إسطوانتي يبدأ من فوق الرسغ بدائرة متسعة وينتهي عند أطراف الأصابع وقد ضاقت
الدائرة كمجرد ظل ، بنظرة سريعة جمعت قيمتها ؛ رفعت عينيها إلى وجه عبد
الحسيب بنظرة استنكار يشع منها نذير غاضب بالقضيحة :
- " إيه دول ياروح امك ؟! .."

هكذا دفعة واحدة ؛ مما جعل عبد الحسيب يدارى حرجه وخوفه قائلاً بود
مفتعل :

- " إيه دخل أمي هنا بقي ؟ تعالى نخش جوه نتفاهم !"
فإذا بدميانة تسحب شجرة رنانة هادرة ثم تلكره برفق في كتفه . تطوح ثم
اعتدل .. فواصلت :

- " مفيش دخول جوه ! تخش جوه بتاع إيه ؟ دي غرفة وليه ! يدخلها راجل
ازاي ؟ حاسبني هنا قدام الكل عيني عينك !! .."
فك عبد الحسيب تلفيعته وأعاد لفها :
- " وكيلك ربنا ! هذا ما رزقني به الله ! .."

وكان القرد العجوز قد أخذ لفته حول ساقها ووقف بينهما كأنه يستعد
للحجز بينهما إذا نشبت المعركة ؛ وراح يتابع الموقف في ترقب ذكي خفيف الظل
جدا . قالت دميانة مشوحة بذراعها نحو القرد :

- " سرحته تعمل جنيهين في اليوم ! ويوم السوق تعمل خمسة ! .."

- " فتشيني يا خالة ! .."

وأمسك بسيالته وراح يهزها وينفضها ؛ فإذا بالقرد البارع يقفز جأة على صدر
عبد الحسيب ؛ يضع يده في قلب طوقه نحو جيب الصديري ؛ بل - يا للشئ
الملهل - يخرجها ممسكة بجنيه كامل ، ثم يقفز من صدره إلى صدر دميانة ..
أذهلتنا المفاجأة . قالت دميانة في تشف :

- " شفت يالص ؟! إن القرد يعد عليك قرشا قرشا ! هكذا علمته بتربية يدي
هاتين !! رآك وأنت تفك الفلوس لأحدهم من إيراده وتضع الجنيه في جيب آخر
فلم ينس ! والآن أرني جيوبك كلها ! .."

إستسلم عبد الحسيب ليديها الغليظتين اللتين راحتا تخترقان صدره وجنبه بقسوة حتى خرجت إحداهما ممسكة بورقة من فئة الخمسين قرشا ، راحت ترفرف بها في وجهه وهو صامت على شفتيه ابتسامة شاحبة واهنة ..

- " إياك أن تبجح وتقول إنها كانت معك من الأصل ! أنا أعرفك وأعرف أباك ! طول عمركم شحاذين لا يحتكم الواحد منكم على مليم أحمر ! بفضل هذا القرد الشقيان أمسكت خمسين قرشا لأول مرة في حياتك ! خذها ! هي أجرك وأنا ساعحتك فيها ! إتكل على الله وأرني عرض أكتافك من هنا ليوم القيامة ! أما الذي بعثك إلى فلي معه كلام ثان!!" ..

وحشرت الورقة المالية في طوق جلبابه واستدارت ساحبة القرد إلى حجرتها . وكان شوادفي متكئا على المخدة القش الصلبة بكوعه الأيمن يتابع الموقف بغاية من الإستمتاع ؛ فما أن انصرف عبد الحسيب منكس الرأس حتى صاح في صوت غليظ بهيج متحشرج بالإنفعال:

- " شفت يا حانوتي !؟ لو أن أحدهم سرح بك أنت نفسك لاستغفلك ببساطة! " ..

صاح الحانوتي من حنكه الأهمم اللطيف:

- " وهل أنا تربيت على الغالى مثله !؟ " ..

ثم دخل في أعقابي ضاحكا يقول : " القرد فوقنى ! " ، وكأنه قدم مبررات كافية لإشعال الفحم ، لنستأنف الشرب من جديد .

الداية والحانوتى

قال الحانوتى :

- " أظنك ياسيدنا لفندى زمانك الآن تقول فى نفسك : هذا الرجل الأهل فى يده صنعة أصلية هى صنعة الحانوتية . فلماذا يتركها ويشغل صبى غرزة يعرض نفسه للمخاطر ؟! ..

قلت له إننى فى الواقع لم أفكر هذا ولكننى حتما كنت سأفكر فيه ذات لحظة، وإن كان فى حقيقة الأمر لا يعنينى كثيرا أن أعرف السبب ، فكل واحد يشتغل ما يحلو له من الأشغال طالما يكسب رزقه بعرق جبينه . إلا أنه حذق فى تحديقها لم أفهم له معنى ؛ ثم استطرد :

- " أصل الحكاية أن الواحد منا يجب الففضضة ! الففضضة حاجة مهمة ياسيدنا لفندى ! أنت تفضفض لى وأنا أفضفض لك يستريح كلانا من حملة الثقيل !! أم تراك تحب الكتمة ؟! أنا لا أظن هذا فى شخص مجدع مثل حالاتك ! أنت عدم المواخذه رجل مفتوح وداير وما دمت وصلت إلى وكالة عطية فأنت ولد دقلم !! " ..

كان من الواضح أنه يريد استدراجى لكى أحكى له قصة حياتى . هكذا نحن المصريين نعتاد هذه الطريقة الجهنمية فى الكشف عن غموض بعضنا البعض ؛ فأسلم طريقة لاستدراجك للحكى عن نفسك عن أصلك وفصلك هى أن أبدأ فأحكى لك مقتطفات من حياتى ، لا يهم إن كانت صادقة أم كاذبة ؛ كلما كانت متقنة مستوية أوحى بالصدق ؛ وياحبذا لو كنت صادقا تماما فى الحكى عن نفسك ؛ لا بد أن تنتقل العدوى إلى جليسك فيبدأ فى الحال دون أن يدري فيحكى لك ربما أدق التفاصيل فى أسرار حياته خاصة إذا أشعرته أنت بشئ من الإطمئنان والسرية والندية ..

تبسمت قائلا :

- " طبعا طبعا ! لولا الففضضة لطق الإنسان ومات ! " ..

- " تعجبني ياسيدنا لفندي ! عليك نور ! الحكاية وما فيها ياسيدنا لفندي أننى لم أكن فى الأصل حانوتيا ! كنت فلاحا أسرح فى الغيطان بالأجرة على ذراعى عدتى ، فأس أحملاها على كتفى للعزيق لتطهير المصارف لحفر الترع والقنوات ! و كنت ولدا على كيفك أعول أبى العجوز المريض بالطحال وأمى الكسيحة ! أمى هذه ياسيدنا لفندي كانت ملكة جمال أيامها ! من سوء حظها أنها ولدت وعندها ذلك المسمى بشلل الأطفال ؟ تراها وهى جالسة صبية ولاكل الصبايا ! أما حين تقف لتمشى فقلبك لا بد أن يتفزع من منظرها !! فلكى تخطو خطوة عليها أن تبرز صدرها وهى تدفع ذراعيها بكل قوتها فترتج بقية جسدها فيخيل إليك أن كل أعضاء جسمها ملتصقة فى بعضها البعض بالغراء وأنها ستتطاير فى الهواء ذراعها فى ناحية ورأسها فى ناحية وبقية جسمها فى ناحية !! نصفها الأعلى يتفصص حتى تنقل قدمها اليمنى خطوة لتجر خلفها اليسرى بسهولة !! الكل يطرى جمالها والكل يظن عليها بالزواج ! إلا أبى فقد كان رجلا بمعنى الكلمة يفهم جمال حلقة ربنا حتى لو بعاهة مستديمة ! قال الله ولأتزوجن بها ورزقها ورزقى على الله! شغلة أبى خفير على الأجران فى مواسم الحصاد نظير جعل من المحصول يُكّال له! أمى أنجبت له أربع صبايا يقلن للقمر قم لتقعد مطرحك ! لكن سوقهن بار فى البلدة لخوف العرسان من أن ينجبن لهم عيالا مصابين بشلل الأطفال !! فكانت أمى تستلم ببصرها قمة معذنة المسجد فجرا وظهرها وعصرا ومغربا وعشاء تتلقف كل كلمة من الكلمات الأذان والإستغاثات لتضع فوق جناحيها دعوات وابتهالات لاحصر لها ! تعتقد أن كلمات الأذان والإستغائة تطير فى الفضاء إلى بارئ السموات والأرض فهى إذن كساعى البريد يمكن أن يحمل رسائل أمى إلى الله !! كل طلبها أن يستر الله عرضها فى بناتها فيرزقهن بأولاد الحلال المؤمنين بقضاء الله وصنعه ! طب ما قولك ياسيدنا لفندي أن الله لم يكسفها ؟ رزق إخواتى البنات بأربع عرسان مؤمنين مصلين صالحين : واحد معلم فى مدرسة وواحد فراش فى نفس المدرسة وواحد بقال على قد حاله والرابع أسطى فى ما كينة الطحين فى بلدة مجاورة ! بقيت أنا وأمى وأبى وأخ صغير هو الآن عامل فى كفر الدوار مبسوطا أصيب أبى بمرض الطحال من كثرة الشرب من المصارف الراكدة والبرك فكانت

بطنه فى أواخر أيامه مثل فنتاس له رأس وذراعين وقدمين ! وعمرى وقتها على وشك أن أختم فى القرعة لأدخل التجنيد وكنت سأدخله فرحا لولا أنهم أعفونى لإعالة أبى وأمى ! الشغل عندنا مواسم مواسم ! ما بين المواسم جدد وقحط وصرخة ! أصبحت رجلا شديد البنية كبيرا حينما حل بالبلدة فجأة ذلك الرباء المدعو بالكوليرا ! حكمة ربنا أن أول واحد يموت فيه من البلدة كان الحانوتى مغسل الموتى ومكفنههم ! وكان قريبا لنا إذ أن زوج أختى البقال كان ابن أخيه ! الناس كشت منه ! دخلت أنا بقلب جامد نزعنت ثيابه غسلته مرشته مرشاً بالليفة والصابونة وكفنته وبالسلامة سلم لنا على الملايكة ! فى نفس اليوم مات شخص ثان كشت الناس منه هو الآخر فقلت يا ولد أكمل جميلك فدخلت عليه بنفس الشجاعة التى لا أعرف من أين جاءتنى ! ثانى يوم مات خمس رجال فقال الناس فى الحال : هاتوا فلان ! فجاءونى يستنجدون بى فرأيتها كبيرة فقلت يا ولد أهى مية أم أكثر ؟ خلعت ثيابهم وغسلتهم وبالسلامة أنتم أيضا !! أبى وبعض الناس يزجرونى كى أكف عن هذه الشملة الخطرة لكن أمى تقول لا تخف يا ولدى فالكريم لا يضام وما عند الله لا يضيع ! ضع فى ذمة الله كل ما عندك من فعل الخير لا يخزيك أبدا ! خلصت الكوليرا على البلد وجاءت بعدها كوليرا من نوع جديد ! قالوا المحور وموسولينى وهتلر والعلمين ! قل إن الجثث كانت لا تكف عن الجمى كل يوم من هنا وهناك مقتولة فى الحرب فلا تجد آباءها أو أمهاتها أو أعمامها !! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل صرت حانوتيا بالأمر الواقع ! صرت أقبض أجراً من اهل الله ! حسنت سمعتى فى الجراءة وحلاوة النفس لا أحد يضارعنى فى تغسيل جثث القتلى ! بيدي الخنونة أجمعهم فوق الضرايبية الخشبية فأغسل كل قطعة من الأشلاء على حدة أتشهد عليها عشرات المرات ثم أضمرها بحرفنة ومزاج أكاد أضع بينها تخشينات من القطن حتى يلتئم اللحم تصير كأنها لم تقطع من قبل !! ألفها فى كفن محم كالجبيرة الصلبة يحفظها هيكلها متكاملًا لتقابل الجثة الله بكاملها !! طلبنى معلم كبير شهير فى هذه المدينة لأشتغل فى محله المفتوح برخصة ولافتة وموظفى حسابات ! يملك ثلاث سيارات لنقل الموتى ولديه محل للفراشة ولديه مقرئين للقرآن الكريم على مستويات عديدة

يعنى ياخذ الميت مقاوله بمبلغ كبير ، أى نعم لكنه يريحك من متاعب كثيرة أقلها أن يتكفل نيابة عنك باستخراج شهادة الوفاة وهى أمر صعب عليك سهل عليه لاتساع علاقاته وعمقها بموظفى الصحة ولذا فإن الموتى الذين يأخذ هو مقاولتهم لا تقف أمام شهادة وفاتهم عقبة ولا شبه جنائية ولا طيب !! هذا غير الأبهة والفخامة يحاط بها ميتك كأنه عريس يزف إلى عروسه !! المعلم كان مدمنا للحشيش والأفيون ! إنبسط منى فاتخذنى صبيا لسقياه ولشراء الصنف الجيد ! نغتنغنى فى العز بصراحة ربنا ! لكنه مات ! بعد أن تغلغل الأفيون فى عظمى ! أولاده كانوا متعلمين فى الكليات دكاترة ومهندسين ومحامين لهم إخوة ورثوا مهنة أبيهم غير أنهم تشاءموا من المهنة بسبب نق إخوانهم المستوظفين الذين استعروا من هذه المهنة! تخصصوا فى الفراشة وحلها أما أنا فاتكلت على الله! محل يقبلنى ومحل يطردنى! أشتغل يوما وأبتطل عشرة ! والأفيون يزعق فى عروقى يطلب المدد كل يوم ! لجأت إلى التجار الذين كنت أشتري منهم لمعلمى أصبحوا يعطفون على من حين بلحسة أو بورق اللف أغليه فى الشاي !! شيئا فشيئا صاروا يكلفوننى بمشاوير نقل وتوصيل نظير عمولة طيبة ! أسنانى لم تقع من الأفيون وحده ياسيدنا لفندى ! إنما وقعت من الخوف والرعب ! لكن الحمد لله ربنا نجانى من قبضة البوليس فى كل مرة بعدما تكاد رقبتى تقع فى خية المشنقة !! إلى أن تعرفت على صبيحة! الولية إمرأتى ! هذه الداية ! إمرأة جدعة تساوى ثقلها ذهباً أجدع من قبيلة رجال ! كانت متزوجة من شحاذ مريض ومات . فجاءت تجرى لمعلمى تستنجد به لتغسيله وتكفينه فطردها شر طردة وقال لها إن محلى للأدميين وليس للحيوانات !! ربك والحق كرهته فى هذه اللحظة وثمانيت له الموت فى الصحراء تنهش لحمه الصقور والذئاب ! وصعبت على الولية ! فتسللت جريا فلحقت بها وذهبت معها فقامت بالواجب كله ودفعت ثمن الكفن من جيبي ثم جمعته فى السر من أهل الذين حضروا الجنازة !! لكن الولية لم تنسنى صارت تعزمنى على الغداء مرة ! والفظور مرة والشاي مرات ! فلما علمت أننى أسكن وحدى فى عشة فوق سطح فى شبرا دمنهور انتقلت وسكنت معى !! صرنا نعيش معا كزوجين دون أن نتزوج عند مأذون يسألنا عن شهادة ميلاد ووجع دماغ !! هذه الولية قوتنى على منع المشاوير

ثم ألحقتنى بفرزة صاحبنا التى رأيتنى فيها ذات يوم ! كان ذلك من سنوات طويلة مضت ! جاءت الثورة بالعمران وعلى أمثالى بالخراب ! مر البلدوزر فاكتمسح المنطقة التى فيها العشش والبيوت لأنها أرض الحكومة ستقسمها وتبيعها للقادرين على بناء حى جديد !! لم نجد أماننا غير الوكالة فلجأنا إليها فأوتنا فى أمان الله إلى أن زار الوكالة ولد صايح مخربش يعرفنى ويعرف صبيحة ! بات ليلته فى حوش الوكالة وفى الصبح رأيت وجه شوادفى يتغير ويطالبنى بقسيمة زواج تثبت أننى وصبيحة زوجين على سنة الله ورسوله !! القسيمة أو بيت كل منا فى الحوش فى مكان بعيد عن الآخر !! قرط علينا فاعترفنا بحقيقة أمرنا فتكفل بحل المشكلة كما حدث على يدك !! يرجع مرجوعنا لأبى ! جاءنى تليغراف يقول إحضر حالا! سافرت ! وجدت أن الله هيا له من أكرمه بدفنة كريمة ، بعدها بحوالى جمعيتين سافرت صدفة لأجل النصيب كى أدفن أمى بنفسى دفنة على مزاجى !! من يومها انصدت نفسى عن مهنة الخانوتية صرت أقرف من جثث الموتى ! ورائحتهم التى ماكنت أشمها أبداً أيام كانت تجيئنى ننتة ممزقة أصبحت أشمها والميت صاغ سليم !! مع كل ياسيدنا لفندى ! وحق من جمعنا على غير ميعاد أنا ما عندى مانع من الرجوع إلى المهنة فى أى وقت ! إنها كلها مكسب ياسيدنا لفندى !! هذه قصتى من يوم ولدتنى أمى إلى الآن فما هى قصتك ياسيدنا لفندى ؟! إنى مصغ إليك!! ..

هكذا تركنى مبعثر الأتلاء فى كل موضع ذهبت بى حكايته ؛ فجعلت أشد أنفاس النارجيلة بعمق شديد كأننى أستلهمها الرد المناسب . ولحظة أن اندفعت جحافل الدخان من فمى وأنفى بغزارة رطبية تكاد تذوب إلى قطرات سائلة ؛ إقتنعت بأننى يجب أن أبادله الحكى ؛ فالشئ الوحيد - عند أمثاله من أبناء شعبنا الطيبين - الذى يثبت للواحد منهم أنك صرت صديقا جديرا بالمصادقة والعشرة هو أن تحكى عن نفسك مثلما حكوا لك عن أنفسهم ، أليست هذه حيلتنا ؟ أن أى واحد فى أى جلسة جماعية يحكى موقفا أو نادرة حدثت له أو مأزقا وقع فيه لا بد فى العادة أن يتلقف الخيط منه واحد آخر فيحكى موقفا مشابها ؛ ربما أنقح ، حدث له . ومن المرجح أن الوقت إذا اتسع فلا بد أن يحكى الجميع مواقف مشابهاً تؤدي نفس المعنى وتصل إلى نفس الغرض . فالخانوتى إذن لا يتطفل على حياتها

الشخصية ، لا يحاول التجسس على ؛ إنه فحسب يريد أن أفتح له صدرى فاطمئنه من جهتي ؛ إذا أنى سأعطي له حرية رؤيتي كما ينبغي من خلال ما أحكيه عن نفسي كما فعل هو ..

و كنت قد نجحت فى تجميع أطراف بعض وقائع من حياتى و شرعت أفكر فى المدخل المناسب والصيغة الملائمة التى تجعله لا يخطئ فهمى ؛ لكننى سرعان ما اعتقت من هذه المهمة ؛ إذ فجأة رأيناها أمامنا فى قلب الحجر ؛ صبيحة الداية زوجة الخانوتى بموجب الورقة التى أملاها على شوادفى و كتبتها ذات يوم بعيد على مصطبة البوابة ..

- " سالخير عليهم ! " ..

ودون إحم أو دستور حطت عن رأسها سلة كبيرة كسلال باعة الفاكهة ؛ ثم حطت مؤخرتها الأكبر على حافة المصطبة بجوارى ؛ ثم مالت على بوجهها المهضيم الضاحك :

- " سالخير يا جدع ! والنبي قلبى حبك يا ذا الجدع ! من يوم ما كتبت لنا الكتاب ! " ..

تذكرت تلك المهمة التى قال الخانوتى ذات يوم أنها مضت إليها ، ومرت شهور طويلة دون أن أعنى بالسؤال عن نتيجة المشوار والخانوتى بدوره لم يات بسيرته رغم أن يوم إجازته النهارية السبوعية أصبح يقضيه كله فى حجرتى . إرتجف قلبى إرتجافا مدويا حتى خيل لى أنهما رأياه رأى العين . على أننى ابتسمت رغما عنى ؛ إذ رأيت الخانوتى قد انكمش قليلا على نفسه وبدأ كصبي جالس أمام معلمه . كان منظره طريفا وهو يولى الحجر الذى بين يديه عناية خاصة بإضافة " زنبه " فى حجم الحمصة فوق التعميرة ثم يرص النار حولها بإتقان كعقد لولو منظوم ؛ ثم يدخل بمبسم النارجيلة إلى صبيحة الداية هاتفا فى جدية ودون أن يتسم أو يبدو عليه الحرج :

- " مساء الخير يا معلمى ! " ..

رشقته صبيحة بنظرة جانبية تطفح بالأنوثة الساخرة الخشنة ، الماجنة ، فى طيبة مزوجة بشقاوة تاريخية :

- " مساء الفل ياروح مامتك أنت يا صبغني يا شقي ! " ..
ثم قهقهت كأعنى الحشاشين الرجال مصعرة خلدتها نحوى منخرطة فى القهقهة
يتقلص كل شئ فى وجهها ؛ أمسكت بالمبسم مسكة حريف قرارى ؛ راحت تشد
الأنفاس على مهل شديد ، حتى إذا ما سحبت السحبة الأخيرة فطنت إلى المغزى
الجنسى الذى رسمته هى بإيقاع السحب وطققة النار وصوت بقللة المياه فى
النارجيلة . فعل ، هى من حقها أن تُنادى بالمعلم . نفثت الدخان الغزير وعوجت
رأسها ناحيتى وأخذت تحديق فى وجهى بعينين شبه فاجرتين ؛ فأيقنت ان كل امرأة
لا بد فيها شئ جذاب له متذوقيه ؛ وهذه المرأة جاذبيتها فى عينيها بصفة خاصة ،
وفى خفة دمها بشكل عام . ولا بد أن الأنوثة الطافحة فى هاتين العينين تعوض من
يعاشرها عن شكلها المكبظ الملتخبط كجاموسة تمشى على قدمين ؛ ولكن لأنك
تتوقع منها أن تكون مجرد جاموسة فإنك تندهش ويتعاضم اندهاشك بما يفجوك فيها
من خفة ظل وحلاوة لسان وحكمة قول ؛ فيقلب موقفك منها من النقيض إلى
النقيض ، تصير شديد الإعجاب بها . ثم إن ما فى عينيها ليس أنوثة فحسب ، بل
يكمن فيها ذكاء بارق عارق لماح كذكاء العباقرة الأفذاذ ؛ ولا بد أن لها لعبقرية فى
جانب ما . هاهى ذى تحديق فى ملاحى . مازحتها بما يقول الناس فى بلدتنا عادة
إزاء مثل هذا التحديق :

- " تفصلي منى جلاية ؟! " ..

تراجعت بذقنها ألصقته فى نحرها التخين ، لعبت حاجبيها :

- " فشر ! أفصل منك بدلة ملوكى ! " ..

ومدت كفها مفرودة لألمسها بكفى المفرودة كما يفعل رجلان منبسطان يلتقيان

على غمزة أو نكتة . قالت بجدية :

- " أنت فيك شبه من ناس أعرفهم وبالأمارة كنت عندهم الان ! سبحانك

يارب ! نفس الدم ! نفس تدويرة المناخير وفتحة العين ! لولا غلظة الشفتين هناك

لقلت إنك واحد منهم !! " ..

خفق قلبى خفقة مزدوجة ، من ذكاء هذه المرأة وفراستها ودقة ملاحظتها ،

ومن عودة الموضوع الذى أود أعرف نهايته . أحسست بنظرات الحائوتى منهلة

تدور بينى وبينها ؛ فلما التقيتها قرأت فيها عبارة : آمنت بك يا رب . أفقت على صوتى يقول لها :

- " بالمناسبة ما أخبارهم ؟! ماذا فعلت عندهم ؟" ..

- " ربنا ما حرمننا جميعا من الأفراح والليالي الملاح !" ..

لم يطق الخانوتى صبرا؛ هتف بفرح عظيم :

- " تأكدت والله من أول ما شفتك ، بصرف النظر عن هذه الشيلة التى معك

تبشر بالخير ! لأن منظرِكَ يقول إن الله وفقك !" ..

خبطت بكفها على صدرها فى زهو كبير:

- " عيب ! أنا صبيحة والأجر على الله ! دخلة قدمى دخلة الخير دائما! أحمد

الله وأشكر فضله عمري ما دخلت دارا إلا وقام فيها الفرح بعريس أو عروس بيدي

هاتين جئت بهما من مكان بعيد ليلتقيا على القسمة والنصيب فى مكان بعيد!!

والله ياذا الجدع مالك على يمين هناك عرسان وعرايس سحبتهم بيدي هذه من

فروج أمهاتهم وتلف الأيام ويتم زواجهما على يدي !! أنا التى أحيى لكل منهما

بعدله ! لم يعطنى الله حق الخلفة لكننى أم العيال كلهم !! اللهم لك ألف حمد

وألف شكر ! رضى لمن يرضى ! اللقمة والهدمة والنومة المستورة هي كل حاجتى

من الله سبحانه لم يحوجنى لأن أطلبها منه أبدا !! دائما يعطيها لى قبل أن أرفع

وجهى إليه ! تعرف ياذا جدع ؟ أنا والله مكسوفة من ربنا ولا أقدر على رفع عيني

فى وجهه لأننى لا أداوم على الصلاة ولا أعرف متى يهدينى فأداوم عليها الفرض

بفرضه ! إهدنى يا رب بحق حبيبك النبى محمد !" ..

أرسل الخانوتى إلى نظرة ذات معنى يفصح قائلا إنها ولية فيها شئ لله ، وقال

لها :

- " اللهم ! أوقعت بالعريس ؟! " ..

بلهجة تهكمية تأنيبية قالت :

- فشر! اعطيته هدية واعطيتها هدية ! أوقعت كل واحد منهما فى بشر العسل!

عريس لقطعة لعروس لقطتي نا! " ..

- " ما شغلته ؟" ..

هكذا سألت أنا في لهفة . فقال :

- " متوكل وزارة الوقف !! " ..

بشيء من حرج التلميذ يضطر لمراجعة أستاذه الكبير في هفوة عابرة :

- تقصد وكيل وزارة الأوقاف ! إذن فهي طلعت من نصيبه! فرحت والله له

ولها ! إنه رجل طيب ! ..

قلت: " هل تعرفه ؟ " ..

لوح بأصابعه نحو صدره هاتفا بزهر:

- " حق المعرفة ! خدمت عليه ! نسيت أن أقول لك إننى اشتغلت مدة صبيبا في

بوفيه وزارة الأوقاف ! أدخل بالشاي والقهوة للموظفين ! وأنا الذى عرفته بامرأتى!

طلب منى مرة إن كنت أعرف سيدة تنظف له منزله وتغسل ثيابه إذ هو أعزب!

فقلت : أعرف وبعثت له بالولية ثانى يوم لثقتى بأنه رجل كُمل ! وبتاع ربنا !

تصور ياسيدنا لفندى انه ظل أعزبا حتى ترقى إلى وكيل وزارة ؟! أصله بصراحة

شكله هو الآخر لا يسر ! له ساقان مقوسان طويلان فيمشى مفرشحا كالصبي

المطأهر! وله وجه كشر يقطع الخميرة من البيت! كل صاحب مصلحة يراه أول مرة

يقول لنفسه فى الحال لن تقضى مصلحتنا طالما هذا الوجه الكشر فيها ! فما يكاد

صاحب المصلحة يكلمه حتى يكتشف رجلا سكرة يوضع الجرح فيطيب ! ربما قام

من على كرسيه وذهب معك إلى المكتب الذى يعاكسك فيهزىء الموظف ويوبخه

ويربت على كتفك : معلش يا ابنى امسحها فى ! مرتبه كله يدفعه ثمنا لتحية

ضيوفه الكثار ! ويشرب فى اليوم مائة سيجارة بحارى وأزياراً من القهوة لو

طالها! ..

أضافت الداية بحماسة شديدة :

- " .. وفى بيته ياذا الجدع ! يكون مسرورا إن أنا طبخت له الطبخ وأكلته

معه كله ! وفى غاية الأدب والكمال ياذا الجدع ! يتنحنج وهو داخل ! ويخبط على

أى باب قبل أن يفتحه ولا يفتحه إلا إن تأكد أن أحداً ليس بالداخل ! سوف

يسعد الصبية ! أنا ايضا قلتها بصراحة للصبية ولأمها كما أمرنى ونبه على نفسه:

هو باق له ثلاث سنوات فى الخدمة أى نعم لكن صحته بمب ! تعرف ياذا الجدع ؟

والله أنا وقرت هذا الرجل وتأكدت انه ابن ناس بحق وحقيق ، تتصور إن الحاجة أم العروسة كانت موافقة على أن تذهب هي في السر وتشتري الشبكة من حر مالها وتعطيها له ليتقدم بها إذ هي فرحانة به ، فسيقول الناس إن العريس في وظيفة كبيرة في الوزارة ! ولما قلت للرجل عن هذا الموضوع تبسم وضحك بكل طيبة قلب وقال: لا إن اب العروسة صديق في الشغل ولا أحب الدخول عليه بالكذب من أولها وأنا لست فقيراً والحمد لله والكلام الأسلم ان أشتري الشبكة من حر مالى في حضور العروس وامها ، وبعد شراء الشبكة تشتري لها امها ما تحب ان تشتريه ويكون معروف ان شبكتي هي كذا وكذا !! وقال ايضا إنه من أجل خاطر عيون البنية سيقم لها فرحا كبيرا في نادى الموظفين وسيسافر بها إلى مرسى مطروح أو رأس البر لقضاء شهر العسل !! الحمد لله !! تعرف ياذا الجدع ؟ وحق ذى الليلة ومساها اننى أشتغل على هذا الموضوع وحده ثلاثة سنوات ويمكن أكثر !! إننا لا نأكلها بالساهل ياذا الجدع ! لكن مهما أخذت ومهما شقيت فإن فرحتى الكبيرة هي لحظة اندلاع الزغرودة فى بداية الفرح !! اليوم كانت أحلى عصرية شفتها من اكثر من سنتين ! ..

أسرعت قائلاً :

- " وتمت الخطوبة بالفعل !؟ " ..

شوحت بعينيها كأنها تقول لى هل انت حمار؟ ثم أضافت بكثير من الغبطة:
- " وكتبنا الكتاب ! سأذيقك الحلاوة الان ! معى أكثر من عشرين علبة حلوى ، العلبة وحدها فارغة تساوى الشئ الفلانى يمكن ان تضع فيها الدخان والفلوس والجوهرات ! العريس كان يخاف أن يرجعوا فى كلامهم ؟ واهل العروسة كانوا يخافون ان يرجع فى كلامه !! محسوبتك هي التي عملت هذا الشغل !! آه لو رأيت فلوس المهر وهو يعدها وأبوها يقبضها ! عشت حتى شفت الورقة أم مية! ياسلام على منظرها ياذا الجدع ! تقول جوهرة ؟ عريضة ! عد منها الكثير ! وكل ورقة يتلكأ الحاج مسعود وهو يعدها حتى تحيها الزغاريد لتنقل خبرها للجيران ! ربنا يفرحنا يا أولاد ! قادر يا كريم ! ..

إنحنت على السلة ، راحت تعكرش فيها فتصدر عنها اصوات خرخشة
جعجاعة؛ ثم استدارت نحوي وقد احتلت قبضة يدها علبة من البللور ذات غطاء
محكم ملفوفة بورق السوليفان مربوطة بخيط ملون مشغول بخيوط الذهب والفضة؛
فوق غطاء العلبة قصاصة صغيرة مكتوب عليها : " بدرية - شعبان " ومن تحتها
التاريخ وعبرة : العاقبة عندكم فى المسرات . إرتجفت يدي وهى نقلب العلبة
الشديدة الفخامة ، المحشوة من الداخل بالملبس وقطع الحلوى الفاخرة ..
إذن فقد تزوجت بدرية ؛ أخيرا تزوجت بدرية . هكذا رحت أتمتم لنفسى فى
ذهول . يبدو اننى قلت ذلك بصوت مسموع ، إذ فوجئت بالداية تخبط على
صدرها منذهلة :

- " تعرفها ياذا الجدع ؟! " ..

صاح الحانوتى كالمعلق على مباراة كرة :

- " الولية انذهلت !! ياولية ! إن اللفندى هو خال الأنسة بدرية ا فى مقام

خالها !! ابن عم أمها لزم ! " ..

إتسعت عين الداية راحت تشع الكثير من بريق المودة المشوبة بشئ من عدم
التصديق أو التشكك فى حقيقتى . قالت :

- " يا رجل قل كلاما غير هذا !! " ..

- " وشرفك عندى اتكلم الجدع ! " ..

تغيرت الداية ، بدا عليها الشديد والعناء الأشد لكى تمسك لسانها عن قول

شئ . أخيرا قالت بغير حرج :

- " اسم الله على مقامك ياذا الجدع ! إنها عائلة كريمة غنية ! ناس طيبين !

هل يعرفون أنك ابن عم الحاجة ؟! " ..

إنفجرت فى ضحكة صاعقة ؛ كدت أطوق دماغ الداية هذا الطريف واقبل

راس طفل شقى خفيف الظل ؛ لكنها استدركت :

- " الحاجة وديدة تعرف أنك تسكن فى وكالة عطية ؟! لو عرفت لوقعت من

طولها !! " ..

أسرعت قائلا :

- " لهذا أحلفك بالله ألا تخبريها ! لا هي ولا الحاج ولا حواس ولا بديع ولا كريم ولا يسرية ولا شكرية ولا بدرية ! لا يصح أن يظهر عليك أنك تعرفيننى من الأصل !! " ..

تضاعف الدهول فى عينى الداية :

- " بين أن كلامك صحيح ياذا الجدع ! إنك رصصت لى اسماءهم ! قلت لك إنك فيك شبه من ناس أعرفهم ! سبحانك يارب ! لا ! لا ياذا الجدع إطمئن فأحتك رجل ! لن أجيء بهذه السيرة أبدا أبدا ! الدنيا أسرار ياذا الجدع ! ولا أحد يعرف ماذا وراء جدران البيوت ولا جدران الصدور والقلوب !! الأکید أن فى الأمور أمور فأنا لست عبيطة ! إذا كنت أنت من الفرع الفقير و بنت عمك أصبحت من الفرع الغنى فإن الغنى هو غنى النفس ! لا يهملك ! أهلا يا ضنايا ! أنت من يوم ورايح فى عينى الإثنتين من جوه ! يا سلام على الأيام ! سبحانك يارب !! " ..

نكست رأسها شاردة لبرهة طويلة ، كأنها أنشغلت بأمور شديد التعقيد ؛ لكنها سرعان ما رفعت رأسها ناظرة إلى وقد بان عليها تأثر شديد مفاجئ . وبصوت يقطر أمومة :

- " تعشيت يا ضناى ؟! " ..

هتف الخانوتى بفرح طفولى غامر :

- " قوللى هل تغديت ؟! " ..

حدقت الداية فى " عينى بعينين واسعتين فيهما بريق غامض حرت فى فهمه . سبب الخيرة أننى شعرت فيه كأن الداية الأريية تعرف ما قد حدث بينى وبين بدرية ذات لحظة سحرية من وراء الكون كله مرت كأنها محض خيال . إلا أن الداية صارت تلوح باصابعها الغليظة الخشنة الصدئة بحركات طفولية إغرائية ، وفمها الغليظ الشفتين يردد :

- " سأعشيك من طبيخ بدرية !! " ..

واستأنفت التحديق فى عينى مضيفة بلهجة فيها غنج خفى باهت:

- " تعرف طبعا طبيخ يدي بدرية ! العريس خرج عن طوره وهو يأكل ! المعمر والمحمر والمشمرو والمحشو بالفريك والمكسرات ! والمسلق والمسبك والمشوى ! والجلالاش والبقلاوة والمهريسة وعيش السرايا والبسيمة ! كل هذا الخير أعطتني منه تعرف ياذا الجدع ؟ والله هذه البنت قلبها مثل الفرن السخن على طول ، أحسن واحدة فيهم كلهم ! فيها حنية تكفى بلدا بحالها من فاتته بدرية من العرسان فاتته النفع ! ياالحبي لهذه البنية ! " ..

شوح الحانوتى بنفاد صبر هاتفا :

- " ياولية جوعتنا بما فيه الكفاية ! نريد أن نتأكد مما قلته ! هيا اثبتى لنا كما يقول الأفوكاتوا بالدليل القاطع أن الست بدرية زعيمة الطباخين ! إفتحى خُرجك وفرجيننا ! " ..

جمعت طرحتها الجربانة فى قبضة يدها مشوحة :

- " قم ! تعالى يا جدع ! " ..

- " يجئ إلى أين يا وليه ! هاتى لنا هنا ! روحى سخنى عندك وتعالى نسقيك حجرين من فضلة خير شوادفى ! ولا تنسى نصيبه مما معك ! إنه يفعل معنا واجبات كثيرة هذه الأيام ينفحننا بقطع الحشيش الذى لا ندفع فيه شيئا !! " ..

إتكأت الداية على ركبتيها ونهضت واقفة . ونهض الحانوتى فساعدها على حمل السلة المفرطحة المتخممة بالأشياء والملابس النظيفة ذات الأقمشة الثمينة من الصوف والحرير والبوبلين . حين لمحها ركز عليها نظرة طافحة بالبشر والبهجة ترجمها قائلا : واكتسينا ايضا ؟. فلما ظاهرتنا الداية لتخرج من الباب خبطها الحانوتى براحة يده على فلقه مؤخرتها الكبيرة قائلا :

- " كلك خير وبركة يا حبيب عمرى الوحيد ! " ..

فبالفلقة الثانية دفعته فى ساقيه فتهاوى كالنخلة ثم ترنخ وهو يتشبث بالمصطبة ضاحكا . ودب فيه نشاط مفاجئ حميم ؛ ففك قلب النارجيلة وهزها بعنف وخرج يدلق ماءها أمام الباب مرددا من الخارج أن هذه المياه رائحتها تسمم البعوض وتصده من بعيد . رحى أدفع علبه الحلوى فى الهواء وأتلقفها كالكرة ؛ ولا أدري لماذا تصورت أننى ألعب بقلبي ، فحوطت العلبه براحتى الإثنتين وضغطت عليها بما

لا أدري إن كان غيظاً أم فرط احتواء . بقيت هكذا منكمس الرأس شارداً لللب حتى
انتزعني صوت الخانوتي :

- "وحد الله ياسيدنا لفندي ! كأنك حضرت الفرح ! شف النصيب ! شف
العبر !" ..

حدقت فيه لبرهة ؛ سربت العلبة تحت الوسادة ؛ مددت ساقى ، شعرت أن
الأرض تدور فتمددت منطرحاً على ظهري مغمضاً عيني . دخلت فى بحر الظلام
كأننى لوح من الخشب يتهادى فوق موجات الظلمة مندفعاً مع التيار إلى غاية
مجهولة ؛ كل ما تبقى منى مجرد ومضة كبصيص جمرة تحت ركام الرماد الكثيف
تتمنى لو تلتحم بالريح باحثة عن جسدى لكى تعيد إليه الحياة من جديد . وكان
يخيل لى أن دهرًا طويلًا جدا قد مر بى فى أعماق رحلة مجهولة لا أذكر منها شيئاً
على الإطلاق ، حينما شعرت بغمغمة أصوات تطوف فوق رأسى ميزت فيها
صوت الخانوتي :

- "دعاه الان ! سوف يفيق وحده بعد ثوان ! شربنا كثيراً على خلو بطن !
والظاهر أن الخبر هزه وأتعبه !" ..

تشبثت بهذا الصوت الواضح المعروف لى ، فانتشلتنى الإطمئنان من أعماق بئر
سحيق ، ففتحت عيني بصعوبة ، لأفاجأ بأشباح كثيرة متضاعفة ظلها متكررة .
سرعان ما تبينت أن لا أحد معى سوى الخانوتي والداية ، التى انحنى فوق رأسى
محدقة فى عيني وقد انشقت وجهها بالعرض على هيئة ابتسامة كبيرة بين هضاب من
لحم الخدين والصدغين . مدت يديها فامسكت يدي بواحدة وكتفى بالأخرى ؛
أنهضتنى جالسا . إذا بى قد أفقت تماماً كأننى مستيقظ من نوم عميق ؛ لأرى
الطبلية موضوعة على الأرض حافلة بعدد من الأطباق الألمونيوم وحفنان من الفخار
تتصاعد منها روائح بدرية الشهية المكسرة ؛ فقفزت إلى الأرض جالسا أمام الطبلية
فزنقتنى الداية عن عمد فى المصطبة ، فيما راح الخانوتي يعابثها :

- "ياولية خفى عن اللفندي خله يتنفس !" ..

أخرجت له طرف لسانها مرقصة حواجبها ، مكورة قبضة يمينها تطحن بها فى
راحة يسراها ، بينما هز الخانوتي كتفيه وهو يجلس قبالتنا متمتماً : امرأة مجنونة بحق .

سحب ثلاث ملاعق ، إثنان منها من الخشب والثالثة من الالمونيوم ؛ قدم الأخيرة لي ، ورشق واحدة في الطبق أمام صبيحة الداية وأبقى الأخرى في يده . نطقنا في نفس واحد : بسم الله الرحمن الرحيم . أكلت بشهية فائقة كأننى أتذوق لحم بدرية وأنفاسها القريبة من نكهة القرنفل ، كانت تتمثل لي في كل لقمة في عينين واسعتين خجولتين خجلا فلاحيا مغلفا بهريق بندرى ينضح بالتححرر الذكى عينان تفيضان بالحنان والبساطة ، فصار قلبي ينعصر كالعجينة بين ضلوعى ، فينسرب عصيره إلى عيني بقطرات من الدمع الساخن الحراق صرت امسحها بظهر يدي محاولا الإيحاء بأنها من فعل سخونة الطعام وحرارته الحريفة . وكل ذلك يضايقنى لأننى كنت أتمنى لحظتها أن انفجر باكيا بصوت عال ، أريد أن أنتحب . إلا أن بهيقا مدهشاً لمع فجأة في عيني صبيحة الداية كأنها اكتشفت سرا خطيرا . ظلت لبرهة منهللة جاحظة العينين تركز بصرها على المصطبة مرددة :

- " بسم الله الرحمن الرحيم ! آمنت بك يارب ! " ..

ومدت أصابعها وصارت تتحسس اللحاف والبطانية والوسادة ثم هزت رأسها وزامت كأنها فهمت كل شئ . أخيرا جعلت ترتب على كتفى بحنان :

- " ما هو خسارة فيك يا ضناى ! هذا اللحاف وهذه البطانية وهذه المخدة ! تعرف ياذا الجدع ؟ كانوا من نصيبى أنا !! وعدتني بدرية أنها ستعطيهم لي بعد أن تستأذن أمها ! تعرف ياذا الجدع ؟ أنا أعرف فرشهم من بين مفروشات الدنيا كلها ! تعرف ياذا الجدع ؟ إضحك واندهش ! من جمعيتين ثلاثة أربعة نادتنى بدرية إلى حجرتها وقالت لي : إذا سألتك أمى هل أعطتك بدرية لحافا قديما وبطانية ومخدة فقولى نعم وأنا أدبر لك غيرها لأننى تصرفت فيها لواحد قريب غلبان ! شف النصيب ياذا الجدع ! شف تصريف المولى ! كنت غير مصدقة ولكن الله أراد أن يرينى صدقها ! بنت حلال كلها حنية ! قلبها كبير ! إنها كتمت خبر هذه الفرشة عن أمها كل هذا الزمن الطويل حتى شعرت أن أمها تبحث عنها !! على كل حال أنا وأنت واحد يا ضناى !! " ..

وربت مرة أخرى على ظهري ، فيما رحت أنظر إليها منهلًا وقد شعرت أنني
حوصرت حصارًا محكمًا . يبدو أن صبيحة الداية رأت بوادر انهيار في عيني ؛
وصارت هي تربت على ظهري بكفها الغليظة :
- " عيط يا ضنای ! عيط كما تشاء حتى تستريح !! " ..
فإذا بي أنخرط في النحيب .

زينهم العتريس

حتى مطلع الصبح لم أكن فطنت إلى سر هذا الإزدحام الشديد الذى حل بالوكالة بشكل غير طبيعى . إمتلاء الفناء عن آخره بالناس من مختلف الأشكال والألوان ، فصار يعج ويضج ، يتصاعد الصخب ليخفت قليلا ثم يرتفع بعد برهة . ما يزيد على ثلاثمائة رجل وامرأة غير الأطفال يتحدثون يلغظون فى آن واحد بأصوات عالية حادة تظنه عراقا لا ينقصه إلا رفع النبايت ؛ لكنك سرعان ما تسمع بعض الضحكات العالية والأصوات الساخرة ..

كان من الصعب أن أخطو خطوة واحدة خارج باب حجرتى ؛ لأن الأجساد تمددت وتقرفت وتورت وانحشرت فى كل بقعة . فكنت من حين لآخر أقف على باب حجرتى فألقى بنظرة تقفز فوق الأرض المغطاة باللحم البشرى ما بين قاعدة وامتددة متقرفت ومضطجع ومنبطح وواقف وقاعد فوق أجولة معبأة بأشياء أو فوق درابزين البواكى ؛ وثمة حمير تأكل دافنة بوزها فى مخلات معلقات فى رقابها ، وتنهق وتنفخ ؛ وبعض عربات الكارو الصغيرة التى يدفعها الباعة بأيديهم منكفئة فى ركن بعيد خلف طللمبة المياه . العجيب أن أحدا لم يضجر بأحد ولم ترتفع صيحة احتجاج واحدة ربما لأن الفناء كان يعج بأصوات تصيب الأذان بالصمم التام . الخاطر الذى طرق ذهنى لحظتى أن هؤلاء مساقين للعمل فى السخرة أو فى عملية ترحيلة تبع الوسية . وكان من المستحيل طبعاً أن يطرق النوم جفنى وسط هذا الضجيج المقيم . على أنسى - مع ذلك - لم أشعر بالذعر أو الضيق ، بل على العكس صرت أشعر بنوع من البهجة والبهرة اللذان يشعر بهما الإنسان حين يصير فجأة فى قلب مولد من الموالد الشعبية الخافلة ..

شعرت بونس مفاجئ، تمنيت لو استطعت احتراق هذه الجموع واختيار مجموعة منها للمسامرة وشرب الشاي طوال الليل ، ومن المؤكد أن فيهم من قرئى رهط كبير لاحظت أن سيدنا زناتى يظهر واقفا بين مجموعة يسلم عليهم بما لا أدري إن كان توديعاً أم استقبالا وترحيباً ؛ ثم يختفى فجأة حتى أكاد أنساه لأفاجأ به متقرفا بين مجموعة أخرى . وهو بين مجموعة أراه منخرطاً فى حديث جاد ينم عنه

مظهره العام وملامح وجهه البادية من على بعد ؛ وبين مجموعة أخرى أراه مندجاً في مزاح وتنكيت وضحك هستيري صاحب . لم يكن هو وحده البارز ؛ إنما كان هناك الكثيرون ممن ألفت وجوههم من نزلاء الوكالة يقفون بين مجموعات كأنهم مجموعة من حروف الألف واقفة بين سطور ضخمة من الحروف المتكورة والمنبججة . أخيراً شاهدت سيد زناتي وهو يخترق الصفوف نحو حجرته ممسكاً بين أصابع يديه رزمة ضخمة من الجنيهات القديمة المزينة بالغبار يعدها في سرعة مبهمة بشفتيه فيما يتعثر في الأجساد ويمسك توازنه بدربة شديدة ..

ثم ظهر الشيخ زينهم العتريس مقبلاً من البوابة ، يصبص بعينه العمشاوين ، يحاول رفع قامته المخنية دائماً فوق عكاز ؛ وحول شفثيه المضمومتين على حنك أهتم بفك سفلى متدل كجورب طفل وليد ، تلمع خيوط خفيفة من الريالة السارحة بين شعيرات شاربه الكثيف المتدلى على جانبي فمه محترقة شائطة من لفافات التبغ ، تبغ الأعقاب (السيارس) ، التي يتخصص في جمعها على نطاق واسع بواسطة أطفال كبار متشردين يشتري ملء الكوز بقرش تعريفة ، فيعود آخر الليل يحمل شكاراً كبيرة متخمة يبيعها لسكان الوكالة وعلى رأسهم شوادفي ..

على أن هذه ليست مهنة الشيخ زينهم العتريس ؛ فمهنته الحقيقية هي الشحاذاة ، بأسلوب رسمي عتيق جداً لكنه ناجح ومريح . يلبس على رأسه عمامة كالحة بشال أخضر ، أو كان أخضراً ذات يوم بعيد . يحلف دائماً يميناً واحداً لا يغيره ولا يبدله على أساس أنه لا يجب أن يعرض الله لأيمانه حسب وصيته سبحانه وتعالى . يمينه المفضل الثابت ، الدال على أنه غير حانث ولا آثم هو حياة سيدة العتريس الذي يلبس هو عمامته الخضراء كواحد من قدامى دراويشه وأتباعه . ولقد جعل نهاره لنوع من الشحاذاة ؛ وليلة لنوع آخر ؛ حيث يخرج في الصباح الباكر ليبدأ السعي في دائرة معروفة تستغرق منه أياماً ربما وصلت إلى شهرين ثلاثة ليعود فيبدأها من جديد : يأخذ بيوت المدينة بيتاً بيتاً ، حياً حياً ؛ فالضواحي البعيدة ، فالقرى المجاورة . ورغم أن الناس يعرفونه جيداً وليسوا في حاجة إلى أي كلام يقوله فإنني قد شاهدته أكثر من مرة أثناء سعيه على الأبواب حاملاً بعض الأجوالة ومن خلفه ثلاثة أطفال هم أبناؤه : أحمد وعتريس وعلي ، كل منهم يمسك بشيء . يتقدم هو

فيطرق باب البيت هاتفا : يا اهل الله ، ينطقها سريعة متداخلة الحروف ؛ وسواء أبطأ عليه أهل الله في الدار أم أجابوه في الحال فإنه يشرح في إلقاء الخطبة اليومية المعتادة : " إلهي ما تقفوا وقتي ! ربنا يزيدكم من نعيمه ! يا أهل هذا البيت يا من عرفتم بالكرم ! كتب الله لكم في الآخرة حسنات بعدد شعر رؤوسكم ! الحسنه بعشر أمثالها ! الحياة فانية يا أسيادي ! لا يبقى سوى العمل الصالح ! يا بخت من أطعم جائعا وكسا عريانا واکرم عابر سبيل ! الأجر والثواب عند الله يا أسيادي ! يا من تتمنون الحظوة ببركة سيدي العتريس إكرموا أبناءه ومريديه !!" ..

تابعته في كثير من الأضاحي وهو يكرر هذه الخطبة دون ملل ، حتى بعد أن يخرج مندوب من البيت ليعطيه الحسنه يأخذها ويستدير مكملا كلامه بصوت خافت حتى إذا ما انتقل إلى الباب المجاور رفع صوته بنفس العبارات الموصولة . الحسنه في العادة رغيه أو رغيهين ، معهما في بعض الأحيان قطعة أو قطعتين من الجبن القريش ، حتى مطاعم الفول والفلافل لا يتركها فيأخذ قرصا من الفلافل أو كسرة خبز . كلما امتلأ جوال أو قفة تركه في حراسة أطفاله على أي ناصية ريشما يأخذ لفته ويعود . مع احمرار شمس الأصيل يدخل الوكالة يحمل على كتفيه خرجا منتفحا من الأمام ومن الخلف ؛ فوqe جوال كبير ؛ وكل طفل من أطفاله يحمل شكاره أو مقطفا أو جلبابا قديما معقود الأطراف . إذ يرووب إلى الوكالة لا بد أن يتوقف على البوابة لدفع الجمارك ، مجموعة أرغفة طرية أو بعض فطائر أو أي شيء طيب من وراء بركات سيده العتريس ، ثم يمضي في زهو كبير منقلا عكازه على إيقاعات دعوات شوادفي له ؛ بنفس الكلمات التي يلقيها هو على الناس لتحنين قلوبهم .. إشنغلت دائما بسؤال يلح على : أين تذهب كل هذه الأطنان من الأرغفة التي يجمعها كل مع العلم أنه وأولاده لا يأكلون إلا خبز السوق الطازج خبز الطابونه ؟! إن الحجره التي يقطنها مع أولاده لا يمكن أن تتسع لكل هذا خاصة أن له زوجا وثلاث بنات على وش زواج : أمينة ورقية واعتماد وطفلة تحبو اسمها - وياللعجب - داليا ، ويدلعونها بدلدل . وقد سألته يوما عن الحكمة في اختيار هذا الاسم الإفرنجي بعد أمينة ورقية واعتماد ؛ فابتسم ابتسامه عجفاء تختفى

دائما بين تجاعيد وجهه النحيل ، المتكاثفة بالطول وبالعرض فى جلد وجهه المشعث كطين بعد جفاف طويل ، وقال :

- " وال لله.. مانى عارف يا مولانا ! لكن ! الدنيا بتتقدم يا مولانا ! أنا باين انى سمعته فى الراديو - ولا يمكن شفته فى السیما ! كانت هناك صبية حلوة واسمها داليا ! أعجبني يا مولانا من غير ما أعرف لماذا ! حلفت لأخلفن بنتا لكى اسميها داليا!! إنما يا مولانا يهيالى والله أعلم أن الإسم معناه دالية ! مثل قطوف الجنة التى ستبقى دالية يعنى متدلية تمسكها بيدك وانت نايم ربنا يوريك ويورينا ! تجى لألف لك سيجارتين وأعمل لك شايأ أو إن شئت أغديك ؟!.." ..

العبارة الأخيرة سخنة استشعرت أذنى صدقها ، لدرجة أنه قالها وهو يدفعنى فى اتجاه حجرته بجدية بالغة كأننى قد وافقت بالفعل . وقد فعلتها ؛ ولم أنتظر حتى يكررها مرة ثانية ؛ إذ كنت مشوقا لدخول حجرته بأى شكل . هو أيضا شعر برغبتى فى الموافقة ، فشدنى ، فدخلت ..

حجرته مجاورة لحجرة قطيطة مباشرة ، بينها وبين حجرة الداية وزوجها الخانوتى . فإذا هى أوسع من حجرة قطيطة ومن حجرتى بقليل صنع فرقا هائلا . فى صدارتها - لصق الحائط - عنقريب متين من الجريدى ؛ قال مزهوا إنه إشتهر من السودان أثناء زيارة للخرطوم بصحبة شيخ مشايخ العتارسة من زمن طويل . على العنقريب بطانية قديمة من الأحزمة الصوفية المصنوعة فى بلدة فوة ؛ ومخدة عبارة عن حوال محشو بالقش . بجوار العنقريب صندوق مربع ، مرتفع قليلا ، مخروطى الغطاء من الصناديق التى تعرض دائما فى الأسواق ومحلات الأثاث فى البنادر ! إذ هو من ضمن جهاز العروس رغم أن الدولاب بدأ ينافس ويطنغى عليه حتى بالنسبة للعرائس الفلاحات الفقراء ؛ وهو صندوق مخطط بالألوان كالحمار الوحشى ، محشو بالملابس والأشياء ، حين يفتح تتصاعد منه رائحة صابون الوجه الرخيص . بجوار الصندوق صينية من الألمونيوم الصدىء عليها أربع قلال فخارية مقطوشة محندقة رطبة تفتح الشهية للشرب على الدوام . بجوارها - فى الركن العميق - يقوم الجبل ، نعم ، جبل من الخبز الناشف مرصوص بطريقة فنية يجب أن يأخذ من رصها جائزة نوبل فى الصبر والدقة وحسن التصرف وموهبة البناء ؛ لدرجة أن بعض الأولاد يستندون

عليه بظهورهم وهم جلوس ، وقد يتشاجر الواحد منهم ويتشاحن مع أخيه فيصطدم
الجسدان بجبل الخبز فلا ينهار ولا حتى يترجرج بل قد ينخلش دماغ الواحد منهم .
لما رأوا دهشتي وإعجابي ببناء جبل الخبز الناشف قالوا لي إن اعتماد الصغيرة هي
التي تقوم بهذه العملية بعد خروجها من المدرسة الابتدائية ، التي تنوى أن هذا العام
ياذن واحد أحد إلى الثانوية فالكلية إن وفقها الله إذ أن أباهـ حالف بحياة سيدة
العتريس أن يصرف عليها حتى تصير دكتورة مذيعة كآمال فهمى تقول : هنا
القاهرة ، سيما ولسان البنت فيه لدغة كلدغتها ..

الحجرة مع ذلك تتسع أرضها لحصيرة عريضة متآكلة الأطراف تكفى لأن يتمدد
عليها الجميع براحتهم . فى الركن المقابل لجبل الخبز وابور جاز ماركة بريموس
برجلين اثنتين حيث استعوض عن الثالثة المفقودة بنصف قالب طوب يحفظ توازنه
على الأرض ؛ تحيط به جمالة حديدية متينة تقوى على حمل وعاء مهما ثقل . إلى
جواره ثلاث حلل من الألمونيوم بأحجام مختلفة ، وطاسة صدئة محروقة معرقة
بالزيت الزنخ الرائحة ، ومصفاة ، وبرام وطاجن من الفخار ، وحوالى خمسة
صحون من الصاج المزنك الملون . ومن تحت العنقريب يطل جزء كبير من طست
غسيل متوسط الدائرة ..

زوجة رحاب أشبه ببرج الحمام الفلاحى ؛ رفيعة من فوق ، تزداد ضخامة كلما
هبطت إلى أسفل ، طويلة القامة ، بارزة البطن متدلية الثديين الكبيرين تحت جلباب
اسود على اللحم ، سمراء الوجه فى لون الفخار المحروق ، واضح أنها نورية من
جذر عميق عريق ، لكن وجهها سمح ، منبسط الملامح حتى لتبدو صغيرة السن
جداً ، واسعة العينين بكحل ربانى غزير جداً فى شيطان الرموش ؛ فى وسطهما
حبتان سوداوتان تسبحان فى بحيرة من عصيرة القصب لكنهما كحبتى البلى
مدربتين على غيط بليتى عينيك وإزاحتها حتى لتكاد تسمع صوت اصطكاك
عينها بعينيك ؛ إنهما تستعطفانك بقوة رهيبة تستجدان بك ، ربما لتنقنها
وأولادها من هذه الوهدة ، تقولان لك ببلاغة لا تحتاج لنطق : أسترنى إلهى ربنا
يستر عرضك ! ساعدنى بما قدرك الله عليه ! إن يكن فى إمكانك المساعدة فعلى
الأقل ساعدنى بكف أذاك عنى ! . إلا أنك تلمح فى قاعهما العبيد خلال عهر عريق

لعله راجع إلى أننا حواء حريفة الإغواء . غير أنك لن تستجيب لنداء هذه الظلال على الأقل لأول وهلة . إلا أن الخطر لا بد محقق بك إذا مكثت معها طويلا وأفتها وأفتك ، حينئذ تتساقط من أشعة عينيها كل الإيحاءات السابقة فلا يبقى منها سوى ظلال العهر العريق الذي لا تويده هي بأى حركة أو كلمة أو لفظة ؛ بل إن فروغ بالها من هذه الناحية هو الإثارة بعينها ؛ وإن قدارة الثياب وانحطاط مستوى الحياة ووساخة كل شئ حولك واختلاط الحدود كلها ببعضها قد تصد نفسك في أول الأول عن التفكير فيها كامرأة ، إلا أنك سرعان ما تقع في الخيبة الأزلية ؛ فتجد نفسك محيرا وأنت تبدأ شيئا فشيئا تفكر في " رحاب " زوجة الشيخ زينهم كإمرأة؛ لكنك سوف تكتشف بعد قليل أن للقدارة والنتن جانبها المثير ، الحيوانى ؛ فمثلما نزول السلم سهل فإن النظام والإستكانة للفقر والنتن سرعان ما يصبح لهما طعمهما المثير اللذيذ الأليف ..

نفيت من دماغى هذه المرأة بقوة ؛ لكننى لم أنجح فى نفيه بالنسبة لابنتها أمينة ، تلك العروس الزاحفة نحو سن العشرين مياسة القد كالغزال الأسمر المسمم بعينى أمها و ثراء وجه أبيها القادر على التلون بصورة منمثلة ، كعود السنط فى أعلاه بروزان مدببان ناضجان ، فى خصره أستك خفى يلم دائرة الخصر فى قبضة خفية ليندلق اللحم الشحيح فى بروزين من الخلف على هيئة فنخذين مسحوبين كالقرطاس حتى سمائتى قدمين كقصبتين من المامبو ، بكعبين دائريين . كانت تقف بجوار الباب تغسل عدة الشاى بعد أن أكلنا فطائر فلاحية دسمة مع جبن قديم فى المش . وكان جانب وجهها الرفيع المدبب الأنف تنعكس عليه ظلال لمبة الجاز السهارى فتبدو كمنقش فرعونى لفلاحة من الفلاحات اللامى أراهن مرصوبات فى كتب التاريخ يذرن الحب للأض أو للدجاج . وكانت أمها رحاب قد جلست على الحصيرة فاشخه وركيها ممددة واحدة ومثنية الأخرى أمام الوابور المشتعل يونذ ونينا أليفا مونسنا . بجوارها جلست رقية التى تصغر أمينة بثلاث سنوات لكنها متخنتحة مخشوشنة الملامح تأخذ طابع الولدان الأشقياء البلطجية وربما ظننت أنها تخفى مطواة تحت إبطها أو طفاشة لكسر الأقفال . أما اعتماد فقد جلست على العنقريب مستندة إلى الحائط ممسكة بكراسة الواجب والقلم الرصاص تذاكر بصوت

عال كأنها تثبت لى لباقتها وجدارتها بالمدرسة . على مقربة منها تنام داليا الصغيرة .
أما أنا فقد رفضت الجلوس على العنقريب ، فتكورت بجوار الشيخ زينهم الذى تربع
بجوار الباب من الداخل ، وصار يذكرنى بكرمه فى كل لحظة مردداً بيتاً من الشعر
لا أدرى من أين حفظه : يجود علينا الخيرون بما لهم ونحن بمال الخيرين نجود . ورائحة
أعقاب السجائر التى احترقت للمرة الثانية تزعق فى جو الحجرة ..

أردت القيام لإحساسى بأن الشيخ زينهم على أحر من الجمر كى يبدأ جولته
المسائية التى يمارس فيها ألواناً أخرى من الشحاذاة : يخرج بعد أن يتوضأ ويصلي
الظهر والعصر والمغرب والعشاء معا فى خيط واحد ثم يتلفع ببقايا شال قديم
متهرىء ذى أصل عريق لا بد أنه ذاب فى هوى أكتاف أحد الأثرياء الصالحين قبل
أن يخلعه عليه ، هو من الكشمير الطرى المبرقش بنقط كحبات البازلاء ما تزال
ألوانه محتفظة بأصالتها كأنه حديد ، بل أن رائحة الصوف الحديد باقية فيه رغم أنه
بجرد شرائح مشتبكة بخيط منسول فى ثنيات تطبيقاته التى طبع عليها إلا انه حين
يطويه ويلفه حول رقبته يبدو سليماً فيضى وجه الشيخ زينهم فيبدو كعزيز قوم ذل .
يمضى من فوره فى خط مهيب رافع القامة على عكس مشية النهار المتخاذلة المنحنية
الغلبانة . يمر على الدكاكين : القماشين والبقالين والعطارين والفكهانية والترزية
والمقاهى النظيفة ذات المظهر البكواتى . عجيب هو فى تمييز صاحب المحل من الزبون
من الضيف ، يخترق الطريق إليه مباشرة وهو يتنسم مفرجلاً عينيه الصغيرتين فى
نظرة ودودة سمحة ؛ ولما كانت عينه اليمنى منقوطة فى الحبة السوداء بشئ من
الرشح الرمادى فإنه يبدو مثيراً للشفقة . يسلم على صاحب المحل بحرارة شديدة ،
يبالغ صاحب المحل فى الرد على هذه الحرارة بالترحيب . بعد برهة وجيزة يفاجأ
صاحب المحل انه قد تورط فى حرارة لا لزوم لها ستكلفه مالا يطيب له ؛ إلا أنه
يحدق فى عيني الشيخ زينهم منتظراً أن يفصح عن طلبه عن أمره ، لكن الشيخ
زينهم ينزوى بعد السلام واضعاً يديه أسفل صدره كالواقف فى الصلاة منكساً
رأسه متمماً ببعض عبارات غامضة غير مفهومة . الرجل سرعان ما يستسلم لما قد
فهمه من أول وهلة فيفتح درج الحصالة يقلب بين قروشها الفضية عن قرش تعريفه
أو قرش صاغ يغمزه به . حينئذ يرتفع صوت الشيخ زينهم وتتضح نبراته :

- " اللهم بلغه مناه ! اللهم وسع رزقه ! اللهم أخفض شأن منافسيه ! اللهم
اخذل حساده واخسف الأرض بأعدائه ! أمين ! " ..

يكمل هذه العبارة وهو يدلف من العتبة إلى الشارع ، فإذا هي تضرب صاحب
المحل المجاور في الصميم ، كأنها فأل لصالحه ينطق بما في ضميره فإذا هو يفتح درج
الحصالة بالفعل وينتقى القطعة الفضية حتى لا يكلفه مشقة الدخول والوقوف .
يرجع آخر الليل جيوبه تشخلل بالقطع الفضية الكثيرة ؛ فيحوّذ على محل من محلات
البيض ، لا كشحاذ هذه المرة إنما كزبون كريم يدخل مشدود القامة مرتفع الروح .
ومثل أى زبون محترم يروح يقلب فى البيض بحرفة المعتاد شراء الحوائج . ينتقى
عشر بيضات سمان يطلب من البائع لفها فى قرطاس ؛ ويدب يده فى جيبه بحجة
إخراج القرش الصاغ الذى سيدفعه ثمنا للبيض وهو فى الواقع يتعمد إسماع البائع
شخللة القروش الفضية الكثيرة ليغريه بالفكة حتى يقول له هات هذه الفكة . وفى
العادة لا بد أن يخلصه البائع من هذه الفكة مقابل نقود ورقية مجمدة يسهل وضعها
فوق بعضها فى الحافظة أو فى الصندوق فى الحجر . مع ذلك فزوجة رحاب هى
الأخرى لا تكف عن العمل مصطحبة معها دائما ابنتها رقية ، ولهذا فرقية مدللة
بعض الشئ . لزوجة رحاب زبائن فى أحياء متعددة فى المدينة تذهب إلى بيوتهم
فى أيام معلومة من كل اسبوع ، فتتولى غسل ملابس الأسرة كلها وكنس الشقة
وغسل بلاطها وشبابيكها بالماء والخيشة والخرق المبللة . ثم أسر أخرى تجعلها تطبخ
لها بالمرّة فتنزّل لشراء الخضار واللحم تاركة رقية لإنجاز شئ آخر فى الشقة . أما
أمانة فهى القائمة وحدها بشغل بيتهم ، حجرتهم ، تنظيفها كل يوم وإعداد شئ
للأكل ريثما تعود أمها ورقية قرب العصر من جولتهما اليومية ..

كان الشيخ زينهم قد أنهى صلاته فيما هو جالس بجوارى دون سجود أو
ركوع إلا بإيماءة من رأسه عند كل سجدة أو ركعة . ثم قال مبالغا فى إكرامى :
تشرب شاي تانى يامولانا ؟ فظننت أنه يستحنى للقيام فشرعت أنهض فأمسكنى
قائلا : إعملى شاي يا رحاب ! فقالت : حاضر يا زينهم ؛ وراحت تشعل الوابور .
إندهشت من قولها : يا زينهم ؛ إذ يبدو أنى كنت أتوقع أن تقول له : ياعم أو على
الأقل يا شيخ . ثم بدأت أنتبه من جديد إلى صباها وكهولته ..

ومن المؤكد أن الدهشة ظهرت على وجهي بوضوح شديد ؛ إذ أنه راقبني من تحت لتحت وابتسم قائلاً :

- " إستغربت يامولانا لأنها تقول لي يازينهم ؟! أنا الذي عودتها على ذلك ! أليست امرأتى يا مولانا ؟ لا بد أن تقول لي يا فلان مثلما أقول لها يا فلانة !".

قلت على سبيل إبراء الذمة من ذنب تعطيله :

- " وراءك شغل وأنا عطلتك ؟! ".

- " نشرب الشاي ونمضى ! ".

- " كما تحب ! ".

أخرج من سيالته بريزة فضية ؛ دب ظفر إبهامه فى حافتها فانفلقت فإذا هى بريزتان ملتصقتان ببعضهما . قلب بطن واحدة فإذا هى مغمورة بيطش الأفيون ذى الرائحة النفاذة . يعود من الكبريت سحب نتفة كالحمصبة قدمها نحو فمى قائلاً :
إفتح بقلك ! ففتحته ؛ فدب العود فى فمى فأطبقت عليه بشفتى . أخذ لنفسه قطعة ؛ ثم ألصق البريزتين ببعضهما ودهسهما فى سيالته مستأنفا ما انقطع من الحديث :

- " على فكرة يا مولانا ! رحاب امرأتى هذه أنا الذى ربيتها بنفسى وكانت تقول لي : يا أبى ! ".

- " كيف كان ذلك يا شيخ زينهم ؟! ".

إتسعت عيناه اتساعاً مخيفاً ، صارت النقطة الرمادية فى قلب عينه اليمنى كجزيرة من الرشح فى محيط أسود ؛ فأيقنت أن الإتساع فى عينيه هو الأصل وأن التجاعيد المكشكشة حولهما تشبه تجاعيد باكية السروال يختفى بداخلها أستك خفى يمتط فتتسع العينان وينكمش فتضيقان ؛ وبان لي أن ضيقهما هذا الخادع قد تم بتدريب شاق ؛ إذا أن اتساع هاتين العينين لا بد أن يكشف فيهما عن محيط عريض من الشقاوة والشيطنة وطول العشرة مع ليل شرير وبوس أشدّ وزمن حافل باللوعة والقهر والتحدى . خطر لي أن أسأله عن أصل هذه النقطة فى عينه أهو مولود بها أم أنها نتيجة إصابة أو مرض ؟ ثم ركزت النظر عليها بشكل يلحظه . فإذا هو يشير إليها بأصبعه ؛ وبكلمات كنت أتوقعها :

- " هذه يامولانا من أيام الشقاوة ! كنا طالعين بسريقنا من كامب الإنجليز
ملهوجين ملخومين بكثرة ما معنا من غنائم ! عوجت رأسي تحت السلك الشايك
لأنه زميلي كى يفعل مثلى ! ما كدت أعدل رأسي حتى حطف السلك هذه العين
فصرخت مثل كلب فاجأته ضربة المسوكة على رأسه ! صرت أفر فر فى الأرض
وزملاي يجرروننى بعيدا عن الكامب ! رحت المستشفى فبقيت فيه شهرا بحاله
حتى عاجلواها !".

وأنهى برم اللقافة وقدمها لى ، فهممت بالإعتذار ضيقا برائحة العقاب الزنخة
الخائقة ؛ لكننى كنت خرمانا بشدة بسبب الأفيونة فتقبلت اللقافة . وحين أشعلتها
استشعرت سخونة دخانها ولذعة بلذة غريبة لكننى قرفت من بلغه . أما الشيخ
زينهم فقد تبلغه بلذة فيما يستأنف الكلام بلذة أكبر :

- " أصل الحكاية يا مولانا أننى من بلدة السويس ! فتحت عينى على الدنيا
فجأة فإذا بى فى دار كبيرة فيها مئات الأطفال من كل سن ! وفيها عشرات
الأفندية الذين لا عمل لهم سوى ضربنا بالشلايت والبصق فى وجوهنا ليلا ونهارا
فى طوابير وفصول وأشغال يدوية ! لم أكن أعرف أن الطفل منا يمكن أن يكون له
أب وأم ! فأنا منذ وعيت لم أر لهما أثرا وكذلك من كانوا معى ! عرفت أن الدار
التي نحن فيها اسمها ملجأ الأيتام بالزقازيق ! وأنا جميعا أبناء زنا قد عثروا علينا عند
أبواب المساجد وفى صفائح الزبالة ! ومنا من جاء أهله فسلموه بأنفسهم ونسوه !
كنت ولدا أعجبك ! من يومى أعرف أن الدنيا تؤخذ بالذراع والباط ! دنيا
كالعاهرة لا تعشق سوى القوى الغليظ القلب المتعافى ! وهكذا صرت بين الولاد يا
مولانا ! أخذ حقى وغير حقى بالذراع ضرب أضرب خربشة أخربش نطح أنطح
سرقة أسرق كذب أكذب كله ماشى عندى ! والعجيب يا مولانا أن الجميع أحبني
مع ذلك فصار لا يوخر لى طلبا من غير حاجة للأذية ! حتى كاتب الملجأ صار
يخاف منى ! سألته عن أصلى وفصلى فنظر فى دفاتره الكبيرة وقال ، إننى منذ إننى
عشر عاما وجدنى عسكري إنجليزى قطعة لحم فى طول القدم ملفوفة فى ورقة توت
ومرمية فى صفيحة زبالة الكامب فسلمها إلى بوليس السويس وبوليس السويس
بعثها بسرعة إلى ملجأ الزقازيق ! صرت كل يوم أحايل الكاتب حتى حبكى لى

أشياء جديدة محفوظة عنده في الأوراق التي تثبت نسبي ! قال إنه أثناء العثور على لحمي ترددت إشاعة بأن واحداً من عسكر الإنجليز اغتصب فتاة مسكينة من بنات السويس فحملت منه فلما وضعت أخذت المولود وذهبت به إليه فطردها فرمته عند قدميه فالقى به في صفيحة الزبالة !! وأشعلت النار في نفسها فجاء البوليس وحقق وكتب المحاضر !! تكدرت نفسي من هذه الحكاية يا مولانا لأن لون عيني أيامها كان فيه بعض الزرقة ! الكاتب ابن الكلب نشر هذه الحكاية بين الغلمان والولدان فصاروا يعيرونى بها ! كان ينتقم منى لأننى لم أطاوعه فى الفسق ! أصله كان يؤجر الولاد للعساكر الإنجليز ولبعض الناس المنحرفين المصابين بداء مجامعة الولدان فينتقى الولد الذى يعجبه فيعطيه إجازة ليلة واحدة !! المقصود يا مولانا ! كل عيال الملجأ أولاد زواني لكن العار أن يكون الزانى بالأم إنجليزية أزرق العينين !! ضقت بالحياة فى الملجأ من كل ناحية ! هربت ! اشتغلت شيئاً على المخططات وماسح أحذية تبع واحد يعطينى الصندوق والمونة وأعطيه الإيراد كله ليلة لينفحنى بما يشاء ! إنما الغيظ كان يأكلنى من ذلك الإنجليزى النذل الذى زنى بأمى ورمى بى فى صفيحة الزبالة ! قلت لنفسى : مصير الواحد لوطنه فارجع يا ولد إلى السويس شف حالك بها ربما قدرت على الانتقام من أبك النذل المجهول !! لقينى أولاد الحرام من أبناء السويس المتعطلين بغير مهن ! قل إننى وقعت فى أيديهم ! فرحت كل الفرحة لما علمت أنهم يعيشون على سرقة كامب الإنجليز ! يدى فى يدكم يا جدعان ! أصبحوا يصدرونى فى كل الأعمال الصعبة ! نفعت فيها كلها ! ولما انشروحت حبة عيني الزرقاء بشوكة السلك الشائك طار من عقلى أكبر برج فيه ! صممت على أن يكون الانتقام انتقامين ! صرت كالجنون ! أرجع بالسريفة فأعود مرة ثانية للحرق أو للقتل ! طبعاً يا مولانا ! جئت مرة عند مخازن السلاح ومخازن الأكل والعنبر الذى يرقد فيه العسكر فى الليل ومعى ثلاث قطط صغيرة شكلها جميل لكنها زرقاء العيون مثلهم ! دخلت مع العمال فى الزحمة واختبأت ساعة عودتهم حتى جاء الليل ! كانت القطط مخبأة فى عبي ! فى عز الليل تسللت إلى برميل الجاز ففتحت صنبوره فأغرقت القطط ثم تركته يسيل على الأرض ! عند كل باب أشعلت النار فى قطة وتركتها تجرى بأقصى سرعتها كالجنونة !! وحينما صرت أنا خارج

الكامب من بعيد استدرت فرأيت النار توجوج وتططق فى خشب وخيام وذخيرة
وزيوت وحبوب !! منظر الكامب فى الصباح لم يشف غليلي يا مولانا رغم
الخراب الذى شمله والموت فيه بالجملة !! صرت ورفاقي أولاد الحرام ندبر أكمة
للمضباط السكرانين وندس عليهم الفتيات والنسوان المومسات لدحرجتهم إلى مكان
مقطوع لفعل الزنا ثم نفاجئ الضابط من الخلف وهو خالع السرورال منهمك فى
ملذاته فنغرز السكين فى جنبه فى قلبه فى رقبتة نأخذ ما معه من نقود وسلاح
وأشياء تصلح للبيع أو للبس ونتركه ونمضى ولا من شاف ولا من درى !! هُبُّ
للبنى قامت ثورة ١٩ وأنا شاب حلو ! إنقلبت الدنيا يا مولانا من فوق لتحت
فعملناها حلوانة فى سلوانة وهات يا قتل يا ضرب يا حرق يا نهب ! وعسكر
الإنجليز يسرحون فى شوارع البلد بالمدافع والعربات يفرمون الناس والبيوت
والأطفال يسوونها بالأرض !! أيامها قابلت المرحوم عريبي وزوجته المرحومة جل
الخالق ! نعم اسمها جل الخالق ! ويقولونها : جخالق ! هما فى الأصل من عرب
سينا وعريبي كان يعمل فى الكامب مع الأورنس ! تعرفنا على بعضنا فى
المظاهرات فأصبح يزورنى فى عشة عَرَّشْتها بنفسى لنفسى بين عشش الصيادين !
فإذ به رجل طيب ودرويش من دراويش سيدى العتريس ! لخبط غزلى من حلاوة
كلامه عن العتريس وكراماته وعهده ومنزلته عند الله ! أحببت سيدى العتريس !
صرت أذهب إلى حضرته مع عريبي فأذكر الله واستمع للعهد والوعظ والكلام
والذى يهز القلب با مولانا ويملاه خشوعا ! قل إننى أصبحت من دراويش سيدى
العتريس لا أترك الفرض يجي على أخيه ! شيخ العتارسة يرحمه الله كان كالأولياء
الصالحين ! سافر بنا إلى السودان والحجاز لنقابل إخواننا العتارسة هنا وهناك ! الله
يرحمه أحببني فجعلت نفسى خادمه الأمين أذهب وراءه فى كل مكان فلا أفارقه ولا
يقبل خدمة من أحد غيرى ولا يأكل لقمة بدونى !! لم أتشرد إلا بعد موته يا
مولانا !! كان أهل الله يعطفون على لفترة ثم انقطعوا !! عريبي سعى وشغلنى فى
الكامب شغلة ثقيلة لكننى احتملتها ! والدنيا التى لا تدوم على حال صدمتنى مرة
ثانية فى موت صاحبي عريبي تاركاً زوجته جل الخالق وبتاً عمرها سبع سنوات !!
صعبت الولية وابنتها على ! أخذتهما فى حضنى ! حميتهما من الذئاب ! قل إننى

تزوجت جل الخالق لكى أربى لها ابنتها ! تركت الحجرة المستأجرة لصاحبها وانتقلت إلى عشى فجعلتها كالجنة ! سارت الحياة سمنًا على عسل ! أنا فى شغلى من ناحية وجلخالق فى شغلها من ناحية ثانية : تلتقط رزقها من هدمه تغسلها أو دار تكنسها أو شروة خضار تشتريها لتبيعها بمكسب يوافقها !! ورحاب تكبر وخراط البنات يخرطها وكلمة يا آبا تخرج من فيها كالعسل !! الواحد منا مفترى بطبعه صدقنى يا مولانا ! ما كان أغنانى عن الأبوة وعندى رحاب تقولها فى كل لحظة وأشتري لها كل شئ حلوا كلما فاض القرش بيدي ! لكنه الطمع يا مولانا ! منى ومن خلجالت أيضا عليها رحمة الله ! أردنا أنا تنجب ولدا أو حتى بنتا ثانية توثق العهد بيننا ! وقد كان يا مولانا والواحد منا يسعى الى قدره بنفسه وإن ظن أنه يسعى لتحقيق أغراضه السعيدة ! حملت جخالق وجاءت الولادة مستعجلة كالكارثة ! قبل موعدها بشهرين ! وقعت الولية لتلد فلم تقم بعدها ! أصابتها تلك الملعونة التى يسمونها حمى النفاس ! ماتت الوالدة والمولود معاً فانشق قلبى بالطول يامولانا !! الله لا يريك ما رأيتة !! صفصف الزمن علينا رحاب وأنا والأيام !! وكيف أتركها وحدها طول النهار لأخدم فى أولاد الجزم ذوى العيون الزرقاء ؟! الشيطان شاطر وهذه عروس بالغة ! هل أخذها معى إلى الشغل ؟! سيأكلها الوحوش ذو العيون الزرق !! حاصرتنى المشكلة يا مولانا !! إنها مأكولة مأكولة سواء من العيون الزرق أو من العيون السود !! صرت أطلع من الشغل كالسعران ! وفى الشغل ربع عقلى !! أصلى الفجر أهتله إلى الله أن يرزق البنية بعريس ابن حلال يسترها : أكاد أكلم الناس أعرضها عليهم فلا يوقفنى إلا عزة النفس وخوفى من ترخيص البنية !! خمس سنوات على هذا الوضع يا مولانا حتى بلغت البنية عتبة الثلاثين فضاقت صبرى على الخوف من همها وهم مسئوليتها !! إنما هو النصيب يا مولانا !! فى ليلة مباركة طاهرة عرضت عليها الفكرة بكل خوف وارتعاشة قلب !! رحبت رحاب وصدق من أسماها رحاب !! أخذتها إلى المأذون وعرضت عليه الحكاية من طقطع لسلامو عليكم فعقدلى عليها بشرع الله وتوته توته فرغت الحدوتة ! حلوة ولا ملتوتة ؟! ..

أبدا لم تكن ملتوتة ، لم أر فيها أى لتّ أو عجن . قلت :

- "حلوة والله يا عم الشيخ عتريس!"

قال باسمها :

- "لو قلت إنها ملتوتة كنت أقول لك : عليك بَلِّ القراقيش : قلت على سبيل

المزاح :

- "أنا مستعد لبلها!"

قال فاشخا حنكه :

- "في فرصة ثانية!"

ثم نهض واقفا فنهضت ؛ ومضينا معا ؛ هو إلى حال سبيله ؛ وأنا إلى حجرتي .

ساعات

مثلا حدث ويحدث دائما فى مثل هذه اللحظة التى يزدحم فيها فناء الوكالة بشكل غير معقول ، أسبوعا بعد أسبوع ، رأيت الشيخ زينهم العتريس مقبلا نحو البوابة فيما وقفت بباب حجرتى أرقب الزحام الحميم . تكلم مع شوادفى كلاما كثيرا . كان يحمل شكاره صغيرة من قماش الدمور من الواضح أنها ملانة حتى المنتصف بأعقاب السجائر التى اشتراها من العيال المتشردين . نفعه العكاز ، إذ راح يمدده فيتكفل بزغد الناس عَرَضاً فينتبهون فيوسعون له برزخا ضيقا يعبره إلى حجرته . تابعته ؛ كانت حجرته مواربة ، وضوء شاحب يطل من جوفها . وفيم أنا منهمك فى متابعتة شعرت بأنفاس مع ظلال تقترب منى ، وبيد خشنة تلكزنى فى عشم ، فانتفضت مذعورا ، فإذا بى أمام محروس بائع الفجل ..

- " أهلا.. ا.. ن محروس ! "

- " من أكثر ساعة وأنا أمسى عليك بيدي وانت لست هنا! "

- " ما رايتك والله ! "

أشار نحو حوض الطلمبة :

- " رايتك من هناك ! لما تأكدت أنك لن ترانى تركت بضاعتى فى حراسة واحد وجئت أسلم عليك ! معى عربة يد أستأجرتها يوما بليلة من العريجي لأطلع بها السوق إذا !! أهذه حجرتك ؟ وأنت إذن تسكن هنا ؟! عال عال ! خبر مفرح! عندك عدة شاي ! "

- " وعندى ! "

وسحبته ودخلت . كان الخانوتى قد ترك عندى هذه العدة البسيطة على أمل أن يجعل قعدته عندى باستمرار حتى لا يضع بوزه فى بوز المرأة كما يقول . حين جلس محروس بجوارى على المصطبة قلت له إن العدة موجودة ولكن الشاي بكل أسف غير موجود . فأخرج من جيبه لفة من ورق الجرائد تحوى قدرا من السكر والشاي ، ثم هبط جالسا وجعل يمصص الكوز والكوبتين بالماء :

- " أنا لم اعد أبيت هنا إلا ليلة السوق من كل جمعة ! "

- " فكيف لم أرك ولم ترني ؟! "

- " سألت عليك مليون مرة ! على فكرة ! شوادفي سرح بهي ولف لي سيحارتين على المصطبة وسألني عنك أسئلة كثيرة حتى استغربت وقلت له إياك تظنني شيخ الحارة ؟! وفهمت منه أنه حائف منك يظنك مخبراً غشيماً في المباحث ! أكدت له أنك جدع غلبان على باب الله ! قلت إنني شفتك نائماً ذات يوم على الرصيف ! فزام وهز دماغه ! وحمد الله أنك طلعت ابن حلال كما تصور من رؤياك أول مرة ! لكن عقلي يحدثني أنه لم يصدقني ! لأنه نسي ما قلته له عنك وعاد فسألني مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى لخبط عقلي فأصبحت أنا الآخر أتخيل أنك في المباحث !! أنت رجل عدم المواخذه تفهم في أشياء كثيرة ومنظرك ليس يدل على أنك من المشردين ! وهل المتشرد يقرأ هذه الكتب ويتكلم في السياسة والفن ؟! أنا بصراحة لعب الفار في عبي يا صاحبي فإن كنت في المباحث فاعخدمنا وشف لنا شغلة معك ! أنا أتفع مخبراً يعجبك ! أجيء لك بالتائهة من قرارها !! "

ضحكت :

- " شف لي أنت عشرة قروش معك على سبيل السلف " .
بخلق في عيني بامعان وهو يصب الشاي الأسود الثقيل :
- " جد ؟! "

- " أنا واقع من الفلس ! لا شغلة لي ولا مشغلة ! شوادفي كبرت ديونه عندي وسوف يطردني في أى لحظة !! " .
بسط ذراعه في وجهي هاتفا :

- " إطمئن من هذه الناحية ! هو لن يطردك أبدا ! هو أساساً لا يتنازل عن حقه ! ما عنده مانع يسجنك في هذه الحجرة حتى يبين لك أصحاب يدفعون الدين عنك ليطلق سراحك ! إنما هو لن يفعل هذا الآن إلا بعد أن يتأكد أنك فعلاً لست في المباحث ! هو متصور أنك تبالغ في رسم الفقر حتى يقتنع أنك على باب الله ! ولك على أن أعطيه حقنة تجعله يثبت على اعتقاده !! " .
- " المهم الآن هل ستعطيني عشرة قروش أم ل ؟! "

- " سأعطيك خمسة قروش هي كل ما أقدر عليه ! شرط أن تأخذها بعد انتهاء سوق الغد ! من الغلة التي يكرمني الله بها ! قبل أن أمشي سأمر عليك وأتركها لك ! يظهر أنني خلفتك ونسيتك !! لم يكن ينقصني في الحياة إلا أنت !!".
وضحك بعمق فاهتز كوب الشاي في يده . وبصوت دافئ فيه كل النبرات الفلاحية الحارة :

- " إنما وحق ذى الليلة ومساها أنني مسرور بمعرفتك ! أنا لم يكون لي أخ ولا أخت ولا صاحب ! وكل من أردت أن يكونوا أصحابي طلعوا لا يحبون المواريل ! أمخاخهم منحسة ! فلتكن أنت صاحبي ورقبتي فداءك طول ما أنت ماشي معي بصداقة ونية صافية !! خذ ! هذا نصف فرنك تفطر منه وتشرب الشاي وسيجارتين فأنا جربت الحاجة وأعرف ظمأ ! ربنا لا يرينا الذل أبدا !!".
ثم وضع الكوب ونهض واقفا :

- " سأعود إلى بضاعتي لأنام بجوارها وأرشفها بالماء ! أشوفك بكرة !".
ومضى قبل أن أرد عليه . وكان نصف الفرنك قد استقر في يدي كالغنيمة الكبرى ، وتفتحت له في الحال عشرات الأمانى ، ثم دهمني في الحال شعور مضاد تماما لصرفه في أى غرض عاجل ، شعور يبت في أعماقي نية أكيدة في الإحتفاظ به طويلا ، فلربما قدرت على الإحتفاظ بأى قرش يضل طريقه إلى يدي ، هدفى الأول والأخير أن يجتمع في جيبي حفنة قروش ويأخذها لو كانت شلنات ويا وعدى لو كانت برايز لكى أضعها لشوادفى يخصمها من حقوقه عندي تلك التي أصبحت أهرب من محاولة حسابها أو تذكر عدد شهورها خوف الذعر والروع . إننى لا يمكن أن أطمئن لتسامح شوادفى ، لعلمى بحقيقة شخصيته ، لا يمكن أن يعفني من مليم واحد ؛ أشعر أن سكوته وعدم مطالبتي بالمرّة ليس إلا نوعا من تسمين العجل قبل ذبحه ؛ يضعنى في موقف الإضطراب إلى قبول أى عمل يكلفنى به تخلصا لحقه وسداً لرمقى ، إن احتملت الجوع فهيهات أن أحتمل غضبته الأخيرة التي لا يعلم سوى الله مداها وما يمكن أن تسفر عنه من شر ؛ ثم إننى - أساسا - لم أعد قادرا على احتمال النوم ماشيا على قدمي في شوارع المدينة التي بت أملها بل أوشك أن أكرها لولا تذكري بأنها كثيرا ما احتملتنى صبح مساء دون أن يعترضنى عسس

أو شرط ودون أن يضاً يقنى متطفل سمج ؛ لكن من لى بجلد سميك يحجب عن ضلوعى قرص ولسع الهبوب الليلى فى طوبة المقبل على الأبواب ! بدنى يقشعر الآن وجسمى ينتفض لجرد التذكار فما بالك لو حدث !؟ أدفع عمرى آآن فى سبيل أن أعرف ما الذى يدبره لى شوادفى ! ما هى اللحظة السرية التى يضعها أو لعله قد وضعها لى بالفعل وأصبح قاب قوسين أو أدنى من اقتناص فرصة للتنفيذ . ولكن ، ماذا لو تركت هذه المدينة منكلاً بشوادفى كما فعل سلفى ساكن هذه الحجرة سابقاً ؟ فى بلدتنا يقول المثل ، حين تتحزب الأحوال بالإنسان ويشتد به العوز : " غير العتبة ! " ، أى اجث عن عتبة بيت جديد تسكنه أو بلدة جديدة تبث فيها عن متاع . وهاهى ذى مدينة دمنهور الحبيبة قلبت لى ظهر الجن ، لعلها أشأمتنى ؛ جثتها مزهوا مؤملا فاذا هى لا تتسع لى الإ شريدا بائسا ضالا ؛ لك الشكر يا مدينتى على كال حال ، فالحق أنك لم تقسين على قسوتى على نفسى فعلى الأقل وجدت فىك من احتوى بعض محتى وحمل عنى جل همومى ، ووجدت فىك جمعية للأدباء ومقهى حميما يلهمم فكأنهم عائلتى التى لا يفهمنى أحد سواها ؛ هى الوحيدة التى لن تشمئز من رثاة توبى أو تشمئظ من خشونتى أو تزنى بمقدار ما أملك ما أصرف ما ألبس ما أشغل من مركز ؛ ولا بد أننى واجد بين أعطافها دربا أسلكه إلى أن أصير كاتباً ذات يوم .. ها أنت ذايا دمنهور ترين أننى غير مستطيع هجرانك مهما تأزمت بى الأحوال ، ثم ، ثم ، ثم كيف أهجرك وفىك قلب بدرية ؟ كيف نسيت أنا هذا !؟ كيف فاتنى اكتشاف أننى كنت فى الواقع قد أحببت بدرية !؟ ما أنا متأكد منه الآن تأكدى من سريان هذا النفس فى صدرى أننى أحبك بالفعل يا بدرية ؛ لا ، لست أحبك لأنك عطفت على دون أهلك برغم يقينك من موقفهم منى ؛ لأنك زودتنى من ورائهم بوسادة ولحاف وبطانية وملاءة ونفحتنى مبلغاً كبيراً جداً بالنسبة لى ولمصروف يدك ؛ كل هذا وإن كفى ليس وحده دليلاً على نبل قلبك ودفء مشاعرك ؛ إنما الدليل القوى هو ملمسته حال اختفائى كلى بداخلك ؛ الآن فحسب أستحلب مشاعر تلك اللحظة السحرية الخيالية المنهلة التى إن رويت لى ما صدفتها مع أنى عشتها ؛ الحق أنى غير مستطيع وصفها ؛ وكيف للجنين أن يتأتى له وصف الرحم من أمه وهو بضعة منه ؛ اللعنة ؛

اللعنة ؛ اللعنة على ذلك الذى اختطفها منى أياً كانت شخصيته ؛ نعم أنا فى منتهى
الإنانية ولست أملك إلا أن أكون ؛ اللعنة عليه يا بدرية لو أشعرك ولو بالمضمر فى
أعماقه أنه يتنازل لكى يقبل شفتيك الغليظتين هاتين الحبيبتين ؛ شفتك إذن لأرق
من غلظة مشاعره وتخن قفاه ؛ ولو قد كان مستنير المشاعر لانحنى راعها على
شفتيك بدفق الحنان والمشاعر السخنة الفياضة السائلة من قمم جبال عينيك الشائخة
الدانية فى آن . آه .. بدرية .. بدرية .. بدرية ..

وهكذا اطلع النهار . تنبعت فجأة إلى اللون الإردوازى الذى صبغ جدران
الحجرة عبر زجاج الشباك . وكان اللغظ المتكاثر منذ قليل وكأنه فى قاع بعيد من
ضمير الكون قد ارتفع واتضحت أصواته ونداءاته وأهازيجه ورنين صنجيه وحوار
مواشيه وفحيح بوابيره وشخاليل خيوله وقرقعة عرباته . تمطعت فاستويت جالسا
فهابطا عن المصطبة . فتحت الباب فإذا الفناء قد فرغ تماما أو كاد من زحمته . جو
الفناء يعبق أنفاس الصبح الرطيب وبروائح طازجة فيها سمن مقدوح وبيض مقلى
وقول مدمس فواح وطعمية وبقدونس وجرجير وليمون بنزهير ولبن صابح . جميع
الحجرات مواربة . أما حجرة الحانوتى والداية فمفتوحة على مصراعها ، يوش فيها
صوت وابور مشتعل وصوت كركبة ، حجرة الشيخ زينهم هى الأخرى نصف
مفتوحة وفيها هى الأخرى حركة ..

إن هى إلا برهة حتى فوجئت بالخانوتى يخرج مرتديا ثوبا نظيفا أبيض اللون
شفافا هفهافا ؛ وقد حلق ذقنه ومن الواضح أنه استحم منذ قليل ؛ يحمل على كف
يسراه صينية دائرية من النحاس الأصفر اللامع ارتصت عليها مجموعة من الأكواب
الزجاجية ؛ وأمسك بقبضة يمينه برادا كبيرا جدا من الزنك أزرق اللون يتدافع
البخار من بزوره . جعل يمشى نحو البوابة فى خطو وثيد معلقا السيجارة المشتعلة
بين شفتيه محركا شفتيه مع ذلك بتمتمة لعلها ختام صلاة أودعوات . عرفت أنه
سيسرح بالصينية والبراد فى السوق ، حتى إذا ما فرغ البراد الكبير قفل عائدا إلى
الحجرة ليجد أن صبيحة الداية قد جهزت له برادا آخر وكوبات أخرى نظيفة ، ما
عليه إلا أن يحمل هذه تاركا تلك عائدا إلى السوق . خرجت إلى إفريز البواكى ؛
وقفت فاتحا صدرى للهواء العليل ؛ شعرت بجفونى تتباعد عن بعضها وتتخلص من

· عماص لزج خفيف . رميت بصرى إلى بعيد ؛ إرتفع متخطيا الجدار البعيد للفناء
مستقراً كعصفور قلق على حافة شرفة المنزل المواجه خلف جدار الفناء يفصلهما
شارع عمومي . كانت المرأة الحلبية البيضاء الموردة الخدين قد ارتفعت حافة الشرفة
يلمع وجهها كالجنه وسط غابة من الشعر الكثيف الضارب إلى الشقرة . رفعت
يدها بساعد بض انحسر عنه كم العباءة المنزلية الواسعة ، فحيتنى بحركة سريعة
عابرة، تلقيت تحيتها بحركة مثلها وقد خيل لى من فرط السعادة أن الدنيا كلها قد
رضيت عنى .

متاع الغنم

لمحت قطيعا من الأغنام يعبر الشارع أمام بوابة الوكالة إستمر متصلا غير منقطع لدقائق طويلة جدا حتى بدت بلا نهاية . فى أعقابها ظهر راعيان وبضعة أطفال فى يد كل منهم خيزرانة طويلة سرحة . إنسلخ عن القطيع رجل هضيم الوجه مكليظ الملامح أسوانى البشرة يتدلى على شفثيه شارب كثيف مدبب الطرفين بعوجة كمنحراز العتقى ، وفوق رأسه لبدة كالبرام مقلوطة ، جبهته ضيقة ، وعيناه كذلك. بریش الراعى فى مدخل البوابة نحبط بطرف العصا على الباب هاتفا :

- " يا عم الشيخ زينهم ! "

فكأنما كان الشيخ زينهم فى انتظاره ، إذ خرج فى الحال :

- " إتفضل يا أبو هوانه ! "

دلف الراعى داخلا :

- " إتصبح بالخير يا معلم شوادفى ! "

ثم جلس أمامه . كان شوادفى يمرح على نار القوايح تحت كوز الشاى بطرف سرواله وفى نفس الوقت يطرح فى فمه لقيمات مجهولة الهوية يسحبها من جواره فى دروة الحائط . قال من نحلال حنكه المشغول المضموم :

- " نهارك سعيد يا أبو هوانة ! حماتك تحبك ! "

فرفع الراعى لبدته وأخذ من تحتها علبة دخانه الصفيح ففتحها فأخرج منها ورقة سوليفان صغيرة مطوية على قطعة أفيون كحبة الفول ؛ نزع بظفره حرفا قدمه نحو فم شوادفى . قنطف هذا أصبعيه وأخذ القطعة فألصقتها بظفر إبهامه حتى ينتهى من الأكل ، وكان الشيخ زينهم قد وصل إليهما باسم الوجه مركزا بصره على ظفر الراعى والورقة السوليفان مرددا فى عشم كبير :

- " صباحنا نادى بإذن الله ! "

فلحق به ظفر الراعى وقد ظلله حرف الأفيون . فمد الشيخ زينهم بوزه وأطبق بشفثيه على الظفر ومصه ثم تركه وصار يتلمظ هاتفا فيما يجلس على طرف المصطبة :

- " وفرّ شايك يا شوادفى ! أن الشاى قادم من عندى حالا ! بسرعة يا أولادا! "

هكذا صاح موليا وجهه نحو الفناء . فشخط فيه شوادفى :
- " لمّ نفسك يا زينهم ! "

صاح الشيخ زينهم فى اتجاه حجرته :
- " خلاص يا أولاد بلاش ! "

ومد يده ليأخذ الكوبية من شوادفى . قال الراعى وهو يواصل الرشف بلذّة عتيقة
أريية :

- " كيف الحال هذه الجمعة يا عم الشيخ زينهم !؟ "

- " بركة ربنا كثيرة ! "

- " أطلّ طلّة !؟ "

- " وجب ! "

تقدم نحو حجرته وهو يتنحج بشكل مبالغ فيه . دلف:

- " صباح الخير يا أم أحمد ! "

- " يسعد صباحك ربنا ! "

هكذا ردت رحاب من وقفقتها المنزوية فى ركن قصى . أرسل الراعى نظراته إلى الركن الذى يقوم فيه جبل الخبر الناشف ، صار يمسحه بنظرات فاحصة مدققة ، من أسفل إلى أعلى ومن يمين إلى شمال ، ويعوج رأسه ليختبر الأركان وعمق بنيانها ، يكاد يحسب عدد الرصات المتداخلة المشابكة رغيفا رغيفا ؛ ثم استدار نحو الشيخ زينهم ما سحا براحة يده :

- " صل على النبى ياعم الشيخ زينهم ! "

- " عليه الصلاة والسلام ! "

- " زده صلاة! "

- " اللهم صل وسلم وبارك عليه ! "

- " دفعت لك عشر برايز ! "

- " قلب نظرك جيدا قبل أن تتكلم ! "

- " قلبت بما فيه الكفاية !".

- "تبقى ظلمتني وظلمت هؤلاء الغلابة الشقياني ن! هذا عرق أيام طويلة أنا وأولادى فى عز الحر من كفر إلى كفر ومن دار أبيعه بعشر برايز !؟ لو كنت سارقة ما رضيت بهذا السعر ! خذه وقد وصل ثمنه أما أن تتمطع وتقول عشر برايز فهذا حرام عليك والله ! حرام عليك يا رجل !".

طوح الراعى ذراعيه فى الهواء بحركة فنجرة :

- " أخذت العشرة واثنين !؟".

- " أركب القطار السريع حتى تحصلنى !".

- " العشرة وخمسة ولا مليم بعلمها !".

وشفع قوله بالتحرك نحو الباب فى تباطؤ واضح . فشجعه الشيخ زينهم على الإسراع فى الإنصراف ليوحى إليه إن الموافقة على هذا السعر مستحيلة ؛ بقوله :

- " أقعد أشرب الشاي !".

- " تشكر تشكر !".

ومضى يجر نفسه ببطء ولا مبالاه ، والشيخ زينهم فى أعقابيه يردد فى ثقة مطمئنة

البال :

- " مع السلامة ! شرفت يا أبو هوانة !".

وإذ أوشك الراعى على الخروج من البوابة تلقفه شوادفى :

- " تعالى يا أبو هوانة !".

فارتد الراعى على الفور ؛ ثم جلس :

- " نعم !".

- " أنسيت أن الشاي ثلاثة أدوار يا عرباوى يا أهبل ؟ شربت منها دورا

واحدا! تظنها وكالة من غير بواب تدخلها وتخرج منها على هواك !؟ خذ !".

تناول الراعى كوبة الشاي ضاحكا :

- " كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته !".

- " ولكن كيف تخرج وأنت غير مرضى ؟ أنت قلت له كم ؟".

- " مائة وخمسين قرشا ! ماهية رجل متعلم فى الشهر !".

- " وكم تريد أنت يا زينهم؟! "

- " ستين بريزة!! "

وحدد ذلك الرقم بأصبعه المشرعة في الهواء . هتف الراعى فى استهوال :

- " أشتري بها أردبا من الشعير والبقول! "

- " عدم المؤاخذة هذا أحسن من أردبين من الشعير والبقول ! غنمك تأكل

طول أكثر من شهر ! هذا علف أصلى ! قمح مخلوط بعضه باللبن وبعضه بالردة !

أنت تعرف ما أقول! "

وختم الشيخ زينهم قولته بنظرة حاسمة واثقة . فتدخل شوادفى لينهى المسألة :

- " صلى على من لن تراه فى حياتك أنت وهو!! "

- " اللهم صل عليك يا نبى! "

هكذا نطق الإثنان . قال شوادفى للراعى :

- " تقسم البلد بلدين! إدفع له ثلاثين بريزة! "

- " كثير والله ياعم شوادفى! "

- " صدقنى أنت الكسبان ! لاتضيع البيعة ! إن العيش الذى ستأخذه يزن أكثر

من أردبين من الدقيق العلامة ! أنا أبل الرغيف منه وأكله كأنه القشدة ! سوف

تبيض فروة خرفانك تصبح كالحرير! "

- " أخذت العشرين بريزة يا عم الشيخ زينهم وأمرى لله! "

- " يفتح الل ه! "

- " خلها خمساً وعشرين يا أبا هوانة ! إياك أن تفتح فمك! "

- " أمرك يا عم شوادفى ! هاك المبلغ! "

وسحب من سيالته منديلاً محلاويا ، فك عقدة فى طرفه فانفرطت لفة من النقود

متكورة فى بعضها . سحب منها جنيهين ونصف ، رمى بهما فى حجر الشيخ

زينهم ؛ الذى تردد قليلاً ، فأسكته نظرة حازمة من شوادفى ؛ فقبض على النقود

فدسها فى جيبه :

- " تعالى شيل يا عم! "

نهض الراعى فسلم على شوادفى بيد مضمومة على بريزة فضية ، ثم مضى .
وفتش الشيخ زينهم فى سيالته عن بريزة فضية فوجد شلنين قدمهما لشوادفى ؛
وفتح علبة دخانة وراح يلف سبجارة ؛ ما كاد يتمها حتى دخل الراعى معه صبيين
شديدين يحملان جوالين كبيرين مطوين على جوالين أصغرين . دخلت الأجولة
فارغة وخرجت ملآنة لأكثر من ستة أدوار على امتداد أكثر من ساعة . وكان
الشيخ زينهم يراقبهم فى شئ قليل من الخلق لشعوره بأنه قد غُبن لأنه لم يقدر حجم
الثروة عنده جيدا ، لكنه كان يشيع الأجولة الخارجة بابتسامة لزجة مرددا بلهجة
ذات معنى :

- " خير وبركة ! خير وبركة ! كل شئ نصيب ! هنيئا وشفاء للغنم ! مطرح
ما يسرى يمرى ! " .

بعد قليل خرجت دميانة مرتدية ثوبا أسود شفافا يكشف عن ثوب تحته فاتح
اللون ؛ ووجهها يلمع تحت المنديل أبو أوية وترتر ، والطرحة مزاحة إلى مؤخرة
رأسها منطرحة على كتفها ؛ فيما تمسك بمقود القرد الصغير الذى راح يتسحب
حواليها ويتنطط ظلنا منه أنه امتلك الحرية فيجذبه الجنزير بقسوة فيردعه منزويا فى
ظل ثوبها . رمت صباح الخير ثم انزلت من البوابة ؛ فغمغم شوادفى :

- " تعب القرد يا ولداه ! " .

علق زينهم :

- " جبال الكحل تفنيها المراد ! " .

تبعته قطيطة حاملة على رأسها قفصا ملآنا بالدجاج . ثم ظهر فى الفناء قادما
من جهة الظلمة شاب طويل القامة نحيف يرتدى سروالا ملطخا بالبوية وفانلة بغير
أكمام ؛ وعضلات زنديه تلمع تحت نقط من العرق . كان متجها إلى البواكى ،
حيث انعطف على حجرة الشيخ زينهم فصعد السلم القائم بجوارها إلى الحجرة التى
فوقها ، فعالج قفل بابها ففتحه ودخل . غمغم الشيخ زينهم :

- " أبو فرشه لم يخلص بعد !؟ " .

- " خلصت روحه ! طول الليل يشتغل فى غنيمة السوق الفاتت ! هو الوحيد الذى أصبحت أتهدد من وجوده فى الوكالة ! يعرضنى للخطر بالأونطة ! أن لم يعتدل معى اليوم فسأسلمه بيدي للبوليس ولكن بعيداً عن الوكالة! ".
خرج الشاب من حجرته حاملاً علبة البوية الجديدة من سلكها المقوس ؛ هبط السلم فى قفزين ، إتجه نحو الطلمبة ، إنعطف يساراً فى كوعه حادة ، إختفى . ذهب عقلى وراءه ، صممت ان أتبعه ولكن بطريقة خفية . سحبت القوطة بسرعة واندفعت خارجاً نحو الطلمبة . همست بصباح الخير رافعا يدي غير عابئ بالرد . إنعطفت بسرعة مثلما انعطف الشاب . قادتني العطفة إلى عطفة أخرى عكسية ، ووجدت فى مواجهتى بوابة صغيرة لمبنى شبه مستقل عن الوكالة مع أنه من ضمنها؛ مكون من طابقين بعدة شبابيك ومشربيات . كانت البوابة مواربة . ملت برأسى ونظرت فى الداخل ، فإذا بى أمام يشبه الإسطل أو الحظيرة الواسعة له باب مطل على شارع خلفى نافذ فى قلب السوق مباشرة ، وباب آخر فى جدار جانبى يفتح على المزارع البعيدة . رأيت مجموعة أبقار وجواميس وحمير مربوطة فى أوتاد أمام مزاد مليئة ببقايا الخبز الناشف لا شك أنه من خبز الشيخ زينهم . كان الشاب أبو فرشه منهمكا فى تقليب البوية ، على وجهه نظرة اشمزاز من رائحتها النفاذة ، وقد راح يضيف إليها بعض سوائل يقلبها فيها ثم يعود فيشمها ، أخيراً وقف ، أمسك بالفرشاة المبططة التى تستخدم فى دهن الأبواب والنوافذ إتجه إلى حمار منفصل خلف الباب يظهر منه عجزه . كان لون الحمار أبيض كالقطن ؛ ما إن اقترب منه الشاب حتى جفل ونفر مغيراً وقفته مثيراً ضجة نافحاً بمنخرية ؛ فإذا برقبته ورأسه ونصفه الأعلى الأمامى كله أسود قائم . أمسك الشاب برقبة الحمار فلواها فاعتدل الحمار كما كان ؛ فراح يغمس الفرشاة فى علبة البوية ويلهن بها جسد الحمار تاركاً الفرشاة تروح وتجي على جسد الحمار فى نعومة وسيولة ليلتحم الأسود وتتحف المساحات البيضاء شيئاً فشيئاً . ألفت نظرة سريعة على الأبقار والجواميس فلاحظت أن معظمها مبرقش بالألوان الزاهية ، فالبقرة الحمراء يوجد على رأسها ورقبتها شرائح بيضاء . وأما الحمير فقد كان بعضها يلمع ومن الواضح أن البوية لم تجف بعد تماماً ؛ وأنها بعد قليل ستتمرغ فى الروث والتراب فيزداد لونها قتامة .

أبقت في الحال أن كل هذه الحمير والأبقار مسروقة ؛ فانسحبت على أطراف أصابع قدمي عائدا بظهري إلى الطلمبة حيث أدرتها بهدوء وبصوت خافت لأتمكن من متابعة شوادفي وزينهم اللذين ارتفع صوتهما فجأة وسط موجة من الضحك العميق دلالة الإبتهاج الحقيقي كان زينهم يرد خلال ضحكاته المكتومة كأنه سيلفظ أنفاسه بعد برهة :

- " أعرف أنك مفترى كبير ! أنت متخصص في بيع البهائم المسروقة لنفس أصحابها المخروب بيوتهم !! والله إنى لأخاف أن تبيعنا ذات يوم واحداً واحداً ! تبيعنا لأنفسنا !! "

يرد شوادفي بجدية هائلة واثقة :

- " إطمئن ! لن أفعل هذه الخيبة أبدا ! لأننى لن أجد من يشتري التخين فيكم بلميم أحمر ! لكن لأجل الصراحة أنا بذات نفسى مستعد لأن أدفع مال الدنيا كلها فى المحروسة ابنتك الكبرى أمينة ! هذه هى الجوهرة الوحيدة فى وكالتى !! أما بقيتكم فلا يليق بهم إلا صفيحة الزبالة أو كوم السباخ !! "

إنطلق صوت ضراط قوى لكنه منغم ومكتوم كأنه جملة موسيقية طويلة معزوفة بمهارة وحرفنة . فشخط شوادفي بصوت متجهم جدا :

- " قم داهية تقرفك ! هذا عرق الناس وشقاؤهم نتن فى بطنك !! لو كان من عرقك وشقاك لجاء عطر الرائحة !! منذ متى لم تشخ على روحك !! "

حزق الشيخ زينهم حزقة مسموعة اختتمت بجملة قصيرة من ضراط خاطف ؛ أتبعها بقوله :

- " منذ رأيتك ! "

بغيط هازل كهين قال شوادفي :

- " يومنا فل بإذن الله ! بدأناه بالضراط النتن فلعله ينتهى بالخراء المعطر ! قم الآن فاصلح الفأل ودحرج لنا زبونا أو زبونين ! فى الضحى سنفتح الباب المطل على الخلاء ويستطيع أى زبون أن يدخل ليتفرج ويجس على كيفه ! "

فى احتجاج جاد قال زينهم :

- " أتعب روحى والمعلم نائم فى حضن الجارية ؟ فليقم يهز لحمه ويشوف شغله! أتعب روحى لماذا ؟ لكى يغمزنى بثمان ورقة دخان ؟ بناقص ! أشبه نفسى بالبحان !؟ المعلم رمضان عريجة زمانه باع البيعة كلها فى زحمة الليل دون أن نشعر !! "

- " لا ! هو تصرف فى شغل وداد الغازية فحسب ! ثلاث حنت جاءت عن طريقها من حوالى شهر ! وليلة أمس جاءنى ناس من أصحاب هذه الحنت ! إتفقوا على المبيت وفتحوا السيرة معى : سرقت مواشيهم قبل شهرين من قلب غيظانهم والشمس طالعة فلقوا أسواق البلاد بحثا عنها وأخيرا جاءوا لسوقنا لعلمهم يتعرفون عليها !! سألونى بحكم احتكاكى بسوق كبير كالكوكالة إن كنت سمعت شيئا عن حادثة كهذه ؟ وأظهروا استعدادهم لدفع حلوان لمن يلهم ! أنكرت معرفتى بأى شئ لكننى فى الليل أرسلت لهم رمضان عريجة ليقلبهم وينهى الأمر معهم ! قبل الفجر كان الملعون قد قبض الحلوان بالفعل وأوصاهم بالعودة إلى بلدتهم لأنهم فى الضحى يجدون مواشيهم مربوطة فى نفس المكان الذى سرقت منه !! وهو الآن ليس نائما فى حضن الجارية يا مغفل ! هو الآن يراقب صبيانهم وهم يعودون بالمواشى إلى أماكنه !! "

سمعت صوت طقطقة ركب الشيخ زينهم أثناء وقوفه :

- " توكلنا على الله ! "

لحظتئذ مررت بهما فى الإتجاه إلى حجرتى . إرتديت ثيابى وخرجت دونما هدف محدد . عليكم السلام ورحمة الله وبركاته خرجت من حنك شوادفى مملوءة بالإحترام ؛ أبدا أبدا ليس فيها رائحة التريقة أو رائحة الشر ؛ مماطمأننى بعض الشئ وألقى الرعب فى قلبى فى نفس الوقت .

رسول من جهنم

جبهتنى ضجة السوق وزحمته الكثيفة البهيجة ، وكنت قادم من وسط المدينة بعد تصعلك شريد استمر طوال الليل سأمأ من جو الحجرة المقبض فى الوكالة تحت ثقل التوحس من شوادفى ومن غمزاته المدببة المؤلمة . كنا فى الضحى ولم أكن راغبا فى دخول الوكالة رغم أوتى إليها شكل تلقائى لم أكن قصدته . إنعطفت يمينا نحو المزارع البعيدة . السوق كبير جدا ولا تبدو له نهاية ؛ فروشات متجاوزة : حبوب وقصب واقمشة وحضروات وطيور وأشياء لا تخطر على البال . كتل مكتظة متلاحمة متداخلة ؛ بين البائع والبائع أكثر من بائع ، وحول كل بائع زحامات عديدة . إنها حيل الباعة الخبيثة المحربة ، فمشترا الأقمشة سينتهز الفرصة ويشترى لوازمه من البائع الجاور له مباشرة ؛ واذ يرى صانع الخواتم يجواره سيتشجع على صنع خاتم له ؛ وسبية الجزار يتحلقتها باعة البصل والجرجير والطماطم . وهناك على مشارف البصر البعيد جدا سوق خاص بالماشية والأغنام والحمير له سور سلكى شائك وحراس وأصحاب الأرض يجمعون الأرضية من شاغليها كل حسب المساحة التى يشغلها ؛ يضج بالحركة ؛ تصل رائحة روثه النفاذة إلى مساحات شاسعة تذكر الأنوف برائحة الحليب والقشدة والسمن واللحم المسلوق . إنعطفت ثانية مع جدار الوكالة، ثم إلى عطفة ثالثة نحو بوز البناية التى تبدو مستقلة عن الوكالة مع أنها من ضمنها . ها أنذا الآن أمام بابها الخارجى الذى رأيت من الداخلن بوابة ثقيلة مصممة غائصة فى منحدر من الأرض ؛ البوابة صارت ملتحمة بطين الأرض الصلب . هذه البناية إذن - فيما بدا لى الآن - كانت حظيرة الدواب التى يجىء بها المسافرون الذين ينزلون للمبيت فى الوكالة فى عصرها الذهبى لحضور هذا السوق ؛ إنها إذن لعمارة كبيرة ليس فى مكنة عصرنا إنجاز مثلها على هذا النحو الدقيق المتين الجميل برغم جور الزمان ؛ حقاً إنه لمن المؤسف والمضحك أن مثل هذه العمارة التاريخية الضخمة تؤول فى العصور الحقيرة إلى ملكية خاصة يتأسسها واحد كشوادفى يحكم فيها بأمره يحولها إلى مباءة فسق إلى دولاب يصب المال فى يديه . أخيرا وصلت إلى نهاية الجدار ، حيث يطل دولاب الآخر طريق زراعى ضيق يخرق ساحة السوق يشطرها

يتحول إلى جزء من مباحج السوق بتسهيل أعماله . بوابة ضخمة جدا ، مغلقة من الداخل بدرفيل من الحديد الصلب السميك ..

عبرت الطريق الزراعي إلى الشطر الاخر للسوق ، حيث يتزامى فى نهايته سوق المواشى . لمحت أحمد بن الشيخ زينهم وأخه العتريس واقفين على جنب الطريق أمام قفة مغطاة بخرقة حلقة ، ثم مالبت الشيخ زينهم العتريس أن ظهر أمام فرش أحد الباعة يلقي تعويذته المعتادة التى لها فعل السحر فى قلوب الباعة الغرباء وبالذات ، أولئك الذين يستندرون الفأل الحسن ولو بغالى الثمن . نفحه أحدهم ملء قبضة اليدين من بلح العجوة فى ورقة جرنان ؛ ونفحه آخر قرشا ؛ ثم توقف أمام سبية الجزار فاردا حجره ؛ فألقى فيه الجزار بأشياء غريبة : مجموعة مواسير مكسرة ، وبقايا عفشة الذبيحة كالفشة والمصران والطحال ونشرات من الدماغ كان من المفروض أن يرمى بها للكلاب المقعية على مقربة منه تزوم بشراسة ويأس فيما تصب النظرات النارية على الشيخ زينهم . بعض الكلاب راح يتمسح فيه يتملقه ظنا منه أن الشيخ زينهم يحملها لمثله .

وقفت أتفرج على بائع الطرح والمناديل والغوايش الملونة من النايلون ، تتحلقة طوائف من النساء والصبايا والأطفال . لصقه مباشرة سوق القماشين : صف طويل أشبه بالمخيم من تعريشات على هيئة دكاكين أو عشتس صغيرة من قماش الخيم مشدود على اعمدة وقواطع من الحديد والخشب مغروزة فى الأرض . ما إن توقفت أمامه حتى لمحت محمد أبو سن منهمكا وحده فى إعادة ترتيب الأثواب فى سرعة ولحمة . السلام عليكم ؛ فانعقد لسانه من هول المفاجأة . إعتدل مسلما على بحرارة، تم سحبني إلى الداخل . هل أنت وحدك هنا ؟ هكذا سألته . فقال إنه دائما يطلع الأسواق وحده وهذا أسوأ ما فى الأمر ..

- " ليتنى عرفت إذن لجئتك من الفجر !"

- " تسمّر إذن وساعدنى ا وراءك شئ ؟"

- " لا !"

- " على خيرة الله ! خللك معى !"

أخذت الزبائن تهل وتتكاثر ، لأن محمد بدأ يتفرغ لها بكامل انتباهه . ليس هناك زبون يقف أمام محمد أبو سن ويمشى دون أن يشتري حتى لو كان غير راغب في الشراء حتى ولو كانت نقوده ناقصة فإنه على مقاس النقود تدور المفاوضات . لست أدري ما هو السحر الخاص الذي يجعل أبا سن يضع الزبون في الحال في حال المشتري الجاد في الشراء ، يحكم حوله الحصار يجعل الشراء رغبة حقيقية عند الزبون العابر . إنعكس هذا على ، فصرت كالنحلة صاعداً هابطاً بالأثواب وفردتها وعرضها فيما هو مندمج في المفاوضات حول نوعيه الأصواف والتيال والحريير مستهدفاً مبيعات كبيرة ، وإلى أن ينتهي من القياس والقص واللف والحسب أنصرف إلى بيع الأشياء الصغيرة والدقيقة وما أكثر زبائنها : الطرح والمناديل والأزرار وشلل الخيوط الملونة وما إلى ذلك ..

- " يوه ! بسم الله الرحمن الرحيم ! أهو أنت ؟ إزيك ! "

رفعت عيني عن ثوب الحبر ذي اللون الأسود الشفاف . إلتهمتني فوهتان مفتوحتان كجورتى نار في قلب اللهب في كل منهما دويرة فحم صغيرة . أعينان هاتان ام جناحا طائر مفزع من طيور جهنم ؟ الكحل زاعق على الشيطان كرماد تطرده الحرائق في العينين الطافحتين بلون سماوى مشوب بلون الشفق ؛ الإحمرار في العينين انعكاس لحمرة خديها الأسيلين . يا الهى ما هذا الجمال الوحشى ! أهى عروس النيل أم الجنية النداهة ! الوشم نقطة صغيرة خضراء فى منتصف ذقنها ، والمنديل أبو أويه المشغول بالفل والترتر يحيط جبينها الوردى كاشفاً عن شريحة من الشعر الضارب إلى البنى اللامع ؛ الحنك واسع والسن باسم وبين السن والسن فراغ لطيف ؛ الشفتان مكتزتان كحبتى فراولة ناضجتين ؛ القوام فارغ ، والجسم ممتلى في غير ترهل ؛ كل شئ فى جسدها مغر بوضوح قاطع ، الثديان والجذع والأرداف المخروطية كل ذلك مجسد تحت ثوب أبيض تحت ثوب أحر من الأسود الشفاف ذى كورنيش فى الذيل . على صدرها عقد من حبات العقيق الحر ، وفى الأذنين قرط من الذهب على شكل مخرطة الملوخية ؛ فى المعصمين مجموعة من الأساور مكتومة الشخلة لاحتوائهما معصمين بضين ويدين كالقشطة الطازجة . صرت أنظر إليها مبهوتا وقد خيل لى أنها من عالم الحواديث اللذيذة جاءت فى مهمة

عاجلة . أخيرا قلت بريق جاف ، محاولا تقليد محمد أبو سن باستعارة لهجته المرنة
الفياضة بالدفء الصادق :

- " أأمرى يا ستى ! "

إنحنت نظراتها قليلا فغمرتنى فأنحيت بدورى من ثقل الكهرباء اللآفحة .
رفعت بصرى ثانية فرأيتها تبتسم فيما تشير إلى أثواب الخبر :

- " فرجنى على هذا الثوب ! "

نزعت الثوب من وسط الرصّات وجئت به إلى البنك ، فردته بطريقة الباعة
المحترفين . قالت فى صوت جاد يخلو من أى شبهة :

- " بكم الطرحة منه ؟ "

وكان أبو سن منهمكا فى تدوين حسبة على لوح من الورق المقوى الذى تلتف
حوله أثواب القماش ، فرد عليها بسرعة من خلال انشغاله فى الحسبة :

- " بثمانين قرشا يا ست الكل ! ولأجل خاطر عيونك بخمسة وسبعين فقط !
نقطع واحدة أو اثنتين !؟ "

حولت نظرها إليه فبدت كحوراء ساحرة :

- " كنت أطلب واحدة ولكن لذوقك أطلب اثنتين ! واحدة لى وواحدة

لجدتى ! "

فى لذة فائقة شرعت أقيس بالمتز ؛ كل طرحة مترين ونصف ، وقبل أن أقطع

بالمقص نظرت إليها محركا أصبعى عن العلامة بضع قراريط . فابتسمت ، ودبت

يدها فى صدرها فأخرجت " بُكّا " صغيرا من الجلد الأسود ، فتحته فالتقطت منه

بضعة أوراق مالية متكورة . دفعت الثمن فيما رححت ألف الطرحتين فى ورقة

مطبوع عليها اسم المحل ، لفه اسطوانية محكمة . فلما ناولتها اللفة قالت فى همس :

- " عرفتك وأنت لم تعرفنى ! إننا جيران ! أنا فى البيت أحبيك من البلكونة !

وجدتى فى الحجرة التى أمامك خبط لزق ! فوق حجرة قطيطة ! "

غاضت الدماء فى عروقى ؛ خفت أن تستطرد فى الكلام عن الوكالة أمام أبى

سن ؛ مددت يدي فسلمت عليها بحرارة :

- " أهلا وسهلا ! فرصة سعيدة ! مع السلامة ! "

- " ما اسم الكريم ؟! "

- " فلان !! "

- " وأنا و داد ! وجدتي اسمها الشامية قوت القلوب ! إذا قابلت أحدا يجب كتابة اسمه على زنده أو رسم سبع على يده أو صدره فهاته لها ! إنها لا أخت لها في شغل الوشم !!! "

- " ان شاء الله !! "

فاستدارت منصرفة كالفهد ، ليظهر في أسفل ساقها نخت كورنيس الشوب ، وفوق كعبين كريالين من الفضة ، يلتف على خنقة القدمين خلخالان رفيعين من الفضة بشخاليل تصنع مع طرقات الشبشب إيقاعا طروبيا معجبانيا . شيعها محمد أبو سن بنظرة من تحت حاجبيه الثقيلين كالتندة ثم لكزني هامسا :

- " ما هذه ؟! "

قلت له إننى أسكن فى حجرة فى بيت فى حى شبرا دمنهور بمائة وخمسين قرشا فى الشهر وإن هذه المرأة فيما يبدو جارة لى . سألتنى كيف لم أعرفها ! فأجبتته بأننى لا أعود إلى حجرتى إلا فى عز الليل حتى لا يرانى صاحب الحجرة فيطالببنى بشهور مستحقة له عندى . لوى شفتيه فى الشمزاز .

- " عدت إلى الحوارى مرة أخرى ؟! "

ثم شوح فى لا مبالاه وأسف ، وأضاف :

- " لا يهملك على كل حال ! كله يتدبر بإذن الله ! لو كنت أعرف من قبل أنك ملحاح فى الشغل هكذا لشغلتك معى ! نحن فيها على كل حال ! تشتغل معى فترة بعد الظهر من الخامسة حتى العاشرة مساء ! وتطلع معى الأسواق ثلاثة أيام فى السبوع !! "

كدت أطيّر من الفرحة ، لدرجة أننى لم أعلق بحرف ، إكتفيت بهز الرأس دليلا على الموافقة بامتنان ، لأنه فى الواقع لم يكن يسألنى الموافقة إنما كان يقرر ما يثق أنه سينفذ حرفيا . ثم بدا كأنه تذكر شيئا مهما ، فسألنى فجأة :

- " لماذا لم تحضر فرح بدرية ؟! "

فكانه قبض على قلبي بكماشة حديدية وجذبه نحوه ، فتهاويت مرتكنا على
البنك :

- " دخلت بديرية بالفعل ؟! "

- " كان فرحا كبيرا ! الدنيا كلها حضرت ! الشارع كله سهر حتى الصباح !
كان السرادق في قلب الحارة بطول الحارة ! ومسرح وعوالم وعزائم ! وسافر
العروسان إلى راس البر لقضاء شهر العسل ! بلدتكم بحالها جاءت وملاّت شارعنا
بالفلاحين وبنادق الرش !! "

تكدرت كدرا شديدا ؛ طويت رأسي على راحة يدي :

- " لم أعلم بموعد الفرح لأنني لم أرهم ! ربنا يسعدنا ! "

- " طيبة وغلبانة هذه البنت ! كل الشارع يحبها ! جميع بنات الشارع رقصن
أمامها ! إتضح أن العريس يمت إليكم بصلة نسب ! إنه من قرية العفيفى جنب
قربتكم مباشرة ! وهو أخ عزيز لنا من مدة كبيرة ! عريس يستاهلها ! أطيب من
عرفت في حياتي !

- " الحمد لله ! هذا ما أتهمناه ! "

فنظر في ساعته وقال :

- " وجب الغداء ! "

وسحب من تحت البنك عامود الحلل الصغيرة الملتبسة في بعضها بمشكاك ؛
فكها ؛ فإذا هي تحوى فاصوليا وملونجية باللحم وأرز وطرشى ؛ واشترينا أربع أرغفة
من السوق . بعد الأكل بقليل دخل الخانوتى بمقهاه المتنقل فصب لنا الشاي . ما أن
لحنى حتى كاد يقع مغشيا عليه :

- " أتعرفان بعضكما ؟! "

- " طبعاً ! إننا أصدقاء ! "

- " الحمد لله ! "

لم يزد ، فاسترحت . وحين عبث محمد ببعض القروش لكى يحاسبه قبض
الخانوتى على يده فى احتجاج :

- " لا تفعل ! الشاى هذه المرة تحية من عندى ا قسما با الله ما يتبعنى مليم
واحد !".

ثم أخذ الكوبتين الفارغتين ومضى ، فحمدت الله أن لسانه لم ينزلق إلى ذكر
الوكالة ، ونويت حين ألقاه أن أنبهه إلى هذا الأمر . ثم بدأت حركة البيع تخف
شيئا فشيئا ، فحف محمد إلى سجادة الصلاة فصلى العصر . وبعد ختام الصلاة
أعطى إشارة البدء فى التشطيب ؛ حسب تقوده بالورقة والقلم ؛ ونفحنى ثلاثة
جنيهات قائلا :

- " سدد ديونك ودبر حالك حتى تقبض بعد شهر ونصف ! هذا المبلغ لن
أحاسبك على نصفه لأنه من مال الله الذى ائتمنى عليه لمثل هذا الغرض ! اللهم
اجعل لنا ولا تجعل علينا !".

ماكدنا ننتهى من تربيط الأثواب فى بعضها ووضع الرفايح فى صناديق من
الكرتون نربطها بخيوط وحبال ، حتى سمعنا قرعة العربة الكارو يجرها حصانان ،
وهى تزحف ثم تتوقف أمامنا ، يهبط منها عربجى عجوز ملتح وفى جبينه زيبية
الصلاة :

- " تأخرت عليك أربع دقائق !".

- " جئت فى موعدك على كل حال !".

صرنا نرفع اللفات والأربطة والصناديق لنعد لها على ظهر العربجى ؛ الذى يمضى
بها ليضعها فوق العربة ؛ حتى إذا ما انتهينا صرنا ننظر فى الأرض حوالينا بحثا عن
شئ نكون قد نسيناه ، وتحسس محمد جيوبه فاطمان على المحفظة والمفاتيح ، ونادى
الحفير فسلمه التعريشة بينكها . ثم صعدنا إلى العربة فجلسنا فوق الكراتين ، وشد
العربجى شرع الحصان قائلا : " شى..ى..ى " فمضت العربة تققع وتهزنا .
مررنا بباب أسطبل الوكالة فكان مفتوحا وخاليا تماما ، وعلى بابه يتناحر الشيخ
زينهم مع رجل معلم نظيف الثياب فارغ الطول نحيف البدن أسمر الوجه صلب
الملامح يتحرك بكتف مائلة قليلا ؛ رجحت أن يكون هو رمضان عربجة . وحين
وصلنا إلى دكان محمد فى شارع السوسى وجدنا الشارع ساكنا وخاليا تقريبا من
زحامه المعتاد ، فتذكرت أن الحركة كلها تنتقل فى هذا اليوم إلى السوق . كان ابن

أخت محمد أبو سن قد فتح الدكان فهرع يساعدنا فى إنزال البضائع حيث صار
العربجى يدخل بها إلى مخزن داخلى فيتركها برباطها انتظاراً للسوق القادم بعد يومين
فى بلدة أخرى ..

مكثت فى الدكان قليلاً ثم قفلت عائداً إلى الوكالة مفعماً بمشاعر كثيرة بهيجة
موتقة . بقلب واثق جلست إلى شوادفى وسألته :
- " تسألنى فى كم يا عم شوادفى ؟ "

تمهل قليلاً ، ونظر لى نظرة سريعة خاطفة تعبيراً عن المفاجأة وبلهجة واثقة :
- " لاشئ ! هل طالبتك ؟ أسأت إليك فى شئ ؟ دعها على الله يا أخانا !
الحكومة تقع كثيراً فى العذر والفلس ! "
- " اليوم أكرمنى الله ! لا أحب الدين ! يقلقنى يطير النوم من عينى ! فكم
لك عندى ؟! "

تفكر قليلاً رافعا وجهه نحو السقف :

- " حسبة بسيطة لا تستأهل اقلق ! "

- " كم يعنى ؟! "

- " نخلها الآن ! إصرف مامعك وأنا أصبر ! "

- " لا أستطيع الصرف وأنا مدين بمليم واحد ! "

على مهل برم سيجارة وأشعلها :

- " إذن فهات خمسة جنيهاً ويقتى عليك عدد الليالى التى مرت من هذا
الشهر ! "

- " هاك جنيهاً ! وبعد أيام قليلة أعطيك جنيهاً فجنيتها فجنيتها إلى أن أتمكن
من الدفع مقدماً ! "

دس الجنيهاً فى جيبيه ، وأسرعت إلى حجرتى فدونت الحساب والتاريخ ،
وتمددت على المصطبة مفعماً بالأمل المتجدد ، كأننى فى انتظار آلاف الأشياء الجميلة
حان موعد قدومها الآن .

الجدوة والريح

جو الوكالة فى العصارى لا مثيل له ، حيث يتحول الفناء الواسع إلى مخزن للشمس يغترف منها النهار وقود ضوئه وحرارته ؛ وكلما أمعن فى المسير شحت عليه الشمس بنفسها واختبأت منه فى الأركان والزوايا تستقبل وفود الرياح المتدافعة من كل مكان إلى الفناء الذى يغربلها يحللها يصيرها بجرأ من الرطوبة العذبة المنعشة . ففى مثل هذه اللحظات من نهارات الخريف تفتح جميع الحجرات فى الوكالة فى الطابقيين أبوابها ، وتفتح كذلك الأنصاف العليا لجميع النوافذ المظلة على الشارع أو الخلاء الفسيح . فى مثل هذه اللحظات ما بين أذان العصر وأذان المغرب يكون المعلمين قد صحوا من نومة القيلولة وغسلوا وجوههم بكأسين من الخمر الرخيص أو حجرين من الحشيش وعدساية أفيون ثم أكلوا شيئاً خفيفاً على سبيل التصبيرة ؛ ويكون معظم الصبيان ، أو العدة ، السارحين قد أتوا مجبورين وانضموا إلى القعدات لبيعوا فيها الصهيلة تمهيداً لإتمام عملية التحاسب فى مناخ ومزاج ملائمين ، تجنباً لأى مشاكل أو صدامات . عشرون حجرة فى الطابقيين كل حجرة تحوى أسرة ، وجميع هذه الأسر تربطهم صلة أقوى من صلة الرحم ، هى صلة البحث عن القرش بحيل جهنمية بعيداً عن أساليب العنف والخشونة ؛ إذ هاهنا يتم تصنيع الخيل التى تبطل مفعول القانون وتلتف حوله تحاصره ترتكب أبشع الجرائم فى ظله . هم الآن فى أسعد لحظاتهم ، يعكس الفناء كل ما يدور فى كل الحجرات مررد إلى جانب الروائح أصداء كركرة الجوز وقرع الكموس ورنين الضحكات وجلجلة أصوات الحريم وفحيح الأنفاس وبوادى صرخات نزقة مكتومة، وصوت أم كلثوم يردح فى قاع بعيد جداً : يا.. ظالمنى . كل ذلك مع سحب الدخان المصبوغة بلون السماء يصنع خيمة من الأمن والسلام المنهلين ، كأن هذه الكائنات كلها مجرد أجنة تتقلب فى الرحم .. هكذا خيل لى وأنا فى جلستى هذه البديعة الممتعة فى حجرتى ، كأننى بهذه الجلسة قد وصلت لأول مرة حياتى إلى لحظة الإنفراد الحقيقية الآمنة المفعمة بهدوء للأعصاب جميل . فمنذ أن اشترت هذا الكرسي المصنوع من قصب المامبو اكتشف هذه القعدة خاصة فى العصارى

لاستقبال الأصيل بدماع موزونة : أضع الكرسي في مدخل باب حجرتي ؛ أمدد ساقى أسننها على حافة حائط البواكى ؛ أتكى بمرفقى على تكأتى الكرسي لأستغرق فى القراءة أو السرحان فى كل المتاهات اللذيذة ومسالك الغموض الساحرة . مبعث الإطمئنان والسحر والأمان الثقة فى لقمة مستقرة فى البطن أو فى متناول اليد ، وعلبة سجائر وكوب شاي ومخدع لا يتهدهه العراء ..

إلا أننى سرعان ما اكتشفت أن لذة الجلوس فى هذا المكان فى هذه اللحظات مصحوبة دائماً بلفت رقبتي إلى اليسار ، لتتمكن عيني من عبور الفناء صاعدة إلى تلك الزاوية التى يصنعها جدار الوكالة مع شرفة منزل مواجه للوكالة يفصل بينه وبين الوكالة شارع لكنه مع ذلك يبدو لى من جلستى هذه كأنه جزء من حدود الوكالة . كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفاً تتأبط شرفتين متجاورتين فوق شرفتين متجاورتين . عيني على الشرفة العلوية التى يظهر نصفها فحسب ، ويظهر من فيها كأنه مقبل من ممر فى الوكالة نفسها ، حيث تظهر جنبة الحواديت ذات الجمال الوحشى الشرس أصيل كل يوم لتجلس فى هذا الركن بالذات فى مواجهتى تماماً ، واضعة كذلك ساقاً على ساق ، تشد الأنفاس الكثيفة كأعتى الرجال الكييفة ، حتى إذا ما احترق تبغ الحجر رفعتة فدلقت ناره فى منقذ لاشك أمامها ، متناولة حجراً غيره فتضعه على النارجيلة وترص النار فوقه بالماشة فى صبر وأناة ومزاج رائق . تظل هكذا حتى يرتفع أذان العشاء، فتختفى تماماً من الشرفة ، فيستبد بى الشوق لمعرفة ماذا يدور داخل هذه الشقة ؛ لكنها تظهر من جديد فى وسط السهرة قرب منتصف الليل ، على ضوء فانوس شاحب فى أعلى عامود النور فى الشارع فى كوعة ذراع الوكالة ، مرتدية قميص نوم من الساتان البنفسجى الفاتح بكمين ناقصين قبل الرسغين بمسافة الأساور ؛ مطلقاً جدائل شعرها الضارب إلى الشقرة تنطرح على ظهرها متحررة إلا من مندبل أحمر من الحرير يلمه من فوق الرأس فحسب ؛ وتستأنف شرب الأنفاس من النارجيلة لتختلط سحب الدخان الأزرق بكحل عينيها الواسعتين كعنين فى برج الحمام ..

تلك هى وداد الغازية ، التى عرفتنى بنفسها فى السوق فى دكانة محمد أبو سن يوم اشترت منى طرحتين لها ولجدهتها قوت القلوب الشامية الوشامة البارعة . عرفت

من الوكالة أنها راقصة ، لكننى لم أعرف كيف أبدأها بالكلام لتقوم الصلة الحقيقية بيننا ، فحين تلتقى نظراتنا أبتسم فبتسم ؛ ولا شئ غير ذلك . ومع اهتمامى بأخبارها فكل ما استطعت معرفته عنها أن جدتها قوت القلوب الشامية - أم أمها - هى التى تسكن فى هذه الحجرة المقابلة لحجرتى تماماً فوق حجرة قטיפطة ، وأنها هى وقטיפطة أقدم سكان الوكالة من عهد ما قبل شوادفى بزمن طويل ؛ وقد شهدت حجرتها هذه رواجاً كبيراً فى جميع أيام الأسواق حيث يتراكم الزبائن من كل القرى لدق السباع والتحللات والأسماء على ظهور أيديهم وزنودهم وصدورهم وظهورهم ، ودق العصافير فى الفودين ؛ إلا أن صناعة دق الوشم بدأت تصاب بالكساد منذ انتشر التعليم وأصبح معظم أبناء القرى يتخرجون من سبة دق العصافير كعلامة على التخلف والهبيل . بل نشأت مهنة جديدة يحترفها بعض حلاقى الصحة تتخصص فى إزالة الوشم بواسطة ماء النار وأصبح الموشومون يرحبون بعملها وإن خلقت مكان الوشم تسليخاً جديراً دميماً . أما وداد نفسها فقد سمعت أنها نادراً ما ترقص فى الأفراح ، ولعلمهم قصدوا أنها غازية فى سلوكها وحركاتها بعد أن هجرت الأفراح أو هجرتها الأفراح ، فإن لاحظ شوادفى أنك متلهف للحديث عنها شوح قائلاً :

- " مالناش دعوة ! فضا من هذه السيرة أحسن !! " ..

ولم يكن من السهل على أن أفعل ذلك ؛ فهذه الفرس الهيفاء تخاطبنى بلغة خفية لا أستطيع تجاهلها . لقد باتت تقض مضجعى وبت أجسدها فى فراشى كل ليلة بمختلف الحيل الخيالية ..

واليوم كنت قد شرعت أستقر فى جلستى وأستعد لتصعيد البصر إلى شرفتها ، حينما رأيتها فجأة مقبلة نحوى من حجرة جدتها قوت القلوب ؛ بلحمها ودمها ، ترتدى ثوباً من الشيت المشجر بالأخضر والأحمر . كانت أعضاء جسمها تكاد تخرج من أفلاكها عارية ؛ فرغم أن الثوب ليس محزقاً إلا أن الجسد كان يحتوى الثوب أشد مما يحتويه الثوب ؛ ولم تفلح الطرحة السوداء المطروحة على رأسها وكتفها فى تخفيف حدة الإحمرار المشع من سميتها . وحين تذكرت أنها حلبية اشتعل خيالى بالجموح والعاطفة الساخنة والإستعداد للمغامرة ؛ تذكرت أيضاً جبل

الدروز جبل السويداء ؛ تذكرت اختلاط دم الروم بدم الغساسنة فى الأرض وفى العروق وفى العقول فازداد خيالى المكبوت اشتعالا وازدادت أعصابى حمية . لحظتها كانت قد هبطت السلم وعبرت باب حجرة قطيطة واستدارت خارجة من البكية لتواجهنى ؛ عيناها تربعتا فوقى ، فيما هى تدلف من البكية فصار بينها وبينى اتساع الفناء إعتزانى ارتباك شديد ، كالفار تخدره نظرة القط فتسمره فى مكانه حائراً سجيناً حتى ينقض عليه القط فيقتزسه بكل بساطة . هذا قد حدث ، إنقضت على بالفعل ، أطبقت على رأسى بفكى عينيها صارت تشيلنى وتحطنى على الكرسى تههدنى تطوحنى يمينا وشمالا . كانت رائحة الصابون المعطر برائحة جسدها الأنوثى برائحة اللبانة التى تطرق تحت فكيتها قد صيرتنى سمكة ضالة فى قلب موج هادر غير ذى خطر . صرت أصعد فوق موج الإنفعال اللذيذ نحو هبوط قوى يدفعنى إلى صعود موجة أعلى توشك أن تلقى برأسى بين هذين الثدين الطليقين تحت الثوب كقبضتى عجيب مبططين قليلا بحلمتين مديبتين أكاد أرى فوقهما تجاعيد الكلف نخل الثوب . كنت ممسكاً بكتاب لعله ألف ليلة وليلة ، وبسيجارة ملفوفة مخلوطة بالحشيش ، وتحت قاعدة الكرسى كوب شاي نسيتته حتى ابتعد بلفح الرياح . تتسع المسافات بين أسنانها المفردة الناصعة البياض ، تتسع المسافة الحمراء بين فكيتها ؛ وقد شمل السكون كل شئ فلم أعد أسمع سوى دقات قلبى ترجمها طرقات اللبانة . كانت قد ارتفعت سور البكية فانعجن الثديان وانطرد تكورهما خارج فتحة الصدر كفوران الحليب يرتفع إلى أعلى الرقبة ليصطدم بالرموش المشرعة كشوك الحلفاء فيهبط سائلا على النحر مختلطاً باللهب الأحمر . قالت بجرأة منهلة :

- " ممكن ١٩ " .

وأشارت إلى السيجارة بين أصبعى باصبعيها القابضين على سيجارة وهمية .
سرعان ما فهمت طلبها ؛ فتبعثرت أعصابى ؛ دفعت نفسى معتدلاً فوق الكرسى :
- " طبعاً ! السيجارة وصاحبها تحت أمرك ! " .

ثم نزلت عن الكرسى وقمت ذاهباً إليها بالسيجارة مع أننى لو مددت ذراعى لكان فيه الكفاية . على أنها تجاهلت غمزتى التى زلف بها لسانى عفو الخاطر ؛

وأمسكت بالسيجارة وجذبت منها عدة أنفاس متلاحقة عميقة ، تاركة الدخان
يندفع من متحريها ؛ ثم أعادت لى السيجارة :

- " بكم تشتري هذه العميرة ؟! " ..

قلت كأنى حريف فى الشراء مع أننى نادراً ما أشتريه لدرجة أننى قد لا أعرف
سعره الحقيقى :

- " واحد صاحبى يشتري لى ربع القرش بسبعة قروش ونصف ! " ..

عقدت حاجبها دهشة ، وازداد وجهها احمراراً ، وساح الكحل فى بحيرتى
عينها :

- " يضحك عليك صاحبك ! يخمك ! إن عوزت تشتري قل لى وأنا أشتري
لك معى ! القرش كله بعشرين قرشاً وأحياناً بثلاثة شلنات ! أنا أشتري من امرأة
بتبيع لى بسعر الجملة ولا تنتظر من ورائى مكسباً !! " ..

قلت فى الحال دون تبصر :

- " إذن فهاتى لى قرشاً معك ! " ..

- " هات عشرين قرشاً ! " ..

تورطت . لم يطل ترددى ، دخلت الحجره بحماسة فانتزعت من لحمى عشرين
قرشاً بكيبتها فى صمت بكاءً حاراً وحاولت استحضر صورة قرش الحشيش ككمية
تملاً العين وتكفى تموين شهر على الرائق ؛ لكن ذلك لم يخفف من التياعى للفراق
بينى وبين بريزتين من الفضة تركتهما فى راحة يد وداد البضة كقالب من الزبد .
ولكى أخفف شعورى بالأسى قلت :

- " أوصيك بجودة الصنف وعدل الميزان ! " ..

- " سندوقه معاً فإن لم يعجبك نرده لأصحابه ! " ..

- " فمتى يتم ذلك ؟ " ..

- " تعال اشرب معى الشاى فى بيتى بعد صلاة العشاء !! " ..

سأل بس الآن وانزل البلد وأعود قرب العشاء ! سأظهر فى البلكونة عندما

أجى .. فتجى ! " ..

كاد قلبى يتفتت من الفرح :

- " وهو كذلك ! إلى اللقاء ! " ..
إعتدلت هي مبتسمة ثم مقهقهة بصوت رنان :
- " تكلمنى بالنحوى ؟! " ..
ومضت تتبختر فى خطو الواثقة من أن الأرض لا تحمل من طرازها
القليل . وحينما حاذت شوادفى عند البوابة حيثه :
- " سألخير ياراجل ياللى عامل زى قرد قطع ! " ..
كان مستغرقاً فى سنة من النوم ، فاعتدل فى رقدته معطياً ظهره للحائط د
ذراعته تحت رأسه :
- " ياليتنى كنت قرداً! فمثلك لا ينفعه إلا قرد عجوز مثلى ! " ..
فألقت إليه بضحكة رنت على أرض البوابة كبمب الأطفال وتهمشت :
جذعها الصلب كالقضيبي .

حبل من مسد

ظهر طيفها في الشرفة عقب أذان العشاء مباشرة ، فكأن الكون كله قد أضى فجأة ، إذ أن الكون كله لحظتشد كان منحصرأ في هذه المساحة التي نحتلها الشرفة في هذا المنزل البادى كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفاً يتأبط شيئاً . شعرت بطيفها قبل ظهوره ، فرغم بعد المسافة واللغظ المرتفع حوالى أكاد أجزم أنى سمعت حفيف توربها وشخلة الأساور فى معصميهما والخلاليل فى قدميهما . كانت تريد أن تسعرنى بحضورها ، فارتفتت إفريز الشرفة وأرسلت عينيها إلى باب حجرتى وظلت هكذا برهة طويلة رغم أننى - محتجباً فى صدغ الباب عن شوادفى - أومأت لها برأسى وبيدى بآنى قد رأيتها . ثم استدرت أبحث عن ثوب ملائم ارتديه . لأول مرة أرانى أجابه مثل هذا الموقف ، وأقف عاجزاً مبهتساً أمام سوء مستوى ثيابى بوجه عام ، فشتعت شعوراً حاداً بالضيق . على أن هذا الشعور سرعان ما انجذب خلفاً شعوراً مضاداً بالرغبة فى تحدى الثياب . هكذا تعمدت الخروج فى اقل مظهر ممكن .

خرجت بنفس الجلباب والشبشب الزنوبية ؛ أغلقت الباب ومضيت .. مسيت على شوادفى ، الذى كان منهمكاً فى قتل الحبال من ليف النخيل . فرفع بصره نحوى باسمها وبدون مناسبة واضحة قال :

- " فى جيدها حبل من مسد ! أنت يا أخانا تعلمت فى المدارس فهل عرفت حبل المسد ؟ أدفع رهاناً كبيراً إن كنت تعرفه ! " ..

وفى الحق لم أكن عرفته ؛ فشعرت بالحقد على نفسى ؛ ورأيت أن العقاب الرادع لنفسى هو التسليم بعدم معرفتى بدلاً من المكابرة بالجهل . حينئذ ضحك بصوت عال كزئير أسد هائج :

- " المسد يا أخانا هو هذا الذى فى يدى الآن ! هذا الحبل الذى أفتله من ليف النخل هو الحبل من مسد ! " ..

فرحت جداً لاكتشاف هذا المعنى ؛ لكننى قلت محاولاً الانتقام لكبريائى الجريح :

- " ولكن ما مناسبة هذا الآن ؟ " ..

بخلق فى عيني بريق مخيف :

- " مثل هذا الحبل ستراه معلقاً في رقبة صاحبك !! " ..
 ارتخت أعصابي في بسمة شاحبة :
 - " صاحبتي من ؟ " ..
 - " تلك التي أنت ذاهب إليها الآن !! " ..
 مضطراً ضحكت ضحكت ساذجة ؛ كأنى أقول له آه يا عفريت ؛ ورأيت أن
 من الأوفق عدم اللف أو الدوران لأن كل شئ في الواقع يتم تحت سمعه وبصره ،
 وليس من العقل محاولة استغفاله بأى شكل :
 - " هي ليست صاحبتى ولا حاجة ! إننى كلفتها بطلب وهي التي عرضت
 على ذلك ! وما ذهابي الان إليها إلا للإتيان بهذا الطلب ! " ..
 قاطعنى ملوحاً بأصابع كالمسامير الحدادي :
 - " طبعاً طبعاً ! ذهابك لن يزيد عن هذا بأى حال من الأحوال ! أعرف هذا
 يا أخانا وأثق منه ثقتي بأنك واقف أمامى ! إنما أردت أن ألقى إليك بنكتة لعلها
 تنعشك وأنت ذاهب ! أقصد وأنت عائد !! " ..
 - " بصراحة أنا لم أفهم هذه النكتة ياعم شوادفى ! إعتبرنى غيبياً واشرحها لى
 هى الأخرى ! " ..
 - " ألم تأخذ فى المدرسة قرآناً يقول : وأمراته حمالة الحطب فى جيدها حبل
 من مسد ؟ " ..
 - " تقصد سورة المسد : بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبى لهب وتب ما
 أغنى عنه ماله وما كسب وأمراته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ! صدق
 الله العظيم " ..
 - " هو ذاك ! فما معنى جيدها ؟ " ..
 - " يعنى منطقة الرقبة والعنق ! " ..
 - " صاحبك هذه يا أخانا شبيهة بحمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد !!
 وطرف الحبل فى يد مجهولة لا يعرفها أحد ! معنى كلامى إنها مقيدة فى رقبتها
 بحبل خشن !! " ..
 - " ولكنى ... " ..

- " إتكل على الله يا أخانا ! ربنا معك ! وقلبي هو الآخر معك ! أتمنى لك سهرة سعيدة ! إددع لي وأنت تستمع !! " ..

إحتزت البوابة شاعراً بكثير من الإحباط وكثير من البواخ كأنى أمام طبخة دسمة لسعتها النار فشاطت فتعين على أن أرمى بكل تكاليفها فى صفيحة القمامة . إلا أن هذا الذى حدث قد يبدد إرتعابى من المغامرة ؛ وبدلاً من الرعشة والإضطراب تشجعت على الإقدام كالذى كان ذاهباً تحت جناح الظلام ليغتنم فإذا بالضوء يغمر الطريق فجأة فإذا هو يعتدل فى مشيته ويواصل سيره كأى شخص عادى لا يتسوى شيئاً . هكذا لم يعينى أن يرانى أحد وأنا أدخل منزل وداد الغازية فى مثل هذا الوقت من الليل فيما هى فيه وحدها بغير رجل سوى . إتنابنى شعور من اللامبالاة كأنى ذاهب لزيارة مريض فى المستشفى ..

ما كادت تفتح لي الباب حتى تدفقت موجات عطرها قوية عالية داهمة تكاد تطوينى فى دوامة سحيقة الغور . يدها البضة الناعمة الرخصة أطبقت على يدي ؛ جذبتنى إلى الداخل فى ترحيب رجولى خشن غير متسق عليها على الإطلاق : " تفضل ! يا مرحباً " ، وانغلق الباب . ردهة مربعة كالعلبة ، تزدان حوائطها بصور لفريد الطرش وأسمهان ومحمد فوزى وليلى مراد وليلى فوزى وسامية جمال وتحية كاريوكا وهند رستم وشكرى سرحان وكمال الشناوى منزوعة من مجلات الكواكب والصبح وآخر ساعة . على الأرض كرسيان وكنبة على الطراز السيوطى مع طقطوقة . الخشب كالحولكن الفرشة نظيفة مزوقة بمفارش ملونة . على الحائط الأيمن رف خشبى تحت صورة يوسف وهبى ، عليه راديو كبير ماركة فيليبس ، وتحت قرب الأرض صورة لأمنية رزق بين صورتين لصبح وشادية . بدت هذه الردهة كأنها هى الشقة ؛ وبدت حميمة ، يمكن المكث فيها طويلاً ..

- " تحب الجلوس هنا أم فى البلكونة ؟ راحتك ! " ..

- " كما تحبين ! إن كان هناك داع للجلوس ! " ..

- " أنا عزمتك على الشاي ولا أرجع فى كلمتى ! " ..

- " بنجلس حيث توجد الشيشة فأنا كيف معسل ! " ..

أشارت بيدها من فوق كتفها أن اتبعنى ؛ ومضت تتبختر أمامى . تبعتها وقد ركبت عيني فوق قبطين ضاحتين بالحياة وبالجادبية . ممر ضيق ؛ على اليمين مطبخ ضيق تجاوره دورة مياة ضيقة . فى مواجهتها حجرة صغيرة فيها سرير نحاسى بعمدان ذى ناموسية من الساتان الخفيف البمبى ؛ وبوريه بمجموعة أدراج مستطيلة فوق بعضها بمقابض نحاسية لامعة ، وكرسى من الخيزران ، ومشجب مدقوق فى الحائط تتدلى منه قمصان نوم وفساتين . ثمة باب صغير مجاور للبوريه يفضى إلى حجرة ثانية كالخزنة لها باب ثان يطل على الممر . فى هذه الحجرة فى الصدارة سرير سفرى صغير . آه ياربى ؛ توقفت مرتعداً فى رعشة شملتنى من قدمى إلى رأسى . إعتزانى ما يعترى إنساناً فوجئ بأنه داخل قفص حديدى مغلق أمام كلب مسعور أو أسد غضوب . كأن أمامى وحش بهيئة إنسانية ، عبارة عن عينين واسعتين جداً ، تبخان لهباً وبريقاً من عمق لا قرار وله نهاية ؛ يلتف حول العينين وجه كالشهد المصفى ، بجداول شعر كستنائى مخلول كحزم متطايرة تخفى رأساً دقيقاً ، برقية مستطيلة كجذع شجرة حديثة الغرس ؛ وبدت عروق العنق المتصلة بالكتفين والصدر كجذور ضاربة فى جسد هزيل ، كتفان عريضان يسندان صدرأ ناهداً منفلقاً ؛ وذراعان طويلان بيدين سرحتين ، ينتهى الصدر إلى خصر شديد الضمور كأنها مجرد رسم كاريكاتورى ؛ يتزايد الضمور حتى ينتهى بقدمين دقيقتين كقدمى طفل وليد ، وليس من ساقين على الإطلاق ؛ أى أن هذا الجسد البالغ الجمال لا يمكن له الوقوف أو الحركة ؛ كما أنه بلا عقل على الإطلاق ، إذ راح هذا الوجه يتلفت حواليه فى انبهار بنظرة جامدة كمنظرة العروس البلاستيك ، والذراعان تشوحيان فى حركة عشوائية نزقة ..

كانت وداد قد وقفت على عتبة الشرفة وقد انفرطت ملامح وجهها فى ابتسامة

شاحبة حزينة :

- " مالك تسمرت ؟! اصفر وجهك ! تعال ! يظهر أنك ضعيف القلب ! كان

الله فى عونى !! " ..

انتبهت إلى وداد وهي تخطو نحوي بسرعة ثم تمسكني من يدي برفق لئلا تمنعني من الترنح ؛ ثم سحبتنى بهدوء إلى الشرفة . أجلستنى في نفس الركن الذي تجلس هي فيه فإذا برأسي تحت مستوى جدار الشرفة . قالت كأنها تواصل حديثاً سابقاً :

- " إنها ابنتي رغدة ! عندها شلل أطفال ! في يوم من الأيام وهي طفلة عمرها أربع سنوات أصابتها سخونة شديدة ! وكان ورائي مشوار أكل عيش فتركتها مع جدتها فتركتها ونامت ، مسكينة الأخرى ! مسافة ما عدت من المشوار حملتها كالجمره الوالعة جريت بها إلى الحكيم في مستشفى الحميات فانهال علي سباً وشتماً وأوشك يطلب لي البوليس ! قال إنني أهملت البنات حتى احترق مخها !! يومها شخرت للدكتور المهجاص المخرف ! لكن المسكينة من يومها وهي تكبر وتكبر أما عقلها فيظل كما هو ! سنها الآن عشرون عاماً وعقلها طفل رضيع ! لا تنطق ! إنما تصرخ وتزوم وتتأوه وتتوجع فأعرف من صوتها ما بها وأتصرف ! مسكينة ! ربنا يتولاها ويتولاني ! .."

تربعت أمامي فوق شلثة صغيرة ، تربيعتها تكاد تلتصق بقدمي . أمسكت براد الشاي ثم استدركت :

- " تأكل ؟ عندي سمك مشوي ! انا عزمك على شاي ولكن يمكن أن نأكل معا عيشاً وملحاً ! " ..

ثم نهضت بخفة وحماسة ، واختفت في المطبخ . عادت بعد قليل تحمل سफطا من الخوص عليه طبق فيه أربع سمكات مشويات مع رغيفين من الخبز الفلاحى الطرى . جلست واضعة السفط أمامنا ؛ فنزلت عن الكرسي وتربعت بجوارها فانزاحت هي قليلاً لتوسع لي فصار نصفها في الشرفة ونصفها الآخر في عتبة بابها . أكلت سمكة ونصف رغيف وعرقين من اللفت على سبيل الارتباط بعيش وملح قد يوطد العلاقة الناشئة بيننا . كنت أشعر أن الطعام على تواضعه شهى جداً ؛ لكن منظر الملاك العاجز في الحجرة صد نفسي عن الطعام وكاد يصد مزاجي عن الإندماج في سهرة طيبة . إلا أنني حين شرعت أشرب الشاي تأكدت من أول رشفة أن وداد قد صببت لي في كوبه ملوثة ببقايا أفيون كان مذاها فيها منذ قليل ،

فلا بد إذن أنها تتعاطى أفيون أيضاً ؛ أو لابد أن أحد الأفيونجية كان هو الآخر معزوماً على الشاي هنا قبل قليل . بحركة ماكرة سألتها :

- " أجد عندك أسبرينة ؟! "

قالت ببساطة مشرقة :

- " تأخذ سنة أفيون ؟ معى عدساية أعطتها لى صاحبتى أعالج بها الصداع

فأخذت منها ثملة ومعى بقيتها ! " ..

ومدت ظفر إبهامها إلى الأسورة الذهبية فكشطت عنها نقطة سوداء كحبة

الذنبية ؛ قربتها من فمى ؛ فاطبقت بشفتى على إبهامها والتقطت القطعة بطرف

لسانى . ثم إنها أعدت الحجارة ونظفتها وحشتها بالتبغ المعسل ماركة أبو غزالة من

مصانع الحناوى :

- " أظنك تحب بأن نذوق التعميرة ! " ..

- " طبعا ! أين هى ؟! "

دبت أصبعها فى التجويف الضيق بين الأساور ولحم معصمها ، فأنزقت ورقة

السلفان المبرومة فى استطالة كقلم الشفايف ، قدمتها لى . أعجبنى منظرها

وحجمها لأول وهلة . فتحتها ، ففاحت رائحة الحشيش الطازج كالعطر النشوان .

حجم وصنف ممتازان ، هكذا قلت منلمظاً ؛ وجعلت أقتطع منها للتوقيع على

الحجارة ، فشخلت الأساور فى يد تمتد نحوى لتوقفنى :

- " لحظة واحدة ! خذ واجبك الأول من عندى ! " ..

وجعلت الخاتم من أصبعها ؛ ونزعت من تجويف الفص قطعة حشيش كالبلية ؛

جعلت تقتطع منها بأسنانها المفردة الناصعة البياض توقيعات عريضة ؛ مما أدهشنى

وأخجلنى ، فمثل هذه التوقيعات العريضة لا تليق إلا بالمعلمين الكبار طالبى النفس

السمين الكثيف ؛ ثم إننى سأبدو بخيلاً تنناً حين أبدأ التوقيع كعادتى بالأحرف

الأولى فحسب ، بتعميرة كقشرة اللب ؛ هذا إن استطعت أن أجاريها فى الشرب

على هذا المستوى . وجدتنى أقول :

- " هذه تعميرة كبيرة ! أنت توقعين باسمك الثلاثى ؟! " .. ضحكت ضحكة

أسيانه :

- " أنا أبصم وأنت الصادق ! هكذا تعودت ! لا أحب أن أبيت وفى يدي حشيش !! لا بد للحشيش أن يحرق كله فى الحال ! أحسن مكان آمن تخزن فيه الحشيش هو رأسك ! وإذا امتلأ دماغك وفاض خزن فى أدمغة أصحابك فإنه يعود عليك بالإنبساط أيضا !! " ..

وحين صار الطاقم الذى وقعته بإمضائى على وشك الإنتهاء كانت هذه المساحة الضيقة قد تحولت فى نظرى إلى جنة فيحاء مفعمة بهدوء الأعصاب والسلام والإطمئنان . كان شايا ثالثا أو رابعا قد نفذت رائحته فى خياشيمى مختلطة برائحة الفحم المحترق فأخذت تهلهل دماغى بملمس كملمس القطيفة . أمتدت الأساور قابضة على معصم يد نابض بالحوية منتهيا بيد تغرى الأسنان بقضمها وقرقشتها كانت ممسكة بكوبة الشاي الساخن من أذنها . بإحدى يدي أمسكت الكوب فوضعت على الأرض ؛ وباليد الأخرى احتفظت بيدها ، وملست عليها برقة وحنان متهدجين منتفضين . سحبت يدها برفق شديد محمر الخدين من فرط الخجل ؛ فأغراني ذلك فأطبقت يدي الإثنين على يدها وصرت أضغط عليها ضغطا ساخنا ؛ فإذا بالغضب يبرق فى عينيها الواسعتين يذيب الكحل فى الجفون . خففت الضغط، فسحبت يدها قائلة فيما يشبه الإنذار الحاسم :

- " أنا عزمك على الشاي فحسب ! ولكنى قدمت الأكل ليكون عيشا وملحا بيننا يستوجب الإحترام !! " ..

فى قناة ظهري تدحرجت حبات العرق ، وفاضت على جبيني :

- " متأسف ! ولكن أنا معذور ! لم أستطع الصبر ! " ..

حدقت فى عيني بعينين ثاقبتين باسمتين :

- " نفسك فى تزوجنى إذن على سنة الله ورسوله !! " ..

فدارت بى الأرض . أفقت . أحسست بأنفاسى تتقطع وأنا أحاول الشرب بصورة عادية طبيعية أغطى بها ما لحقنى من اضطراب شديد فقدت معه القدرة على الرد المناسب . كانت رأسى فارغة تماما من كل شئ لدرجة أخافتنى ، حاولت معرفة ما الذى يدور فيها الآن على وجه التحديد فلم أستطع الإمساك بأى شئ أزعم القول بأننى أفكر فيه . جاءنى صوتها مهيبا بلا رنين . كانت الأساور

الذهبية قد هبطت قليلا فانششرت في سمانه الساعد ، وهى ترفع البراد .ميل ليصب
البزبوز خيط الشاي القرمزى الغامق فى الكوب ، لترتفع الرغوة فيه شيئا فشيئا كما
يفعل بائع العرقسوس الحريف :

- " شفتك انكمت ما أعطيت منطلقا !! كلكم هكذا ! تفضلون سرقة الفواكه
من فوق سور الحديقة على الماشى ! خاصة إذا كانت طابت ووقعت من أمها
الشجرة على الأرض أو على حافة السور ! معطوبة كانت أو عجر أو حتى نتنه !
كله ماشى عندكم ! وياقادر يارب تخلو فى نظر كم عن الفاكهة المعروضة فى فترينة
الفكهانى لأنها مكلفة ! أنا انقرصت يا صاحبي انقرصت وانعضت وانشرخت
وانشرمت !! السبب طيبة قلبى ! ولا أشعر باللدغة إلا حينما يلهبنى السم !! هذه
البنية المسكينة الراقدة الواقعة فى قرابيزى أبوها رماها فى بطنى وانشقت الأرض
وابتلعتة !! كان مداحا ! يحفظ الأشعار ويؤلف مثلها ، يسرح بخماره وأسرح معه
أحيانا لنمدح النبى فى البلاد نتوقف أمام كل دار فنرجع آخر النهار مجبورين بخبز
وغموس وقروش كثيرة من أمة محمد التى تحبه والتى هى دائما بخير !! كان من
سكان الوكالة بجوار حجرة جدتى يوم تعرفت عليه وأنا صببية غريرة فأعجبني شبابه
وحلاوة لسانه وكلامه الكثير الحلو ! تزوجته قبل أن أعرف أى شىء عن ماضيه !!
فلما اختفى وطالت غيبته قالوا : كان هاربا من ثأر ووقع فى يد عدوه !! وقالوا :
كان هاربا من السجن المؤبد وأمسكوا به ورحلوه إلى طره !! كانت ابنته هذه على
حجرى !! تزوجت مرة ومرتين وثلاثة وخمسة وعشرة !! كل زيجة لا تدوم أكثر
من سنة بطلوع الروح ! أجعص واحد فيهم احتملته سنة وشهرين وكان أوطى
شخص شفته فى حياتى !! كان يبيعنى فى السر للعمد والأعيان دون أشعر ليأكل
الأفيون ويوقعنى فى المشاكل !! فلما علمت أوقعته فى شر أعماله بكمين حتى
أمسكه البوليس فطلقنى غصبا عنه !! لم ينل أحد منى شيئا فى الحرام طول عمرى !!
كل أزواجى كانوا لا يحتملوننى بسبب البنت التى تضايقهم بمنظرها وتأخذنى من
أحضانهم فى الليل كى أسكتها عن البكاء وأنقلها لدورة المياة !! زوجى الأخير
عرض على أن نرشو الطبيب ليعطيها حقنة تخلصنا منها ولذلك لم أرجمه !! لكننى
مصممة الآن على أن من يرانى حلوة فى نظره عليه أن يتزوجنى على سنة الله

ورسوله وأن يتكفل بكل مصاريفي ومصاريف ابنتي من أكل وشرب وكسوة
وعلاج !! إذا لم يعجبه الكحل فلا يتكحل! ونبقى مجرد أصحاب لخاف على
بعضنا!!" ..

مسحت عرقى بكم جلبابى :

- "عداك العيب ! من الآن أنا صديقك الوفى !" ..

- "وأنا خادمك فى أى وقت ! حينما تريد حشيشا كهذا قل لى وأنا أقضيه

لك وأنت جالس فى مكانك كالباشا !! " ..

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها ماشياً.
وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها
ماشياً فى الشارع وحدى أطارد ظلى المنطرح أمامى على الأرض فى ضوء فانوس
الشارع الهادئ الساكن سكونا شاحبا . خيل لى أننى مشيت دهرا طويلا نسيت
حلله كل شئ يتعلق بأى شئ ، لدرجة أننى فوجئت بباب الوكالة فكأننى كنت
قطعت الصلة بها نهائيا ، بل إنها بدت شيئا غريبا بالنسبة لى ، وكأننى أدخلها
لأول مرة فى حياتى . وقد بدا ذلك همأ ثقيلاً جدا على قلبى . مع ذلك طرقت
الباب ثم دفعته ودخلت .

أسواق .. أسواق

قبيل انصرافي من الوكالة أوصاني محمد أبو سن بألا أتلكأ في العودة الى المنزل لأنني يجب أن أنام مبكراً هذه الليلة لأصحو عند الفجر ، ففي الغد سنذهب الى سوق بلدة المحمودية مع البضاعة فوق العربة الكارو أم حصانين ، لنكون في قلب السوق في مطلع الشمس على أكثر تأخير ، حيث نفرش بقعة معينة من الأرض بالخيش والمشمع نرص فوقها أثواب القماش بجميع أنواعها ، ونتربع وسطها تحت مظلة عريضة من المشمع أيضاً وأمامنا طبلية واطئة أشبه بطاولة مستطيلة من الخشب تحجز بيننا وبين الزبائن .

في السوق يتركنا العريجي فيسرح في البلدة يتصيد نقلة أو نقلتين أو ثلاثة على الماشي ، ثم يعود الينا قبيل أذان العصر كي يعود بنا الى دمنهور ، ليجدنا قد ربطنا البضاعة في انتظاره ..

بمحمد أبو سن يعرف أن كل بلدة مطلع سوقها ، فيها قماشيا الذين ربما لديهم نفس البضاعة بجميع أوصافها ، لكنه يعرف أيضاً أن البائع الزائر يغري دائماً ابداً أهل البلدة ، ولقد يملك من الصفات الحسنة والروح الطيبة والأمانة ما لا يملكه تاجر البلدة . مع ذلك لا يعتمد أبو سن على هذه الحقيقة المجردة وحدها ، انما يعتمد على الله أولاً وأخيراً ، ويؤمن بأن لكل مجتهد نصيب ، وأنه لو رزقه الله بمصاريف العريجي ومصاريفي فحسب فإنه بذلك يكون كسبانياً للثواب . الا أنه كان يكسب أكثر من الثواب ، فلقد انحدر من عائلة كلها من تجار الأقمشة والمنسوجات القطنية بأنواعها ، وأحد أخواله صاحب مصنع كبير للفانلات والسراويل ، وخاله الآخر صاحب مصنع للفوط والبشاكير ولوازم التنجيد ، ناهيك عن محلاتهم ومعارضهم وعديد أنواعهم اليدوية العتيقة التي تخصصت في صنع أنواع من الأكلمة الرخيصة من بقايا قصاصات الخياطين .

أبو سن تبعاً لذلك خبير كبير في لم سوقه وتنويعه بأشياء تشيل بعضها بعضاً تعوض بعضها بعضاً . هو يضمن - مثلاً - أن التواطي والسراويل والفانلات والمناديل المحلاوي وأدوات التنجيد وشوار العرائس والطرح السوداء وأقمشة

الملسات المكشكشة ، التي يجلبها من مصانع أحواله بسعر التكلفة بها هامش ربح عريض يتحرك فيه براحتة ، وكذلك الغوايش النايلون والأزرار وكلفة الفساتين والمناديل المشغولة بالفل والترتر ، كل ذلك يجد في الأرياف رواجاً كبيراً ، فيكثر منه ، مقللاً من الأصواف والأجواخ والأتيال والخريز الغالي ، مكثراً من الدمور والدبلان والشيت وقماش شهير بالحاج عباس ، واليبة الزرقاء مع رفايع كثيرة كأربطة الأحذية وعلب الورنيش والشرابات والتلافيع والشباشب الزنوبة . اذافة الى ضالك ، يلجأ الى طريقة جهنمية لا تخيب أبداً : فبدلاً من أن يتقل حمله بثوب كامل من جوخ العباءات أو الصوف الإنجليزي ، فإنه يقطع قماش عباءة أو عباءتين ، جلباب أو جلبابين ، يلف كل واحدة منها بعناية في ورق مصقول ، يدفعها في البضاعة ، ودائماً يبدأ يمر عليه من يقول له : " ألقيش عندك جوخ عباءة ؟! " ، فيهرز رأسه في اعتذار وأسف كأن صاحبنا قد طلب المستحيل ، ثم يستوقفه بعد قليل من التردد المصطنع بحرفة عالية ، وبضعة لطافة يلقي في روعه أن جوخ العباءات المعتبر شاحح هذه الأيام ، وكأنه كتاجر أمين يخاف ربه لا يقبل المتاجرة في أنواع الجوخ الرديئة الموجودة بكثرة لدى البياعين ، انه لا يرضى بإيذاء الناس في مبلغ يقصم الظهر ، فالمرء لا يفصل كل يوم عباءة ، ولكن يبدو أنك ابن حلال وفلوسك طاهرة ، اذ عندي - بالصدفة - عباءة واحدة تدبرتها من السوق السوداء لرجل أوصاني بها في السوق قبل الفاتت لكنه لم يأتي حتى الآن ، فيبدو أنها مكتوبه لك من نصيبك . يكون حينئذ قد نجح في اثاره فضول السائل ، ثم يمد يده فيسحب اللفة المعني بها ، يفتحها برفق ، تفتح رائحة القماش الجديد الثمين حقاً ، تسكر الرجل قبل أن يمد أطراف أصابعه ليتحسس القماش ، يبدأ في السؤال عن الثمن وهو على استعداد لشيء من التضحية دون غضاضة ، خاصة أن أبا سن لن يبالغ في سعره بل سيقول أنه اشتراها بكذا ويطلب عرقه فيها كذا ، في العادة يخضم المشتري نسبة العرق هذه حتى يكون أبو سن قد أضافها على مكسبه خصيصاً لتكون موضع المساومة بعيداً عن السعر المحدد المقرر أن يقبضه ..

شغلة مرهقة بالنسبة لي ، أعود بعدها مفصص الأعضاء لكن أبو سن يتكفل بإزالة كل التعب عندما نرجع ونتعشى بالكباب وربما سهرنا عند العليشي لوقت

متأخر من الليل يتجدد فيه نشاطنا بالأفكار لنيرة والغريبة التي يلتقطها العليشي من
فتنة طه حسين الكبرى ومن عبقریات العقاد واعجاز القرآن لمصطفى صادق
الرافعي، مغطياً على أكفار أبي حنطور المنحصرة في برهان الزركشي واتقان
السيوطي وفتاوي ابن تيمية . نرجع بعد ذلك الى البيت فننام كالقتلى ما تننا من
ساعات ، المهم أن أكون في الدكان عند آذان المغرب لأبقى حتى موعد التشطيب
حيث يرجع ابن أخته الى منزله ليذاكر وينام مبكراً .

عفريت أم وداد

فى تلك الليلة كنت أنوى الدخول إلى حجرتى مباشرة لكى أنام حتى الفجر ؛ لكن الرغبة فى السهر عند وداد كانت تناوشنى بقوة وتشد قدمى إلى تجاوز بوابة الوكالة فى اتجاه منزل وداد . ثم خطر لى أنه من الأفضل مواصلة الطريق إليها حتى لا يلحظ شوادفى . لقد أصبح وجه وداد الطافح بالأنوثة الشهية الطازجة دائما ، ومجالستها بعض الوقت فى الشرفة فى ظل الأنفاس ذات الدخان الأزرق ، نوعا من الراحة أحلى وأفيد من التقلب فى الفراش الصلب ..

وهكذا مكثت عند وداد وقتا جميلا طال إلى قرب منتصف الليل ، هدأت فيه كل توتراتى ؛ إذ أن وداد باتت تألفنى، فلم تعد تضع بينى وبينها سدا قويا حاسما ، بل كانت تجتهد أن تكون طبيعية وكنت أجتهد أن أكون رجلا ملتزما حدود الأدب والنية الصافية غير الخبيثة ، ويبدو أنها بطول العشرة لمست أننى طرحت عن نفسى فكرة النيل منها أو الطمع فيها . فكانت تتجاهل الأمر إذا احتككت بها عرضا وأنا مار بجوارها ؛ أو إذا فردت ركبتي فى قعدتى فاستراحت على وركها قليلا ؛ بل لم تعد تمنع أن أحضنها وأقبلها بسرعة فى حرارة اللقاء أو عند الوداع .. طعمها الأنثوى ذو الرائحة القريبة من رائحة لبن الأطفال ممزوجة برائحة العرق والعطر الرخيص كان لا يزال فى خياشيمى ، حينما دفعت باب الوكالة ودخلت . كان شوادفى لا يزال مقعيا على المصطبة يدخن بشراهة ، كتلة من الضباب الأسود تبرز فى بقعة منها جمره السيجارة : السلام عليكم؛ فرد بحماسة وترحاب شديدين، وضغط على الزر بجواره فأضيئت اللبنة السهارى التى بالكاد ترسم خطوطا باهتة على سبورة الظلام فى ساحة البوابة ، وكان نادرا ما يفعل مكتفيا بلمبة الجاز :
- " أهلا أهلا ! تعال ! ليلتك فل ! " ..

فعرفت أنه موزق أو فى انتظار رسالة من رسائله السرية الغامضة التى لاتنتهى ؛ إذ هو من مكانه فى جلسته هذه يشارك فى أعمال جسيمة تحدث فى بلدان أخرى بعيدة ، وربما كان على اتصال خفى بها لحظة حدوثها دون أن يبرح مكانه ، إنه شيطان بكل معنى الكلمة ولا بد أنه قادر على الحضور فى مكانين متباعدين فى

وقت واحد . لست رائقا هذه الليلة لكنى لا أجرؤ على إهمال دعوته ؛ لا بد من تلبيتها ولو لدقائق على سبيل برو العتب ، فكسب وده خير من كسب عداوته التى لا قبل لى باحتمال مجرد وقوعها ..

جلست إلى جواره ؛ فمد يده فى الحال إلى منقد النار ، فكشف رداء الرماد عن خبيثة الجمر ، ووضع الشاى فوقه . شوحت ييدى فى احتجاج رقيق :

- " لا ! أعمل معروف أريد أنا أنام ولو ساعتين ! ورائى سوق بكرة ! بالمناسبة ياليتك تطرق بابى قبل الفجر بقليل ! " ..

حملق فى وجهى بعينين حادتين كعيون الذئاب :

- " وراءك سوق وتسهر عند حمالة الحطب !؟ سمعت خطوك مقبلاً من اتجاه بيتها ! حولنه ثم حولنه !! إطفح الشاى وغر من وجهى ! " ..

- " تشكر ! " ..

- " لا شكر على واجب ! " ..

- " تشكر أيضاً ! " ..

وهو يمروح على النار بذيل قميصه :

- " ما رأيك فى التعميرة التى تشتريها لك وداد !؟ " ..

- " بريمو ! لم أشرب مثلها فى حياتى ! الوزن عال والصنف أعلى ! هل تعرف

المرأة التى تشتري منها وداد !؟ " ..

- " أعرف الرجل الذى يبيع لها بالجملة ! لكننى واقع معه هذه الأيام فى كلام

وحديت ! مصيره يرجع لى فتدوق هذه التعميرة ذات الصيت الحسن ! " ..

- " وداد يمكن أن تشتري لك منها ! " ..

- " وداد تشتري لصبى كحيان مثلك ! أما أنا فلى وضع آخر فى الصنف

والوزن والكمية والسعر وكل شئ !! لكن البنت وداد جدعة على كل حال ! إنها

كثيراً ما تدخل على بحجرين من هذه التعميرة ! أنا ياما دخلت عليها بحجارة

وحجارة ! " ..

هكذا يجرنى للحديث عن وداد . فكرت فى التنكيل به وإيهامه بأننى قد نلت

وطراً من وداد برغم يقينه بأننى لن أقدر . فى اللحظة التى شرعت فيها أتكلم

تخيلت شوادفى وهو يعاتبها على ما سمعه منى فتكون الفضيحة بجلاجل وشخايل
وطبل بلدى ؛ فانعقد لسانى فى الحال ؛ وأردت أن أعقده أكثر فقلت :
- " وداد ست طيبة فعلاً ! غلبانة ! كان الله فى عونها ! هى فى الحق شريفة !
أشهد بذلك أمام الله ! وفعلاً كما قلت لى اتضح أن فى رقبتها جبل من مسد !! " ..
ثعلب ماكر شديد الدهاء مقع أمامى فى عينى شوادفى ، يتحفز للإلتقضاض على
دماغى فى أية لحظة مناسبة . كان يتسم ؛ وقال بفحيح يبعث على الشك
والتوجس :

- " أنتما إذن متفقان ؟! " ..

- " على ماذا يا ترى ؟! " ..

- " هى الاخرى قالت لى إن وراها مشوار بكرة !! " ..

- " مشوار ؟! " ..

- " لهذا طرقتك مبكراً !! كم الساعة الان ؟! " ..

- " تزيد عن منتصف الليل ! " ..

- " هو هو هو .. و .. ه ! أنت نائم على روحك يا أخانا ! نحن مازلنا فى بداية

السهرة ! موجز النبأ كان يتكلم فى الراديو منذ دقائق ! " ..

ثم أخرج ساعته الكالحة المربوطة فى فتلة قيطان فى عروة الصديرى ؛ أزاح

غطاءها وبخلق فيها على وهج السيجارة :

- " الساعة عشرة وربع !! " ..

- " غريبة !! " ..

تذكرت أننى كنت فى منزل وداد فى حوالى الساعة مساء . أعاد هو ساعته إلى

جيبه وجعل يصب الشاى بمزاج رائق :

- " يا أخى هذه الدنيا غريبة ! تصور يا أخانا أن وداد هذه تعيش نفس قصة

أمها ولكن بالمقلوب !! إحمد الله أنك لم تر أمها والإ. كنت اندلقت على بوزك

وكلفتنا مشاكل عويصة !! كانت آيه فى الجمال يا أخانا ! لا قمر ولا شمس ولا

نجوم تصلح لنشبهها بها !! كانت غجرية من حلب ! أو لعلها بدوية الله وحده

وأعلم ! لكنها كانت بارعة فى شوفان البخت وقراءة الفنجان وعمليات السحر

والتبشيرة ! يركبها جن اسمه دقلش ! أول ما يركبها تندمج في التفقير ! أقصد في
الذكر : الله حي ! الله حي ! تتطوح شمالاً ويميناً وهي متربعة في قعدتها ! نصف
ساعة ساعة ساعتين حتى تأخذها الجلالة فلا يقدر مخلوق أن يوقفها ! وإن حاول
أحد ازدادت حرقتها وعلت صيحات الوجد ! وحين تنطق لفظ دقلش نعرف أن
العفريت قد وصل وانتهى من الركوب وجلس يحادثها ! فتروح هي ترد عليه وتحدثه
في أشياء غريبة ! عن مسروقات ! عن عيال تائهة ! عن زروع أتلفت ! عن محاصيل
أحرق ! عن قتيل راح غدرًا وغيلة ! وترد على نفسها بردود أروبة خبيثة نفهم
منها أن دقلش العفريت هو الذي يقول لها اجثى في المكان الفلاني ! إذهبى إلى
السبيل العلاني زورى مقام الشيخ فلان إسألني عن الشيخ ترتان هاتي بيضة همد
وجناح يمامة سوداء وحنة عين ثور مذبح لتوه واعجنى كل ذلك في عجينة
ورسقيها بالدبابيس وارمى بها في البحر يصفو لك الجو ويظهر المرض والهزال على
الفاعل الأصلي فينكشف أمره !! نصب في نصب طبعاً لكن الناس العبطاء كانوا
يصدقونها يأتون لها من الأرياف فتنتهز أمها الفرصة وتدق لهم أو شام السباع
والعصافي را الله يرحمك يا صفية كانت كسيية ولا أجدع الرجال ! يدها كانت
طويلة ! مصاصة دم ! لكنها من الناحية التي بالك فيها كانت طاهرة ! لم يستطع
مخلوق أن يعاشرها ! لا في الحرام ولا في الحلال ! وكان لي عليها الدلال فكنت
أسألها بصريح العبارة : كيف يا امرأة تحرمين جسدك من متعة الدنيا ؟ فتقول إن
الرجل إذا ركبها أذلها وأصبحت عبدة له مكسورة العين ! والرجل الذي تنكسر له
عينها لم يخلق بعد !! أعرف رجالاً محترمين كانوا مستعدين للزواج منها على سنة
الله ورسوله ! لكنها عانت لإبنتها ولأمها ولذكرى زوجها الذي كان من كبار
الصوص الأتقياء في مصر وكان ويا للعجب شاعراً يسرح بالرباب بقصة أبي زيد
والزناتي خليفة ! الناس في القرى يعزمون شاعر الرباب ليلة أو ليلتين أو جمعه بحالها
أكلاً شارباً نائماً في نعيم حتى يخلص لهم أبا زيد من أسره ! أثناء ذلك يكون
صاحبنا قد فلى الدار وعرف كل حرم إبرة فيها وكيف يدخل إليها ويخرج منها في
أمان ؟ وما هي الحاجات التي ينشئ عليها لسرقتها ؟ ثم يعود بعد ذلك لينفذ خطته
بدون الرباب هذه المرة ! وحده أو بصحبة غيره حسب حجم الغنيمة ! بعدها بايام

قليلة يرجع إلى نفس العائلة في نفس البلدة حاملاً الرباب ! فى السهرة يستمع إلى أخبار المصيبة فيوصيهم بالذهاب إلى الشبيخة صفيية المكشوف عنها الحجاب !! الشبيخة صفيية تتولاهاهم بحيلها تظل بهم حتى توهمهم أنها من الشواهد عرفت أشخاص الفاعلين !! تتوسط لهم في استرداد المسروقات ، تهرب حلوان كبير بخلاف أجرها الذي تأخذه بالطول وبالعرض !! الحجر الدائر لا بد من لطفه كما يقول المثل ! وما كل مرة تسلم الجرة كما علمونا في الكتاب أهل زمان ! صاحبنا قفشه صاحب الدار وهو يتسلق السور ليفتح الباب من الداخل كي يخرج بغنائه ! من هناك ؟ من هناك ؟ لم يثلاثها ! طخه بالعيار فطب ساكتاً ! المرحومة صفيه كانت هي العفريت الذي يركب العفريت وليس يركبها العفريت ! لم يكن أحد من ضحاياها يعرف أنها زوجته لكنها ذهبت فاستلمت جثته على سبيل فعل الخير !! دفنتها هنا في مقابر الصدقة !! بدأت تشتغل وحدها ! فعشقتها عمدة بلدة قريبة إسمها شرنوب واسمه شرنوبي !! وجهه أحمر وذو لغد في رقبته ويتنقل راكباً فرساً ويلعب بالفوس لعباً !! العمدة شرنوبي صرف على صفيه دم قلبه لكي تنام معه ليلة واحدة فلم ينلها !! طلبت منه الزواج على سنة الله ورسوله لكنه كان يخشى زوجته وألاده الكبار ! طلب منها زواجاً عرفياً يداري به الفضيحة فلم تقبل ! لم يقطع الأمل فيها ! سفرها إلى الحجاز فحجبت بيت الله ! إشتري لها بخر مالها هذا المنزل الذي تسكنه وداد !! إشتري الفستائين والأساور الذهب التي تتزين بها وداد!! كان ينفق عليها في الليلة الواحدة خمسين جنيهاً في عز الرخص ! لا يؤكلها سوى الحمام والأرانب والدجاج والرومي ! بدأ يبيع أرضه في السر لينفق عليها ! لم يكن المسكين يعرف الكيوف لكنها علمته التحشيش والأفيئة وشرب الخمر كل ليلة ليظل في نشوة دائمة تفتح له الأمل في ليلة موعودة لم تجئ أبداً !! لم يعد لديه شيء يبيعه حتى الفرس باعها واستبدلها بخمار مهزول من حمير السباخ ! وفي النهاية لم يجد مفراً ممن قبول الزواج منها على سنة الله ورسوله زواجاً رسمياً معلناً على يد المأذون ! لكن المسكين لم يهنأ بها ساعة واحدة إذ انشقت الأرض عن ابنه الكبير الذي كان يراقبه فاقترحم الحجره على العروسين وأفرغ فيهما خزنة المسدس كلها !! تولت الوشامة العجوز تربية البنت وداد بنفس الطريقة التي ربت بها أمها ! غير أن وداد أطيب قلباً من أمها !

ورثت قلب أبيها شاعر الرباب الذي لم يكن له في اللصوصية لولا الملعونة التي كانت تدفعه !! من السهل الضحك على وداد ولهذا تعبت كثيراً في حياتها وخسرت الجلد والسقط !! آه يا أخانا كم شهدت هذه الوكالة من مأس ؟ بعدد طوب هذه الجدران يا أخانا ! دنيا دنية والزمن غدار ! وفي قول آخر على رأي فقيه المسجد : دنيا فنية والزمن كبّاس !! " ..

وانفجر ضاحكاً بصوت وحشي . وكان النوم على وشك أن يطير من عيني فدفعت نفسي واقفاً : " تصبح على خير " ، ومضيت مهرولاً الى حجرتي وأصدقاء ضحكته الوحشية ماتزال ترن في جنبات الفناء .

فى وضح النهار

فى فترة الضحى انتعش السوق بسرعة مضطردة . هجمت الزبائن من كل مكان . تفرغت أنا للرفايح الصغيرة من غوايش نايلون ومناديل وما إلى ذلك ، تفرغ محمد للمبيعات الثقيلة وقبض النقود ومراجعة الحساب بالقلم الكويبا ينزعه من خلف أذنه ، على ورقة بحجم كف اليد من رزمة مشبوكة بمقبض ، ولا يرمى بأى ورقة بل يثبتها إلى الخلف حتى يتسنى له مراجعة كل حسابه آخر النهار . بموجب هذه القصاصات التى لا يفهم تفاصيلها أحد سواه . فى حوالى الثانية بعد الظهر نحف الزحام على الرفايح ، وقل عدد النساء والصبايا والولدان الصغار ، وزاد عدد الرجال طاليبى الفانلات والسراويل ومقاطع الأقمشة التى تروج بين عمال مصانع المحمودية ..

بدأت أجد متسعاً من الوقت للنظر فى زحمة السوق أمامى . السوق مقام على قطعة أرض من عدة أفدنة ، فى مساحة متاخمة للبلد قريبة من ترعة المحمودية ، يحيطها سور من الأسلاك الشائكة ، والباعة صفوف وأركان أركان ، تفصل بينها ممرات تتسع لمرور الناس والماشية والعربات الكارو وعربات اليد . صف القماشين يعطى ظهره للسلك الشائك من ناحية وبطل بوجهه على السلك الشائك من ناحية أخرى . من خلفنا البلدة بمطاحنها ومصانع الحلويات ، تحيط بظهرنا فى قوس ذى انبعاثات وبروزات وتعرجات ساذجة ومآذن ركيكة البنيان وشرفات بائسة ومداحن مسودة الهامات توحى بأن ثعابين ضخماً تسكنها . على يميننا ترعة المحمودية التى تخترق مدينة دمنهور واصلة إلى الإسكندرية وما بعدها ، تبدو بعيدة جداً لا يظهر منها سوى مثلثات صغيرة جداً بيضاء ومرمودة ومتداخلة هى شواشى أشرعة المراكب الراسية على شاطئها والزاحفة فى مياهها ، وتحمل إلينا الرياح الخفيفة رائحة زفارة السمك وزخيم الصيادين وجمعير عراكمهم وغنائهم ودخان نيرانهم ، وكذلك تحمل إلينا وفودهم حاملة البلطى والقراميط فى سلال ندية شروات تملأ العين بكثرتها بطزاجتها بانتفاضاتها برخص ثمنها ..

أمامنا الطريق الزراعى على مرمى حجر ، وعلى يسارنا مزارع خضراء وحمراء متزامية إلى ما لا نهاية . إشتري محمد أبو سن شروة سمك من على الطريق الزراعى ، وتكفل بائعها بشويها . وجى بالليمون والخبز والفجل والجرجير والطرشى وكل ذلك بالجحان من جيراننا الباعة . رحنا نأكل بشهية فائقة كأنها أكلة العمر . وفيما كنت أحمل لفة الجرنان المحتوية على بقايا الأكل لكى أرميها فى صندوق حديدى مثبت فى السلك الشائك المطل على الطريق ، رأيت امرأة غازية تركب حماراً ، مرتدية بذلة الرقص الخليعة الكاشفة لمفاتن الجسد وعريه ، ومن فوقها ملاءة تلفها نصف لفة . خلف الحمار يهرول طبال يحمل طبلة الدربكة تحت إبطه ، وحامل رق . الراقصة تطوح ساقها فوق ظهر الحمار تستحثه على الإسراع فى السير . تذكرت صاحبتى وداد ، فابتسمت ، ظلت أتابعها حتى آبت إلى سحابة صغيرة من الغبار . سحبت عيني عن خط الأفق وشرعت أستدير عائداً فاصطدم بصرى بالمعلم رمضان عريجة فى أبهى ثيابه الكمشير ، والمركوب البنى فى قدميه والعمامة الصعيدية الكبيرة فوق رأسه والشال الحرير السمى اللون على كتفيه ، وعلى يمينه رجل وعلى يساره آخر كانوا يمشون فى لامبالاة قليلة ، وعيونهم تضرب إلى الأمام فى إنتباه وحذر . عقدت اللهشة لسانى وسمرتنى فى وقفتى : ترى ما الذى جاء برمضان عريجة إلى هنا اليوم ؟ !! أله فى السوق مأرب ؟ جاء يسرق أم يبيع سريرة سابقة ؟ لكن خاطراً أشرق فى رأسى ربط بينه وبين صاحبتى وداد ، فأيقنت أن الغازية التى مرت منذ قليل راكبة جماراً هى لابد أن تكون وداد ..

عدت إلى الفرش وذهنى مبعثر فى متاهات غريبة . بعد صلاة العصر مباشرة قرقت العربية من بعيد ، فشرعنا نعبى البضاعة فى الكراتين ثم نربطها بالحبال . تحول الفرش الكبير إلى مجموعة كراتين محكمة الربط . تكفل أثنان من شيالى السوق - الذين يظهرون دائماً فى اللحظة المناسبة - بمساعدة العريجي فى التحميل وعدل الكراتين وتوثيق الحبال فى مواثيق العربية . تم ركبنا جلوساً فوق الكراتين ، ثم زحفت بنا فكأننا مفتشين مكلفين بتفقد أحوال الكون ..

إستوينا على الطريق الزراعى وقد خيمت علينا الشمس بستارة برتقالية اللون نحشنة . ثم ابتعد السوق وبدأ بأسلاكه الشائكة كبقايا أحرف بالقلم الرصاص قبل

مسحها وكشط بعضها ، ثم غاصت البلدة في منحدر بعيد ، والتحقت مبانيها
بكتل السحاب ، ضاق الطريق وتعرج وتقلقل حتى صرنا نرتج في جلستنا .
و كنت أعرف أن هذه الوصلة قصيرة وسرعان ما تقودنا إلى الطريق المرصوف
المخاذى لترعة الحمودية ، فاقترحت على محمد أن ننزل لتمشى هذه الوصلة خلف
العربة التي صارت تمشى ببطء شديد . استحسن محمد الفكرة خاصة أنه قد آن
الأوان ليفك حصره بعد صلاة العصر وليتوضأ من جديد لصلاة المغرب ..

هبط محمد إلى سفح قناة لأنه لا بد أن يستنجى فيغسل عضوه بعد فك الحصر ،
وربما انتهز الفرصة وتوضأ ، وربما صلى ركعتين شكراً لله على نهاية السوق بدون
مشاكل لعل الله يكمل جميله فينهي اليوم كله بالنجاة من مخاطر الطريق على خير .
أما أنا فمضيت نحو شجرة جميز عتيقة لكي أدارى نفسى فيها متقرفصاً مفرغاً بطنى
من زحمة السمك . رأيت إستحالة ذلك لوجود مجموعة من رجال على مقربة بجوار
ساقية على مرمى حجر . لمحت بناية صغيرة مربعة بالطوب اللبن مما يبينه الفلاحون
على رؤس حقولهم للمبيت وحفظ المواشى أثناء السهر فى الرى . رأيت من
الأنسب أن أحتجب بظل جدارها الخلفى . مررت بالرجال . دوت المفاجأة
كطلقات مدفع كاتم للصوت فى جوفى : إنهم رمضان عريجة والرجلين ، يحاولون
فك حبل يربط جاموسة وبقرتين فى وتد مغروز فى الأرض . أخيراً أخرج رمضان
من جيبه مطواة فجز بها عقدة الحبل ، سلم الجاموسة لهذا والبقرتين لذلك ، أشار
لهما على الطريق . حمدت الله أن أحداً منهم لم يرنى إذ أننى كنت فى منخفض من
الأرض محتجباً بجدار العشة . تقرفصت رافعاً ثوبى مجتهداً بكل قوتى إلا أضطرط
فيكشفنى صوت الضراط . إن رمضان عريجة لو رآنى الآن فليس بعيد أن يغزنى
بالمطواة . كان الهواء يحمل فى أذنى صوت نقر على الدربكة والرق ، على واحدة
ونص ، وكان الإيقاع المشغلل واضحاً مجسداً مفرحاً لدرجة أن الغائط كان ينزل
متدفعاً متراقصاً على الإيقاع . جففت نفسى بورقة خروج متدل على جدار العشة ،
وقمت ملتفاً حول الساقية من الناحية الأخرى ، فلمحت فى منخفض آخر عند
ساقية أخرى جمعاً من الصبيان والرجال العجائز والأطفال ، وكان جسد الراقصة
يتلوى داخل كوكبتهم الملتفة حولها وقد راحوا جميعاً يصفقون لها على الواحدة

وهي تترنح وتتمايل على صدر الرجلين العجوزين فاشخه حنكها وساقها ،
والعجوزان يصرخان في نشوة نزقة : يا وعدى !! وأحدهم يجعر : كل ده عشان
عودين برسيم لحمارك ؟ خذى نصف فدان من البرسيم . ثالث يمشط صدرها
وكتفها بكفيه في شراة ويقول في توجع على الصوت كأنه ينادى على أمل بعيد
: قولى لى أين مكانك وأنا أجيبك بلبن العصفور !! . هبطت المنخفض ، إقتربت من
الكوكبة ، كانت الراقصة هي وداد ، نعم صاحبتى وداد بلحمها ودمها وقد تعرى
ذراعها وصدرها وظهرت تكورات بطنها تهتز صاعدة هابطة في دربة هائلة .
وقفت إلى بعيد فوق هضبة من الرديم والسباخ ، صرت أبخلق فيها أطعنها بنظراتى
فى قلبها فى بطنها فى ساقها . إلا أنها كانت مسبلة العينين ، مائلة برأسها إلى
الخلف مقوسة ظهرها إلى الوراء وقد تدلى شعرها نحو ساقى أحد العجوزين
الرقيعين . وإذ هي تعدل قامتها سقطت سهام عيني فى عينها ، فشهقت فى فزع
وبريق الجنون يندفع من عينيها ، خبطت صدرها بيدها ضارحة : يا خرابى! معقول؟
فاستدرت فى الحال واندفعت مهرولاً نحو الطريق بساقين مرتعشين وأنفاس لاهثة .
ظللت أشعر بأن هناك من يطاردنى للقبض على ، حتى استويت على وصلة الطريق
المتعرجة المقلقلة . كان محمد أبو سن كما توقعت قد توضأ وصلّى ركعتين لجر
الطريق ، ووقف لتوه يتلفت حواليه بحثاً عنى . قال باسمًا :

- " ظننتك رحى تفرج على الغازية ! " ..

- " رأيتها من بعيد فحسب ! " ..

- " مالك ؟ كنت تجرى ؟ ! " ..

شعرت أننى سأحكى له ما حدث بشكل مثير : أتذكر المرأة التى اشترت منا
طرحتين فى سوق دمنهور وأخبرتكم أنها جارتى ؟ لقد اتضح أنها هى الغازية .
لكننى أمسكت فى الحال عن ذكر أى شئ ..

على أو الطريق المرصوف كان العريجي فى انتظارنا ، فركبنا . بعد مسير حوالى
ربع ساعة مررنا برمضان عريجة ماشياً وحده فى خطو بطيٍ واثق كمشية شيخ البلد
يتفقد زرعه . وبعد حوالى كيلو متر مررنا بالرجلين يسحبان ثلاث جواميس وأربع
بقرات !! ويمشيان فى هدوء وثقة عجيبين كما يسحب التاجر بهائمهم . أدركت

أبعاد اللعبة الجهنمية : وداد تختار مكاناً معيناً لتبدأ الرقص مقابل حزمتين من البرسيم
لحمارها ورغفين لرفيقها ، فحينئذ يتجمع الأولاد الذين تركهم أهلهم في حراسة
البهائم ، وأثناء فرجتهم على الغازية يتمكن رمضان عريضة ورجاله من فك البهائم
وسحبها ، وإذا يملك الطريق العمومي يصير مجرد رجل يسحب بهائم عائداً بها
من السوق أو من الحقل .

وفيها مقبرة

تسمرت وداد فى فتحة بابها . سلطت عينيها المذعورتين المنكسرتين المتنمرتين مع ذلك فى عيني تبحت فيهما عن نواياى الحقيقية من هذه الزيارة كأننى أزورها لأول مرة . كان الخوف والإضطراب ظاهرين عليها بشكل واضح رغم مرور أيام طويلة على ذلك الحادث ، عاقدة ماين حاجبها فى تساؤل أليم كأنها تقول : عايز منى إيه بتتجسس على ليه ؟ ! لكنها لم تقلها ، إنما استدركت بكل أريحية : تفضل ، وأوسعت فتحة الباب . فدخلت متجهاً إلى باب الشرفة متحاشياً النظر إلى يسارى حتى لا يقع عيني على ذلك المخلوق المشوه المعذب ، لكن بصرى مع ذلك لخبها بالرغم منى ، ففى البنت عينان يفتحان عينين فى جنبك فى ظهرك فى قفاك فى أى مكان منك ، لتنظران إليك النظرة اللهفى ، نظرة الطفلة المنبهة البلهاء المولمة ، تشوح بيديها تكاد تقفز نحوك تضرع إليك فى حاجة ما .

تركت حدائى بجوار الباب وتربعت جالساً على الأرض .. إمتلاً فراغ الباب بظل من الشهد الجسد المتكسر على نصف جدار الشرفة . قالت بود حقيقى كأنها زوجى تستقبلنى بعد عمل يوم شاق :

- " تاكل إيه ؟ " ..

ترددت ، حرت فى الجواب ، إستدركت :

- " نتعشى معاً ! "

فنظرت فى عيني على ضوء القمر المنسرب إلى ركن الشرفة من فوق حائط كأنه عين من عيونها يتجسس علينا . كان العشاء جاهزاً بالفعل ، جاء السفط وفيه صينية بطاطس باللحم المسبك بالتخديعة والثوم والبصل ، مع أرز وخبز وفجل وباذنجان محرق . أكلت بشهية تكفلت هى بفتحها ، إذ راحت تزبح أمامى كتلاً من اللحم المفصص ، وتنتقى لى شرائح الباذنجان الطرية ، وتشذب أعواد الفجل ، وتغرينى بالأكل حتى حلفت بالله ما أضع فى بطنى شيئاً آخر . وكان الشاى قد نضج على وهج الفحم المشتعل فى المنقد . قالت :

- " تغسل يديك ؟ " ..

فقممت متجهاً خلفها إلى الحمام . غسلت يدي وفمى بصابونة معطرة ، فيما هي واقفة ممسكة بالفوطة . جففت يدي تم طرحت الفوطة على كتفيها :
- " عشرة هنية ! تسلم يديك ! " ..

احمر وجهها من شدة الإمتنان ، خفضت شعاع عينيها كما تخفض شريط المصباح إلى أسفل كي تلقى بستار من الظل على خيمة الضوء ، فبدت أفتمن من جميع صور الفاتنات التي تعلقها في مدخل شقتها . كانت مع ذلك تبدو تعيسة جداً ، غلبانة جداً ، طيبة القلب وإن حاولت الظهور بمظهر خشن ، بل كانت رغم هذه الحياة الغريبة التي تحياها لا تعرف شيئاً كثيراً عن أمور الحياة ، فمخها صغير صغير ، وحيلتها قليلة ، ورزؤها بهذه البنت العاجزة وحده سبب كاف لوضعها في زمرة التعساء . وجدتنى أربت على كتفيها لأول مرة . يبدو أن يدي قد حملت الكثير مما في مشاعري نحوها لحظتها ، فإذا هي طفلة صغيرة تنتظر هذه الحركة منذ زمن بعيد ، فاندلقت على صدري ، مريحة رأسها على كتفي في حنان حقيقي مصفى . فلما هدأ اهتزازها بعض الشيء ، بدأ صدرها يستقر على صدري ، فضممتها برفق ثم بقوة ، فإذا بهذا الجسد العملاق ينضغط كأنه ممتلئ بالهواء . بمنديل مسحت دموعها . وقبل أن أرفع يدي بالمنديل عن خديها تلقفت هي راحة يدي فطبعت على ظهرها قبلة امتنان حارة . فسحبت يدي بسرعة . وقد لاحظت أنني في هذه الأثناء نسيت أنها امرأة ، أو لعلني نسيت أنني رجل ، وأننى طامع فيها بكل كياني ، إذ لم يتحرك في ذلك العرق النافر دوماً على ذكرها . وكنت أشعر مع ذلك براحة وصفاء نادرين ..

حين جلسنا نشرب الشاي وتدخن النار جيلة كانت إشعاعات عينيها ترسل بوارق تليغرافية غامضة ، إستشعرت منها أنها قلقة بشئ ما . وجدتنى أقول :

- " إعتبرى أنني لم أرك في ذلك اليوم ! " ..

قالت بصوت متحشرج :

- " قلبي وقف لحظتها ! وقعت من طولي ! أغمى على ! كان الناس يفكرون في الجرى وراءك !! لماذا جرئت !! شبهتنى في نظرهم ولكني قلت لهم لما أفقت أنك ابن نحالتي ولم تكن تعرف شيئاً عن مهنتي !! أغمى على بمزاجي لكي ينشغلوا

بى بدلاً من الجرى وراءك ! فأى واحد يجرى فى الأرياف يجرى وراءه الناس من دون أن يعرفوا سبب جريه ! يتصورون حريقاً يلزمه ناس تطفئه ! يتصورونها بهيمة وقعت فى بئر الساقية ويجب إنقاذها ! يتصورونه لصاً عليهم أن يشنكلوه فيوقعوه ليعرفوا خبره ! المهم كيف تأتى لك أن تضبطنى فى هذه الوكسة ؟ ! كنت تتجسس علىّ ؟ ! على فكرة ! أنا تصورت هذا ففرحت وأحببتك ساعتها مع أننى اغتظت منك غيظاً لا يشفينى من غليله إلا خنجر إغرزة فى قلبك !! لكن الله ستر ! كيف جئت ورائى من دمنهور إلى ريف المحمودية !!؟ "

ضحكت فى شئ من الإضطراب :

- " لم أراك فحسب ! رأيت رمضان عريجة وهو يفك البهائم من وتلها ويسلمها لرجلين كانا معه ! ورأيتيه معهما على الطريق الزراعى وهم عائدتين بالبهائم !! " ...

شوحت بيديها فى ولولة ، وقربت أصابعها من صدرها علامة أنها تود أن تشق هدومها . راحت تولول شاحبة الوجه والشفتين :

- " كملت المصيبة ! كنت تتجسس طبعاً ! سمعت أنك فى المباحث ! أكثر من واحد فى الوكالة قال لى هذا الكلام لما عرفوا إنك تسهر عندى ! أنا ربك والحق لم أصدق ! ويظهر أنى عبيطة ! أنت مباحث طبعاً ما فى ذلك شك ! تبع الأداب أم جنائى ؟ ! أنا وحق من حمعنا على غير ميعاد امرأة غلبانة منكسرة كما شفت بعينك ! لا شأن لى بأحد ! فى حالى ! وبصراحة أنا أشتري لك الحشيش خدمة من ناحية ومن ناحية ثانية تعطينى الولية حجرين لى فوق البيعة ! لست أشتري لأحد غيرك ! قلت يا بنت إنه يبدو عليه أنه ابن ناس وطيب وظروفه ما أحد يعرفها غير الله فاخدميه بدلاً من بهدلته لو وقع فى يد الحكومة الغدارة ! ولكنى والله العظيم عبيطة وخاوية ! إنظر لحالى تعرفنى ! غدر بى رجال كثيرون ! كلهم يريدون أكل لحمى بالبخان ! لا يفرنك أننى أعري كتفى وأهز وسطى بين مجموعة أطفال !! إنه أكل العيش المر ! أما أن أنام وأفتح باب نفسى لأى واحد يدخلنى ويمرطنى على مزاجه كأننى خرقة يمسح بها جزمته فلا يحدث أبداً وعمره ما يحصل إلا فى الحلال على سنة الله ورسوله ! جدتى قوت القلوب زرعت هذا فى نفسى وقالت لى من

يأخذ منك شيئاً سهلاً تخسرينه رجلاً وتخسرينه صاحباً نافعاً!! وقالت لي إن المرأة مهما بهلها الزمن يبقى عندها شيء مصون سوف ينفعها في الزنقة!! إذا الذهب ينفع الرجال في الزنقة فشرف المرأة يسرى عطره بين الناس فيأتي زبونه الذي يطلبه أن يجيء!! فإن لم يجيء ماتت المرأة شريفة طاهرة الجسد وربنا يغفر لها جزاء ذلك بقية الذنوب!! أنت مثلاً! نفسك في تريد أن تأكلني! أنا الأخرى نفسي فيك! لكن هذا لا يرضى الله ولن أفعله وأظن أنك لم تعد تفكر فيه! أنا أسهل امرأة تتزوج وأسهل من تطلق!! من ضيقى بأكل العيش المر أتزوج! وأطلق من ضيقى بزوجي الذي تنكشف لي دناءته!! حظى أسود من الهباب! ما وقعت في زوج طيب أبداً!! وكيف أقع على الطيبين وطريقى نفسه لا يمشى فيه الطيبون؟! من عشرين سنة كنت صغيرة ومقطقة! رحت أشتغل مع العوالم أرقص في الأفراح في زف العرايس! الليلة لا بد أن تنتهي بخناقة على الحساب وتوزيع الأجر والنقوطة بعدها خناقة ثانية أشد من الأولى: متعهد الحفلة يريدني أعود معه إلى البيت! رئيس الفرقة يتصدى له! لا ليدافع عني وإنما ليأخذني هو!! الطبال نفسه يشخلعني بمزاج بعشم أن يسرقني منهم جميعاً! حتى صاحب الفرح والمعازيم كلهم يضايقوني حتى عقدوني من جسدى!! هل مكتوب على جبينى أننى سهلة وواقعة من قعر القفة وفي انتظار إشارة من أى أصبع؟! أما والله إنها مصيبة حيرتني!! سنين طويلة مع العوالم بدون راحة! وفلوسهم منظورة ومحسودة وليس فيها أى بركة! صرفتها كلها على البنت العاجزة! على ناس تقعد بها لحد عودتى فجدتني لا تطيق رؤيتها!! بخت أسود! الفضيحة مكتوبة على حتى من غير تفريط في الشرف!! أكبر علامة على سوء البخت أن أفتح عيني فأراك فوق رأسى في مكان بعيد!! .. "

وألقمتني مبسم النارجلية بحركة زغد فيها كثير من الغيظ المبني على كثير من العشم. سحبت نفساً عميقاً، قلت من خلل دخانه الكثيف:

- "إسمعى يا وداد! أنت اشتريت منى طرحتين في السوق! فأنا لست مباحث ولا يحزنون! بل إنى أكره الشرطة بجميع فصائلها كره العمى رغم أنى لا أحتك بها فى أى شئ! أستثقل ظلهم أتمنى أن يكفينى الله شرهم! كنت طالباً وسأعود مرة

اخرى للدراسة من منازلهم فى الجامعة بإذن الله ! وبلدتى قرية فى محافظة الغربية
لكنى جئت إلى هنا على أمل السكنى مع بنت عمى الثرية المتزوجة هنا من شخصية
كبيرة إلا أننى لم أسترح فى الإقامة عندهم فسكنت وحدى فحدث لى حادث
عطلنى عن الدراسة فغضب أهلى على فمنعوا عنى المصروف فجئت للسكنى فى
هذه الوكالة مؤقتاً واشتغلت مع ذلك القماش الذى باع لك الطرحتين !! ويوم
رأيتك فى ثوب الغازية ترقصين بين الأطفال كنا عائدتين من سوق الحمودية !
وكنت أفك حصري فاصطدمت بـرمضان عريجة يفك حبل البهائم ثم اصطدمت
بك ترقصين ! وعلى فكرة ! رأيتك وأنت مارة من جوار السوق راكبة حمارك ومن
ورثك الطبال والرقاق وبعدكم بقليل رمضان عريجة ورجليه !! " ..

- " بخت أسود والله ! "

هكذا رددت بأقتناع شديد . ثم ظهر فى عينيها بريق مفاجئ يعكس أبعاداً من

الذعر والتوجس :

- " رآك رمضان عريجة ؟ ! " ..

- " لا ! " ..

- " ولا أحد من الرجلين ؟ ! " ..

- " من حسن الحظ ! " ..

- " جئت بسيرة الموضوع أمام شوادفى ؟ ! " ..

- " لم أفتح فمى لأى أحد ! " ..

- " الحمد لله !! أنا أصيلة وطيبة القلب ! اياك أن يعرف رمضان عريجة أنك

رأيتك ! اياك أن تهمس لشوادفى أو لأى مخلوق ! ان فى الوكالة ! يارب ! أغفر لى

يارب ! أنت ترانى الآن أفعل خيراً يارب ! هى ليست فتنه أفتنها لكنها فعلة خير

أفعلها من أجلك يارب !! أسمع يا صاحبي ! الوكالة !! تحتها مقبرة كبيرة !! " ..

- " ماذا قلت ؟ ! " ..

- " طربة ! طربة لدفن الحث !! " ..

- " حث من ؟ ! " ..

- " الذين يتخلصون منهم ! عيال صياح أمهاتهم دعون عليهم يجيئون للمبيت فى الوكالة ! تسحرهم الوكالة ! الواحد منهم يغتر بشبابه بجرأته بسوء سمعته فى الخرْبشة ! يصور له الشيطان أن يصبح حاكماً للوكالة بدلاً من شوادفى بأن يكسر أنفه وعينه أمام الباقيين ليركب عليه وعلى الباقيين وعلى الوكالة كلها مثلما فعل شوادفى نفسه مع عطيه !! شوادفى نمس ! مكار ! يعطيه الأمان يذيب له البرشام المنوم فى السأى والسجاير ! يتكوم جنبه بعد دقائق ! يكمل عليه شوادفى بالمندبيل يكتم أنفاسه ! يعمله ! الطربة لا تحتاج لفحت ! فلها فتحه سرية بغطاء كغطاء الجارى ! انها فى الأصل بئر مبنى تحت الأرض فى زريبة المواشى ! له سلم مبنى ومتصل بقاع الأرض البعيد فى دقائق تغيب الجثته فى جوفه ولا من شاف ولا من دري ! وسرعان ما تختفى فتحة البئر تحت روت البهائم !! " ..

صار مبسم النارجيلة يرتعش بين شفقي . صرت انتفض كالعصفور تحت هاطل المطر . إحتمال كبير أن وداد نحاول إلقاء الرعب فى قلبى حتى لا أذيع ما رأيت ويتناثر الكلام إلى سمع الحكومة . وإحتمال أكبر أن تكون صادقة وهذا هو الأقرب إلى الحقيقة لأنها تحكى بإنفعال وحرارة وخوف ثم أننى لا أستبعد شيئاً على شوادفى ، أنه مصيبة كبرى وإلا ما أصبح حاكماً على هذه الوكالة وفيها كل هذه الأنواع من عتاد الجرمين والثوقة الضائعين الضالعين فى التشرذ ..

- إن كنت تكذبين يا وداد فإنك تخسريننى مدى الحياة ! إننى فلاح أموت فى حب العشرة وأدفع عمرى فداءً للصاحب والحق والواجب ! وبنفس الدرجة أدفع عمرى إنتقاماً ممن يخوننى أو يغدر بى أو يستغفلنى ، إن كان قصدتك إخافتى لكسى لا أتكلم فأننى لا أتكلم من حالى ! من أخلاقى وتربيتى الريفية الأصيلة ! فإن كان قصدك إخافتى فأنت تثيرين عنادى ! أنا صحيح أعرف أنهم جميعاً غدارين مجرمين ولكن أنا عندى مخ أستطيع تشغيله بقوة عند اللزوم لأنجو من أصحاب الأبخاخ الشريرة !! فكونى صادقة .معى يا وداد إحتراماً للعيش والملح ! هذا الخبر الذى قلته لى الآن صحيح أم أنه خيال هايف وبايخ ؟ أريد أن أعرف لاحتياط لنفسى فحسب !! " ..

نهضت واقفة بإنفعال ، هرولت فى المر بجسد ينتفش ، عادت ممسكة بلقمة خبز .

- " عدم المواخذة ليس عندى مصحف ! أخاف أن تكون شقتى غير طاهرة بما فيه من الكفاية فيحرقها المصحف الشريف !! ولكن هذه اللقمة كالمصحف بالضبط !! "

وكسرت لقمة الخبز ، ووضعتها على عينها هاتفة بفحيح قوى مجسد :
- " وحق هذه النعمة على عينى ! عيناي هاتان من هذه البلكونة شافت الخنة وهى محمولة إلى الزريبة وشودافى يخرج من غيرها بعد مدة ينفض يديه ورجليه من التراب !! فى الصبح أتفقد سكان الوكالة من حجرة جدتى ؟ أعرف الذى غاب منهم ، أظلم أتفقد أيام طويلة ! لا يظهر بتاتاً ! أتيقن من دفنه ! بعينى هاتين اللتين سياًكلهما الدود شفت الموت والدفن مرات عديدة !! الظروف دائماً تبدأ تخدم شوادفى الظروف فى بلدتنا الوسخة لا تخدم غير شوادفى " ..

أفقت ، كل الأنفاس التى سحبتها بلذة وعمق تبخرت من رأسى وخلفت وجعاً فى عضلات صدرى وضيقاً فى تنفسى . قالت وداد باسمه كأنها تشفق على من الخوف :

- " ما يصح أن تخاف هكذا ! إن شوادفى فى النهاية لا يقول : شر للبيع ! طول ما أنت طيب وصادق وأمين معه يقيد لك أصابعه شموعاً ! كل بعقولهم حلاوة! أنت عندك مخ كما تقول وهم أخناخهم ظلمة كما أوافقك ! شغل مخك على طول الخط معهم ! أفتح عينيك شف كل شئ وأقل فمك ! إسمع كل شئ وكأنك لم تسمع شيئاً ! المثل يقول : ان نزلت فى بلد تعبد العجل حش وارمى له ! وسكان الوكالة والحكومة الصايعة لكهم يعبدون شوادفى لأنه ينفعهم ويتسبب لهم فى الأرزاق الكبيرة من غير تعب ! أنت الآخر حش وارمى له !! إن باله طويل ونفسه أطول وهو يجرب فيك كل يوم تجربة !! " ..

تسللت إلى آذنا دقات الساعة قادمة من الراديو فى مكان قريب وإعلنت المذيعة همت مصطفى منتصف ليل القاهرة . فنهضت واقفاً :

- " تصبى على خير ! " ..

مضت ورائى نحو باب الشقة . توقفت لأسلم عليها ضممتها بقوة حتى
طققت عظامها فتأوهت ، ورغم أنفها خرجت التأوهات أنثوية مثيرة مكهربة ،
فإذا بى مشدود الوتر محتقن الدماء أكاد أحترقها . فصلتني بذراعيها فى رفق ،
همست باسمه فى جدية وأخوة كصديق يسدى لصديقة معروفاً جميلاً :

- " سأعرفك على واحدة تعجبك !! العجربة سندس فى الحجرة المجاورة للحجرة
جدتى أراهن أنها ستجعلك تنسانى ! ليلتك فل ! " ..

حين صافحنى هواء الشارع عادت إلى دماغى كل الأنفاس الهاربة صارت
تشارك الريح فى اللعب بأعطافى ومشاعرى ، من قمة البهجة إلى وهدة الخوف إلى
حضيض الرعب . ضوء الشارع يزداد شحوباً فى ناظرى ، رأيتنى مشكوكاً فى
كلابشات الشرطة مع يد وداد ورمضان عريجة وسيد زناتى وزينهم الشحاذ ،
ورأيتنى مشجوج الرأس حثة محمولة إلى الزريبة لتغيب إلى الأبد فى بئر جوفى
مهجور لا قرار له . وكانت المزارع المترامية على مقربة من الوكالة ترسل فطيرة من
الأصوات المتحاضنه فيها من عواء الذئاب ونقيق الضفادع ونعير السواقى وهدير
الطنابير وجعجة الشواديف وخرير الجنادب ونعيب الغربان وزقزقة الكراون . لم
أكن مع ذلك أشعر بأى رغبة فى دخول الوكالة كأننى أقف أمام زنزانة السجن
المؤبد واننى لو دخلت فلن يكتب لى الخروج إلى الأبد . فوقفت واضعاً يدي فى
جيب سروالى استنشقت الهواء النقى الطرى . إن هى إلا دقائق حتى ظهرت فى نهاية
الشارع الخالى بقعتان سوداوتان ظللتا فى تعاظم حتى ظهر شخصان طويلان غارقان
فى صدى وأسمال بالية . من الواضح أنهما يبحثان عن أى صيد . جعللا يقتربان ،
فلما رأيتنى توقفا على ناصية الشارع وصفر أحدهما فرفعت رأسى ، فأشار بأصبعه
فى حركة أمر أن تعال ! ففى الحال طرقت باب الوكالة بلهفه وخوف ثم دفعت
الباب فانفتح فانزلقت فى فتحته فى اللحظة التى وصل فيها الشريدان وأوشكا على
الأمساك بى فدفعت باب البوابة فى وجهيهما وسمعتهما فى الخارج يضحكان
ويشخران فى لهجة يأس ولا مبالاة .

وشوشة

معظم صبيان الوكالة لا يسرحون يوم الجمعة إلا سندس الفجرية فإنها تحمل سفتها على رأسها وتمضى ، مرتدية ثوباً من الشيت الرمادى المبرقش بكور صغيرة خضراء قائمة ، كاسر لحد الكعبين فوق الخلتالين بكورنيش عريض ؛ وفى منطقة الصدر والجذع كسور وكشكشة مما يحقق للصدر وللطن وللردفين بروزاً لطيفاً يشير إلى أن تحت هذه الثياب أنثى فاتنة . الوجه طريف ساحر كأنه مرسوم بريشة فنان فرعونى قديم شعبى جداً ، تنقصه الرصانة والنعومة فى الخطوط لكن الملامح فى جملها جذابة إلى حد كبير جداً . وجهه كطبقة من الفخار فى لون السمن البقرى ونعومة الملمس رغم خشونة المظهر ، ولمعانه ، مرسوم عليه عينان ضيقتان قليلاً ، حادتى البصر ، برموش طويلة سوداء ، تحت جبين كحبة الرمان ، فى مقدمته حاجبان كثيفان أسودان ، وفى أعلاه المنديل أبو أويه المشغول بالفل والترتر ، يخفى شعرها فى برمة عرباوية عتيقة ، والشال القطيفة الأسود . الأنف مستقيم مدبب شامخ الطرف مخروم من أسفله ، وتتدلى فردة قرط من الذهب على شكل مخرطة الملوخية . بين الحاجبين نقطة وشم خضراء ، وتحت الأنف ، مكان الشارب ، وشم آخر على شكل خطين بالطول ثقيلين متجاورين يتصلان بمثلين لهما فى منتصف الشفة السفلى وينحدران إلى وسط الذقن . العود سمهرى لذن ، والمشية - وهى حاملة السفت - معجباتية كمشية الفرس فى طريقها للقاء خيالها تكاد تنفرط من البهجة . كل عضو من أعضاء جسمها يتحرك كأنما ليمشى وحده فى حرية كاملة لكنه ما يلبث حتى يتقابل يتضافر يتدافع مع بقية الأعضاء الأخرى ..

منذ أن حدثتني عنها وداد بدأت أترقبها باهتمام ، ثم بدأت ألح على وداد أن تعرفنى بها بالفعل . وقد تم ذلك بكل جرأة وبساطة ذات عصرية رقيقة النسبات ؛ إذ فوجئت بطرق خفيف على باب حجرتى فقلت فيما أعتدل جالساً : أدخل . فدخلت وداد ساحبة خلفها سندس تحمل سفتها على رأسها . وقفت مرحباً بهما ؛ وسعت لهما مكاناً على المصطبة لكن سندس تفرقت على الأرض أمام سفتها

فيما جلست وداد على حافة المصطبة . كان الباب موارباً ؛ وقالت وداد بلهجة ذات معنى :

- " شوفي للأفندي بخته ! وشوشي الودع ! إضربي الرمل ! افتحي الكتشينة !
إفتحي قلبه ! دماغه ! هاتي كل ما في جوفه !! " ..

تمدد الوشم على وجه سندس واتسعت المساحات بينه في نفس الوقت ،
وظهرت أسنانها الدقيقة المسممة وسبح في محيطها الداخلى لسانها الزرب بلهجة
عرباوية معوجة الحروف مندفة متلاحقة بصوت دافئ يشبه صوت الرجال في
عرضه وغلظته لكن إيقاع الأنوثة مدو في عمقه السحيق . أخرجت من تحت غطاء
السفط رقعة قماش كالمنديل ملفوفة ، فكت لفتها ، فردتها على الأرض ، فإذا هي
حفنة رمل وودعتين صغيرتين . صارت تخط فوق صفحة الرمل بأصبعها :

- " اسم الكريم ؟ "

- " فلان ! " ..

- " واسم الكريمة والدتك ؟! " ..

- " فلانة ! " ..

- " مكتوب لك عيش في الغربية ! والمكتوب مامنه مهروب ! الدنيا ظلمتك
وأنت لا تستحق ولكن الصبر مفتاح الفرج ! بچاك الله من قضية رزية فما كانت
هي ؟! لا تقلها ولكن قل : حصل أم لم يحصل ؟! " ..
- " حصل ! " ..

- " انسان كان لك مثل الأب أو الشيخ أو المعلم كان يقرش الملح من جهتك
يعبى صدره بالشر عليك فمن يكون لك ؟! " ..
- " معلمى فى المعهد ! هذا غريب حقاً ! " ..

- " أحببت انساناً كبير القلب أحسن اليك ! وغرد فى حطب سقفاك طير
كبير نادر المثال قليل الحظ وما كاد يملأ حياتك بالأنس حتى اصطاده الصياد فمن
يكون بالنسبة لك ؟! " ..
- " بدرية ! " ..

- " هناك كهل عجوز يعطيك ظهره ويمشى غاضباً منك ينوء ظهره المحنى بجبال
الهموم فمن تراه يكون !؟" ..

- " لا بد انه أبى ! "

- " وامرأة قصيرة القامة بيضاء الوجه تحمل همك فى الصحو وفى المنام تنزع
اللحمة من فمها تشيلها لك فى حرز حرير فمن هي !؟ " ..

- " الواضح أنها جدتى أم أمى ! " ..

- " أنت أبيض القلب ! سريع الغضب ! كاللبن الحليب يفور ويدلق نفسه على

حواف الإناء فلا يخسر إلا نفسه ! أنت مثل التين الشوكى ظاهره شوك وقلبك بذر

كالعسل ! الفرع طيب والأصيل أطيب ! كريم النفس والكريم لا يضام ! دائماً أبدأ

بصادفك أولاد الحلال يقدمون لك الخير والقول الحسن ! ينير الله بصيرتك يعطيك

كثيراً مما لا يعطيه لغيرك ! تخيرك فى حسن المال لا فى كثيرة المال ! إن كنت اليوم

فى ضيقة فلا تقنط ولا تجحض ! من يستهزئ بك اليوم يوقرك غداً ومن يضيق منك

اليوم سوف يسترضيك بإذن واحد أحد ! حظ سالك وناج من المهالك لا مكان

فيه لعزالك وملئ بعلامات السعد لعيالك ! عما قريب تخرج من حفرة وقعت فيها

غصباً عنك إلى جبل عال فيه مآذن ونخيل وأشجار وفيه ورد وطيور وأبراج حمام !

فعاهدنى عهد الله بحق نبيه المصطفى وبحق النهار إذا اتسق والبدر إذا أكتمل

والضحى إذا تجلى أن تتذكرنى بحلاوة البشرى وطيب الذكرى ! قل اللهم آمين ! " ..

- " اللهم آمين ! " ..

قلتها وأنا مقع أمامها فى العلو كالتلميذ النجيب الذى راح يردد خلفها تفاصيل

الدرس . شعرت انها ليست سهلة ابداً ؛ إنها فى منتهى الذكاء وسرعة البديهة ،

خبيرة بقراءة الوجوه والتقاط رموز المشاكل والهموم فى خطوطها الإنفعالية فتصل

بالرموز إلى ما يقرب من الحقيقة وبالخطوط إلى ما يقرب من الجذور الأصلية .

عجب والله وأى عجب . هذه البدوية الأمية اللبقة لم تتعثر فى عبارة واحدة بل إن

فيها لفصاحة فطرية يفتقدونها الكثيرون من المتعلمين فى المدارس والأزهر ، فمن أين

أتت بها ؟ ومن أين توفرت لها هذه الخبرات بالنفس ومحاولة استنباط ما فيها

باستكهان لا يخيب ولا يطيش إذ لا بد أن يجيئ فى كلامها جزء كبير بل كبير جداً

من الحقيقة . لا بد أنها خبيرة بصفات يتشارك فيها أعداد كبيرة من البشر المتشابهين، لتفسيرها عندها أصداء مضمونة التجاوب في كل هؤلاء الذين يحملون هذه الصفات . أهي ثقافة فرعونية قديمة ورثتها عن أجدادها مثلما ورثت أرض سيناء الأديرة والكهان والتاريخ ومناجم الذهب والفيروز وهجمات الغزاة!؟ ..

أيقنت أن علاقتي بهذه العجربة سندس سوف تكون طويلة المدى عميقة الأواصر . إن الذكاء المطل من عينيها نافذ وحاد ، وفيه لسعة طرية باردة تغريك بأن تقهره فوق فراشها بلذة دافقة ، وأن تقضم مقدمة هذا الأنف المستفز الشبيه بقرن الفلفل الأحمر ، وتعضض هذه الرقبة الطويلة المبرومة ، تطوف بالعقد الكهرماني الملتف حول عنقها ..

نظرت لى وداد نظرة ذات معنى . فاعتدلت ، وسحبت المحفظة من تحت الوسادة ففتحتها فسحبت بريزة ورقية مخرخشة ؛ قدمتها لسندس بقليل من الحياء . فسلفتني بنظرة كاللهب :

- " عيب عليك ! إننا جيران وإخوة ! " ..

وقالت وداد :

- " سندس كريمة من بيت كريم ! تستطيع أنت أن ترد لها الخدمة بخدمة مقابلة في أى وقت يعجبك ! " ..

قاطعتها سندس :

- " إذا ردها لا تكون خدمة ! لا منه ولا منى ! " ..

غمزتنى وداد بقرصة خفيفة . قلت :

- " ولكنى أحب أن أراك كثيراً يا سندس ! إن كلامك فيه حكمة ! وبصيرتك نيرة بالفعل ! أرجو أن تعتبرينى أختاً لك هنا ! " ..

بطرف عينيها نظرت لى وداد ساخرة من سذاجتى كأنى تلميذ سقط فى الإمتحان ؛ ثم اعتدلت كأنها ستدلى بالجواب الصحيح :

- " على كل حال تعال نسهر سهرة عند سندس ! القعدة عندها تجنن ! حجرتها مثل الصندوق وهى تجعلها كالسفيرة عزيزة كصندوق الدنيا ! وعندها جوزة مثل القلة القناوى من الفخار مياها باردة ونفسها يرطب الصدر ! والشاى

من يلها لا تشربه بعلمها من يد أخرى ! أما الأكل إن وضعت فيه نفسها فلا بد أن تجر به ! ..

قلت محاولاً إثبات ذكائي هذه المرة :

- " شوقتنى يا و داد ! فلتكن سهرتنا عند سندس يوم الخميس القادم ! فما رأيك يا سندس ؟ .."

- " الدار دارك فى أى وقت تشاء ! .."

- " إتفقنا ! .."

وخرجنا . وفيما كنت خارجاً إلى الدكان مساء ذلك اليوم استوقفتنى شوادفى وشرح لى ، بدون مناسبة ، كيف أنه يرضى دائماً كلما رأى سكانه يتحابون ويتزاورون ويتبادلون الطعام ، فكلما قام العيش والملح بينهم اتقينا شر الخيانة والغدر .

سندس واهريسة

استسمحت محمد أبو سن في إجازة مساء الخميس بحجة السفر إلى بلدتنا خميساً وجمعه ؛ فوافق عن طيب خاطر . ومد يده بجنيه كامل :
- " اشترى به شيئاً لإخوتك على حسابي ! إياك أن تطمع فيه وإلا فإنه يقش ما جمعته في الحلال ! .."

كنا في وقت الضحى . وكنت مرتدياً ثيابي النظيفة التي أقف بها في المحل ، فمضيت متوغلاً في شارع سوق الخضار والفاكهة المتفرع من شارع السوسى ، على ناصيته محل فواكه الفخرانى ، نظيف جداً ، يشبه الصيدلية في واجهاته وفتارينه الزجاجية . الفاكهة معروضة أمامه وداخله في شكل مدرجات من الصناديق الكرتونية مملوءة بأنواع لا نهاية لها من الفاكهة . آخر ما كنت أتصوره أن أرى الفواكه التي يعرضها الباعة في أقفاص وأسفاط وعربات يد يمكن أن يعتنى بها هكذا للدرجة أن كل برتقالة أو تفاحة أو منجاية أو حتى جوفاية وبلحاية ملفوفة وحلها في ورقة زبدة ومرصوصة بجوار بعضها فوق بعضها كحبات العقد ؛ والرصات التي على السطح قد رفع النقباب عن بعضها بانفتاح الأوراق فبدت كوجوه صبوحة تطل من تحت الطرح الملونة . مهرجان من الروائح تضرب سرادقاتها إلى نهاية الشارع ، لا ينافسها إلا بائع الهريسة الواقف بعربته على ناصية قرية ، والنار الهادئة تنساب تحت صينية الهريسة مرسلة عبقاً من السمن البلدى والفانيليا . محل الفخرانى له بابان على الشارع العمومى وثالث على الشارع الجانبى ، جدرانه مرصعة بالمرايا وسقفه أيضاً ؛ والمراوح المتدلية من السقف تدور في حمية لتظهر في المرايا عشرات المراوح وحركة الشارع كلها ؛ مما يجذب كل مار إلى التوقف ثم النظر في انبهار ..

إلا أن كيانى كله انصرف إلى بائع الهريسة على الناصية البعيدة في آخر الشارع ، حيث يلتحم هذا الشارع الجانبى بالشارع العمومى الكبير ، فكأنه جيب مستطيل بفتحتين تقودان إلى اتجاهات مختلفة . كنت أمر عليه كل يوم في طريقى إلى المعهد حينما إنتقل المعهد من عمارة المعلم عدس في كوبرى افلاقة إلى مبناه

الخاص فى شبرا دمنهور ؛ فأرى الزحام حوله من الأفندية والعمال وراكبى الدراجات يتوقفون : هات حتة بنصف أفرنك ! بأربعة صاغ ! بشلن . والرجل يرد على كل واحد بمزحة تضحكه : لك ولا حتا كلها ؟ ويسجى على الطبق بالسكينة المبطة شريحة تملأ العين يتصاعد منها دخان رقيق ؛ ثم يغمس السكين فى سلطانية السمن السايح الساخن فيسقى بها خرطة الهريسة ، يضع بجوارها شوكة صغيرة ؛ يقدم الطبق لطالبه ؛ فإذا يمد هذا يده لتناول الطبق يهبط الرجل بيده دفعة واحدة فى دربة مازحة ، فيفزغ صاحبنا يرتاع ظاناً أن الطبق قد أفلت على الأرض . متعتى كانت الفرحة على هذا المهرجان كل صباح ؛ وأمنيتى كانت أن أتلقى مداعباته هذه ولو بنصف فرنك . الآن قد آن الأوان لكى أشتري خرطة كبيرة ربما نصف أقة . هذه فكرة طيبة للغاية وما أحلى دخلتى بها على سندس العجرية ، أشيك وأرخص من فاكهة الفخرانى التى لا أجرؤ على الإقتراب منها لجرد السؤال عن سعرها ..

حودت أولاً على سوق السمك : حاره سد متفرعة من شارع السوق . رأيتنى منجذباً للسير خلف امرأة عرباوية رشيقة القوام كانت تسير أمامى حاملة سفظاً على رأسها ، تشبه إلى حد كبير هيكل سندس حتى فى مشيتها . كنت أعرف أن ريف دمنهور العريض يحوى الكثير من المغاربة والأعراب المستوطنين من قرون طويلة ويجيبون دائماً إلى دمنهور للتسويق والتسوق . توقعت أن هذه المرأة العرباوية تزعم شراء سمك . أنا الآخر جئت لأشتري أكلة سمك نسهر عليها عند سندس لنحلى بالهريسة ..

أخذت أرسل النظر على الجانبين فى جنبات البلطى والبورى والمياس والقراميط والشعابين والمفروشة امام الباعة فى كثرة كثيرة . هذه أول مرة فى حياتى أتوقف فيها أمام بائع لأشتري شيئاً كهذا من حر مالى . كان يخيل لى أن الباعة جميعهم يعرفوننى معرفة شخصية وأنهم سوف لن يصدقوننى إن وقفت أمامهم كالزبون المحترم وسألت : بكم ؟ بله أن أقول : زن من هذا وانتق من هذا . لن يأخذ أحدهم الأمر بجدية على الإطلاق . ربما كان هذا هو سر الخجل الذى أصبحت استشعره كلما هممت بالتوقف امام بائع ، إذ أرانى قد أحجمت فجأة ؛ فأواصل السير

مفكراً فى كيفية اقتحام البائع بجرأة كأى خادم أو امرأة من هولاء الذين يزعمون فى الباعة أمرين بالذمة وبعدل الميزان . فكرت أن أعطى لسندس أو لوداد بعض النقود لتجى هى فتشترى لنا أكلة تصلح لإقامة السهرة المنشودة ، إذ يجب تكون سمكاً على وجه خاص ، وثمانين على وجه التحديد ، لما سمعته عن مزايا أكل الثعابين المائية فى إلهاب الجسد بالطاقة والحيوية . تذكرت أن فى آخر هذه الحارة بائعاً يعرفنى جيداً ؛ فلأذهب إليه فإنه الوحيد الذى لا حواجز بينى وبينه ..

عيناه التقطتا عينى من بعيد ، فابتسم ملوحاً بذراعه فى اشتياق كبير . كان كعادته جالساً على عتبة آخر بيت فى الحارة . هو بيت عتيق جيداً من خمس طوابق، شبابيكه مستطيلة بشبكات من الحديد من خلفها درف الشيش والزجاج لكنها لم يعد فيها زجاج بقدر ما فيها من ألواح كرتونية كالحلة تحل محل الزجاج ؛ بعض الشبايك منزوع الدرف أصلاً ومسدود بخشب الأبلكاش والورق المقوى والصفائح المفرودة . منظر البيت يشى بأنه كان ذات يوم بعيد على شئ كثير من الأبهة والعز والفرخامة ، بدليل هذه المشغولات الزخرفية فى عقود الشبايك وإحاطتها بما يشبه التاج الملكى . الباب الكبير المرتفع القامة بدرفتين من خشب عتيق كالحديد أزورتا ، كل منهما التصقت بالحائط قد ملأ التراب والصدأ والعفن ما بينها وبين الأرض فتسمرت فى مكانها فبات الباب مفتوحاً على الدوام بعتبة مرتفعة عن أرض الشارع بثلاث درجات من رخام شاخ وتاكل . على اليمين شقة من ثلاث غرف ؛ وعلى اليسار أخت لها فى حجمها والباب مواجه للباب يفصل بينهما ممر عريض مبلط بالرخام العريض المربع . والسلم فى المواجهة ، يوصل فى كل طابق إلى بسطة تفصل بين شقتين كهاتين متقابلتين ؛ كل باب من درفتين كل درفة فى أعلاها شراعة كشريحة مستطيلة بشبكة حديدية من خلفها باب زجاجى حاجب . على كل باب مطرقة من النحاس على شكل يد تمسك بين اصابعها كرة صغيرة تنام اليد بها فوق رقعة نحاسية بحوفة ؛ على الطارق أن يمسك هذه ويطرق بها طرقة خفيفاً يسمعه من الداخلى وهو فى سابع نومة .. هو بيت حميم جداً بالنسبة لى ..

ما كدت أقف أمام عم حنبوطة حتى شعرت بدوار ، وجف ريقى ؛ إذ ما كان يجب أن أجيء إلى هذا المنزل بقدمى ، أنا الذى تجنبت المرور فى المنطقة المحيطة به منذ وقت طويل مضى . فى هذه الشقة التى على اليسار تسكن حماة محمد فسدى ، مع ابنها محمد أفندى حسن ، باشكاتب سنترال دمنهور ، وابنتها وفدية ، العانس ، البالغة من العمر ثلاثين عاماً دون أن تتزوج لأنها تشبه أخواها تماماً ، الذى يشبه بدوره أباه إلى حد التطابق بينه وبين صورته المعلقة فى برواز على الحائط . فالأب نوبى ، كان جاويشياً فى البوليس كما تشهد صورة ثانية له باللبس الرسمى الكامل ؛ تزوج امرأة بيضاء شاهقة من بنات هذه المدينة واسمها مصرية ؛ فأنجب منها ثلاثة أبناء : محمد أفندى حسن ، الذى حصل على الشهادة الابتدائية وتوظف بها فى السنترال ثم تولى مسؤولية الإنفاق على البيت بعد موت والده . وقد ظل يؤجل زواجه حتى وصل إلى مشارف الخمسين من عمره دون زواج ، ربما لياسه من الوقوع على الفتاة العذراء التى ترضى به إذ أنه مكبظ الوجه بصورة منفرة جداً غليظ الملامح والأسنان والشفيتين وكذلك الشعر والحاجبين ، يصف شعره إلى الوراء بعناية بعد دهنه بالمساحيق لتلميعه ، ويرتدى البدة ورباط العنق . وهو لطيف جداً ، ورقيق ، وكريم ؛ يتحلى بالصمت العميق ومتابعة الحديث بعينيه وانفعالات وجهه الفخارى . بعده فى ترتيب الميلاد تجى أخته صفية ، ثم أخته وفدية ، التى تشبه تماماً فى كل شئ ، غلظة الملامح والشفيتين مع بروز ضبين فى مقدمة الأسنان؛ وهى مع ذلك فارهة القوام منحوتة الجسد رقيقة ، كلماتها مسممة ذات وقع مريح ، كما أنها طباحة ماهرة ، ومدبرة ، تشتغل بتطريز المناديل بالإبرة للجارايات فتقضى معظم النهار إما فى السوق لشراء الخضار أو فى محلات الخردوات لشراء الخرز والترتر ، وتحوش لنفسها الكثير من لوازم العروس . وقد دار عليها عرسان كثيرون ولكن لا أحد يعرف لماذا يهربون فى آخر لحظة . مع ذلك فالبنت خفيفة الظل مرحة لا تتأثر بسوء حظها ، وتردد دائماً أن ربنا يعرف أنها تحب أمها ولن تقدر على فراقها فيبقىها بجانبها ؛ وأمها القصيرة القامة السمينة الجالسة على الكنبه تنظر إليها فى إشفاق وحزن تتضح بعمقه عيناها العسليتان البائستان . أما الأخت الكبرى صفية ، فقد ورثت طول قامه أبيها وبروز السنيتين الأماميتين

المفلوجتين بخفة ظل ، والحاجبين الثقيلين ؛ كما ورثت عن أمها بياض البشرة المحمرة
وسمسة الملامح ؛ ولهذا تزوجت مبكراً من محمد فسدق ، الذى يعمل حاجباً فى
محكمة الإستئناف الكبيرة ، غير أنه تخصص فى إدارة بوفيه المحكمة الذى يستأجره
من الباطن ويديره مرتدياً الطربوش والبدلة الصفراء النظيفة ويختص بتقديم القهوة
للقضاة فى غرفة المداولة ..

محمد فسدق استطاع أن يدخر القرش فوق القرش حتى اشترى بضعة أمتار فى
أرض زراعية متاخمة لحي شبرا دمنهور ، إبتنى فوقها بيتاً صغيراً مكوناً من حجرتين
وردهة بغير سقف ، ونفدت نقوده عند التسقيف فاستعاض عن البتن بعروق
الخشب والبوص والخيش . أقام هو وزوجه فى الحجرة الكبيرة والمسقوفة وحلها
بالبتن ؛ فرشها عبارة عن حجرة نوم وبضعة كراسى نثرها بين السرير والدولاب ؛
والأرض مفروشة بكليم رخيص فوق حصير . فى هذه الحجرة تجلس زوجته صفيحة
طول النهار تطبخ على وابور الجاز أو تغسل أو تطرز المناديل التى ترسلها لها أختها
وفدية ، فى انتظار عودة زوجها محمد فسدق من المحكمة فى الثالثة ظهراً فيتغذى
وينزل إلى المحكمة ثانية ليعود فى حوالى التاسعة مساء ؛ ويحلو لها دائماً أن تقول عن
زوجها : محمد راح المحكمة محمد ماجاش من المحكمة ، تقولها بجدية وبساطة حتى
يظن المستمع أن زوجها لابد يعمل قاضياً أو مستشاراً . أما الحجرة الثانية فقد
عرضها للإيجار وقادنا إليها السمسار بعد شهر طويل قضيناها نساكن فى كوبرى
إفلاحة رغم انتقال المعهد إلى شبرا دمنهور على مسيرة نصف ساعة . كنا أربع طلبة
من بلدة واحدة ؛ كل واحد فينا يدفع ثلاثين قرشاً فى الشهر . وبهذا استفاد محمد
فسدق فائدتين : مائة وعشرين قرشاً فى الشهر ، وأربع شبان يجرسون زوجته فى
غيابه فى هذا المكان البعيد عن المدينة القريب من لصوص الليل وقطاع الطرق ؛
وفى نفس الوقت يأتنس بهم فى الليل . هو واثق أن الطلبة الفلاحين لا يجرؤ واحد
منهم على التعرض لزوجته بأى سوء .

أول ما تقع العين على محمد فسدق وزوجه صفيحة تصدق بأن الطيور - حقاً -
على أشكالها تقع ؛ فإنه هو الآخر كبير الأسنان بارزها بصورة غير طبيعية ، لدرجة
أنه لا يستطيع إطباق شفثيه على بعضهما فكأنه بلا شفثين أصلاً . أما حينما

يضحك - وهو دائم الضحك على الفارغة والملائة - فكأنه تمساح يفتح فكيه
لاصطياد فريسة من الهواء ، بصوت عريض أقرع لا جلجلة فيه ولا صهللة رغم
محاولته افتعال ذلك . كلاهما ، محمد وصفية ، طيب القلب جداً ، وعطوف .
كانت صفية تطبخ الطبخة وتجلس فى انتظاره وهى تعلم أنه سيتأخر فى الحجى
كالعادة . حيثئذ نكون قد عدنا من المعهد ولبسنا الجلابيب وشرعنا نقرش الخبز
اليابس المغموس بالملح أو الفلفل البايطة أو اللفت المحدث أو المش الذى نجى به من
البلد . الحجرتان متصلتان بباب داخلى فضلاً عن البابين المطلين على الردهة . هذا
الباب الداخلى لا يغلق أبداً إلا عند النوم ؛ وصفية على الدوام جالسة فى مواجهة
هذا الباب ترقبنا فى تأمل أسيف ؛ فكثيراً ما تشرد بعينيها الواسعتين شروداً طويلاً
حيث تتجمد ملامح وجهها فلا يتحرك فيها سوى حبتان سوداوتان تروحان
وتجيبان كالمكوك فى بحيرتى عينيها المليقتين بسائل نصف متجمد كأنها دموع
مؤجلة أو فائض دموع على وشك الإنسكاب ؛ ثم تقطع هذا الشرود فجأة
صائحة: يا مصطفى . ولاندرى لماذا زميلنا مصطفى بالذات ؛ ربما لأنه هو الذى
استأجر الحجرة باسمنا وهو الذى يجمع الإيجار منا ويدفعه لها أول كل شهر ؛ وربما
لأنه الوحيد فىنا الذى يظهر عليه أنه ابن ناس ، بوجهه الأحمر الوسيم المرغدد
وصحته المتينة وثيابه الكثيرة النظيفة إذ هو ابن تاجر حبوب فى بلدتنا وهو ابن
شقيق الحاج مسعود زوج ابنة عمى . مايكاد مصطفى يسمع اسمه حتى يرد فى
الحال بأدب جم كأنه يرد على أمه : نعم يا ست أم أشرف ؟ تقول له بصوت قوى
رنان : تعال ياخويه ، بلهجة من يريد أن يقول : لامفر . فحين ينتفض ذاهباً إليها
عبر الباب الداخلى تكون رائحة الطبخ قد ارتفعت فجأة بصورة مسكرة ؛ فنعرف
ونحن منزوين كل فى ركنه فوق حصيرته وبطانيته ومخدته بجوار صندوق زوادته ،
أنها رفعت غطاء الحلة لتعرف منها فى الطبق . مصطفى يعرف مقدماً أنها ستفعل
ذلك وأنه سيتمنع ، ومع ذلك يذهب إليها فى كل مرة ، ليقف على مبعدة قليلة .
تكون هى قد ملأت الطبق بالبطاطس أو الفاصوليا أو البامية وفوقها أربع فتافيت من
اللحم الشهى ؛ تمد الطبق نحو مصطفى بذراعها الطويلة البضة ويدها النظيفة البيضاء
المتخنتحة ؛ فيدور لسان مصطفى بنفس الكلمة : لا ! متشكرين ! متشكرين ! إحنا

اتغدينا خلاص ! والله والله اتغدينا خلاص ! متشكرين !.. فتصيح فيه بصوتها
الرتان المصلصل : ياواد امسك أمال ما تتعش قلبى ! ، ولسانه لا يكف عن ترديد
نفس الكلمة ، ونحن من وراء ظهره تتبادل النظرات اللاعنة الحاقدة عليه . ولكن
مصطفى ينعل هذا لثقتة التامة أن صفيه بعد بأسها منه سوف تنادينى : طب تعال
أنت يا فلان !! إنت اللي مريحنى ! صريح وما تعرفش اللوع ! ؛ فى الحال أنتفض
إليها ؛ فأمسك الطبق بيدى الإثنين ؛ ثم أستدير عائداً ومصطفى من خلفى ؛
فأمضى به إلى حصيرتى ، وأضعه على الأرض فى بقعة محايدة ؛ فيجئ مصطفى
متأبطاً رغيفاً كالمطرحه ، ويتسلل النمس وراءه ، ثم بهى الدين ؛ حيث نتربع
متحلقين الطبق ؛ لبدأ التكسير مع القرش من جديد ..

كثيراً ما يدخل علينا فى هذه اللحظة محمد فسدى ، ويكنى بأبى أشرف ،
فيجدنا نكافح باللحم الناشفة فى تمسيح بقايا الطبق ؛ فيمسحنا بنظرة من عينيه
اللوزيتين البارزتين تحت حافة الطربوش ، واضعاً يديه فى جيبي الجلباب الإفرنجى
ذى الياقة ، يهزهما فتشخلل القروش التى لاشك أنها حصيلة البقشيش ، يفشخ
حنكه ضاحكاً :

- " آه يا أولاد البالسة ! كانى خلفتكم ونسيتكم ! " .

ثم يدلف إلى حجرته :

- " سالخير يا صفيه ! " ..

ثم ننصرف فى الحال إلى محاولة الخلاص من مهمة كتابة الواجب قبل أن يجئ
محمد فسدى ليوانسنا بالجلوس ، معتمداً على ترحيبنا به من أجل خاطر عيون الشاى
الذى سيسقيه لنا معه ، ويظل يصدع رعوسنا بالحواديت عما دار اليوم فى محكمة
الجنايات ، وكلمات المديح التى تلقاها اليوم من القاضى فلان والمستشار علان ؛
حتى إذا وضح له أن النوم قد تمكن من عقد أجناننا بصورة سافرة تركنا فأغلق
الباب الداخلى ، ليزج بنفسه فى الفراش ، ولحظتها يطير النوم من عيوننا ، إذ نسمع
السريير يطقق بجمعجة صاخبة ، ثم بصوت مكتوم هادئ ، كبراكين تتضارب تحت
الأرض باعثة فينا شعوراً فائقاً باللذة نتندر به فى الطريق إلى المعهد صباحاً أو فى
الفسح ..

أخيراً أراد محمد فسّدق أن يحسم مسألة الأكل هذه ؛ فطراً على حديث السهرة
موضوع جديد استغرق أسابيع طويلة حتى أقنعنا به :

- " الآن أنتم غرباء هاهنا لا أحد يطبخ لكم اللقمة ! وأكل السوق هفق لا
يمرى على الجسم ! تاهت ولقيناها ! أنا وزوجتى مستعدين لخدمتكم بالبحان ! فأنتم
كإخوتنا ! كل ما عليكم أن تساهموا فى نفقات الأكل ! إسمعوا ! أنا مسئول عن
أكلكم وشربكم فى الفطور والغداء والعشاء ! وأنتم تدفعون الإيجار ثلاثين قرشاً فى
الشهر لكل واحد ! فليدفع كل منكم جنيهاً واحداً فقط ! منه إيجار ومنه أكل
وشرب يابلاش ! ثلاث طقات فى اليوم يابلاش ! وأكل محترم كما تعرفون ! فما
قولكم !؟ " ..

مصطفى كان أول الموافقين بدون تمحيك . ومن بعده بهى الدين لأنه ابن
مزارع ميسور الحال يملك خمس فدادين من أرض الإصلاح الزراعى التى وزعها عبد
الناصر فيما بعد على من كانوا يزرعونها . وبهى الدين مثل مصطفى يصرف ضعف
هذا المبلغ على أفلام السينما . أما النمى فهو ابن أرملة لا ترسل له شيئاً على
الإطلاق ، لا تعطيه سوى قفة الخبز المشقق الذى تدخره من كد عملها كملاية لدى
بعض الأسر ، وتدبر له أجرة القطار راتحاً غادياً ، والإيجار ، وهذا يعتبر كثيراً جداً
عليها . وهو مثلى يؤمن بحقيقة مثل راسخ فى ذاكرة بلدتنا : " إن حضر العيش -
يعنى الخبز - يبقى الملح - أى الغموس - دلع ! " أى من قبيل الرفاهية . أما أنا
فمصرفى يكفى بالكاد لكل يوم قرش تعريفة ؛ وهذا المبلغ الذى يطلبه محمد فسّدق
يعتبر بالنسبة للنمى ولى رقماً فلكياً نكتفى إزاءه بالصمت باعتباره من الأمور
الكونية التى لا نملك حق الكلام فيها أو شغل الدماغ بها . لكننا مع ذلك فوجئنا
بأن الأمر قد دخل فى طور التنفيذ الجاد ، إذ يبدو أن محمد فسّدق اعتبر صمتنا من
قبيل الموافقة ، فشرع ينظم موعد الوجبات ونوعياتها فى الفطور والغداء والعشاء
شكل فيه منتهى الإغراء والعز لم نشهده فى بيوتنا . وإمعانا منه فى الكرم ، وعلى
بل الربط النهائى للكلام ؛ بادر محمد فسّدق بتنفيذ مشروعه الغذائى فى اليوم
لى مباشرة ..

عشنا فى رغد من العيش لمدة ثلاثة أشهر ؛ ما نأكله فى الفطور لا نأكله فى الغذاء أو العشاء ؛ والشاى ضرورى إثر كل وجبة ، وبالحليب فى الصباح ؛ حتى تغيرت سحناتنا فتدفق الدم فى وجوهنا وصرنا ميالين إلى المرح والصفاء والرغبة الجادة فى المذاكرة . صرنا عائلة واحدة ؛ فعرفت أقدامنا طريقها إلى بيت الحماة كل بضعة أيام خاصة أيام الجمعة مع محمد فسدى وصفية ، لتغدى معاً هناك ، ويجالسنا محمد أفندى حسن مسافة شرب الشاى وتدخين سيجارتين ثم ينصرف إلى سنتراله ؛ لنبقى نحن حتى أذان المغرب ، وننقل عائدتين ، نتبادل حمل الطفلين فى الطريق . كان مصطفى وبهى الذين يدفعان كل شهر حسابهما بانتظام . أما أنا فقد زعمت أننى أنتظر حلول موسم الحصاد حتى يحصل أبى حقوقه لدى الفلاحين فأدفع له حسابيه كله دفعة واحدة . فلما ظهر على محمد فسدى ميل للإقناع إقتدى بى النمى فزعم نفس الزعم . وكان حرياً بمحمد فسدى أن يكفر بمزاعمنا هذه لولا أن حدث حادث بدد ركود أيامنا وأنعشنا لبضعة أسابيع ؛ ذلك أن الحاج مسعود القبائى زوج ابنة عمى جاء موفداً من قبل أخيه فى بلدتنا لكى يزور ابنة مصطفى فى مسكنه ويتأكد من صدق هذا النظام الجديد الذى ادعاه الولد ليأخذ بموجبه جنيهاً فى الشهر فوق مصروفه . إذا تأكد للحاج مسعود أن الأمر صحيح لا نصب فيه ولا احتيال من جانب الولد ، أبدى إعجابه الشديد بهذا النظام ، وامتدح أصالة محمد فسدى وزوجه فلما تطرق الحديث إلى تبليطى فى الخط أنا وزمىلى النمى فيما يختص بدفع الحساب المتفق عليه ؛ طبطب الحاج مسعود على صدره فى شهامة قائلاً من خلل شفثيه الغليظتين اللتين تقلبان حرف السين والصاد إلى شين :

- " العيال دول - يقصد أنا والنمى - كلامهم صحيح ! وعلى العموم لو مادفعوش رقبتي سداة ! " ..

ثم إنه تغدى معنا من الزيارة التى دخل بها علينا من طرف أخيه ، قوامها أوزة محمرة فى حلة من الأرز المعمر باللحم العجالى ، مع فطير مشلتت وعسل لُحل وجبن قريش . آثرت صفية أن تضع هذا كله أمامنا حتى لا تتهم بفراغة العين أو أنها كانت فى انتظار شىء كهذا . وقبيل انصرافه أعطى الحاج مسعود لمصطفى - على سبيل البقشيش - ورقة بربع جنيه ؛ ثم شعر بالخرج فأعطانا كل واحد بريزة فضية،

ثم شعر بالخرج مرة أخرى فأعطى لإبنى محمد فسدق كل واحد ربع جنيه ، وانصرف مشيعاً باحتفال كبير ؛ إذ قمنا جميعاً بتوصيله حتى قرب منزله ، حتى صافية قامت هي الأخرى فودعته حتى خرج من باب الشارع وظلت واقفة به إلى أن اختفينا في المساكن البعيدة . بعدها تدعمت ثقة محمد فسدق فينا ، لدرجة أنه تركنا نساfer بعد الإمتحان حاملين كل أمتعتنا ، على وعد بأنى سأحضر بعد أيام لرؤية النتيجة ومعى حسابى وحساب زميلى النمى . غير أننى لم أعد مطلقاً لأنه كان قد حدث ما حدث لى فى الإمتحان مع مدرس الرياضة ذاك . وذات يوم فوجئنا بدخول محمد فسدق علينا فى منزلنا بالبلد ومعهُ كيس من الفاكهة يرافقه مصطفى القبانى . ولم يكن أبى يعرف شيئاً عن موضوع النقود التى أنا مدين بها لمحمد فسدق . فلما سمع شرحاً له من مصطفى لم ينبس بحرف ، لكنه بعد شرود طويل أشار نحو قائلا لمحمد فسدق :

- " إن كنت تقبل شراءه شخصياً بربع هذا المبلغ فهنيئاً لك ! أو خذه دون أن تدفع شيئاً ! .."

ثم تركه وأقام الصلاة . وكان أبى قد عاقبنى على ما حدث فرفض أن يشتري لى ثوباً جديداً ، فكنت لحظتها أرتدى ثوباً قديراً ممزقاً من أماكن كثيرة ، فنظر لى محمد فسدق نظرة غامضة لم أفهم معناها ، لكنه فشى حنكه ضاحكاً ، ثم نهض واقفاً ، ثم ربت على كتفى قائلاً : يعوض علىّ وعليك ربنا ! .. وسحب مصطفى ومضى تاركاً ضحكته ترن فى عتبة دارنا لوقت طويل بعد انصرافه . ويومها علمت من مصطفى أن الحاج مسعود هو الذى أرسله إلى دارنا ووصف له طريقة الوصول إلينا بدقة ؛ ثم قال لى مصطفى وهو يدارى خجله إن أباه قد دفع لمحمد فسدق حسابى وحساب النمى فرحاً بنجاح مصطفى ..

.. كل ذلك دار فى خلدى وأنا جالس على الأريكة الواطئة الشبيهة بكرسى اسح الأحذية ، التى أصر عم حنبوطة أن يجلسنى عليها ريثما أشرب الشاى . رفيما كنت أشرب الشاى صرحت له بأنى نفسى فى أكلة سمك من يده . فامتدت

اصابعه وانتقت بعض البلطى والثعابين والقراميط ، وضعها فى قرطاس كبير محكم الإغلاق :

- " باطننا والشفافا! .."

- " بكم ؟ .."

- " هات ما يطلع من ذمتك ! .."

- " لا بد أن تقول ! .."

- " هات ثلاثين قرشاً ! .."

- " فقط ؟! .."

- " فى بيتها ! .."

سارعت بالدفع بكل أريحية ، هممت بالقيام لكنه استبقانى مستدركاً يسألنى عن سر غيبتى هذه الطويلة ، ويذكر أن زملائى مصطفى وبهى الدين وأحياناً ذلك المدعو بالنمس يجيئون حتى وقت قبل أن يتخرجوا بأيام قليلة . ثم قال لى خيراً مذهباً ، مؤذاه أنه سمع من مصطفى أفندى أن بهى الدين والنمس تركا الدراسة بعد الرسوب مرتين فالتحقا بالكتاب العسكرى ولا بد أن كلا منهما قد أصبح الآن صولاً فى الجيش قد الدنيا . وكنت أتعجل الإنصراف قبل أن يرانى أحد من سكان هذا البيت تجنباً للخرج ؛ إلا أن هذا الخبر عطلى ، إذ رحت أسأل عم حنبوطة عن كثير من التفاصيل لعله يعلمها عن هذا الكتاب العسكرى وشروطه لعلنى أتقدم إليه أنا الآخر . مادريت إلا ومحمد أفندى حسن يقبل نخوناً مرتدياً الجلباب البلدى مسلطاً بصره علينا وقد تحول وجهه كله إلى ابتسامة فرحة برؤيتى . قال عم حنبوطة بفرح كبير:

- " محمد أفندى ظهر ! تراك لم تره من سنين ! هو الآن على المعاش ! سوى معاشه قبل الأوان ! وافتتح لنفسه كشك سجائر وحلويات على ناصية ميدان الساعة ! اقتنصه من البلدية بالكوسة عن طريق المرشحين فى انتخابات الاتحاد الإشتراكى وهو نفسه عضو فيه ! .."

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

- " هو الآن يبحث لنفسه عن عروس ! الناس تكبر فيركبها الجنون ! بعد ماشاب ودّوه الكتاب ! " ..

لحظتها طب علي محمد أفندي ، فتلقني في حضنه بحرارة . وبعد أن اشبعني لثماً وسلاماً وسوالاً عن الصحة والوقت والأحوال ، وجه الكلام إلى عم حنبوطة :
- " ماذا كنت تقول له عنى يا رجل يا مخروق ؟ " ..

فضحك عم حنبوطة عن أسنانه الصفراء :
- " أكلمه ليبحث لك عن عروس ! هذا ما قلته ! " ..
ضحك محمد أفندي :

- " أنت متأخر ! نحن نتكلم اليوم في تحديد يوم الفرح ! " ..
ثم سحبنى من ذراعى نحو البيت . ترددت مشيراً إلى ما معى . حلف بالطلاق ممن سيتزوجها أن أدخل لأسلم على " الجماعة " . فلم أجد مفراً من ترك القرطاس لدى عم حنبوطة والدخول مع محمد أفندي حسن ، منكساً رأسى فى الأرض من فرط الخجل ..

وإذ استدرت للدخول فى باب البيت لمحت شخصاً تأكدت أنه رمضان عريجة ، كان يروح ويحجى أمام الباعة فى قلق واضح ، يسترق النظر من تحت لتحت إلى هنا وهناك . فتحت لنا وفدية ، وكانت متعجلة ملخومة لدرجة أنها لم تنتبه لوجوده . فما كادت تهزول نحو الداخل حتى صاح فيها محمد أفندي حسن :
- " إتعيمتى ولا إيه ! مش تسلّمى ؟ "

حملت فى وجهى كالمهولة ثم جعلت تصيح :
- " مش معقول ! أهلاً وسهلاً ! فينك يا راجل من زمان ؟ " ..
وسلمت على بحرارة ، وقادتنى من يدي إلى أمها المتربعة على الكنبه بجوار شباك الشارع . فسلمت على هى الأخرى بحرارة وسألتنى عن أخبار أهلى . وهتفت وفدية فى غبطة ومرح :

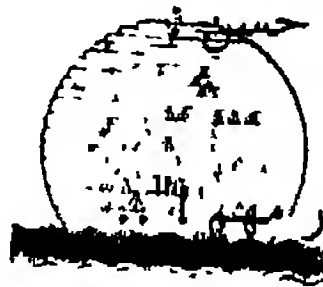
- " دى صفية كمان هنا ! تعال يا صفية ! مفاجأة فى انتظارك ! " ..
فأهلت صفية قادمة من حجرة البنات كما يسمونها ، يتعلق بثوبها طفلان كبيران . ما كادت ترانى حتى صاحت فى فرح حقيقى :

- " معقولة ؟ أهلاً وسهلاً بيك ! والله زمان ! " ..

وسلمت على بجمارة أشد ، وراحت تغالب الرغبة في البكاء . هنا سحب محمد أفندى أحسن كرسيًا وضعه بجوار كنبه أمه ثم أحلستني عليه ؛ وسحب آخر ووضعته في مواجهتي . وجلست صفيية على حرف الكنبه وهي تمسح دموعها التي انهمرت فجأة بشكل أدهشني ؛ إذ لم أكن أتوقع أنني يمكن أن أثير كل هذه العواطف الساخنة والإشتياق الحار . لكن محمد أفندى حسن قطع الطريق على خواطري حين أشار إلى الطفلين الكبيرين قائلاً :

- " تصور ! إن النذل ترك هذين الطفلين الجميلين وراح يتزوج ! نعم ! ربنا كرمه فأصلح حال البيت وعلاه بدورين فأصبح يقبض إيجاراً محترماً ! وافتتح بوفيهماً لحسابه في محطة السكة الحديد ! وأول ما شطح نطح ! فكر في الزواج على هذه المسكينة التي شربت معه مر الفقر ! وأصل السبب بنت مايسة ملونة العينين قابلها في المحكمة فطيرت مخه ! هي مطلقة وعندها قرشان في يديها وتحت البلاطة وفيه معيز ومواش ومحاصيل ! من يوم ما عرفها اندار على هذه فأوراها العين الحمراء ! لكني سأأخذحه ! سأجعله يسف التراب ! سيلعن اليوم الذي ولد فيه ! " ..

وبكاء صفيية يزداد حرقة ، وتتمخط في منديل صغير . جاءت وفدية بصينية عليها زجاجتى اسباتس ، وضعتها على طقطوقة صغيرة وانصرفت عجلي إلى حجرة البنات ، التي صرت بقعدتى هذه في مواجهتها تماماً . إنفتح بابها قليلاً ؛ فإذا بي أرى ما أذهلنى وسمرنى في جلستى على نظرة بلهاء : كانت سندس العجربة بلحمها ودمها متربعة على الأرض أمام طست غسيل ملئ بالمياه يتصاعد من حوله دخان البخور ، وهي منهمكة في تقليب أشياء في سفتها ؛ فحمدت الله أنها لم ترنى . أغلقت وفدية الباب وراها . قال محمد أفندى حسين :



- " الغذاء يا صفيية ! ناكل لقمة أنا والأستاذ ! " ..

- " لا ! أرجوك ! إعفنى من الغذاء فوراً مشوار مهمم "

- " لقمة خفيفة على ما قسم ! يلا يا صفيية ! " ..

- " أنا مضطر للمشى الآن فوراً ! "

- " طب خلاص يا صفيية ! " ..

فجلست ثانية. وحملت صفية الصينية وذهبت بها إلى المطبخ ثم عادت بعد قليل بفنجانين من القهوة . لحظتها وورب باب حجرة البنات وانزلت منه وفدية ، فأقربت علي صفية وهمست في أذنها بشئ . قالت صفية : حاضر ؛ ثم خلعت من عنقها عقداً من الذهب عبارة عن حبات أشبه بالزيتون الأصفر ، وخلعت من معصمها أربع غوايش سمكها رفيع ، وخاتماً من أصبعها ، وقرطاً من أذنيها ، ثم سلمت كل ذلك لوفدية :

- " أنا جاية وراكى ! " ..

- " طب روحى أنتى يا صفية ! " ..

أومات لى برأسها :

- " عن إذنك ! " ..

- " تفضلى ! " ..

فمضت إلى حجرة البنات فواربت الباب وانسلت داخله والطفلان فى أعقابها . ولاحظت أن الحجرة قد أظلمت تماماً . ونظر لى محمداً أفندى حسن نظرة ذات معنى ، مع ابتسامة سخرية :

- " شغل نسوان وكلام فاضى ! ناس متخلفين ! لكنها ارزاق ناس على قفا

ناس ! " ..

- " ما الأمر ؟ " ..

تردد قليلاً ، نظر نحو أمه . كانت قد نكست رأسها فى حجرها مغمضة العينين مستغرقة من سنة من النوم . ثم مال نحوى قائلاً :

- " هذه العجرية سرحت بعقل البنيتين !! شهر على هذا الوضع !! أقنعتهما

بوصفة غريبة لحل مشكلتهما معاً !! واحدة تريد محاصرة خطيبتها بعمل يجعله يتعلق

بها !! والثانية تريد أن تجذب زوجها إليها ليعود كما كان يحبها ويخلص لها !! شف

كهن النسوان التعبانة فى مخها ؟! ولكن هل أستطيع أن أقول لهما هذا نصب

واحتيال لا نفع فيه ؟ يقطن : أبو النواس يخرج من البلد !! أنا مالى يا عم ؟! وعلى

كل حال من يعرف ؟! سبحانه وتعالى يضع سره فى أضعف خلقه !! " ..

- " ولكن لماذا خلعت صفية ذهبها ؟! " ..

شوح فى سخرية ، وبنبرة شخر اسكندرانى :

- " العمل اسمه مشاهرة الذهب ! شرط العمل السحرى أن يتم فى حجرة مظلمة ! تقول هذه العجرية إن فى الذهب سرأ خطيراً لمن يفهم حقيقته ! أنا على فكرة سمعت هذا الكلام من مدة طويلة من ناس عاقلين !! الولية العجرية كلفت البنيتين بتحضير إبريق من المياه سقط عليه الندى ! وتضيف هى إليه أشياء من عندها! ثم تضع الذهب فى الطشت وتعزم عليه بتعزيمة معينة مع البخوار الجاوى ! توشوشه بكلمات تعرفها ! تحففه وتعيده إلى صاحبته فتلبسه فيعدل حظها وينعدل مزاج الشخص الذى عليه العين والنية !! بينى وبينك أنا لا أعتقد فى مثل هذه الخرافات ! لكن ربما تجى بنتيجة !! طب ما رأيك أن هذه العجرية شافت لى البنخت مرة وكانت صادقة فى كل كلامها عنى وعن أوضاعى وشخصيتى؟! أدارت رأسى هذه المرأة ! لما طلبت منها على سبيل الهزار أن تعمل لى عملاً يجب فى إنسانة معينة كنت أهواها كلفت وفدية أن تجى لها بأثر من ثياب هذه الإنسانة فأعطتها وفدية منديلاً كانت تطرزه لها ! طب ما رأيك أن هذه الإنسانة بعدها بأسبوع وافقت على الزواج منى؟! حاجة غريبة فعلاً يا أستاذ! الواحد لم يعد يفهم كيف تمشى هذه الدنيا!! .."

وسحب نفساً عميقاً من السيجارة دون أن تتحرك عضلات وجهه ، واتسعت ابتسامته عن اسنان كبيرة بارزة فعمقت من مسحة البلاهة الجامدة التى تغلف وجهه. ثم إننى شعرت بالرغبة فى الإنصراف بسرعة قبل أن ترانى سندس فيتضح أننا نعرف بعضنا . قمت واقفاً فى الحال طالباً الإنصراف . فنهض محمد أفندى حسن فسلم على وأوصانى بتكرار الزيارة إذ أن هذه المرة غير محسوبة ..

وجدت زحاماً شديداً حول عم حنبوطة . وقفت أنتظره حتى يفرغ من مناكفة زبونة متعبة . وفى الواقع كنت أترقب خروج سندس لكى أتبعها من بعيد لبعيد ؛ فإذا بى الملح رمضان عريجة يتلكأ على مقربة ، يتصنع البحث عن سمك جيد يشتريه . فجأة إشتبك عم حنبوطة مع ثلاثة من الأفندية ؛ سرعان ما تبينت أنهم مفتش التموين ومرافقين . راح عم حنبوطة يقنعهم بأنه يبيع بأقل من التسعيرة ، يريهم عينه البضاعة ، وورقة السعر النائمة تحت الأسماك بفعل تقليب الزبائن كما يؤكد ،

يستشهد ببعض الزبائن الواقفين على سلامة أسعاره . ثم إنه بجرأة كبيرة ، وبخفة يد غير طبيعية ، أمسك بيد الأفندي بحركة من يطلب الود :

- " وحق العشرة دول يا أفندي ما كذبت عليك! "

يقصد العشرة الأصابع التي خلقتها الله لا تتشابه بصمة أصبع مع أختها . ويقصد في نفس الوقت العشرة القروش التي غمز بها يد الأفندي ، الذي سحبها نصف مطبقة ثم دارها بكراسة فردها فوقها وراح يكتب بعض البيانات ، ثم سحب رفيقيه وانصرافوا . شيعهم عم حنبوطة مغمغماً :

- " حار ونار! .. "

في هذه اللحظة خرجت سندس من باب المنزل حاملة السفط على رأسها مخترقة زحام الشارع لا تلوى على شئ . إصطدم بها رمضان عريجة . بسرعة مذهشة دست يدها في سيالتها وأخرجتها مشخلة برنين الذهب . دست يدها في قبضة رمضان عريجة ، الذي دس يده في جيب الصديري واندفع بين الزحام فكأنما انشقت الأرض وابتلعتة . أما هي فقد أخذت تتباطأ في مشيتها عن عمد ، هاتفة بغير حماس : " أضرب الرمل وأشو .. و.. ف! .. "

ثم تتلصق ، تتوقف كل خطوة لتعيد النداء مرات ومرات كأنها تتعمد الإعلان عن وجودها لفترة طويلة في رحاب ذلك البيت الذي خرجت منه . فجأة شق سمعنا صوت صرخة ملتاعة ، في أثرها ظهر محمد أفندي حسن يلهث مهرولاً هاتفاً :

- " إلحقوها قبلما تختفى ! بسرعة ! هاتوها ! إمسكوها ! اللصة! المختالة بنت الكلب المفترية! .. "

إندفع كالمجنون يضرب في زحام السوق حتى اصطدم بسندس فأطبق بيديه على كتفيها ، ثم سحبها من طوق جلبابها بقسوة :

- " تعال هنا ! عايزينك في كلمتين! .. "

وراح يجرجرها وهي منقادة له حتى اختفى بها داخل الشقة . ففي الحال توقعت ما يمكن أن يكون قد حدث ؛ فتسمرت في مكاني وقد دبّت الرعشة في ساقى . مع ذلك كان ثمة ما يشدني إلى البقاء لعلمي أتمكن من جلية الأمر . ظللت واقفاً مع

عم حنبوطة فى دهشة واستفهام لمدة تزيد على ربع الساعة . أخيراً وسع لى مكاناً على الدكة ، و كور كفيه حول فمه منادياً :

- " إثنين شاي يا أبو جاموس ! " ..

حتى أبو جاموس هو الآخر كنت أعرفه . هاهو ذا لم يتغير ، يقبل بالبراد والأكواب على الصينية يتمايل فى عياقه . أشار عم حنبوطة إليه وإلى قائلاً :

- " تعرفه؟! كبر هو الآخر ولكنه لا يزال يتمايل مثل علوق بنها ! الذى فيه فيه

لم يتغير! " ..

أبو جاموس لا يهتم ولا يعلق ؛ إنما نظر فى وجهى صائحاً ، وقد انبسطت سحنته بالترحاب :

- " إزيك يا أفندى ! فينك من زمان ؟! " ..

وسلمنى الكوب :

- " على حسابى الشاي ده يا حنبط ! " ..

شوح عم حنبوطة وهو يغمزه بنصف الفرنك الفضى :

- " الحدأة لا ترمى الكتناكيت ! " ..

للدهشتى أخذه أبو جاموس فأسقطه فى جيب المريلة الكالحة دون أى اعتراض ،

واستدار ماشياً ..

كان الكوب على وشك الإنتهاء حينما خرجت سندس تعدل فى هياتها وقد

تورم وجهها وظهرت عليها البهذلة الشديدة ، وفى عينيها بعض دموع كاذبة .

مضت فى طريقها متجنبه النظر إلى أى شىء . وحينما حملت قرطاس السمك

وتأهبت للإنصراف ظهر محمد أفندى حسن كالموتور يصفق كفاً يكاد ييكى من

غضب مكتوم :

- " يا قاعدين يكفيكم شر الداخلين ! أنا لا تنقصنى المصايب والله يارب !

فتشنا المرأة فى كل مكان ! حتى لمونخدة فرجها !! لم نجد أى شىء ! أياكون هذا

معقولاً ياناس ؟! أياكون الصائغ قد غشنا من الأساس ؟! صفيه المقرمة الروبة

ينضحك عليها ؟! ربك والحق كانت نحائفة من الأول ! قلت لها يا صفيه هذا

عرف نسوان ! صفيه كانت نحائفة لكنها وافقت !! بمجرد خروج العجيرة خلعت

ذهبها ووزنته فى كفها بعد تشكك ! قالت إن الذهب صار ثقيلًا بعض الشيء !
وفى ملمسه خشونة ! أمسكته فى كفى ووزنته ! فعلاً دقت فى موضع الدمغة !
ليست الدمغة فى المواضع التى كانت فيه من قبل ! إنه ذهبنا ونعرفه قطعة قطعة !
عرفت فى الحال أنه من الذهب القشرة !! لكن نظامه هو هو لم يتغير ! نفس الفرع
ونفس الغوايش ونفس الحلق لكن الذهب ليس هو الذهب !! أتكون هذه العجربة
قد سحرتة ؟! منذ شهر وهى تجئ كل أسبوع مرة ومرتين وتعاينه وتعد حبات
الفرع وتقيس وتوشوش !! كان يجب أن نسلمها لشرطة البندر لكنها صعبت على
أثناء التفتيش !! عرت نفسها أمامنا قطعة قطعة ونفضت نفسها واحتملت الضرب
بالبونية والشلوت !! أعطنى عقلك ! لحقناها بعد خروجها بثلاث دقائق ! أمعقول
أن تكون تصرفت فى الذهب بسرعة البرق ؟! أين وكيف ؟! إنها لم تبعد عن
البيت !! أنا سأجن يا ناس !! طول عمرى أخشى الفضيحة وهامى الفضيحة قد
جاءت لحد عندى ! دبرنى ماذا أفعل ؟! ماذا أقول للكلب ابن الكلب فسدى ؟!
أيكون هو الذى غشنا ؟ متى ؟ طب ذهب وفدية ؟ ليتنى ماتركت العجربة !
ولكن ماذا ستأخذ الريح من البلاط ؟! إننا نستاهل ماجرى لنا !! حلال علينا هذا
الخراب ! مادمننا أولاد قحبة متخلفين نؤمن بالخرافات !! آه ياربى ! أدفع بقية
عمرى الآن لأعرف كيف حدث ما حدث !! ولكن : لو كانت هى الفاعلة أكانت
تبقى هكذا دون أن تهرب ؟! هى نفسها طلبت بلسانها أن تذهب بها إلى البندر !!
إننى سأجن ! سأشل ! فعلاً ! لا يقع فى الخية إلا المفتحين !! ..

وكان صوت اللولولة واللطم فى داخل الشقة يتعاشق مع صوت محمد أفندى
حسن . بعد برهة خرجت وفدية ملتفة بالملاءة اللف السوداء ؛ ومن خلفها صفية
بالملاءة أيضاً . شيعهما محمد أفندى بغيظ .

ـ " لاتعبا نفسكما ! الذهب فالصو ! إن القشرة واقعة من بعضه ! سيضحك
منكما أى صائغ ! أين تنهبان يا أولاد الزوانى يامتاعيس ؟ يا قدرى الأسود ؟! .."
وشرع يشق طوقه ؛ لكن عم حنبوطة أطبق على يديه صائحاً بصوت دافئ ،
صوت برلسى فيه نبرة الفصاحة وقلوطة حرف القاف :

- " وخذ الله يا رجل ! موت وخراب ديار ؟! قل ما تشاء وفضفض لكن لا تشق الهدوم فهذا كفر والعياذ بالله!!" ..

فجعل محمد أفندى حسن يصرخ من الغيظ ؛ ثم مضى مسرعاً خلف شقيقتيه . وكان صوت سندس قد ابتعد . بقيت مسمرأ في مكاني لا أعرف كيف أتصرف . كانت الأرض تدور بي تضعني في سجن الحيرة : فلو تكلمت بما رأيته فلن أنجو من الإتهام ، بل المؤكد أنني سأبدو حينئذ كشريك لها استيقظ ضميره فجأة فاعترف على شريكته متنصلاً منها ؛ الملابس كلها سوف تؤكد للجميع ذلك الظن ؛ إذ ما الذي جاء بي اليوم إلى هنا بعد غيبة طويلة صحبتها سوء سمعة بشكل عام ؟ وما الذي تراه يربطني بسندس ؟ إن كلامي سيقرب الدنيا على رأسى ، سأرغم على إرشاد البوليس إلى الوكالة ؛ يجر البوليس بعض رجالها ؛ لا يستقيم لي في الوكالة مقام بعد ذلك . لقد صرت متأكدأ الآن من أن سندس لفت على هؤلاء المساكين الأغرار حتى حفظت شكل ذهبهم واشترت نظائر له من الذهب الفالصبو بواسطة رمضان عريجة الذي رأيته بعيني يتسلم منها الذهب الأصلي ؛ ولكن هل أستطيع التصريح بذلك أو الاعتراف به ؟ هل يرحمني أحد ؟ هل يحترمني البوليس أو حتى يترفق بي ؟ لا أظن ذلك مطلقاً . إن الإنسان لا يمكن أن يكون شريفاً داخل محيط من الفساد والفسق ، الشرف لا يمكن أن يكون فردياً بأية حال من الأحوال حتى لو أراد شحص مثلى يحلو له أن يصير كاتباً يتحدث عن الأخلاق والمثل العليا ؛ وحتى لو تحلى به الإنسان واعتنقه ؛ فالشرف كما يبدو لي الآن لا يتحقق بالإختيار فقط ولا بالممارسة فحسب وإلا فأنا شريك بالصمت في هذه الجريمة ..

وهكذا أمسكت بقرطاس السمك ومضيت أترنح في الشوارع أجرجر ساقى من شدة الخذلان والألم والكآبة ؛ وقد فقدت حماسى لكل شئ . صرت أتمنى أن تنشق الأرض لتبلعني فأنجو من هذه الخواطر المعذبة . لكن الأرض انشقت عن محمد أفندى حسن ممسكاً بسندس من قبضة يدها ومتجهاً بها إلى قسم شرطة البندر ؛ ومن خلفه كل من صفية ووفدية ، وبعض السابلة ، ومجموعة من الأطفال . عمرايل المدارس وحقائبها . تابعتهم حتى اقتحموا البندر ودخلوا حجرة البلوكامين الواقعة على الشارع العمومى مطلة على ميدان الساعة بشباكين طويلين مفتوحين عن أعواد

من الحديد تظهر من خللها جثة البلوكامين جالس في الصدارة إلى مكتب عتيق
ومن خلفه السلاحيك مرصع بالبنادق . على الشارع الخلفي يطل شبا كان آخران
لكنهما مغلقان . تحت أحدهما وقفت أتصنت ممسكاً بقرطاس السمك ولفة
الهريسة. هذا السمك كان من المفروض أن تطبخه سندس بنفسها لتأكله الليلة
ونحلى بورقة الهريسة ، في حجرتها هي بالوكالة . فأى شؤم هذا الذى حدث؟
شعرت أننى أرغب فى رمى كيس السمك إذ هو فيما بدا لي سبب التحس . أما
لفة البسبوسة فيمكن أن أتسلى عليها وحدي . تذكرت وداد ، فلأعطيها السمك.
إنتقلت إلى الرصيف المقابل ، مضيت بجوار سور المنتزه ماراً بمكتبة البلدية والمطافئ ،
فى مواجهتى محكمة دمنهور الجزئية التى يعمل بها صديقى الأديب مسلم المغازى .
هذا المبنى يشدنى دائماً ، لأحود من ورائه يميناُ إلى قهوة المسيرة ؛ لكننى حودت فى
الشارع العمومى . على يمينى مدارس معيطى ، ومن بعدها المصور فرام ، الفخيم ،
على ناصية حارة جانبية تؤدي إلى سينما الأهلئ ، ودكان العجلاتى الذى كنت
زبوناً له مدة طويلة . مررت مرة أخرى على بائع الهريسة فانتقلت تلقائياً إلى
رصيفه؛ ثم تجاوزته إلى مكتبة البنا ، فشارع السوسى ، فالمديرية ، ثم أخذتنى حمية
السير فحشئت الخطى نحو ذيل المدينة الممتد فى الخلاء المتناخم للمزارع البعيدة .

الرهق

لمحت رأس وداد على حافة الشرفة ؛ فطرقعت بأصبعي ، فأسقطت عينيها في الشارع ؛ فأشرت لها بيدي أنني قادم . فسحبت عينيها ثم رأسها ..
قلت وأنا أسلمها القرطاس واللفة :

- " الظاهر أن سندس نسيت موعد سهرتنا الليلة عندها ! حجرتها مغلقة بالقفل ولا بد أنها سرحت ويعلم الله متى تعود ! " ..

ظهر في عينيها كأنها تعرف خطة سندس اليوم بالتفصيل ؛ إذ قالت بثقة تامة :
- " إنها عائدة ! هي في مشوار قريب في البلد ! تسرح اليوم ! سرحتها أصلها طويلة فيها سفر وبلاد ! إنما هي اليوم تعرف الموعد وتحضر نفسها له ! ورائها مشوار صغير في وسط البلد سيجي من ورائه حسنة بسيطة ! مسكينة وغلبانة ! فين وفين لما يرزقها الله بحسنة تسندها ! " ..

دفعتها إلى الداخل :

- " يظهر أنك تعرفين مشوارها ! " ..

- " نعم ! هي لا تخبي شيئاً عنى ! أنا حبيبتها الوحيدة هنا ! سرها معى وسرى معها ! لا تشغل بالك أنت ! ففى الموعد ستجد حجرتها مضاءة ! سراها من هنا ! " ..

- " واثقة أنت من أنها لا بد تعود فى الموعد !؟ " ..

- " إذا لم يتليها الله بعربة تفرمها والعياذ بالله ! " ..

- " أو تكون وقعت فى مشكلة مثلاً ! " ..

هي لا تقع فى أى مشاكل ! هي تخرج كالشعرة من العجين ! هي نورية تعجبك !
إرمها فى البحر واتركها ! غطسها تجدها عائمة بعد مترين ! هي لبط ! إن أردت أن توقعها فى مشكلة أوقعتك فى مصيبة ! لكنها طيبة وغلبانة وقلبها مثل البفتة البيضاء !
ليست غدارة ! إنما تعرف كيف تنتقم : تضربك بنفس السلاح الذى ترفعه أنت عليها ! فاطمئن ! إن سندس آتية فى موعلها وسنسر عندها ! أهذه الأشياء لها !؟ " ..

- "لنا كلنا ! ليتك تقومين أنت بطبخ هذا السمك قبل أن يفسد ! هذه لفة هريسة هاتيها مع السمك فى السهرة ! سأذهب لأنام ساعة أو ساعتين وتتقابل عند سنس !"

- "ولماذا تذهب ؟ خش فى البلكونة ومدد جسدك كيف تشاء ! النوم مع رائحة الطبخ حلو يسند الرأس ! كل أرزا بلبن مع الملائكة حتى أصحيك لتنزل !"

- " فكرة !"

دلفت إلى الشرفة فخلعت حذائى ؛ سحبت حشية الكرسي فثنيتهما تحت رأسى؛ مالبت حتى استغرقت فى نوم عميق . وحينما فتحت عينى على يد وداد تهزنى كنت قد نسيت كل شئ فى الحياة كأننى أولد الآن فحسب . وكنت كالمنحدر وأنا أضع قدمى فى الحذاء وأترنح نحو دورة المياه لأطس وجهى بحفنة من الماء ..

قالت سنس ونحن متربعين حول الطبلية نغرس أصابعنا فى سمك بالدمعة وآخر مقلى :

- " ربنا ابتلانى اليوم بيلوى عمرها ما خطرت ببالى يا وداد !! الواحد منا يمشى فى حاله والبلاوى تنحدف عليه من الباب للطاق ! أنا ماشية فى حالى لا بسى ولا على مادريت إلا ورجل مكعب الوجه يقبض على كتفى يشدنى ينزل فى ضرباً بالبنوية والشلوت ووراءه امرأتان من أهل الحوارى الرداحات يصوتن ويمسكن بالحناق لأى سبب !! مالكم يا أسيادى ؟ قالوا : هاتى الذهب الذى سرقتة منا ! تعالى إلى البندر ليحقق معك البوليس لكن آمنت بك يارب ! أختك يا وداد قلبها أبيض ! ربنا هبالى طفلاً من ولاد المدراس وقف يتفرج عليهم وهم يضربونى ! فلما سحبتنى إلى البندر سحبت الولد معى وغمرته بقرش ! البلوكامين فتح المحضرا الرجل الكلب ابن الكلب الظالم ادعى أننى دخلت بينهم وعملت لهم عملية سحر ونصب حتى سرقت ذهبهم وأعطيتهم بدلاً منه ذهباً مغشوشاً !! إيش قولك يا وداد يا أختى أن البلوكامين بص له من فوق لتحت ولم يصدقه ! قال له : متى حصل ؟ قال : الآن وقد فتشناها فلا بد أنها ابتلعتة فى جوفها ! قال البلوكامى ن: تبتلع فرعاً وأربع اساور وحلقاً وخاتماً ؟ لا بد أنها بجر ماله قرار ! لو حصل هذا لماتت فى الحال ! قل كلاما غير هذا ! وقال لى: ما اقولك يا امرأة ؟ قلت : يا سعادة البيك ربنا

يخليك أنا ولية غلبانة ومنكسرة على باب الله ! كنت ماشية فى الشارع مادريت
إلا وهؤلاء الناس يهجمون على وهات يا ضرب ! شوف ياسعادة البية آثار الضرب
على وجهى وجسدى كله ! وما عرفت لماذا يضربونى إلا الآن ياسعادة البية !
عمرى ما شفتمهم ولا عرفتمهم !! المرأتان هات يالطم ! والرجل يصفق على كفيه
ويزغدننى ويقول : ياولية يا ضلالية يا بيجحة والله إنك الآن حرامية بالثلث !! دفعت
الولد أمامى بمريلة المدرسة ومخللة الكراسات وقلت يا سعادة البية هذا طفل برى لا
أعرفه ولا يعرفنى إسأله ماذا رأى بعينه ؟ فسأله فقال الولد : يا ثعادة البية التت دى
كانت ماشية تنادى على البخت والراجل دهه جرى وحلق عليها ونزل فيها ضرباً
بالبونية والشلوت وجرجروها فى الشارع لحد هنا ! قال البلوكامين : على كل
حال نفتشها ! وفتشونى وفى الآخر قال البلوكامين : لمواخذة يا جماعة ليس عندى
سبب أمسكها به والحجز مزحوم بالتحريات والضباط يزعمون لنا إن حجزنا أحداً
بدون سبب مهم ! وعلى كل حال إن ظهر لكم سبب جديد تعالوا وأنا أجيء بها
من تحت طقاطيق الأرض فإننا نعرف كل الأماكن التى تأوى أمثالهم وكل ما أقدر
عليه الآن أن أعمل لكم محضراً وتبحث عن مواصفات ذهبكم عند الصاغة ونترصد
من ينهب لبيعه ! وأنت ياولية إن ظهر أنك فعلت هذه الفعلة سأذب هذه العصا
فى فرج أمك ! هيا غورى من وجهى يا بنت القبحة ! لا نأخذ من ورائكن سوى
المصائب التى تتكرر فى الأرياف ولكن إن عشت سأقطع دابركن جميعاً واحدة
واحدة !! ولما طلعتنا من البندر جاء الرجل يريد أن يضربنى فرميت ما معى ونزلت
فيهم جميعاً بالضرب والصوات حتى بهدلتهم ومزقت ثيابهم وعملت ميتة حتى
مشوا وتركونى !! ..

نظرت لى وداد كأنها تقول : ألم أقل لك ؟ ثم نهضت واقفة تمصص أصابعها؛
وحملت الطبق المغطى بشاشة نظيفة والذي وضعنا فيه ماناب شوادفى حتى لا يسمم
ليلتنا كلها ؛ ومضت به إليه ؛ فيما بقيت مع سندس . صرت أنظر إليها من تحت
لتحت أحاول معرفتها من أول وحديد . وبعد قليل جاءت وداد ؛ فبدأت السهرة .
تولت هى غسل الجوزة وتسييخها وتنظيف الحجارة وإشعال النار ثم تعسيل
الحجارة وتوقيعها بخاتم الحشيش قائلة إن علينا أن نأخذ راحتنا فى الشرب والمرح

باطمئنان لأن شوادفي جالس بالباب كالأسد لن يترك أى حكومة تدخل حتى يكون قد صاح وغجر وبرطم. مما يكفى لأن يتخلص الجميع من أى شئ يمكن أن تضبطه الحكومة ؛ فبهذه الطريقة لم تتمكن الحكومة أبداً من ضبط أى شئ فى الوكالة ..

أخذنا راحتنا بكل اطمئنان . وكما مضى الوقت أهابت بى وداد أن أخذ راحتى أكثر؛ فمرة أوصتنى بارتداء الجلباب وذهبت هى إلى حجرتى بملابسى لكى تأتى بالجلباب فبقيت بالملابس الداخلية إلى أن جاءت ، مما أتاح لسندس أن ترانى شبه عار ؛ ومرة ثانية أوصتنى بأن أتمدد لأريح ظهري ؛ فتذكرت أننى بين عاهرتين لكل منهما طعام خاص . أكلنا الهريسة فاشتعلت ؛ صرنا نضحك بشكل هستيرى متواصل وبانفعال حقيقى ؛ ثميل فيه على بعضنا وتتصافح بالأيدى . وكان الراديو مفتوحاً فى مكان قريب جداً لعله منزل من المنازل الملاصقة للوكالة من الخلف ، فكأنه فى الحجره معنا ؛ وقد راحت المطربة صباح تروح على نقر الدربكة والنأى بأغنية : زنوبة.. زنوبة.. حلوة وخفة وحبوبة .. شوبش يا حبايب زنوبة .. زنوبة.. فنهضت سندس واقفة ، وبحماسة وحرارة خلعت جلبابها وبقيت بالقميص الداخلى فكشفت عن جسد مشدود ملىء بالبروزات والتكورات المكتنزة ؛ سحبت شالاً فتحزمت به فوق قبة الفخدين مباشرة حتى برزت السرة كغطاء حلة مقلوب ، جعل يتراقص رائحاً جاثياً صاعداً هابطاً ؛ ناهيك عن الثديين وما تحتها ، والعجيزة التى بدت كالعجين الخمران وهى تلتف حول نفسها فى نشوة . كانت تضم كفيها وتطرق بأصبعيها الكبيرين على نغمة الإيقاع برشاقة مدهشة . ويبدو أن وداد قد غارت منها ، إذ نهضت هى الأخرى ونزلت قصادها رقصاً . صرت أصفق لهما على واحدة ونص . ولحظة أن وقفت لأشركهما الرقص انقطعت الأغنية وبدأ المذيع يقرأ موجز الأخبار ؛ ثم مالبت حتى انكتم فى الحال . وتهاوت سندس بحركة اصطناعية فتلقيتها على ذراعى ، بحركة اصطناعية أيضاً ؛ ثم عدلتها فاحتضنتها فقبلتها ، فبقيت مستسلمه فى رخاوة . قالت وداد بلهجة ذات معنى :

- " أنكشع أنا ! سأمرق من الباب فى الكتم إلى أوضة جدتى جنبكم ! أحب أن أسمع رقصكم ! " ..

ومرقت بالفعل من ورية الباب ؛ سمعنا حفيف ثوبها وهي تمرق إلى حجرة
جدها وتغلق الباب برفق . إمتدت يد سندس فأغلقت بابها بالترباس . إرتمينا معاً
على الأرض متلاحمين . صرت أحتضن وأقبل وأعبث بيدي في كل مكان . هي
الأخرى صارت تفعل ذلك بحماسة ، لكنها كانت كمن ينفخ في نار مطفأة .
خلعنا كل الثياب ؛ صرنا نتمرغ فوق بعضنا ، فلا يصيبني سوى اللهاث والعرق ،
ورائحة الأنثى تلفح أنفى تخترق خياشيمي مختلطة برائحة عرق لزج وبقايا بصل
وثوم وزفارة سمك . أنشد قليلاً لدقائق معدودة وسرعان ما ينقطع الحبل . وكان
صوت أذان الفجر يحيط بنا من كل الجهات حينما تمددنا بجوار بعضنا جسدين
عارين ، أحدهما يحاول إخماد نفسه والآخر يحاول التثبيت بأذيال الحياة دون
جدوى . وكأن ثمة اتفاقاً صامتاً قد جرى بأن نستريح قليلاً حتى تهدأ الأعصاب
ويزول الرهق لعل وعسى ؛ ولكن كل شئ سرعان ما اختفى داخل جب مظلم .
وحين عدت إلى الوجود بعد اختفاء طويل فى المجهول المضطرب كانت وداد تنقر
الباب من الخارج لتصبحينا ، والضحى يغمر فناء الوكالة باللون الأبيض الكريمى .
فتحت لها سندس ؛ وفيها كنت أتمتع وأعتدل جالساً تحت سندس فى لقطة نحاطفة
وهي تلعب أصبعها تجاهى بحركة بذئية جداً فيها معنى الولوجة والإستهزاء والصدمة .
حينئذ انتبهت إلى عربي التام ، فشعرت بنجمل شديد ، وسارعت بارتداء ملابسى .

وديدة أنقح من وديدة

.. " إقعد قليلاً معنا يا أخانا !.. أم أن من يرى أحبابه ينس أصحابه كما يقول المثل ؟ كل شئ يتم هنا بمزاجي على كل حال فلا تظن نفسك نصف فرنك !! " ..
" إقعد معنا شيئاً من الوقت فرما احتجت إليك الليلة في أمر !! النافع هو الله أى نعم لكن الله ينفع الناس بالناس ! ولسوف أسقيك شياً معتبراً عمرك ما شربته ! وستأخذ عدساية أفيون ! هاها ! لو كنت أخذتها ليلة السهرة إياها لسترت وجهك !! خذ ! لا تأكلها الآن فهي كبيرة ! " ..

" قم يازينهم هات العدة لنبحر روعوسنا بحجرين ! جاءتنى اليوم قطعة حشيش هبو ماركة المشير ومرسوم على كيسها وردة ! جاءت في الحقيبة الدبلوماسية !! هذا يا أخانا نوع يعرفه التجار للشرب لا للبيع !! أقطع ذراعى إن كنت تعرف الحقيبة الدبلوماسية هذه !! " ..

" هيه ؟ ما رأيكما في التعميرة ؟ الرأى واضح على وجهيكما بغير كلام ! هنيئاً وشفاءً ولكن لا تتعودا عليها فليس منها فى البلاد لأنها لا تباع !! " ..
" الأمر وما فيه يا أخانا - والكلام لك أيضاً يا شيخ زينهم - أن سامراً كبيراً سينصب هنا الليلة ا فى الوكالة ! ولا أحب أن أراه وحدى ! " ..

" أظنك يا زينهم تذكر وديدة ؟ ومن منا لا يذكر وديدة ؟ المرأة القرشانة التى لم يهدا سوى الموت !! غجرية كانت يا أخانا تشوف البخت مثل صديقتك المسكينة سندس ! لكنها كانت حلبيه مثل لهطة القشطة بنت الكلب هذه يرحمها الله ! تنظر النظرة لأى شخص فتوقع به فى الحال ينزل على جذور رقبتة لا يعطى منطقاً !! البخت لم يكن وحده صنعتهها كما تعرف يا زينهم ! الناس نبهوها إلى جمالها الفتان ! بلدنا مصر هذه - بكل صراحة - تستأهل الحرق ! نعم ! تستأهل أكثر مما يجرى لها ! هى التى تنفخ فى البنى آدم حتى يركبها !! خلاص ! أصبحت جبلة نولد بها !! وديدة مثلاً لم تكن تدري أن جمالها فتان إلا بعد أن كثر عدد الأذلاء تحت أقدامها !! كل من يلقاها يعرض عليها الزواج بأى شكل مثل أم وداد يرحمها الله لكنها أجمل وأبرع ! كانت سخاً جباراً يستحق أن يحكم دولة بحالها !!

العبد لله وحده كان يشكها لأنى عرفت سر قوتها فأبطلت مفعوله فى نفسى!!
 سر قوتها جمالها ! وأنا على فكرة لا أجيد العوم إلا فى بحر العيون السوداء الواسعة
 فى وجه عريض أبيض محمر الخدين ! كما أنى أعرف حدودى جيداً يا أخانا ! فأنا
 لا أرضى أن أكون طفلاً عبيطاً تلهيه بقطعة حلوة أو بلحسة من خلعها لكى تفعل
 على حسها ما تريد وتحكم الوكالة بدلاً منى !! رميت مخطاف عيني بعيداً عن
 شواطئ عينيها صرت فى الأمان أستطيع أن آخذ حقى من مكاسبها الكبيرة !! ..
 المرأة لما ستحلت نفسها فى الأنظار وجدت أنها إن تزوجت باعت نفسها
 بتراب الفلوس لرجل واحد قد لا يملأ عينيها مستقبلاً حتى لو كان جمال عبدالناصر
 نفسه أو الملك فاروق !! خلعت ثوب العجرية يا أخانا وارتدت ثوب سيدات
 البيوت من أبناء الناس الطيبين !! كنت وغيرى لا نعرفها إذا طلعت للشغل فى
 الصباح على سنجة عشرة لابسة الفستان الشفتشى ومتلفعة بالشال القطيفة الأحمر
 وفى قدميها نعل يسمى الشكرين مع الجورب الحرير لون ساقها !! تطلع على باب
 الله حيث يكون فى انتظارها على المقهى أفندى محترم ابن ناس فى أبهى زينته!!
 أولاد حرام يا أخانا ! لا يعرفهم ويكشف ملاعبيهم سوى أولاد حرام مثلهم ! لا
 يفل الحديد إلا الحديد يا أخانا ! والطيور على أشكالها تقع ! كذا أم لا يا زينهم يا
 عتريس !!؟ ..

" ابن الحرام الأفندى قد يكون اليوم سليمان وغداً إبراهيم وبعد غد رأفت أو
 حشمت وربما جرجس أو بطرس !! وربما هو اليوم أفندى وغداً شيخ طريقة وبعد
 غداً أحد الحجاج الأتقياء !! ربما هم جميعاً شخص واحد لكنهم فى الشغل
 شخصيات متعددة كل واحد منهم يستطيع أن يكون كل الشخصيات فى آن واحد
 أو فى حالات متقلبة حسبما يحتاجه الرزق !! إسأل الشيخ زينهم فهو خبير بهم !
 إنه زعيمهم ! هاهاهاها.. ا..ى ! أقصد كان وانقضى ! الشيخ زينهم هذا يا ما
 طلع مع وديدة فى مشاوير أيام الشقاوة طبعاً ! كلنا على فكرة تشاقينا !! .."

" وديدة هى المعلم كل الخيوط فى يدها ! هى التى تختار من يطلع معها الطلعة !
 فهى خبيرة فى التقاط الرجال الذين تشعر أنها تحتاجهم فى اللحظة المناسبة ! الذين
 يمكن ان تلبسهم فى يديها فى قدميها فى رأسها فى صدرها فى أى مكان يعجبها!!

تختار الشخص حتى فى أخرج المواقف ! حتى اللحظة التى يصبح فيها من الواجب على شخص من الأشخاص أن يقبض عليها ليسلمها للشرطة لكى تقتص منها يتحول الأمر بقدره قادر فيصبح الخضم عاشقا متيما بعدوه يتمنى رضاه فما بالك ومعبوده يلقى إليه بنفسه طعم الإغراء يطرح عليه الشبك طرح صياد ماهر !؟ الصيد دائماً أبداً ينساب فى شباكها نشوان القلب بلا أى مقاومة ! هو دائماً صيد ثمين !! وكما نمسك نحن بمصيدة الفئران لنرجها بين ايدينا والفأر حبيس بداخلها يرتج حتى ينزف وتتفتت روحه فإن وديدة تفعل هكذا بالضبط فى صيدها وكم وقع فى يديها من رجال من أبناء الأسر الطيبين طمعوا فى قطف ورود خلدتها وهصر جذعها والغرق فى عينيها فإذا هم ينخرطون فى خدمتها كالصبيان المدطين مع أنهم فى بيوتهم وأشغالهم أسياد مبجلين لهم شنة ورنة !! يبقى المسكين أسيراً لديها حتى يصبح لا وجود له فى أى مكان آخر إذ تنهار شخصيته فى داره فى شغله فى أى مكان بعيد عن وديدة كمدمن الكوكايين لا يسترد وعيه إلا بالكوكايين !! وكيل الوزارة والمدير العام واللواء يقضى لها المشاوير بمزاجه !! وحسب قوة احتماله ! ربما ظل يقبل عن طيب خاطر حتى يصير مجرد بواب أو ناضورجى فى حراستها وربما يصبح مجرد رفيق مجرد صاحب مأمون الجانب مجرد خادم مجرد خيال مآته ييذب عنها الطيور المهاجمة حتى ينتهى رجل أقوى منه فى الداخل من عمل الواجب على النحو الذى يرضى وديدة !! هى لذلك تستطيع السكنى فى قصر ملكى لكنها تموت حباً فى تراب الوكالة ، فهى فى الوكالة ملكة لكنها فى القصر لا تدرى ماذا تكون !؟ فى الوكالة لها حاشية كبيرة من الرجال وقعوا جميعاً فى هواها بصدق أصبحوا من دراويشها مع أنهم رجعوا المشوار من عندها فوق الشوك إلى مكاتبهم فى وظائفهم وعمديتهم فى قراهم وشطارتهم فى ليلهم رغم الذل والعذاب والحرمان لا يقطعون الأمل فيها مع أن بعضهم كان متزوجاً من حوريات طاهرات لكنها الطفاسة وفراغة العين يا أخانا ! أو قل إنه حظ مقدور عند الله وموهبة يمنحها لمن يشاء !! ..

" الشيطانة تركتهم جميعاً ينصرفون عنها يائسين فلم يبق تحت حوزتها سوى من لم يعد لديه شئ آخر يعود إليه ! وذلك من أجل أن تستقبل صيداً جديداً يفتح لها

سككاً جديدة !! إنما هي لا تتركهم ينصرفون عنها كأنهم ما كانوا !! لا يا حلوا
إنها تبقى على خيوط الشبك في يديها تشدها في أى لحظة تشاء من هذا الخيط أو
ذاك ليحضر في الحال هذا الصيد أو ذاك ينقلها من ورطة يفرج عنها ضيقة أو
يفكها من قبضة البوليس !! كل واحد منهم يا أحنانا عنده شئ منها يعتز به في
صدر مكنون : قبله ساخنة حزن عميق ليلة حمراء ضربة رمش فما بالك لو جاءه
مرسال حى منها يطلبه لأمر يخصها !!"

" تسألنى يازينهم لماذا أتفكرها الآن ولماذا أصحى الجثث وهى رمة ١٢ أنا والله
لا ذنب لى فى الأمر إنما هى التى صحت لأن الزمن صباحها الليلة لتحل مشكلة
فظيعة كانت فعلتها منذ خمسة عشر عاماً !! مطلوب منها الآن أن تدلى باقوالها فى
أشياء كثيرة وعويصة !!"

" سرحات وديدة كانت بلا نهاية ! فالسرحة تنشأ من السرحة ! والمشوار يلد
المشاوير! وصفقة تقود إلى صفقات ! أرأيت يا أحنانا إلى ملكة دنيئة لا يهملها عرف
ولا شرف ولا مظهر ولا مخبر ولا أى شئ ؟ شف يا أحنانا ماذا تكون ١٢ هى مثلاً
تعشق هوايتها المفضلة التى كانت السبب فى اتساع سوقها ورواج بضاعتها !
تنظف مهما انظف لكنها تعود للثانة فى آخر الأمر ! إن تابت القحبة عرّست !!"

" المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندى ذى الشكل المحترم فتسافر به إلى الأسكندرية
لتمكث هناك أياماً طويلة حتى تغربلها وتهز هزها ! يعنى لا تترك فيها حياً إلا
وسلبت منه أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة على الخطوط الطوالى ! تختار
أشد العربات ازدحاماً ! تركب ومن ورائها الأفندى ! ينحشران زحفاً داخل
العربة!! عطر المرأة وجسدها مهرجان كبير ! الجميع يحضنون عليها وهى تنزلق من
بينهم فى سهولة ! بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق
هو بها فى الحال سعيداً غائباً عن الوعى فيلتصق به الأفندى من الخلف ! صاحبنا
يندلق على المرأة والأفندى فى لمح البصر ينتهى من تقلبيه وسلب محفظته وكل ما
معه بخفة يد لا ترى بالعين المجردة !! حين تشعر هى أن صاحبنا المندلق على
مؤخرتها قد اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من حركات
التألم تم تستدير ناظرة إلى صاحبنا فى تأنيب واحتقار فيلتقطها أحد المتابعين

فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً لها فى الأول حتى يبدأ الإلتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى ينتهى الأفندى من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل يهبطان فلا يبقيا فى الشارع برهة واحدة ! لا بد من الاحتفاء فى حارات ملتوية أو فى تاكسى أو مترو ! المهم أن من يسعى وراءها لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجرؤ واحد منهم على إعلان فضيحتهم إذا اكتشف غفلته فى وقت مبكر !! ..

" هذا جانب الأتوبيسات وحدها ! تعال إلى جانب الشاطىء الذى يسمونه البلاج ! اليوم فى المندرة وغداً فى سيدى بشر أو المنتزه أو أبى قير !! ما عليها إلا أن تخلع ثيابها وتمشى بالمايوه على الشاطىء ! ألف واحد من العزاب سيمشون وراءها ! هذا مؤكد ! أرأيت يا أخانا إلى مجموعة من الكلاب يتحوظون كلبة واحدة فتقوم بينهم معركة وهى مقعبة إلى بعيد تتفرج منتظرة نتيجة المعركة وفى النهاية ربما تركتهم ومضت إلى سبيلها لا تمكن من نفسها أحداً منهم !؟ تلك كانت وديدة على البلاج ! لا بد أن يفوز فى معركة الإغراء واحد تتأكد هى من منظره من كلامه من مصروفه أنه ملان بالخير ! تعطف عليه ! يتم الإتفاق على موعد ليلى فى مكان ما حيث توهمه أنها ستزوغ من زوجها !! تنتقل معه إلى شقته ولكن بعد أن تسرح به سرحاً طويلة فى المدينة تشتري فيها كل ما لذ وطاب مما هى محرومة منه والبقف يدفع بكل سخاء ولذة ! فى شقته تدس له المخدر فى شاي فى كأس خمر فى قطعة حلوى !! يستسلم البقف للنوم وأكل الرز باللبن مع الملائكة بينما تكون هى فى تمام صحوها ! تقوم يا أخانا فتقشش البيت من كل ما فيه من مال وملابس وأشياء ثمينة تضعها فى صرر وحقائب !! وأكثر من أفندى ينتظرونها تحت باب العمارة وباب الشقة مسلحين بالمطوى !! ..

" حوّد على البلاد المجاورة ! المدن الصغيرة مثل كفر الدوار ورشيد والمحلة وكفر الزيات وزفتى وميت غمر ! تنزل على سوق الكانتو تبيع الملابس بالقطعة متخذة مظهر التاجر حتى لا يخمها أحد أو يتشكك فيها مخبر سرى !! فتنتقل بعد ذلك إلى سوق الصاغة فتبيع مالا يلزم لزينتها مع المصاغ المسروق !! هى لاتبيع إلا المصوغات

الغريبة التي لا تتسق مع شخصيتها كالخواتم الأثرية والبروشات والأشياء التي لا أحد يصدق أنها اشترتها للتزين بها فحسب !! هي أيضاً مفترية فى السرقة ولكن ذلك لحكمة يا أختانا شف العجب ! إن من حكمتها أنها لا بد أن تأخذ حتى الثياب التي ينام بها الموكوس بحيث يصحو عندما يفيق فيجد نفسه بلبوصاً ولا يجد هدمة واحدة يستر بها جسده لينزل إلى الشارع ! يعنى أنه لن يتمكن من تبليغ البوليس إلا بعد أن تكون المعلمة قد غادرت البلدة وعادت إلى شخصيتها كفجرية حلبيّة لا علاقة لها بالهائم الفخيمة سيبلغ عنها الموكوس إن بلغ !! معظمهم يكفى على الخير ماجوراً ويفوض أمره إلى الله !!".

" من المدن الصغيرة إلى الوكالة تترك غنيمتها تحت البلاطة تدخرها ليوم تدبل فيه وردتها فتجد شيئاً تعيش عليه بقية عمرها !! يوم أو يومان أو أكثر فى دمنهور تشتري كمية كبيرة من الأساور والخواتم والأقراط والأفرع من مصوغات القشرة ماركة الجمل بأسعار تزيد عن ثمن التراب قليلاً ! تلبس منه فى يديها وأذنيها وأصابعها وحول عنقها طاقماً مغريباً ! ولا تنسى يا أختانا أن الملبوسات بجميع أنواعها لا تليق على كل الأشخاص فانت أو أنا قد نلبس خاتماً أو بنظلوناً ثميناً فيبدو علينا كأنه شئ لا يلفت النظر إنما لو لبسه شخص آخر لظهر فى منتهى الشياكة !! الناس إما فتارين أو أزيار مظلمة الجوف ! ومصوغات الصائغ كلها لو وضعت فى قلب زير لاندفتت أما لو وضعت فى الفتارين فحدث ولا حرج ! وديدة كانت فترينة ! تظهر الأساور النحاسية فى معصمها كأنها من أغلى أنواع الذهب الخالص وكذلك كل شئ تلبسه يجذب العيون فيتمنى من يراه أن يقتنيه !!".

" تنزل البلدة على شكل محترم وحشمة ويدها ورقة مكتوبة فيها عنوان شخص لا وجود له فى أى مكان ! حبذا لو كان ذا لقب متشابه مع لقب عائلة مشهورة فى البلد !! تمضى هى للسؤال عن هذا الشخص المجهول ! يقودها أولاد الحلال إلى من يتشابه اسمهم ما اسم من تسأل هى عنه !! هم بالطبع أهل ود وترحاب خاصة مع الضيوف الغرباء فالغريب فى القرى مكروم لأجل النبى !! أهلاً وسهلاً تفضلى ياست إشرى الشاى قبل كل شئ !! الشاى ربما يجلب الغداء ! والغداء ربما يجز إلى المبيت ! وهى من لحظة استلامها لهم تشغلهم جميعاً بحكاية مثيرة تبتدو وحشة أيامهم

المتشابهة ! تحكى أنها حرم الأستاذ فلان الفلانى هذا الذى جاءت تسأل عنه حيث تزوجها منذ سنة أو سنتين وخلفت منه لكنه خرج ذات يوم بعيد مسافراً إلى بلدته هذه فلم يعد فلما استغيثته وضاقت بها الحياة فى مصر جاءت تسأل أهله عنه!! يا حرام ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربنا ينتقم منه ! أبناات الناس لعبة ؟ شف الرجل ابن الحرام وكيف خدع هذه الولية الغلبانة ! هل سألت قسم البوليس ؟ والمستشفيات ؟ هل فتحت المنديل ؟ زرت أحد المشايخ ؟ قرأت عدية يس ؟ هى ترد على كل ذلك مولولة ممثلة بأشد اتقان دور التعيسة المنكوبة المتورطة فى مشاكل الدنيا والآخرة يسندها مظهرها الفخيم الذى يلقى الاحترام ولا يتطرق إليه الشك!! بعضهم ناس طيبين بالفعل وكرماء يقومون معها بواجب كبير ، فبعد المبيت تخرج فى الصباح من عندهم محملة بخير كثير تبرع به القوم لها ولعيالها من زاد وملبس وفلوس !! بعضهم بطيبة قلب كبيرة يخرج معها للبحث فى عزبة مجاورة تشابهت أو قل اشبهت فيها الأسماء !! يقوم نيابة عنها بشرح القصة بشكل أفضل منها باللغة التى يتفاهم بها الفلاحون مع بعضهم فيتأثر السامعون أشد التأثر ويتحمسوا أشد الحماس وربما قاموا بدورهم بتقديم المشورة بحماسة كبيرة لكنهم لا بد أن يساهموا فى تحميلها بمزيد من التبرعات حتى تفاجأ بها عائدة إلى الوكالة ذات ليلة بين حمول كثيرة يجرى إنزالها من تاكسيات أو حناطير أو عربات كارو !! ياما نالنى من الحب جانب ! ياما أكلت وشربت ولبست من فيض الكريم عليها بأشياء لم تكن تخطر لى على بال !! الميزة فى وديدة أنها ليست عقربة تقرص والسلام كل من يقترب منها! الحق لله كانت إذا جبرها الله فى بلدة من البلاد عادت راضية دون أن تؤذى أحداً! أما إن لقيت سوء الإستقبال أو الجفاء فإنها تقدر على اصطيد بعض الضعفاء الطماعين لتسخينهم وإلباسهم قراطيس الخديعة : إنها الآن - تحكى لهم - واقعة فى ورطة مهيبة ! ليس معها أجرة السفر كما ليس فى بيتها لقمة لعيالها وهى لا تحب أن تتسول فهى ليست فى حاجة طالماً أن فى يديها ذهب ! فلو تجد من ترهن عنده هذا الذهب مقابل مبلغ بسيط فهى لا تمنع !! هنا يتحرك الطمع فى السامعين فيسعى بعضهم للإستيلاء التام على هذا الذهب البراق بيعاً وشراء بثمان بخس! فيروح يساومها ! فإذا هى قد أخرجت فى الحال من حقيبة يدها فاتورة الصائع التى

اشترت بها هذا الذهب مذ كانت عروساً جديدة !! المساوم ساذج كالسمكة الصغيرة تتحرك بحرية داخل فكي التمساح ! هي تكون أول من يطلب الانتقال إلى أى محل صائغ فى أى مكان يروونه ليقوم الصائغ بثمنين الذهب بسعر هذه الأيام وهى من عندها تخصص ما يرضيهم !! تصر على ذلك لبعض الوقت حتى تهيج غريزة الطامع فيرجوها أن يتم ذلك فى السر ما أمكن خوف القر والحسد !! من هنا يجاهد معها الفلاح الطيب أو الفلاحة الغشيمة حتى ينخفض ربع الثمن الذى طلبته وديدة!! وأحياناً تجرى بينهما المقابضة مع دفع الفروق كأن تأخذ منها الفلاحة هذا الفرع الكبير وهذا القرط الثقيل وهذا الخاتم وتعطيها فى المقابل هذا المصحف بهذه السلسلة مع هذا القرط الخفيف ومبلغ كذا من المال وبضع كيلات من الأرز أو القمح أو كيسين من القطن !! رجال وديدة دائماً فى انتظارها رهن لفتة منها فى صورة ناس يتطوعون بمساعدتها لوجه الله !! ..

" شيطانة كانت من التتر والحلب معاً فأبوها تترى وأمها حلبية ! لا يقدر عليها إلا صاحب القدرة سبحانه وتعالى ! كفاك الله شرها يا أحنانا حتى وهى ميتة !! عمرها وصل إلى الستين وهى عفية لم يطرأ على جمالها الوحشى أى تغيير !! إبنتها كانت عروساً فى الثانية والعشرين من عمرها واسمها نور الصباح أنجبتها من زوجها الأول القديم ترك خان الذى طلقته بعد ولادة نور الصباح بغام واحد ! نور الصباح لم تره أبداً لأنه رحل إلى بلاد الله خلق الله فلم نعرف له خبراً من يومها !! أى والله يا أحنانا ! قل له يازينهم ! قل له عن ترك خان الذى كان عبارة عن بغل كبغل الوسية بشارب كخيال المائة كانت شغلته تراييزة البخت فى الموالد بتقليب الزهر فى كوب ثم دلقه برهان على رقم فيه إن لم يجئ به مجموع حبات الزهر خسر الزبون الرهان ! وفى غير أيام الموالد يلعب الثلاث ورفقات ! كان بليداً يشرب كوز السبرتو الأحمر على ريق النوم ولو تعارك يمسك بالرجل الشديد فيقطع وسطه قطع الخيار ! لا أحد يملأ عينيه أو يصد فرعنته غير وديدة ! الوحيدة التى يعمل لها ألف حساب ! ومرة أراد أن يكون الرجل معها كأى زوج من حقه أن يشنخط فى زوجة يأمرها بكذا فما كان منه إلا أن شرب كوزين من السبرتو الأحمر لكى يتمكن من الشنخط فيها !! هى شنخطة واحدة إنهال بعدها الشبشب فوق رأسه

حتى اضطر للجري فظلت بعضا تسليك الكنيف تلاحقة ككلب أجرب !! وإذا كان الكلب يعود بعد طرده فإن ترك خان لم يعد من يومها !!".

فلما كبرت فى السن وكبرت البنت أيضاً انهد حيلها بعض الشئ ! أصبحت سوابقها مشهورة فى حواديت كل البلاد كأمننا الغولة ! أصبحت تخشى النزول إلى بلد من البلدان للشغل ! وعلى حد قولك يا زينهم إنقض عنها الرجال الأشداء بالموت أو بالشيخوخة أو باليأس النهائى !! أتذكر تلك الأيام يا زينهم ! تذكر يوم أمسكها البوليس فى واحدة من الأعيبها فلم تجد من يتدخل للإفراج عنها !؟ دفعت الشيطانة خمس سنوات من عمرها فى سجن النساء تاركة طفلتها نور الصباح أمانة لدى صديقتها أم وداد التى سمت ابنتها على اسمها !! كالعادة فى كهن النسوان طلعت الولية من السجن تائبة تتلفح بالطرحة البيضاء !! مابقى تحت البلاطة بعد أتعاب المحامى وكتبة المحاكم وجاويشية السجن وأكل غير أكل السجن وألبان لابنتها نور تبدد كله فى شهور قليلة !!".

" عادت لشغلها الأصلية ! حملت القفة وسرحت تشوف البنحت فى البلاد الصغيرة التى سبق أن نزلتها للنصب والإحتيال ! وكانت تعود فتحكى لنا كيف رأت الناس فى هذه البلدان ما يزالون يتكلمون فى الحوادث التى فعلتها فيهم ذات يوم ! وكيف أن بعضهن اختلين بها وسألنها إن كانت تعرف امرأة شكلها كيت وكيت !؟".

" فى سرحة من هذه السرحات أوقعت الولد فى هواها يا حسرة أمه عليه!! كان ابنها الوحيد ! يدلله أبوه بل كاد يعبده : رح يا بدر تعال يا بدر! وبدر يبرطع فى الدار يصبح كبيرها فى ظل ابيه السعيد به والذى كبره بنفسه على نفسه !! عخطب له ابوه ابنة واحد من ذوى الأملاك الكثيرة ودفع مهراً كبيراً وشبكة ثم صارت الدخلة على الأبواب! لكنه النصيب يا اخانا! الدنيا كما قال يوسف وهبى مرسحية كبيرة غريبة !! بدر بن السعيد هو وأبوه إسمان على مسمى !! بدر وهو بدر ! الوجه كطبق النحاس الأحمر المنقوش الذى يعلقه أولاد الذوات على حوائط بيوتهم ! أما الجسم فكجذع شجرة الجميز تخناً وامتلاءً وكعود السنط صلابة وشدة! الطاقة الصوفية الملونة منجعة على مؤخرة رأسه والجلباب الكشمير

كالعكة على يديه والمركوب الأحمر في قدميه والعصا العوجاية الأبنوس في يديه
كللرشح للعمدية!!..

"يومها كان سارحاً في العصارى بهائم يدرج بها يفسحها على شاطئ ترعة
قرية من زمام بلدته! وضع القدر وديدة في طريقه خارجة من البلدة!! سلطت فيه
عينها! وقع الولد من طوله في الحال! استوقفها تشرف له بخنقه!! ألقت له في
الحال بختاً يوافق هواها!! قرأت عليه تعزيمة أوقعته في حباتها، كلما همت
بالنهوض استبقاها مقابل ما تشاء من أجر لكنها لم تتخلص منه إلا بعد أن أعطته
عنوانها في الوكالة!! بدر السعيد للسكين لم يكذب عبثاً! في نهاية الجمعة نفسها
جاء إلى الوكالة محملاً بزيارة ثمينة من أرز ودقيق وعسل وسمن وبيض وجبن ولبن
وعبز طري وفطير!! مكث عندها يومين في حفاوة كبيرة وعند النوم تفرش له
فرشها كله أمام باب حجرتها ليتأكد من شرفها!! بدر السعيد لم يكن يريد التأكد
من شيء! قلها بنفسه! حتى لو كانت هي فيها ما قتل الحاوي فإنه بات أسيراً
وهيئات أن يهرب منها!!..

"أشعل الولد عياله الكهل أيقظ عواطفها الخاملة ذكرها بملكها القديمة
وبأسرها السابقين!! وقعت هي الأخرى في هواها! صار يتردد عليها كل جمعة مرة
أو مرتين! ثم فوجئنا بالمأذون يدعل الوكالة ليعقد عليها!! صارت وديدة زوجاً
شرعياً لبدر السعيد!! الذي غاظني أنها أتت بمأذون من خارج الوكالة مع أنها
تعرف أنى قادر على عقد قرانها بنفسه!! المقصود يا أختانا إن نقل بدر السعيد إلى
حجرتها وترك عطيته بنت الناس وأهله وأرضه ومستقبله واختار العيش تحت ظل
وديدة!! السر لم يكن في عينها وحنها يا أختانا ولا في جسمها الذي هو
الشيطان نفسه بجسداً في امرأة ليغري بها أتقى الناس وأشدهم إيماناً وهو على ثقة
أنهم يرفعون جباههم عن سجادة الصلاة فإن خطفت عينها عيونهم ما عادوا
للركوع ثانية إلا لها!! إنما السر فيها!! إنما السر فيها كلها ولا أحد يعلمه بالضبط!!
الولد بدر السعيد جاءت عطيته إلى هنا لتري بنفسها هذه التي اختطفته منها
فعلته مع أنها.. تصدق بالله يا أختانا.. قل له يا زينهم.. جمال بنات الحور يا
أختانا! والله لعلها أجمل منهن!! ولكن.. البنت المسكينة كانت تياها بجمالها

منذ دخلت وجلست مع أهلها بجوارى على هذه المصطبة ! فلما رأت وديدة انكسر
جبينها فى الحال واغرورقت عينها بالدموع ونهضت قائلة لبدر السعيد : معك حق
يا بدر فأنت طول عمرك تموت فى حب الجمال وإنى لست زعلانة منك فهالك
دهلتك وشبكتك وأنا لى رب يحمينى ويضع فى طريقى من يحب جمال الشخص قبل
جمال جسده يا بدر ! يا بدر كثر الله خيرك لأنك جعلتنى أفيق فأنا كنت مثلك
أحب الشخص لحلاوة شكله وأتصور أننى غالية عليك !! .. سحبت البنت أهلها
ومضت ! وإذا وصلت إلى فتحة البوابة استدارت فى هبوب الريح الذى نطح ثيابها
إلى الراء وهفهفها فبدت كقوس من سحابة سماوية اللون فارغة نحيلة حمراء الوجه
تحت المنديل أبو أوية المشغول بالفل والترتر ! رفعت ذراعها صانعة من راحة يدها
مظلة فوق فمها وأطلقت زغرودة مجلجلة طويلة النفس تخطف القلوب خطفاً يا
أخانا !! .. وحق من جمعنا على غير ميعاد إن زغرودتها ترن الآن فى أذنى قادمة من
فراغ البوابة من زمن بعيد مائل لا يريم ! أسمع الآن صوتها يقول بصدق حقيقى :
مبروك يا عريس !! ..

" إنصرفت البنية التى أذهلتنى وأذهلت الجميع ! ولكن يعد شهر قليلة جاء أبوه
وأمه بصحبة وفد من الرجال ! كان منظر أبيه يا أخانا يصعب على الكافر لكنه لم
يصعب على ابنه بدر السعيد !! المرض هد الأب فبان عليه الذل والإنكسار إذ
يستعطف ولده أن يرحمه فيرجع إلى أهله يرعى أملاكه وأراضيه ومواشيه فلم يرض
الولد !! .. لو كان ابنى أنا لقتلته فى الحال حتى لو كان وحيدى !! .. تصور يا أخانا
أن المرأة وديدة نفسها تأثرت من منظر الرجل المسكين فصارت هى الأخرى تترجى
بدر أن ينهب مع أبيه وأنها توافق على أن يزورها كل أسبوع ليلة أو ليلتين فما
كان منه إلا أن شكمتها بكوعه فى بوزها فسكتت !! .. كنت عارفاً من الأول أن
بدر السعيد لن يرجع إلى أهله ! لأنه شرب خمر وديدة ! شرب رحيق شفتيها
الحريقتين فسرى المخدر فى عروقه ولن يصبح له دواء إلا هذا المخدر نفسه ! فإن
جمال وديدة من النوع الذى لا يكفى أن تمتلكه بل لابد أن يبقى فى حراسته مفرج
العينين لا تغفل عنه لحظة واحدة !! وهذا ما فعله بدر السعيد يا أخانا ! .. بعد شهر
قليلة تلقى خبر وفاة أبيه فسافر لدفنه ثم عاد بعد أيام ! .. شهر قليلة أخرى وتلقى

خبر وفاة أمه فسافر لدفنها ثم عاد بعد أيام !.. وظل كل بضعة شهر يسافر إلى بلدته لبيع شيئاً من أملاكه ويأتى فيصرف ثمنه على أكل الحمام والجنسرى والكابوريا والبطارخ وشرب الحشيش والخمر الذى تعلم شربه من وديدة وعرف الطريق إلى محل الخواجة ينى كرياليكوس فى شارع البندر!.. وكانت صحته مع ذلك فى تقدم مستمر فنضحت على صحة المرأة فتجدد شبابها ! لكنه كسر شوكتها بعنفوانه فأصبحت تحبه وتخاف منه ! لأول مرة فى حياتها تعرف الخوف من رجل ! أصبحت تتحشم فى لبسها فى كلامها فى خروجها فى جلوسها !.. قسم الحجره قسمين بقاطوع من الخشب حيث تنام الولية وابنتها فى مكان منعزل ويبقى هو وأصدقائه فى الشطر الآخر يسكرون يلعبون القمار حتى مطلع الفجر فيصرفهم ويستدعى المرأة ليكمل فى حضنها بقية الليل !..

" القمار كان لعبته شغلته الوحيدة ! خسرت فيه المئات لكنه كسب الآلاف فصرفها كلها على وديدة وابنتها !.. قعد بوديدة جعلها رسالته فى الحياة حررها بحق وحقيق أدبها ورباها ! لم يكن يضربها إلا بالكرباج السودانى المسقى بالزيت ! كل علة أنقح من سابقها !! درب عينيها على عدم الإنزلاق هنا أو هنا !.. وبعد أربع أو خمس سنوات فوجئنا بالمأذون يدخل الوكالة مرة أخرى متجهاً إلى حجره وديدة !.. وقع الخبر علينا كهم الموت لم تصدق أن بدر السعيد امتلك الجرأة على تطليق وديدة !.. فى هذه الحالة بدأ الفأر يلعب فى عبي !.. أنت تذكر يا زينهم تلك الأيام ! أنا بدأت أفكر فى التدخل ! جاءت فرصتى لأقول له : ماذا يقيقك هنا بعد الآن يا بدر السعيد !؟ أظن من الواجب الآن تعود إلى أهلك !! لكنه لم يعطنى الفرصة يا أخانا ! إذ ماكدت أقتنع بضرورة محادثته فى الأمر بحجة استنكار وجود أعزب بين امرأة وابنتها العروس حتى فوجئت بالمأذون يدخل الوكالة مرة ثالثة ليعقد قران بدر السعيد على نور الصباح ابنة وديدة وترك خان !.. لحظة أن فكرت فى توجيه النصيح للولية المجنونة كان بدر السعيد يدعو للمشاركة فى الفرح بل يجعل البنت تختارنى وكيلاً لها أضع يدي فى يده عقد القران ! وبما أنى وكيل البنت فقد طالبت بحقى الشرعى فى الإنفراد بالبنت لمعرفة رأيها !.. تصور يا أخانا : البنت نانت واقعة فى غرامه لشوشتها وأنها هى التى أرغمت أمها على طلب الطلاق من

بدر السعيد لكي تتزوجه هي بدلاً من ارتكاب الفعل الحرام معه !!.. إنفردت أيضاً بالولية فوجدت في كلامها حكمة : إن بدر السعيد لن يدع أحداً غيره يتزوجها والبنت تبور وتفطر في عرضها فلماذا أحيب أملها وأنا شبتت من الدنيا ؟! دعها تتزوجه تعيش شبابها معه مادامت تحبه وهو يحبها أكثر منى ولأننى أحبه واحب ابنتى فإنى أتركها لمن يحبها أكثر من حبى أنا لها !!.. شف كلام الولية القرشانة يا أخاننا !!"

"هى محبة أى نعم وحبها وحشى كشخصيتها ! إنما ضرب الكراييج له أثر ! وكتم الأنفاس فى صدر تعود على التنفس بحرية تامة له هو الآخر وقع مؤلم فى النفس ! وكسر الأنف بالنسبة لإنسان تعود أن يكون الأمر الناهى له كذلك أثر! وما كان بدر السعيد ولا أحد فى الوكالة يعرف ما الذى يفعله هذا الأثر فى نفس وديدة !.. تصدق بالله يا أخاننا ؟ ولا حتى وديدة نفسها كانت تعرف أنها تدبر للإنتقام دون أن تدري !! هذا فى شرعى أنا !! وفى ظنى أنها وجدت نفسها أمام الفرصة فتركت غيرها يقوم بالفعل !!"

"الولد حمؤه الشهير بالبورى ولد عجلاتى وصاحب دكان خلف سينما الأهلى وهو فى العشرينات من عمره كسيب وجدع لكنه مضروب بداء القمار وشرب السيرتو وأنفاس الحشيش !! أتى به القمرتية إلى الوكالة يرفل فى النعيم ! كان حلو التقاطيع مسمم الوجه محمر البشرة بدم خواجاتى ومسحة ذواتية وعلى جبينه الضيق خصلة شعر متكورة كشبان الأفلام المرسومة على ورق الإعلانات ! شخيف البدن قوى البنية ! ملوث اليدين والخدين ومقدمة الأنف بشحوم العجلات وترايبها! تعود ان يدخل إلى حوض الطلمبة بمجرد بحيثه ليغسل نفسه إذ هو لا يحب أن يلعب القمار إلا نظيفاً إذ أن أصابعه الملطخة بعرق الشغل لن تريح أعصابه حين يدفع بها نقوده إلى الكاسب ستذكره دائماً بالعرق فى الشغل من أجل كسبها !!.. الحقيقة أنه ظهر كالوارث مبلغاً كبيراً وبالخصوص لأنه فى مظهره طيب ومؤدب وابن ناس لدرجة أننى لأمانته انتخبته فجعلته مندوباً لى فى قعدة القمار يقبض العمولة المقررة عن كل دور فى اللعب فكان يودى ذلك بكل أمانة وكنت أسمع عراكه معهم على مغالطتهم فى احتساب الأدوار المنسية بسبب عدم وجود الفكة !!.. حمؤه هذا كما

كانت تسميه وديدة البورى كما كنا جميعاً نسميه ، كنت أشعر كأنه ابنى الذى ضل طريقه فاحرف ! وياما حاولت نصحه فلم يعطنى الفرصة لكننى كنت أشعر ان وراءه أمراً ! وقد صدق ظنى لكننى لم أعرف ذلك إلا فى الآخر!.. إتضح لنا أنه كان محتالاً كبيراً يسرق وينصب ويوقع بالفتيات المراهقات فى أحابله فيستولى على مصاغهن ومصاريفهن وشرفهن كما يغريهن بسرقة أو تدبير الأموال من أهاليهن كى يدفعها مهراً لمن وهو فى الواقع يدفعها على طبلية القمار!! كذلك نصب على شركات فأخذ منها بضمنان ملكية الدكان دراجات كثيرة باعها ولم يورد ثمنها ثم أتضح أن الدكان ليس ملكه تماماً هو موزع بين ورثة كثيرين!! وفى الأيام الأخيرة كان قد تم حقه بمنحدر وديدة وابنتها فأصبح غير قادر على السلوا وفى نفس الوقت غير قادر على خرم شخصية بدر السعيد والوصول إلى غرضه فى واحدة منهما!! حاول أن يتفوق عليه فى اللعب فخسر الجلد والسقط!! حاول أن يتيه عليه بجماله فظهر كالصبي العلق الطرى فكف عن هذه المحاولة نهائياً وبات يعتمد نسيان أنه جميل الشكل!! حاول أن يغلبه فى مسائل الرجولة والقوة فراح فى الكازوزة لأن بدر السعيد أرجل منه وأقوى بغير كلام!!..

" الولية القرشانة تعرف كل هذا ! كانت تحكيه لى يا أخانا فى ساعات الصفو التى تجلسها معى فى العصارى أثناء نوم بدر!! وأنا كنت أظن نفسى أفهمها وهى طائفة إتضح لى أن بنت حواء بنت الفرطوس لا يمكن أن يفهمها أحد حتى لو كان شوادفى!! ألم يعلمونكم فى المدرسة قرآنا يقول : إن كيدهم عظيم؟! فعلاً فعلاً صدقت والله يارب!! الولية شغلت عينيها على الولد البورى فى السر من وراء ظهر بدر السعيد فأشعلت دماغه ورطبت نفسه المحترقة باليأس وطببت على رجولته المهیضة ! صارت تلتقطه فى السر فى لحظات خاطفة أثناء نوم بدر أو فى السوق وهى تشتري الخضار ! فمرة تعطيه حضناً ومرة تعطيه بوسة ! ومرات كثيرة تبخ السم فى أذنيه ! قربت له الأمل ! أحبته من جديد ! صرحت له أنها يمكن أن تعطيه نفسها أو ابنتها نور الصباح أو هما معا إذا هو تمكن من التخلص على بدر السعيد!! رسمت له الخطة كاملة : أن يفتعل عركة فى أول السهرة بسبب اللعب لكى تكون القضية مجرد خناقة أدت إلى موت فى الدفاع عن النفس فتكون العقوبة

سنوات قليلة لا تزيد عن ثلاث يقضيها في السجن ليخرج فيتزوج من نور الصباح بدون مهر أو أى شئ وأنها ستسرق مطوة بدر السعيد من جيبه وتعطيها له فيمسكها بالمنديل ليقول فى التحقيق إن المطواة هى مطواة بدر الذى كان يريد أن يضربه بها فدافع عن نفسه !!".

" فى أول الليلة قلّ الولد أدبه على بدر بصورة طيرت صوابه فشتمه فرد عليه البورى بشتمة قاسية فلكمه بدر لكمة قوية رنخته دوخته !! كان بدر يظن أن البورى سيرتدع بهذه اللكمة ويفيق إلا أن البورى إعتدل وصبوب دماغه على وجه بدر السعيد نطحة نطحة أفقدته الوعي أسالت الدم من أنفه بغزارة فدب يده فى جيبه بحثاً عن المطواة فإذا بالمطواة تظهر فى يد البورى ملفوفة اليد. المنديل من مناديل بدر أيضاً !! بسرعة البرق دب البورى المطواة فى جنب بدر الأيسر فدخلت عن آخرها فتركها واستدار يتخبط فى الباب وفى الدرج ثم انطلق يجرى مغادراً الوكالة إلى خط السكة الحديد قاصداً الإختباء لدى اقارب له فى عزبة بعيدة!! تصور يا أختانا أن بدر السعيد استطاع أن ينزع المطواة من جنبه ثم يجرى بأقصى سرعة وبقوة حصان جامح حتى لحق بالبورى على القضبان قبل أن يعبرها فأمسك به!! إلا أنه داخ فارتمى فوق القضبان فطارت المطواة من يده فالتقطها البورى فشرح بها جسده بدر فى موطن القلب ولم ينس أن يغز نفسه بسن المطواة فى أكثر من مكان حتى يثبت أنه تعرض للضرب فدافع عن نفسه خاصة أن بعض الناس شاهدوا بدرأ يجرى وراءه مشواراً طويلاً وهو مسك بالمطواة تقطر دماً فرسم على الأرض خريطة حمراء تتبعها البوليس والنيابة من مبنى الوكالة فى ضوء الكلوبات!! ذهب البورى إلى أقاربه ملوثاً بالدم فطردوه ! وفى طريق عودته أمسك به البوليس ليجد أن وديدة قد رتبت كل شئ مع البوليس شرحت له كيف أن العداوة قائمة من زمان بين القاتل والقتيل بسبب اللعب وحب البنات وكيف أن القاتل سرق مطواة بدر ومنديله حيث كان يبيت النية السيئة !! ولم تنس أن تذكر للبوليس كيف أن القاتل إئتمن القاتل على عرضه وشرفه وأعطاه الأمان والحب فحاول كثيراً أن يخون الأمانة لكنها لم تبلغ بدرأ بهذا حتى لا توقع بين الصديقين !!".

" الشيطانة كانت تريد التخلص من الإثنين تخلصاً نهائياً وقد حصل ! مات بدر السعيد فلم يجد أهلاً يتسلمون جثته فجئ به إلى المشرحة ثم الثلاثرة فتستمر بضعة أيام في الغربية !! فاكر يا زينهم !؟ تصور يا أخانا من الذى تسلم جثته فى النهاية !؟ البنت المسكينة خطيبته التى تركت له الشبكة والدبلة مشفوعة بزغرودة !! جاءت هذه المرة مع نجار السواقى زوجها الميسور بمهنته وأرضه ولم تنس هذه البنية الفاضلة أن تمر على وديدة غريميتها لتسألها إن كان المرحوم مديناً بشئ لآى أحد فهى على أتم استعداد لتسديد كل ديونه !! زينهم العترىس هذا - لمواخذة يا زينهم - كان واقفاً ساعتها بيكى ليس على المرحوم طبعاً إنما على أمل الحسنة وفعلاً نفحه النجار شلناً بحالة كما وزع القروش على الجميع صدقة على روح المرحوم !! يومها عرفنا ان هذا النجار هو الذى اشترى أرض بدر السعيد ومواشيه لأنه الجار الذى هو أولى بالشفعة وأنه رغم الشراء كان مستعداً لرد كل شئ لو أن بدرأ افاق ورجع لبلدته وخطيبته كما أنه تزوج من خطيبته ليداوى جراحها !! تصور يا أخانا أنه كان بيكى بحرقه وهو يقول هذا الكلام !؟ .."

" تخلصت الشيطانة من بدرها بالموت غيلة ! ومن البورى بالسجن ! حكمت عليه المحكمة بعشر سنوات !! وبقيت هى فى جحيم تمت الموت هرباً منه !! فإبنتها نور الصباح لم تغفر لها هذه العملة السوداء ! البنت كانت تعشق بدر السعيد عشقاً ولا يملأ عينيها رجل آخر ! وكانت والله يا أخانا على وشك أن تذهب إلى البوليس فتعترف على أمها ! صار عراكها فى أنصاف الليالى يبلغنى على هذه المصطبة كأنهما ناكر ونكير كعدوتين محكوم عليهما بالسجن فى ززانة واحدة !! آه من هذه البنت يا أخانا ! عمرى ما شفت أصلب من دماغها ! من تصميمها ، قوة إرادتها ، طول لسانها قرص كلامها وجع ملافظها !! ياما فوجئت فى قعدتى هذه بوديده تخرج من الحجرة مولولة كالمشبوبة بالنيران طهقانة تطلب من يطفئها ! تشق الهدوم من شدة الغيظ تلطم خديها بيديها فى عنفوان سريع وهى تتطوح يصير وجهها كجمرات النار !! أناديها ! تجئ ! ترمى على المصطبة مخفية وجهها بين يديها مندجحة فى بكاء عنيف ! أطيب خاطرها بكلمتين ! أذيب لها قطعة أفيون فى كوب شاى حتى تهدأ ! كل ذلك والبنت مرتكنة بكوعيتها على سور البكية تمضغ

اللبان في برود وتتفرج على أمها باستمتاع !! من شدة قسوتها لم تكن تتركها في حالها بعدما تعود !! ل !! إنها تتصيد أية فرصة لتبدأ تحاكمها من جديد !! حتى فوجئت ذات عصرية مشثومة بعاصفة من النار تخرج من حجرة وديدة وتجري هابطة الدرج مقبلة نحوي تنفرد ألسنتها المخضرة الأطراف وفي قلبها كيان يطشطش ييقبب تبينت أنه جسد وديدة !! نفضت نفسى واقفاً ! سحبت البطانية طلعت أجرى نحوها لكي ألفها وأحمد النار المتطايرة منها تزغرد ! لكنها سرعان ما حولت وجهتها إلى حوض الطلمبة الملوء بالماء العطن فرمت بنفسها في قلبه فارتفع صوت الطشطشة وابعقه أزيز حاد مثل الأزيز المتخلف عن فرقعه بالون الأطفال !! إمتلأ فناء الوكالة بالناس من كل مكان وامتلاً الهواء برائحة اللحم المحترق ! صارت مثل فرع شجرة تفحم بعد حريق هائل وتآكلت نتوءاته !! جاءت النياحة عاينت الوضع أمرت برفع الجثة فلم يتقدم أحد سوى ! رفعت عاموداً من الفحم الغارق المتسلخ ! طويها عليها الملاءة !! هي الآن مدفونة في مقابر الصدقة بيننا وبينها خمسة كيلو مترات !! " ..

" نعم ! نعم يا زينهم أنت محق لكننى لم أنس شيئاً قط إنما أحكى لأخينا كل شئ وحده حته حته من أولها لآخرها ! جئتك فى الكلام فأقول إننا بعد أن دفنا وديدة لم نستطع نسيانها أبداً فظلت شهوراً طويلة كالمقيمة بيننا نسمع صوتها ونراها !! وذات ظهرية فوجئنا بسيارة فارهة بأجنحة زرقاء اللون تزحف أمام باب الوكالة حتى توقفت فى فتحة البوابة !! نزل منها أفندى نحيف يتمطى فى بذلة أنيقة يتصاعد منها العطر النفاذ ! أبيض البشرة كجمار النخيل ضيق العينين شعره أحمر غزير متكور كسبابة البلح ! قال فى رقة خطيرة كرفة من يملك إعدامك فى أية لحظة يشاء ! بلسان الدغ : مساء الخير !! فنهضنا جميعاً واقفي ن : مساء النور أهلاً وسهلاً .. أهذه وكالة عطية ؟ .. قلنا جميعاً : نعم أى خدمة ؟ قال : شكراً أرجو أن أقابل وديدة هانم خان الشهيرة بالتترية !! .. صرنا ننظر لبعضنا البعض فى ذهول وحيرة وقد نبتت الدموع فى مآقينا من جديد !! إحمرو وجهه : ما الحكاية يا جماعة ؟ لأول مرة يا أخانا إنفجرت فى البكاء كالمرأة : البقية فى حياتك يا سعادة البية فقد ماتت منذ قليل !! فكأننى جذبت خيط المناحة فانفتحت الصدور كأنها

انتهزت فرصة نادرة للبكاء !! الولد الأفندى هو الآخر صار يهتز ويرتعش كأنما ترنحه ريح مسلطة عليه وحده ! تقبضت ملامحه فبدا وجهه كقرص العجين داست فوقه قطة فلخبطته ! والدموع تتسرب من عينيه كعصارة البرتقال !! ..

" إندهشنا أكثر فأكثر يا أحنانا !! ثم إذا به يستدير باكياً فيتجه إلى سيارته كأن شيئاً لم يكن !! .. تعال هنا يا .. سعادة البية الأفندى ! من تكون !؟ إقعد هنا ! هات كرسيّاً يا ولد ! .. فاكر يا زينهم ؟ أنت يومها عملت نفسك رجلاً ملو هدومك فصحت فى أولادك طلباً للشاى حالاً !! أشهد لقد جاء الشاى حالاً بالفعل ! سعادة البية هذا يا أحنانا ! .. عجب والله يادنيا عجب ! لو لم ييك لظللنا منه على خوف واحتراس ! أما وقد بكى معنا فالحاجز انهار صار هو مثلنا !! ثم إنه قعد معنا على المصطبة ! .. الشعب المصرى جددع ياجددع ! وذكى وابن حنت يعجبك !! شف مثلاً كيف أننا لم نعد خائفين منه لكننا أمسكنا ألسنتنا ! هكذا من نفسنا دون أن ينبهنا أحد !! فالذى خطر ببالنا كلنا ساعتها أن هذا الأفندى لا بد كان من ضحاياها وبرح به الشوق بعد تباعد فجاء يتقصى ريق الحبيب فلم يجد سوى الصدمة المريرة ولهذا بكى !! لكننا لما رأيناه مستمراً فى البكاء يكاد يقع مغشياً عليه من التعب الحقيقى الظاهر فى عينيه المتورمتين المحمرتين تحيرنا فيمن تراه يكون !؟ إحدروا يا أولاد الزوانى أن يغلط لسان احدكم بكلمة هبلاء تجر علينا أى ورطة كانت !! .. هكذا قالت عيوننا لبعضها !! ..

" بقينا صامتين لفترة طويلة ! وكلما سربت عيني إلى وجه الولد الأفندى انكسر قلبي من الألم ، فعلى وجهه تعاسة تعاسة تعاسة من هنا لحد يوم القيامة ، منظره كأنه مات ثم سبق إلى ساحة الحساب فعرف أن كتابه بشماله فجلس فى انتظار مقدم الزبانية الذين سيلقون به فى نار جهنم وبئس المصير !! إن العشق وحده لا يمكن أن يفعل بالمرء هكذا يا أخ العرب !! أخيراً ضاق صدرى فمئلت عليه : وحد الله يا سعادة البية فكلنا سنموت ولكن لماذا لا تقل لنا من أنت حتى نتعرف عليك !؟ .. نظر فى وجهى ووجوه الحاضرين بعينين منطفئتين كضفدعتين فى شقين ناشقين ! ثمرمى فى وجوهنا بالقنبلة التى من شدة دويها كأننا لم نسمعها مع أن أجسامنا اقشعرت وانشالت عن الأرض ثم انحطت فانبطت فارتضت فمشت منها

العقول !!.. بعد برهة خفت صوت دوى القنبلة فانتبهنا فسألناه من جديد وقد ملنا جميعاً نحوه نتفحصه بدقة وفضول شديدين : قلت لنا من أنت إذن ؟.. فبرعشة من شفتيه قال مؤكداً : أنا ابنها ! نعم ابنها الوحيد فى حياتها ! منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أبحث عنها بكل الطرق لم أترك باباً إلا طرقته ولا نافذة إلا نظرت فيها ولاقشة فى قلب الموج إلا تعلقت بها !! أبى مليونير لبنانى يملك العزب والضياع والمحلات التجارية الكبرى فى بيروت ويتزاس حزباً سياسياً ويتزوج من أكثر من سيدة تعيش كل منهن فى قصر خاص بها ولديه من كل منهن أولاد أما أنا فأعيش وحدى فى قصر أمه جدتى وكل صيف أجيء إلى مصر فأظل طوال الصيف أبحث عن أمى إذ أن أبى لم يقل لى أى معلومات عنها ، كما وأنى لم أرها طول عمري إنما كانت جدتى لأبى هى التى تقول لى المعلومات بالقطارة كل بضع سنوات كلمة تقلب كيانى حتى موعد الكلمة المقبلة ، والغريب أن اهتمامى بحياة أمى المصرية التى ماتزال على قيد الحياة جعلنى أهتم بماضى أبى لعلنى أهدى منه إلى شئ ينير طريقى إلى أمى ! عرفت أن أبى حينما كان تاجراً فقيراً من العدم كان مهاجراً من وطنه الأصلي فلسطين الذى احتله اليهود فحين طاب العيش فى مصر القاهرة تزوج من سيدة تدعى وديدة الرجال تعيش فى مدينة اسمها دمنهور وقد عاش أبى معها فى هذه البلدة فى حى يدعى أبو الريش حيث كان أيامها يتاجر فى الخيش وفى مخلفات محالج الأقطان كالبذرة والوبرة ليقوم هو ببيعها فى أسواق بعيدة وكان يحب المال وأمى حياً شديداً لكنهما كانا دائماً على خلاف مستمر بسبب سفر أبى الدائم وحبه للمال الذى ينافسها فى قلبه حيث كان يجيى من ميناء لينهب إلى مطار ومن محطة السكة الحديد إلى مواقف سيارات النقل حتى زهقت أمى فضايقتة هددته بالطلاق إلى أن ولدتنى فصار أبى يدايدها يسترضيها بأى شكل حتى تمكن من ترتيب كل شئ للسفر بى وبأمواله إلى غير رجعة !! وحينما جاءت حرب ثمانية وأربعين كنت فى بيروت طفلاً أروح الحضانة وينهب أبى إلى شغله فيبيت بعض الليالى بعيداً عنا ، وفى تلك الأثناء انحفرت فى ذاكرتى حكاية أمى إذ أننى عدت من المدرسة يوماً فرأيت جدتى تبكى بشدة وعرفت من ولولتها أن أبى تزوج امرأة أسكنها قصرأ بعيداً وسمعت منها تعريضاً بأمى التتزية المصرية ! ووقعت فى يدي

بعض خطابات كانت ترسلها أمي لأبي قبل زواجهما فعرفت أنهما كانا يعيشان قصة حب حقيقية مذهشة ! فلما جئت إلى دمنهور ذات عام قال من سألتهم إنهم لم يسمعوا عن وديدة الرجال هذه إنما يعرفون وديدة ترك خان شغلها شرفان البخت وقالوا إنني أحمل شبيهاً كثيراً منها لكنهم لا يعرفون أين أختفت فكلفت ناساً من هنا بأن يبحثوا ويكتبوا لي على بيروت وهناك حاصرت جدتي بالأسئلة حتى أعترفت لي أن أمي كانت بالفعل تشوف البخت ولهذا ما صدقت أن وصلني خطاب يبلغني بوجودها في هذه الوكالة مع زوجها ترك خان وها أنتم تقولون إنها مات فليتني ما بدأت الرحلة من أساسها إذن لا سترحت أما الآن فمن أين ياترى تجي الراحة دبروني يا أخوان !!"

" هذا ما قاله الفتى يا أخانا لا يمكن أن تغيب كلمة منه عن بالي ! حالة كانت صعبة مؤثرة ولهذا حفظت كلامه إذ قلته أمام البوليس والنيابة عشرات المرات !! الولد الأفندي بعد أن قال ما قال انفجر في البكاء الحراق وصارت الدماء تخرق تحت جلد وجهه شيئاً فشيئاً ! وكلما أراد النهوض للإنصراف خذلته قدماه فيعود إلى جلسته منكسر الفؤاد وأخيراً قال بصوت متحشرج واهن : تركت المرحومة شيئاً ؟ أهى مدينة لأحد بشئ ؟ لها أبناء وزوج ؟ أريد أى أحد أو أى شئ من ريجتها !!.. قلت : يا ولدي إن لها ابنة تدعى نور الصباح كانت متزوجة فمات زوجها وهى عروس فلم تخلع الطرحة السوداء وقد أخذتها صاحبة لها تسكن خلفنا لكى تهدي خاطرها وهى كل ما تبقى من المرحومة فإن شئت ناديناها لك !!.. قال أنه يجب أن يراها ويقيم الود معها !! ما كاد يكمل عبارته حتى ذهب أكثر من مرسال إلى وداد الغازية فجاعوا بالإثنتين وداد ونور !! ياله من منظر يا أخانا !! الدنيا يا أخانا فيها سر لا نفهمه ، لا تقل لي مدرسة ولا علماً فالدنيا شوغان وتجريب قبل كل شئ !!"

" وداد ونور الصباح وقفنا أمامنا جامدتين صورة واحدة منقسمة إلى نصفين غاطسين فى الثوب الأسود بالطرحة السوداء لا تميز بين هذه وتلك فمن الذى أرشد الولد الأفندي إلى أخته بنت أمه التى لم يرها فى عمره ؟ لا أحد وحق الله يا أخانا ! إنما الولد هو الذى يخلق فيهما بعينين قويتين ثم ارتقى فى الحال على صدر

نور الصباح منفجراً في البكاء ! صارت هي تربت على ظهره !! إنخلع قلبي !
فوحق ذى الليلة ومساها أننى صرت أنظر للولد مرة وللبنت مرة فأرى أن سحبة
الفكين في الوجهيين واحدة كما النظرة في العينين واحدة ! قال الولد الأفندى
لأخته نور الصباح : يا أخت أسمى خالد ابراهيم النعمان ! قالت نور الصباح وهي
تهز يده : أنت خالد ابنها ؟ أهلاً بك يا حبيبى إنها كلمتنى عنك مرة واحدة
وبعدما قرطت على بعدم فتح سيرتك أبداً لكنها ياما ضبطتها وهي تحلم وتبكي
قائلة هاتوا لى ابنى خالد حبيبى وفى يوم صحت من حلم مثله فلطمت وشقت
الهدوم ! الله يرحمها كان فى حياتها أشياء كثيرة لا أعرفها ولا أفهمها ! أنت ابنها
إذن ؟ أهلاً بك يا حوى !! قال الولد الأفندى : جئت هذه المرة وفى نيتى أن أقيم
مع أمى إلى الأبد لأنى زهقت من الحياة فى بيروت بغير أم خاصة أن أبى مشغول
بأبنائه الآخرين الذين يحب أمهاتهم وهم جميعاً يحتقروننى فأين أذهب الآن ولمن
أجأ؟ إسمعى يا أختى أنا جئت معى بكل ما يخصنى من مصارى وملابس وهي الآن
فى اللوكاندة التى أنزل فيها فى مصر لسوف أذهب الآن لأحضرها ونبحث عن
مسكن هنا نعيش فيه معاً حتى ينظر الله فى أمرنا !!.. ومضينا خلفه نودعه إلى
السيارة فإذا هي سيارة من سيارات الأجرة المصرية فيها سائق عجوز مستغرق فى
النوم ! مد الولد الأفندى يده ليفتح الباب لكنه ترنح بقوة وانكسر جذعه ثم هوى
فوق الأرض مغشياً عليه !! إنقلبنا فوقه صرنا نقلب فيه يميناً وشمالاً وهو كالخرقة !!
مات الولد يا أخانا !! وقعنا فى سين وجيم ! داهمنا البوليس والنيابة مرة ومرة !!
جاءتنا تحريات البوليس تقول أن الولد الأفندى عمل عملة خطيرة : قتل اثنين من
إخوته غير الأشقاء فى لحظة غضب أعمى إذ أنه مدمن مخدرات ومختل العقل من
صغره يخرج من عيادة ليدخل فى مصحة ! وحين قتل أخويه كان يمثل تمثيلية مخلولة
بمسلس مسروق من طبيبه الخاص ! وقد عرفوا فى بيروت أنه تسلل إلى مصر ليختبئ
عند أمه بعدما سرق مخدرات جدته ومصوغاتها !! وعند تشريح جثته وجدوا فى
بطنه كميات كبيرة من الحبوب المخدرة والأفيون والحشيش المعجون بالشكلاطة
كبست كلها على قلبه أوقفته !! أبوه رفض استلام جثته فكانت البلوى كبيرة !!..

" ياله من منظر يا أخانا !! نور الصباح التي أمسكت بقشة أمل توصلها إلى بر الأمان وجدت نفسها لم ترث من الحلم الفجائي سوى جثة هامدة !! طلعت في غاية الجدعنة ! رافقت جثة أخيها كالرجل المقدم حتى دفنتها بجوار أمها !.. كلنا طبعاً تشاء منا من فتح المقبرة وهي جديدة على جثة لم تكذ تستقر لكن ما باليد حيلة!! رقدت نور الصباح في فراشها أياماً طويلة تحت رعاية نسوان الوكالة في حالة ما يعلم بها غير الله ! حتى فوجئنا بها ذات يوم تخرج مشعته الشعر تهذى بكلام غير مفهوم ! تجلس في الشمس في الحوش شاردة تسيل الريالة على شديقتها!! إنهطلت البنت وما كان كان ! صارت تخرج عارية في الليل تصوت بغير سبب وتمزق جلد وجهها وتهيل التراب على رأسها !! نكتفها لنلبسها ثوباً بالقوة ! تمزقه ! تفعل حركات جنونية خطيرة ! ترقص ! تلعب حواجبها للعيال تضحك على الدوام ترمى الناس بالحجارة !! جاءت عربية الشرطة فأخذتها بقميص الكتاف إلى مستشفى الخانكة !!.. البنت وداد فيها البركة والله يا أخانا ! صارت تزورها كل شهر ثم كل شهرين ثم كل ثلاثة ثم مرتين في العام وفي كل مرة تعود يائسة من شفاء حبيبة قلبها نور الصباح !!"

" والآن لا بد أنك تسأل نفسك لماذا حكى لي الرجل هذه الحكاية الطويلة العريضة التي لم تكن تخطر على البال ؟ ولكن لا تتعجل يا أخانا فبعد قليل تعرف السبب !!"

السراب

.. كان الليل قد بدأ يوغل فى الظلام والقدم مع أن الماضى منه قليل ، وموجز أخبار العاشرة يصدح فى الراديو البعيد كأنه قريب بصوت المذيعة همت مصطفى ؛ حينما انزاح باب البوابة بعد طرقة رمزية خفيفة ، ودخل رجل نحيل يرتدى القميص الأفرنجى فوق السروال . إتحه نحونا فاتحاً ذراعيه مهلاً فى بشاشة وبهجة صائحاً :
- " والله زمان ياعم شوادفى ! مصير الحى يتلاقى ! " ..

هجم على شوادفى ، الذى نهض واقفاً فى استقباله بحرارة ؛ اعتنقه وربت على ظهره بكفه الناشفة وهو يضحك ويهمل :

- " إزيك ياوادا! سلامات ألف حمد لله على السلامة ! وصلنى مرسالك اليوم وبعثت لك السلام معه وقلت إنى فى انتظارك فى شوق إليك " ..

ثم أطلق سراحه ، فاقترب منى مسلماً على ، واستدار فسلم على شوادفى مرة أخرى بلهوجة ؛ دون أن يلحظ وجود الشيخ زينهم العتريس المتكور جنب المصطبة على الأرض مسنداً ظهره لحائط البوابة . جلس بينى وبين شوادفى على المصطبة. كان وجهه نحيلاً مبيضاً بارز عظام الخدين عليه مسحة من الغبار والقشف ؛ وفى عينيه انكسار وظل من الذلة المضمرة على تمرد خفى ، يرمش باستمرار كأنه يتقى الضوء أو يتلقفه على مهل قبساً قبساً . خيل لى أننى رأيت من قبل ، فشكله مألوف ، له فى رأسى رصيد من الصور فى أطر مجهولة لست أتبينها الآن ، لكنه مرح جذاب بقدر ما يشع منه ومن عينيه ولسانه من روح عدوانية متحفزة مكظومة .. سحب شوادفى منقذ النار واندمج فى تكسير القوالب المتفحمة واشعالها بواسطة ورقة جرنان يقرطسها ويشعل طرفها النفيرى ثم ينفخ فى فتحة رأس القرطاس فإذا النار قد أمسكت بالقوالب فى لمح البصر. قال شوادفى مشيراً إلى زينهم البادى ككومة من الخرق الحائلة ملقاه فى الزاوية الكاوية :

- " لم تسلم على حبيبك القديم ! السجن أنساك الأحبة؟! " ..
صرخ واقفاً فاتحاً ذراعيه :

- " الشيخ زينهم العتريس ! ياخير أبيض ! لاتواخذنى يا أبو عتريس فعينى لم تتعود الضوء بعد ! إزيك وازى الأولاد كلهم !؟" ..

وارتمى على زينهم منهالاً عليه تقبيلاً واعتناقاً ، فيما يرددان معاً فى نفس واحد كالأطفال الهازلين : إزيك ! طيبون ! .. وهكذا إلى أن صرخ فيهم شوادفى :

- " هى سيرة ولا أيه ! ما كفاية كده ! "

ثم نظر لى نظرة ذات معنى فيما يشير إليه :

- " هذا هو حمزه البورى ! صاحبنا من قديم ! "

- " أهلاً وسهلاً ! .. "

وارتعش قلبى على أوتار صوتى من شدة الفضول . جلس البورى وهو يربت على ركبتيه ناظراً فى اتجاه البواكى نحو الحجرة العلوية صائحاً فى ابتهاج مرتعش بالفرح والغبطة والسرور :

- " سا الخير ياللى فى بالى ! نحن هنا ! .. "

واستدار إلى شوادفى :

- " كيف الحال يا عم شوادفى ! لك وحشة والله العظيم وحق سيدى أبو المكارم ! .. "

فى صوت شوادفى حزن شفيف دافع اندهشت من أن يكون فى شخص كشوادفى يحتفظ خلف ظهره بمقبرة لمناهضيه :

- " بخير يا بورى ! كل شى فى الدنيا نصيب ومكتوب ولا أحد يأخذ أكثر أو أقل مما قسمه الله له ! .. "

قال البورى فى اغتباط :

- " بعثت لك المرسال وأنا فى مديرية الأمن من أجل إجراءات الخروج ! قلت فى بالى إنكم ستفرحون بالخبر وربما تجهزون لى عشوة بيتية ! .. "

أشار إلى حجرة وديدة وقد انداحت الغبطة من صوته تحت نبرة كميبة تنضح بالشر العميق :

- " لا ضوء يظهر ! سمع الجماعة بالخبر ياترى !؟ ما أظن أنهم علموا بخبر بلوعى اليوم من السجن ! تصور أننى لم أذهب إلى أى مكان !؟ من مديرية الأمن

إلى هنا فى الحال ! شف يا أخى ترتيب الأيام العجيب ! من هنا إلى السجن ومن السجن إلى هنا ! تصدق بالله يا عم شوادفى ؟ أنا فى السجن لم أر شيئاً لم أتذكر شيئاً إلا هذه العتبة وهذه الحجره وعيون نور الصباح ! لم يكن فى بالى أى شئ آخر! زملائى فى الزنزانة كانوا من هنا ومنهم من بيت فى فرشتى طوال الليل فى حضنى!! وحق سيدى أبو المكارم كنت أثناء النوم أمد ذراعى لأحضن النائم بجوارى وكان يخيل لى أننى حضرت جسده بالفعل!! يا سلام!! الحرية متعة حقاً!! الواحد يأكل العيش الخاف يمشى عارياً ويحمد الله على الصحة والستر!! وحق سيدى أبو المكارم أن السنوات العشر على نحد واحد كانت مليون سنة!! سأسعى لمقابلة آمال فهمى فى برنامج على الناصية فعندى لها حبة كلام حلوين لكى أطلب أغنية أم كلثوم وأهديها إلى السجن : أنا لن أعود إليك!! أبداً!! كفانا الله شره وسيرته!! من غد سأزوج مهجة القلب وأبدأ حياة جديدة فى يدي صنعتى والحمد لله سأشتغل صنایعياً فى أى محل عجلاتى سأفرش على الطريق الزراعى للحم عجلات السيارات وسوف يوفقنى الله بالإستقرار فأخذ وضعى من جديد!! مادمت فى حوار مهجة القلب نور الصباح ونور عينى فإن الله سيهدنى يجعلنى ابن حلال!! إدع لى يا عم زينهم حلفتك بحق سيدك العتريس أن تقول له إننى ولد جدع أعجبه!! له عندى نذر ولسيدى أبو المكارم مثله لأنى استنجدت به فى السجن فوضع أولاد الحلال فى سكتى!! الإخوان المسلمون جاءوا إلى السجن فنغنغونا بزيارات أهاليهم لهم كل يوم!! كل وارد يوزع علينا بالعدل ونحن أبناء الجنائيات نشتغل بدلا منهم بموالسة العسكر الذين يأكلون معنا لقمة بلقمة وسيجارة بسيجارة وشفطة شاي بشفطة شاي!! حتى الصلاة أرغموهم على مشاركتنا فيها وإلا انقطعت الجراية عن الجميع!! يا سلام على الأيام!! ما أكثر الأئمة وأصحاب اللحى والكلام الحلو مثل العسل!! ينزل فى القلب فلا يبرحه!! أنا وغيرى من أبناء الجنائيات لم نكن نعرف شيئاً عن أمور ديننا ودنيانا ولكن هؤلاء المشايخ الأفندية جعلونا آخر حلاوة!! أبناء الجنائيات ربوا لحاهم وتعلموا الكلام وبعضهم صار يعقد لنفسه مجلساً من قضايا النصب والسرقه والغش والتزوير يقولون لهم قال الله وقال

الرسول !! ناس خرجوا معي وفي نيتهم الإعتكاف في المسجد !
الحجاز هذا العام كما نوت !! وأما أنا فلن أنقطع عن الصلاة !!"
و حينما وضعت كوبة الشاي أمامه تمطى الشيخ زينهم في قعدته ثم
نحو البورى بعدسايه أفيون . فصفق هذا بيديه في ابتهاج كبير صائحاً
- " أحبك ! هل هلالك شهر مبارك !"

وكشط الفيونة عن ابهام الشيخ بابهامه ثم اسقطها في فمه متد
الشيخ زينهم وزع علينا كل واحد عدساية . قال شوادفي وهو يتلمظ
بالشيخ زينهم لإتقاده من هذه الورطة التي وضع أنه حائر في علاجها
- " عندكش كلمتين حلوين تقولهم يا أبو عتريس !؟ غلب حمارى
عن العمل ! إهرش مخك معي ! تريد أن نسمع شيئاً من كلامك الحلو
با أحنانا قد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فليتك تنقطننا بشئ ينفعنا
الذى نحن فيه !!"

فنظر الشيخ زينهم بطرف عينه المصابة ، فصارت البقعة البيضاء المز
الأحمر القانى . صار يهرش في رقبته خلف رأسه . فضحك شوادفي مر
كالخطاطيف :

- " أقول لك اهرش راسك تهersh أنت في عرق الهيافة !؟ ما ال
تقوله للبورى الآن !؟ أخذت لى بالك !؟ خذه في حضنك وتحدث ! ف
عبر له عن اشتياقك مثلاً ! فكر في فكرة تريجه وتريننا !! نحن الآن ك
تريد أن ينتعها الله بالسلامة وبدون وجع فماذا عندك !؟"

نكس الشيخ زينهم نظراته في الأرض لثوان طويلة صار يشفط خلا
النهمة من سيجارة " وينجز " تخينة بين أصبعيه . ثم رفع رأسه ناظ
تقلصت شفتاه المزرقتان بلون الدخان فيما يشبه الإبتسامة ، وبدأ أنه يتأ
بل ظهر في بريق عينه السليمة كأنه قد عثر على الكلام الناجع فى
المشكلة العويصة ، لتبريد البورى وتأهيله لتلقى الحقيقة الفاجعة ..

حكاية الطير العجيب

.. " صلوا على النبي !! كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ولد شاطر
مجدع قوى اسمه الشاطر كريم !! ذا غير الشاطر حسن الذى تعرفونه فى الحوايت
أما حكايتنا فإنها حصلت فى الحياة : الشاطر كريم كان ولداً فتوة ينزل فى عركة
يقشها ! شارع يقفله ! فرح يطفىء كلوباته ! ما كان أحد يستطيع الوقوف أمامه !!
إخطف قلبه إلى فتاة جميلة بنت رجل فقير على قد حاله فذهب ليخطبها وفى باله
أن أب الفتاه سيفرش له الطريق بالرمل لأنه تنازل وجاء يخطب ابنته !!.. الأب
الفقير ليس فى يديه أن يفعل لكن رحب بالشاطر كريم كل الترحيب وقدم له كل
ما يقدر عليه من الكرم وقال له يا سيد الشطار إننى أكون على شرف كبير
لزواجك من ابنتى ولكنك جئت بعد فوات الأوان والبنت مخطوبة لابن عمها الذى
تعبه ويحبها منذ الصغر !!.. نفخ الشاطر صدره من الغيظ وقال له يا شيخ العرب
منذ متى كان للبنت رأى فى زواجها ومنذ متى كانت تفهم فى اختيار الزوج
المناسب وكيف تقول أنت بلسانك أنها تحب أليس الحب عيباً وعاراً يا أخ
العرب؟!.. قال الرجل وهو فى شدة الخوف : يا سيد الشطار هذا ما كان وإنه
لحب شريف عفيف وعلى كل حال فالشرع يبيح للبنت أن تقول رأيها فيمن يتقدم
للزواج منها وها أنت ذا تقدمت فتعال نسألها أمامك أن كانت تقبلك أم لا؟!..
فازداد غضب الشاطر كريم وقال له : إننى بصريح العبارة لا أحب أن أخطب
واحدة وترفضنى هذا شئ لم أعوده فهل ترضاه لى؟!.. قال له الرجل : والله يا
ولدى لا أحتمل وفى نفس الوقت لا أحتمل أن أرغم ابنتى على الزواج من أحداً
ليس فىك أى شئ يعاب فإن رضيت بك البنت فأهلاً وسهلاً!.. جئى بالبنت
فقال إنها تحب خطيبها ولم تزد على ذلك كلمة واحد فنخرج الشاطر كريم غاضباً
يأكل فى نفسه من شدة الغيظ وصمم أن يجعل البنت تر كع عند قدميه وترجوه أن
يتزوجها !!.. هكذا دبر مكيدة لخطيب البنت فأغرقه فظهرت جثته بعد أيام وبقي
الفاعل مجهولاً لكن الجميع عرفوا أن الفاعل هو كريم!! واراد صاحبنا ان يستميل
قلب البنت فصار يرسل لها ولابيها وإخوتها الهدايا مما ينهبه فى قطع الطريق ولكن

البنـت ظلت حزينـة على حبيبها فانصدت نفسها عن الحياة وعن كل شئ فصارت
ترد له هداياه فصمم على أنكسر أنفها بعد أن حرق قلبها !!.. وهكذا دبر مكيدة
أخرى لأبيها ! لم يقتله لكنه أوصى بجرحه والقاء الرعب في قلبه !!.. وبينما كان
الأب المسكين نائماً في فراش المرض من شدة الخضة ذهب كريم ليزوره ويعشمه
بأنه في حمايته منذ اليوم وسينتقم له من الفاعل !! ولم ينس أن يلمح إلى طلبه
وكانت البنت واقفة خلف باب القاعة تنصت فلما سمعت أبها يقول إنها غير
راغبة في الزواج دخلت عليهما وقال إنها راغبة الآن ومن كريم بالذات !! عرفت
نية كريم وضميره الأسود فرحمت أبها !!.. إنبسط كريم فأقام الفراح والليالي
الملاح سبع ليالي طوال وانتقلت العروس إلى داره البعيدة التي تقيم فيها أمه العجوز
مع طفلين من أبناء ابنتها المتوفاه !!.. في ليلة الدخلة وجد كريم عروسه مريضة!
وكل ليلة يتجدد المرض ويقوى ! وكلما حاول الإستمتاع بها وجد بين يديه رمة لا
حركة فيها ولا فس فيرمى بها ويخرج في عز الليل يضرب الهواء بنبوته يقه في خلق
الله بلا ذنب جنوه ينهب المخازن والأسواق والقوافل المسافرة ويقتل من
يعترضه !!.. أخيراً يا مولانا تعبت نفسه من كثرة الظلام المعشش فيها !! فبينما كان
ماشياً قابلته عرافة تشوف البخت فأقعى أمامها وطالبها بأن تشوف له بخته !!
فضربت الرمل وفنطت الورق ووشوتت الودع ثم قالت له إن في حياتك مسجون
سوف يهدم عليك جدران سجنه يهرب وبهروبه تفوح روائح كريهة تهيج الدنيا
عليك تكسر وسطك تقصم ظهرك فمن يكون هذا المسجون !!؟ إسودت الدنيا
في وجهه واغتاز من العرافة فركلها بقدمه وانصرف لاعناً أبها وأب اليوم المشئوم
الذي وضعها في طريقه !! ورأى نفسه لا يحب العودة إلى داره فظل ماشياً دون
وعى ودون هدف بلد تشيله وبلد تحطه إلى أن اعجبه شكل بلدة تقع على تخوم غابة
لا أول لها ولا آخر على شاطئ نهر ضيق الشيطان !!.. أخذت لي بالك يا مولانا !!
رأى على شاطئ النهر محلة يجلس فيها ناس من كل نوع: صيادون وبتجارون
وفلاحون وبتجار وبتطار ولصوص ومرترقة وعمال مراكبية وحمارون !! جلس بينهم
وطلب مشروباً مثلهم وسرح لوحده في ملكوت الله مسحوراً بالمنظر الجميل إلا
أنه لاحظ أن الجميع من حوله يتحدثون في موضوع واحد !!.. أخذت لي بالك

يامولانا ؟ فى موضوع ماذا ؟ واحد ! فالجميع يتكلم عن طير غريب الشكل والمنظر يسكن الغابة المجاورة ولا أحد يعرف له اسماً كما أن أحداً لم يتمكن من صيده أبداً!!" ..

" كريم انشغل بالأمر يامولانا ! صار ينظر لهم باستهانة واستخفاف! فأى طير هذا الذى يعجز الشطار عن اصطياده ؟! نسر؟ صقر؟ حداة؟ لو كان أسداً بجناحين فلا بد أن يكون هناك من الشطار من يقدر على اصطياده فلكل صائد فنه!! .. لكنهم طيروا مخه يا مولانا حينما راحوا يتذاكرون تاريخ الشطار الذين حاولوا اصطياد هذا الطير العجيب الغريب دون أن يفلحوا!! شف العجب يا مولانا ! بل أن ملوكاً وأمراء وفرسان حرب جمعوا الجيوش وعجلات الحرب ومدافعها وجاءوا لمنازلة هذا الطير فبقوا شهوراً واعواماً حتى نفذت ذخائرهم ونفذ صبرهم وكسحهم طول الحر والصقيع والسفر فعادوا فى النهاية خائبين!!" ..

" فتك فى الكلام يامولانا ! إن كريم كان كلاً حاول الاجتماع بعروسه فتعطيه نفسها كالخرقة البالية فلا تنشد أعصابه دخله الشك فى رجولته ! فلما سمع هذا الكلام عن هذا الطير الغريب اشتغل خياله فصار يدبر ويصور له صورة لنفسه وقد رجع إلى بلدته فى زفة كبيرة محملاً بالهدايا والأموال جزاءً وفاقاً على بطولته فى اصطياد الطير الذى عجزت عن صيده الجيوش والمدافع ! ورأى عروسه تغمرها الفرحة به وبيطولته فتفتح له حضنها يعود إليها وإليه روقان البال فيمسك برجولته التائه منه!!" ..

" هُب للنبي وجد نفسه يقوم فيتجه إلى الجالسين فيعرفهم بنفسه ويمر كزه بين أهل بلدته ! فرحبوا به وأشركوه فى حديث الطير الغريب فرغب أن يراه ليحرب حظه معه فقالوا له انه فى الغابة دائماً فاذهب إليه وعد به ان استطعت ولك منا ماشئت ، فمن يقدر على اصطياد هذا الطير بالذات من حقه أن يبقى حاكماً على هذا البلد إلى ماشاء الله!! .. صاحبنا لم يكذب خيراً!! جمع نفسه واتجه إلى الغابة وفى جعبته نبال من كل النواع وعلى جنبه الحراب والدروع والمقذوفات!!" ..

" دخل الغابة متوجساً مرتعشاً يسدد بصره على كل فروع الشجر ليدرس زوايا التنشئين وكيفية رمى الشبك على الطير بمجرد أن يراه إذ من بين خططه أن يباغته

قبل أن ينتبه إليه فيناوره !! .. أخذت لي بالك يا مولانا ؟ .. صاحبنا لم يتوغل في الغابة سوى خطوات قليلة إلا وقد فوجئ بشئ خفيف صغير يقف على كتفه اليسرى ! شئ أقرب إلى العصفور أو اليمامة أو الكروان ! ما كاد يهشه حتى خرج منه صوت ساحر النبرة عذب الإيقاع واضح الكلمات ؛ قال لكريم في سخرية وبراعة :

- لماذا كل هذا التعب يا كريم ؟ وما لزوم هذه الحراب وهذه النبال وهذه المقذوفات ؟ إن الأمر أبسط مما تصورت يا كريم !.

- من أنت أيها العصفور الجميل ؟!

- أنا هو ! الطائر الغريب الذي جئت تصطاده ومن قبلك جاءت جيوش ودبابات واهوال لكنهم قفلوا خائبين لأن اصطيادى سهل ومستحيل معاً فما أسهل أن تقبض على بيدك وما أسهل أن أفر من جحيم الطلقات فلا تبلغنى أبداً وأنت يا كريم تستطيع أن تمسكنى يداً بيد بل أنت غير محتاج لمسكى فيها أنذا فوق كتفك وأن شئت دخلت جيبيك لأعود معك إلى حيث تشاء أصير ملك يمينك ..

" قال كريم وهو من الدهول بين مصدق ومكذب :

- فكيف عجزوا عن اصطيادك مادمت سهلاً ميسوراً هكذا ؟ ..!

" قال الطير رافعاً جناحيه في أسف :

لأنهم سقطوا في الإمتحان ! ودائماً يسقطون فيه !! ..

" أخذت لي بالك يا مولانا ؟ سقطوا في ماذا ؟ في الإمتحان ! فما هو هذا

الإمتحان الصعب يا أيها العصفور الجميل ؟ هكذا سأله كريم ! فقال الطائر :

- أنا لي شرط واحد فقط لكي أمشي معك بالرضا والتسليم ..

- ماهو فإني مرحب به ؟

- نمشى معاً في سكة طويلة فالواجب أن نسلى أنفسنا حتى لا نتعب أو نمل !

سأحكى لك في الطريق ثلاث حكايات صغيرة بثلاث فرص كبيرة أمنحها لك إن سقطت في أحدها ربما نجحت في الأخرى فتطيب علاقتنا معاً إلى النهاية ! شرطى الوحيد هو أنني كلما حكيت لك حكاية أنك لا تتنهد ولا تقول : آه !! إن قلت

الآه بعد نهاية الحكاية سأطير في الحال دون أن ترانى ! لك فرصة أن تقول الآه مرة ومرتين ، أما الثالثة فهي ثابتة إن قلت فيها الآه لن ترانى مطلقاً..
" ضحك كريم وقال :

- إطمئن فأنا من هذه الناحية جامد القلب عمرى ما نطقت الآه حتى لو قتلونى من الضرب ، وياما ضُرب الزمان فى ولسعنى بالنار فلم انطقها فهل أنطقها متأثراً بحكاية تحكيها أنت أو غيرك ؟ هذا والله لا يكون أبداً ..

- إذن فقد اتفقنا ، إليك أول حكاية : يحكى أنه كان يوجد رجل من مساتير الناس يعيش فى مزرعته البعيدة مع كلب أمين يحرسه ويحب كل منهما الآخر حباً كبيراً وحدث أن هذا الرجل خرج لبعض شأنه فى الحقول كما خرجت زوجته وكان لديهما طفل وليد تركاه نائماً فى سريره الصغير فى حراسة الكلب الأمين فإذا بثعبان ضخيم يزحف متجهاً نحو سرير الطفل مباشرة فكشر الكلب عن أنيابه وانقض على الثعبان راح ينهش فيه يمزق لحمه حتى التهمه كله ووقف معسكراً بالباب يهز ذيله من الفرح فى انتظار سيده ! فلما حضر سيده ورأى بوزه ملوتاً بالدم ظن أن الكلب أنسعر وأكل طفله ففى الحال نزع مسدسه فأطلق الرصاص على الكلب فأرداه قتيلاً !!..

" هنا صرخ كريم غضباً عنه فى أسف ولوعة :

- آ.. ه.. يا خسارة الكلب الأمين وياله من رجل غبى مندفع !..

" حينئذ لم يجد الطير على كتفه إنما سمع صوته :

- سقطت فى الإمتحان يا حلو فعد وحدك !..

" صاح كريم:

- لى فرصتان فاغفر لى هذه الغلطة !..

" حط الطير ثانية على كتفه:

- إليك الحكاية الثانية : يحكى أن رجلاً كان تائهاً فى الصحراء يتخبط منذ

بضعة أيام فى عز الحر ! كاد يموت من العطش وليس حوله ماء ! وفجأة لمح على

البعد صخرتين جبليتين يلعب فى شق بينهما خيط ممتد من أعلى إلى أسفل فأسرع

إليه فوجده خيط ماء ينزل من مكان مجهول فى أعلى الصخرة إلى شقوق فى أسفلها

فقال: ياما أنت كريم يارب ! وكان معه جفنة من الفخار فوضعها أسفل خيط الماء وبقي هكذا مدة تزيد على ثلاث ساعات فى القيظ والخيط يتساقط فى الجفنة قطرة قطرة فلما امتلأ قعر الجفنة بشربة ماء طيبة رفعها إلى شفثيه فإذا بهلهد جميل الشكل يسقط مذعوراً من السماء فى قلب الجفنة فيوقعها على الرض فتكسر ويتبعثر الماء! فما كان منه إلا أن انفض على الهلهد الملتخوم داسه بقدميه حتى فرمه وعاد إلى خيط الصخرة يحاول فتح فمه تحته فإذا به يرى ما لم يكن رآه من قبل : حية رقطاء رابضة فى الشق رهيبة العينين والماء يتساقط من فمها المفتوح قطرات من السم فانشق قلبه من الحزن !..

" هنا صرخ كريم دون أن يدري :

- آ.. آ.. لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد غدر التعيس بالهلهد الجميل الذى أنقذ حياته !..

" وفى الحال لم يجد الطير لكنه سمع صوته :

- سقطت فى الإمتحان للمرة الثانية !..

" صاح كريم فى ضراعة :

- لى فرصة أخيرة وأضمن لك أنى سأكون غليظ القلب كما هو معروف عنى !..

" فنزل الطير إلى كتفه:

- إليك الحكاية الثالثة والأخيرة : كان يوجد صياد ثرثار يحب الرغى ولهذا وقف حاله وتعطل رزقه ! دله أهل الخير على غابة منسية فيها الخير كبير ومخاطر جسيمة لا يفلح فيها إلا الكتوم الرزين ! فجمع نباله وسهامه واقتحم هذه الغابة فوجدتها ملائنة بالأشواك والحيوانات الثمينة المطواعة لكنه وهو يقترب من إحدى الفرائس رأى جمجمة إنسان ملقاه فى الطريق تحت شجرة فوقف يتأملها مذعوراً فإذا الجمجمة تكلمه قائلة : كن فى حالك وامش ! فقال لها : مادمت تتكلمين فقولى : ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ قالت : الكلام !! صاحبنا الثرثار نسى صيده وانطلق يجرى إلى المدينة ! ماكاد يصل إلى داره حتى كان الخبز قد سقط منه فسمعه الناس فوصل إلى أذن حاكم المدينة فبعث فى طلبه فقال له أرنا هذه الجمجمة التى

تتكلم ولك منا مكافأة كبيرة ! قال سمعاً وطاعة ! فأرسل معه السيف إلى الغابة وقال له إن تكلمت الجمجمة أمامك سلمه المكافأة وإن لم تتكلم إقطع رقبتك واترك رأسه يجوار الجمجمة وارمى بجثته لكلاب المدينة ! ذهب الصياد مع السيف إلى الغابة ولكن الجمجمة لم تتكلم! فقطع السيف رأسه وتركه يجوار الجمجمة وحمل جثته ومضى ! وبعد انصراف السيف مالت الجمجمة على رقبة الصياد قائلة : ما الذى جاء بك إلى هنا يارقبة الصياد ؟ قالت : كلام !..

" هنا صرخ كريم :

- آ.. ه.. مضبوط! لسانك حصانك أن صنته صانك وأن خنته خانك ! هذا

اللتات يستأهل !!..

" وتحسس كتفه فلم يجد للطير أثراً ، فصار يحدث نفسه قائلاً : فعلاً إنه طير حر غريب يأبى أن يسجن فى قفص أو يكون عرضة للعسس . فإذا به سمع صوت الطير نفسه يقول :

- لا يا شاطر كريم ! الحكاية مش حكاية طير يخاف من القفص ويطير من العسس !! الحكاية حكاية الآه والآه لا يمكن أن تنحبس ! أنت يا شاطر كريم مع أنك غليظ القلب ما قدرت أن تحبس الآه فى صدرك فهل تراك تقدر أن تحبسها فى صدر غيرك ؟ إرجع ولا تفكر فى القبض على مرة أخرى !!..

" أخذت بالك يامولانا ! إنها حكاية ماذا ؟ حكاية الآه ! كل واحد فينا يقول الآه غضباً عنه أو برضاه ، لكنه عندما يتسبب فيها لغيره لا يطيق أن يسمعها منهم!!.. الشاطر كريم من قهرته رجع إلى بلدته ودماعه يضرب قلب فى غليان فصار يشعر بالندم على ما فعله طول حياته فامتلات أذنه بالآه ضخمة كبيرة بعشرات الأصوات ممن ظلمهم واعتدى عليهم طول حياته الشقية.. تمنى لو أنهم جميعاً قبلوا اعتذاره وغفروا له لكنه شعر أن الله لن يغفر له أبداً فنوى أن يكفر عن ذنبه فيتوب ويعامل عروسه بالحسنى إذ أيقن أنها لا يمكن أن تخلص له أبداً لأنه قتل حبيبها فطعن قلبها ولهذا فهي ليست زوجته باختيارها بل هي تعتبر محبوسة عنده بالخوف وحده ! ومثلما لم يستطع هو كتم الآه فإنه لن يستطيع حبس عروسه فى داره إلى الأبد إذ أن عروسه نفسها لن تقدر على حبس الآه فى صدرها..

" لكنه وجد أن الآه الحبيسة قد سبقته وانطلقت يامولانا ! فالبنية المسكينة فى غيبته قلبت فى حاجاته فوجدت نحائماً ذهبياً تعرفت عليه فى الحال إذ هو نحاتم حبيبها الذى تعرفه ؛ كما عثرت على أشياء كثيرة كانت مع ناس أختفوا من الحياة فى ظروف غامضة !.. ذهبت إلى بعض من تعرفهم من أهالى ضحاياهم فحدثتهم عما رأيت !! فذهبوا جميعاً إلى الحكومة فأبلغوها فدبرت له كميناً فما كاد يستقر فى داره حتى هجموا عليه وحملوه إلى السجن وهو يبكي قائلاً : حقاً إن الآه الحبيسة لا بد أن تكسر عظام الصدور وتطير لتنتقم لنفسها !!.. أخذت لى بالك يامولانا ؟ قال الراوى إنه لما وضعوا رقبتة فى حبل المشنقة بسبب جرائم القتل التى استيقظت كلها بالأدلة وحاصرته كان يهذى بالعرافة التى شافت له البخت الأسود فلم يصدقها ! وبذلك الطير الغريب الذى يقول أنه ينقره فى عينيه وحبّة قلبه بمنقار مدبب ! شف يامولانا نهاية كل مجرم ظالم !! دايين تدان يامولانا! الذى تأخذه بالغضب أو بالجريمة لا بد يضرك فى صحتك فى عينيك فما بالك بالذى تأخذه بالغدر أو بالقتل أو بالسم؟! دبر هذا فى مخك يامولانا!!.. أنت شرفت وآنست يابورى! مادمت خرجت من السجن بصحتك فاحمد الله ولا تطمع فى أى شىء حرام !! تب إلى الله توبة نصوحا ولا تخزن على مافات فكل شىء نصيب ومافاتك يعوضك الله خيراً منه !! خيرها فى غيرها يابورى يا ابن الناس هكذا يقول المثل ! وربنا يهدينا ويهديك إن شاء الله !!"

المواجهة

- " يا ابن الكا ا.. لب !! أنت واعرحقاً ياد يا شيخ زينهم ! فتح الله عليك ! " ..

هكذا قال شوادفي مشوحاً بكفه العريضة ؛ ثم راح يطوف بعينه على وجه البورى، الذى وضع أنه قد تبدل الآن تماماً . كانت صفحة وجهة قد استرخت وتهدلت واختفت منها بوارق التحفز والعدوانية ؛ سكنت فى عينيه نظرة كانت حائرة متعجلة متوترة ، آبت إلى ركود فى صفاء تام ؛ إنداحت عن كيانه حالة الزهو الشرير والفرح الغامض ، آبت إلى طفولة شقية عاجزة ؛ بدا جانب وجهه المقابل لى فى ظل ضوء شاحب جداً يتدلى من أعلى السقف، تعيساً إلى حد كبير جداً، عاجز بشكل مثير للشفقة. كان شاردأ شرود صوفى مجذوب مظلل بالكآبة والملل . حانت منه التفاتة سريعة يائسة نحو حجرة وديدة بدا كأنها النظرة الأخيرة يلقيها المرء على قبر ضم رفات شىء كان عزيزاً وانتهى ؛ ثم خبط بيديه على ركبتيه وبدا أنه يفكر فى الإنصراف وانه حائر أين يذهب . وحين رفع وجهه ناظراً فينا بدا كأنه يشعر بخيبة أمل فادحة حيث لم يلق الاستقبال الذى حلم به طوال سنوات السجن ولياليه ؛ وبدا أيضاً أنه قد أدرك ان شيئاً غير عادى قد حدث ؛ وظهر التساؤل فى عينيه بشكل مؤثر ، خاصة أن حجرة وديدة كان يجئ من ناحيتها صمت وظلام وسكون مخيف وكئيب سيما وأن قاطنها الحالى هو رمضان عريجة. ثم إن الإستزابة فى الأمر ظهرت بوضوح على وجه البورى كما بدأ ايضاً أنه يفكر فى طريقة ذكية يسأل بها عن الحقيقة وأنه فى نفس الوقت متوجس من معرفتها . شوح شوادفي بذراع الطويلة كقحف الجريد بحركة من يريد طرق الحديد وهو ساخن :

- " أسمع يا أخانا ! أنت قتلت رجلاً مظلوماً كان رجلاً ولا كل الرجال ! وأخذت جزاءك وهو قليل قدام قصف عمر رجل !! وديدة خربت بيوت ناس كثيرين وأخذت جزاءها هى الأخرى إذ طلبها الرفيق الأعلى ليحاكمها أشد المحاكمة ! ومأواها الموبد جهنم والعياذ بالله !! المسكينة الوحيدة بينكما هى البنت نور! جاءها لطف بعيداً عنك وتسكن الان فى مستشفى المجانين! زمانها ماتت!

وداد لم تعد تزورها إلا صدفة !! المصائب الثقيلة حدثت في غيابك ! وها أنت ذا قد نجوت نفذت بجلك من المعركة !! أنت الوحيد الكسبان ! مازلت بصحتك وشبابك تستطيع الشغل والزواج والإبتداء من أول وجديد على نظافة ! هذا كل ما فى الأمر فأياك وحركات الزعل التى لا تأتى بمصاريها !! ..

الجحوظ فى عينى البورى رغم الشرر المتطاير منه يشي بأنه كان قد استعد لتقبل مثل هذه المفاجآت الخطرة ، فظل جامد الوجه صلب الملامح لفترة طويلة خيم فيها علينا سكون مشحون متوجس . ثم بدأت ملامح البورى تلين شيئاً فشيئاً ، تم ترتعش تحتفن ؛ ثم انهزت الدموع غزيرة كالمطر..

نكسنا الرءوس فى حزن شديد ، لم ينبس أحدنا بحرف ، بل إننى رغم عدم احترامى للبورى كمجرم عنيف رحمت أغلب الرغبة فى البكاء ، فقد هالنى أمره تلك اللحظة . وكلما تصورنا انه استرد هدوء بالصمت والشرود، عاودته نوبة البكاء من جديد بشكل هستيرى ، يهتز جسده كله وينتفض ، وسط عبارات يرسلها شوادفى وزينهم العتريس : وحد الله ! ما منه فائدة ! أحمد ربك ! قدر ولطف ! ارحم نفسك !.. حتى ظهر عليه الضيق وشعر كأننا نريد أن نمنعه من فعل شئ يحبه ويهواه ؛ فإذا هو ينتفض قائماً بشكل مفاجئ : سلام عليكم ؛ ثم يندفع نحو الباب فى حماسة هوجاء . صاح شوادفى :

- " رايح فين يا مجنون ؟! " ..

- " أسافر إلى مستشفى الخانكة ! سيطلع على الصبح هناك بإذن الله ! " ..

- " يا أخانا هل جننت ؟ ماذا ستفعل فى الخانكة ؟! تسلم نفسك للجهادية ؟

إعقل وأجلس نتفاهم !! " ..

- " فى صدرى بكاء كثير ! " ..

- " إه ! وهل لا ينفع البكاء هنا ؟! " ..

- " طرية المرحومة لن تضيق بيكائى ! " ..

- " ولا هذه المصطبة ! نوح عليها حتى الصباح ! هذه مصطبة وتلك مصطبة !

هناك عفاريت شريرة وهنا عفاريت طيبة !! " ..

- " لن أهدأ إلا إذا بكيت على طربتها وكلمتها بما فى ضميرى !! ولن أهدأ إلا إن قابلت نور الصباح ورأيتها بعينى ! عندى عشم أن الله يرد لها عقلها حين ترانى !! إن الله على كل شئ قدير وعشمى فيه كبير !! " ..

- " معك نقود ؟! " ..

- " ولا مليم ! " ..

- " فكيف تتركب القطار ؟ كيف تذهب إلى المستشفى وانت مثل قلتك ؟! "

إقعد نتفاهم قليلاً ! " ..

- " المشى سير يحنى ! " ..

- " طب خذ ! " ..

وغمزه بيريزة فضية :

- " سلم لنا على الإثنين ! ذى (وأشار بإبهامه خلف ظهره نحو المقبرة) وذى

(وأشار بسبابته إلى الإمام) وقرأ لنا الفاتحة فى الحسين ! " ..

مد البورى يده على استحياء فأخذ البريزة . وكان الشيخ زينهم قد أخرج بريزة

أخرى قدمها له :

- " وهاك بركة من سيدك العتريس ! " ..

فأخذها ، فوجدت نفسى منساقاً إلى نفس الفعل بلذة كبيرة ، ففردت البريزة

الورقية وقدمتها إليه :

- " وهذه منى ! " ..

فاختصنى بنظرة امتنان شديد ، ربما لأنه لم يكن يعرفنى من قبل ، ولم يعرف

بعد من أكون . وجدت نفسى أمضى خلفه حتى البوابة . وظللت أرقب شبحه

وهو يتحول إلى عامود من الدخان الرمادى القائم يتلاشى كلما ابتعد غائصاً فى

المقابر التى بدت هى الأخرى كتلا من السحب الدكناء تلتحق بالسحب السماوية

فى أطراف خيمة الأفق .

النذير

صبرفنى محمد أبو سن فى لحظة مبكرة اندهشت لها. كانت مفاجأة ، ففى مثل هذه الليلة من كل أسبوع أعتدنا السهر فى حجرة العليشى حتى صلاة الفجر نأكل ونشرب الشاي والقرفة والقهوة مع الفاكهة نقرأ نتكلم . صحيح أن نصيبى فى الكلام يكون ضئيلاً جداً لا يتعدى عبارات عابرة قاصرة على إبداء الدهشة أو ربما الإعجاب ؛ لكن كلامهم ممتع لى إذ أسمع منهم العجب ، نفس الآيات ونفس الأحاديث النبوية التى سمعتها فى المساجد من الخطباء والوعاظ مئات المرات ؛ أكتشف فى هذه الليلة أن لها معان كثيرة أخرى وربما كانت مناقضة تماماً لما كنت أعرفه ؛ معان وتفسير مشرقة تضى الأفق تملأ الفؤاد بالرهبة والخوف من قلة الورع؛ تدفع الإنسان إلى الجرأة فى الحياة ؛ توقظ فى نفسه الشعور بالمساواة بين البشر ، بأنه وحاكم البلاد مخلوقين لا فضل لأى منهما على الأخر إلا بالتقوى واتباع الخير واجتناب المنكر. معان وتفسير تجرد الحاكم من هالة الرعب تظهره فى صورته الأصلية كشخص يخطئ ويصيب ويجب تبعاً لذلك أن يخضع لشريعة العقاب والثواب . لقد كنت أحب هذه السهرة لأنها كانت تعطينى حصيلة كبيرة من أقوال مأثورة مفحمة جامعة شاملة مع آيات قرآنية وأحاديث نبوية ذات معان مشرقة يمكن أن أستخدمها فى الحياة خلال تعاملى مع البشر من زملاء ورؤساء وشرطة. أقوال وأشعار وآيات وأحاديث من فرط مرونتها وغناها واتساع معانيها تصلح للإلتحام بأى سياق والإنسلاك فى أى نخبط والافحام فى أى مناسبة . أمتنع الأقوال المأثورة ما انطوت على حكاية طريفة ؛ وأجمل الأمثال ما يقتضى تفسيره الإحالة على حكاية قديمة أو حادثة مثيرة . وألمع الأحاديث النبوية ما انبثق عن أمر من الأمور أو قضية من القضايا أو مشكلة اجتماعية . منتهى لحظات سعادتى واستمتاعى ان أعثر فجأة على مناسبة من المناسبات أو موقف من المواقف أو خلاف من الخلافات النقاشية ينطبق عليه بعض ما سمعته من تلك المأثورات فأنبرى مردداً العبارات كما سمعتها وحفظتها بالنص عن ظهر قلب، بكل ما أستطيع من فصاحة وحماسة ، حتى الأسماء البدوية والعربية المكعبرة كنت أجد استمتاعاً فى

تصحيح نطقها ، وكم شعرت بلذة فائقة في نطق أم سلمة والثعالبي وابن أبي زرعة وابن الجعد وابن قحافة وابن لا أدري من . الطريف أنني كنت أجد تجاوباً منهلاً لدى من يستمعون ؛ سرعان ما يعطونني انتباههم وأذانهم في طلب المزيد ؛ حتى إذا شعروا أن غزير علمي قد غاض عند هذه النقطة فحسب أو أن مد معارفي قد انحسر عند هذه الحكاية وحدها أكملوا هم بحكايات من عندهم تمضي في نفس الإتجاه تهدف إلى نفس الغرض ، الأمر الذي حفزني على مضاعفة حصيلتي من المأثورات على قدر ما أستطيع ؛ فلقد صرت أوقن من أن القوم في بلادنا على شاكلة واحدة في هذا الصدد : إما أن يمعنوا في الاصغاء المنحدر إذا كانت حصيلة المتكلم من المأثورات البراقة غنية ؛ وإما أن يتباروا في المشاركة في الكلام باستدعاء وربما بتوليف حكايات وأقوال تمضي في نفس الإتجاه إلى نفس المعنى ؛ النجم فينا - فيهم - من يملك أكبر حصيلة من الحكايات والطرائف والنوادر والملح ؛ إنه الوحيد الذي يأسر القلوب ويشنف الأذان حتى ولو كان محض نصاب أو محتمل - هكذا نحن ندور في دوامة لا يطفو على سطحها سوى المتخفف من أعباء الفكر والرأى والأمانة والضمير الحق ..

في سهرة العليشي اكتشفت حقيقة هذه الظاهرة وتأكدت من أن الذين يخلبون لبنا بالحديث الطلى الشهى هم الذين يمكن أن نعطيهم ثقتنا بل كل ما في جيوبنا وقد نأتمنهم على شرفنا وأسرارنا نسلمهم مصائرنا . عرفت ان أبرعهم من كان يعرف مشاكل الناس وأوجاعهم . براعتهم تتجلى في قدرتهم على حقن الناس بأمصال من المأثورات والحكايات التاريخية المطابقة لأوجاعهم وكيف انتهت كما أراد لها الله أن تنتهي لا كما يريد العبد ؛ حيثذ يروعى كل صاحب ألم فيرمى بكل أوجاعه ومشكلاته على أكتاف المشيئة الإلهية فيخلص من حملها طالما أن كل شئ يحدث للإنسان إنما هو قدر مقدر عليه أن يحتمله دون أن يواجهه لأن من الكفر مواجهة المشيئة الإلهية وتحديها ومن حسن الإيمان الامتثال لها واحتمالها بصبر كصبر أيوب ..

في سهرة العليشي تختلط المسائل احتلاطاً يعجز عقلي الصغير الضيق عن تفنيدها وفرزها ووضع كل شئ في خاتمه . في كل أمسية أكتشف الكثير من الإشراقات

مع كثير من المتناقضات فلا أعرف إن كانت التناقضات كامنة فى النصوص أم هى ناتجة عن قصور فى فهمى وفهمهم للنصوص والتحليلات المطولة المتقكرة ؛ لكننى أحببت لعبة الاستمتاع بالتأثير على الناس بالكلام المأثور المنمق الباعث على الرعدة الوجدانية . تكون فى أعماقى مشروع واعظ متكلم جرى يمكن أن أنتفع به إذا ما ضاقت بى سبل العيش فى هذه المدينة ؛ ولربما استطعت بواسطته - كما رأيت الكثيرين منه - أن أحيا فى رغد من العيش أتزوج أجمل نساء العائلات الورعات ؛ وكم فى هذا الطريق من منتفعين ناعمين على موهبه عظيمة فى إخفاء شخصياتهم الأصلية الحقيقية داخل عباءة الواعظ أو خلف لحية المجدوب أو فى إيقاع من يسمى بالمفكر الإسلامى من كتاب الصحف والدوريات ..

كنت أرتب نفسى دائماً لهذه السهرة أترقبها طوال الأسبوع . الجميع أيضاً كان يحتفى بها وخاصة أبو سن ؛ فما باله الليلة يبدو متجهماً غير راغب فى السهر أصلاً، بل غير راغب فى إطالة الحديث مع أحد ، فكلمة ورد غطاها بسرعة . الأكثر إثارة للهشيتى أنه - ربما لأول مرة فى حياتى منذ عرفته - يبدو غير متحمس للعمل غير محتف بالزبائن ، بل انه سيغلق المحل قبل مواعده اليومى بأكثر من ثلاث ساعات . ثم ما هذا ؟ البضاعة تضاءلت تماماً فوق الرفوف آبت إلى ما يشبه العينات فأين ذهبت أكداستها المكدسة !؟ يالله إن العراء بعد الستر والصقيع بعد الدفء أقصى مذلة !..

إلا أننى لم أسترسل فى التساؤلات المقلقة لأن ابتسامة شاحبة على وجه أبى سن كانت تكاد تغمز مصرحة بأن هذا الأمر مجرد إجراء شكلى لسبب من الأسباب المؤقتة . إكتفيت بفرحة الإنعتاق مبكراً ، وبخيبة الأمل فى سهرة مرتقبة . قبل انصرافى نادانى محمد أبو سن فرجعت من عند الباب ففتح الدرج وسحب حوالى خمس جنيهاً أزاحها نحوى قائلاً : خلها معك ! وهى تزيد على ما أستحقه عنده بكثير . إزداد قلقتى ، خاصة حينما أضاف قائلاً : إصرف منها بحساب دقيق وانتبه لنفسك جيداً ؛ فهزرت رأسى موافقاً ومضيت أفكر فى سهرة بأرخص التكاليف . ثم خفت أن يقودنى الطيش إلى صرف مبلغ كبير فى كلام فارغ فوليت شطر الوكالة وقد أضاءت فى رأسى حجرة سنلس لعلى أصيب منها مرتعاً ..

عند باب الوكالة توقفت لبرهة وحيزة ثم رأيتني أتجاوزها متجهاً إلى دار وداد ؛
فتيقنت أنني أرتاح للسهر في شقة وداد أكثر من حجرة سنلس ؛ فشقة وداد
حميمة، وبعيدة عن عين شوادفي الثاقبة ؛ ثم إنني قد ألفت رؤية ابنتها العاجزة ولم
يعد منظرها يصيبني بالقشعريرة إلا وأنا مسطول على الآخر ، وللمحة عابرة.

العُرِّي

إنفتح الباب . طالعنى وجه وداد ذابلاً كأنها لم تنم طول حياتها .. نظرة العينين مطفأة ؛ ورد الخدود صار ليموناً جافاً بجعداً ، البسمة آبت إلى جرادة ميتة فوق الشفتين . إنسحب من داخلى شئ قوى كانسحاب الكهرباء من الأسلاك ؛ شعرت كأننى أخذ فى الخفوت شيئاً فشيئاً . غمزنى الظلام بالفعل لمدة توشك أن تصير دهرأ ، مع أننى جوبهت بالضوء الساطع الساذج يغمر الممر إلى الشرفة ..

عرجت نحو الردهة المربعة على اليسار ؛ إرتميت جالساً على الكنبه البلدى مسنداً ظهراى للحائط فى أعياء . فوجئت بمن يواجهنى جالساً هو الآخر نفس جلستى على كنبه طبق الأصل من كنبتى . إنخطف بصرى إليه مع خفقة من قلبى ، إنه يشبهنى تماماً ، إنه أنا إذن ؛ هى إذن مرآة كبيرة عريضة استحدثتها وداد هاهنا . جاءت وداد فجلست أمامى مباشرة ولصقتى فى نفس الوقت . منظرها كان مؤلماً حقاً ، فى جلباب بيتى أسود ؛ تظهر منه أطرافها البيضاء الشاحبة تبدو أمامى فى المرآة مثيرة جداً رغم هزالها ، باعثة على الإشفاق مع ذلك إذ لا حيوية فيها على الاطلاق . رأيت رقبتى فى المرآة تميل على صدرها :

- " مالك يا وداد ؟! " ..

ليس يبدو أن هذا الصوت صوتى ، هذا الذى يرن فى صدرى فيعجبنى إيقاعه لأول مرة فى حياتى كأننى أكتشفه فى هذه اللحظة فحسب ؛ فأبدأ أبداً لم أكن أعهد فى صوتى هذه النبرة الدافئة المضمخة بالحنان والود الحقيقين :

- " ما فى شئ ! هل بى شئ ؟! يظهر أننى تعبت فى هذه السفرية أكثر من اللازم ! ياه ! كانت ثقيلة ! لم ألقط نفسى بعد ! لتوى واصلة من محطة السكة الحديد ! تصور ! الآن فقط صدقت أنى وصلت إلى بيتى ! لحظة واحدة ! سأجى حالاً ! " ..

وتركت على صفحة المرآة طبعة من ابتسامتها الشاحبة ثم نهضت تحاول اشتتنشاط نفسها . طقطقت عظامها كما يتفتت خبز يابس . تأوهت ؛ تمطعت مثنية جذعها إلى الخلف حتى عوت وهى تعتدل . مضت إلى الداخل . أشعلت سيجارة

ورحت أتأمل حلقات دخانها وهي تلتف حول رأسى تتسلقه كغلاف جوى يحيط
بكوكب توشك الشمس أن تقترب منه . بعد قليل سمعت صوت اللش فى الحمام
يهطل بوشيش منعش ، فانبثقت فى رأسى صورة جسدها عارياً تحت وابل المطر .
وكان الراديو الفيليبس على رفة الخشبى فوق رأسى ، فقامت مستديراً إليه فضغطت
على زرره فاندفع صوته الهادر بالخرخشة والصيحات فأسرعت ببرم زر الصوت حتى
انخفض إلى درجة الهمس المسموع ثم أدت زر المخطات بسرعة تتجاوز أى كلام
فى طريقة تتلكأ عند الأنغام ، حتى زحف صوت محمد قنديل مقبلاً من جراب
الأثير يشع بالدفء الهادئ الواصل فى هدير الموسيقى بين شجو الناي وضرب
الايقاع وصهيلة الشخايل : سما.. ا.. ا.. ح .. يا أهل السماح لوم الهوى جارح ..
أصل السماح طبع الملاح يا بخت من سا.. ا.. مع . وكنت أشعر أننى على وشك
أن أبكى ، إذ علقت الأنغام بمشاعرى فامتزجت فتوحدت بها . من خلف باب
الحمام جاءنى صوت وداد : " على صوته شوية صغيرين " ؛ فرفعت الصوت قليلاً ،
فجاء صوتها ثانية : " كمان شوية " . ثم جاءنى صوتها بعد برهة وجيزة صائحة
كأنها تأمر ابنها الشقى : " هات البشكير من أوضة النوم " ؛ فخفق قلبى بسرعة
وقوة مضطردة ؛ فيما نهضت مسرعاً بخطوات شبه عسكرية متحمسة ، فاقتحمت
حجرة النوم فأدرت بصرى فيها على ضوء الممر ، متجنباً النظر فى البنت المستغرقة
فى نوم عميق ، لمحت البشكير متدلياً من مشجب فى الحائط المواجه بجوار السرير .
نزعت ، عبرت الممر ، ببساطة دفعت باب الحمام فى رفق بطى ؛ هى واقفة عارية
تتجلط فوق جسمها خيوط الماء ؛ فبدت فى هذه المساحة الضيقة جداً كنواة داخل
جسم صلب . كانت كالحورية ، محلولة الشعر ، عريضة الكتفين والصدر ، كنزة
الجدع ضيقة الخصر كأنه منحوت بفتلة ليشكل مساحة فاصلة بين حدود قارتين
منفصلتين متصلتين ، حيث تناسب السفلى من نصف دائرة عريضة متداخلة
الأقواس منشطرة الدوائر بين ساقين كأصبعين كبيرين من الموز البلدى المقشر .
كدت أفقد صوابى ؛ لكنى تدرعت بوقار مبالغ فيه كأنى بالفعل ابنها وقد استحى
من منظرها . قدمت إليها البشكير فى صمت ؛ فتناولته بابتسامة عريضة حقيقية
هذه المرة وهى ترمقنى من تحت رموشها بنظرة متحدية متخابثة . فلما رأتنى مصراً

على افتعال الحياء سحبت البشكير وأعطتني ظهرها : شكراً ؛ فجحظت عيني ،
واندفعت نظراتي كالجندول تدفعه الريح النشوانة فينزلق على ضفاف ظهرها
العبقري ، وموخرتها أسفل الجذع كقعدة كبيرة في نهاية حبلين فوق حاملين من
الرخام المرمرى . ظللت واقفاً في مكاني لا أريم ؛ حتى انفرد البشكير حول
جذعها وزحفت به يداها لتجفف الساقين وما بينهما ؛ ثم استدارت فجأة لتراني
مصلوباً على الباب فتنفجر في ضحكة جزلة حبورة مبتهجة :

- " مالك واقفاً كاللوح !؟ " ..

- " حسبتك تطلبين شيئاً آخر ! " ..

دفعتنى بيد ، فيما تمسك بالأخرى طرفي البشكير محكمة أغلاقه حولها .
أمسكت ذراعها البض الأبيض ، صرت أتحمسه ؛ أغراني بتقبيله ففعلت . ظللت
ممسكاً به ثم رحت أنظر في عينيها ، فإذا الشمعة الخفية قد أضيئت في أعماق النمن
الأسود ؛ وإذا الحياة قد دبت في الخدين والشفتين ؛ وإذا العنق قد استطال فوق
الكتفين العريضين . فوجئت بأنها صارت بين ذراعي بكاملها وقد تكور البشكير
بيننا . صرت أرصفها بالقبل في كل بقعة من الكتفين إلى العنق إلى الشفتين إلى
جدائل الشعر الأسود وما بين الثديين فالثديين . إستشعرت منها استسلاماً تاماً ؛ بل
إن التذاذها بالرغبة كان واضحاً من مذاقها في ريقها في عينيها في رعشات
جسمها لدى كل لمسة . بعد لهاث طويل سحبتها إلى الردهة . جلسنا فوق الأرض .
كنت مشدوداً كالوتر ، محتقناً كالغاضب المكظوم ، أكاد أدك الحائط دكا . في
سرعة متوترة خلعت ملابسها كلها ورميت بها كيفما اتفق ، ثم ارتيمت بجوارها
وبدأت حاشية التمهيد للهجوم الشرس بعد طول تحرق وحرمان والتباعد . صعد
البعير فوق الربوة حاول النفاذ من حرم الإبرة . دهورته الصدمة الأولى فاحترق دمه
ولانت عظامه فجأة صار جلدأ على جلد على رخاوة . بصبر خرافي راح يفكر في
كيفية إمكانية أن يحول نفسه إلى فتلة رفيعة يلضمها في وهج الحلم الحى الذى تحول
فجأة إلى موات ؛ ولكن دون جدوى .. ثم نفق البعير ..

وهكذا مر وقت طويل جداً أمضيته متكوراً على نفسى دافناً رأسى بين ركبتي
مسنداً ظهري على الكنبه غارقاً في نخجل وحسرة وتعاسة لا حدود لها . أفقت

على يد رخصة طرية تربت على ظهري في شئ كالمواساة مشوبة بقليل من حنان
الأم في صوت لاهب كالكرباج :

- " لا يهملك يا رجل ! إنها مسألة عادية ! تحدث في أحسن العائلات ! على
كل حال أنت منذ قليل كنت مائة في المائة ولا أدري ماذا حدث لك ! لكن ! قم
نأكل لقمة ونشرب شايًا وحجرين لعل وعسى ! " ..

أكلنا علبة من السلمون مع بيض مقلى وجبن قريش وخيار وجرجير ، فامتلأنا .
إنتقلنا إلى الشرفة التي أسدلت عليها وداد ستارة ثقيلة . كانت النار تزغرد في المنقد
بفعل تيار الريح ، ورائحة الشاي النفاذة تتصاعد من بزبوز البراد فوقه . إذ وضعت
كوبات الشاي أمامنا قالت وداد :

- " معك عدساية أفيون ؟ " ..

- " من أين يجيء لي ؟ " ..

تبسمت ؛ تزعت الخاتم الذهبي من أصبعها ، سربت ظفر إبهامها في تجويف
الفص الداخلي وكحتت قشرة لابأس بها ؛ قسمتها نصفين ، مدت لي أصبعها
بواحدة وشيعت الأخرى في فمها وصارت تمصص وترشف الشاي بلذة كبيرة ؛
ثم انخرطت في تنظيف الحجارة وتعسيلها وتعميرها ؛ وانهمكت أنا في تكسير النار
وتعيمها ..

لاحظت أنني أشرب بشراهة مثيرة للإنتباه . هي أيضاً كانت تشرب بنفس
الشراهة . كانت شاردة وكنت أكثر شروداً ، تعيسة وأكثر تعاسة .. كلانا لم
يستطع تبديد وحشة الآخر وإن كان قد آنسه بعض الشئ ؛ بل ربما يكون كل منا
قد عمق وحشة الآخر . هذا ما طاف بخاطري فيما تستقر عيني في بلادة علي وجه
وداد وهي تنفث الدخان من منخريها وفمها بغزارة . ركنت النارجيلة جانباً تمهيداً
لتغيير مائها وتنظيف الحجارة لدور جديد ؛ ثم مدت ساقها على الأرض فاستراح
مقدم فخلها فوق قصبتي ساقى الممددتين فكأنني وضعت ساقاً على ساق . أسندت
رأسها إلى درفة باب الشرفة وأراحت ذقنها على صدرها واستغرقت في شرود
عميق عاقدة ذراعها فوق صدرها وقد انسدت رموشها فوق عينيها وبدت تعيسة
جداً . حاولت الهروب من النظر في وجهها ؛ كذلك حاولت الهروب من النظر في

نفسى ؛ صبرت أمعن التفكير فى شىء ينتشلنا من قرار هذا البئر السحيق الكئيب ؛ لكن توتراً قوياً راح يصادر كل شىء يطرأ على بالى ، ويمور فى داخلى شيطان رجيم طائش الغليان يكاد يدفعنى إلى ان أضرب قبضة يدى فى الحائط ، أن أطيح فى معركة جماعية برؤوس مجموعة من المتفتونين ، أن أقوم لأندمج فى رقص أو حلقة ذكر ، أن أرمى بنفسى من هذه الشرفة لأطب كالبهلوان فى فناء الوكالة ، أن أمسك بشوادفى من عنقه فأظل أدقه فى الأرض حتى يتفتت ويتطاير مخه شظايا..

لحظتُ أرسل الراديو خرخشة عالية ثاقبة للأذن ثم انضبط على صوت المذيع الذى انسحب لتنساب الموسيقى فى صفاء وانسجام إذ راحت الوتريات تلمس فى مشاعرنا والإيقاعات تضبط أعصابنا ، ثم دخل صوت فريد الاطرش طروباً حزيناً شجياً : أحبابنا يا عين ما هم معانا .. رحنا وراحوا عنا .. ما حد منا اتهنى .. عيني يا عيني.. شعرت بالدموع تنساب على خدى غزيرة قوية مندفعة . نظرت فى وجه وداد فإذا هو مغمور كله بغزير الدمع فى خيوط عديدة تنحدر فى تدفق رهيب . جاءت ضربة الايقاع النهائية فى الاغنية كأنها آخر نقطة فى معين الدمع فى عبارة البكاء الذى اقتحمنا فغسلنا كأننا وقفنا تحت المطر عارين ..

إن هى إلا لحظات قليلة حتى عاد الصفاء إلى العينين فزهزت الأشياء قليلاً ، ونهضت وداد لتغير ماء النارجيلة ، وانعطفت أنا لتنظيف الحجارة وإحياء النار تمهيداً لطاغم جديد . حين عادت وداد من المطبخ كان وجهها ما يزال غارقاً فى الدمع فعرفت أنها استأنفت البكاء وحلها فى المطبخ وهامى ذى تسح دون توقف . جلست ؛ أخذت تعاوننى فى تعسيل الحجارة وتعميرها لكن خيوط الدمع كانت تتقاطر فوق الحجارة. نحيت يديها عن الحجارة فى رفق، وبمعدلى جففت لها دمعتها: - " نت لست طبيعية هذه الليلة يا وداد ! ماذا حدث لك فى السفر ! أين كنت بالضبط ؟ لا تقولى أن شيئاً لم يحدث ! " ..

قالت والدمع يسح :

- " عمري ما قرفت من الدنيا كلها كهذا اليوم ! كرهت كل شىء يجعلنا تتعلق بها ! دنيا دنية فعلاً مثلما يقول المثل ! لو رأيت الذى رأيتك أنا اليوم لعشت عمرك

لحظة بلحظة وليكن ما يكون !! كل شئ مصيره للتراب ! العمر كله ماله قيمة !
ياخسارة ! لم أعش فيه يوماً واحداً !! ضيعته مثل كل الناس فى وجع دماغ وكلام
فاضى ماله معنى !! ..

- " ماذا رأيت اليوم ؟! " ..

- " نور الصباح ! حبيبة قلبى ! أعز واحدة فى حياتى ! رحى لها لأن
المستشفى جاءت فى سكتى فقلت أحود ويا ليتنى ما حودت ! لكنه النصيب ! ربنا
هو الذى جر رجلي إلى هناك من أجلها !! " ..

وانخرطت فى البكاء الذى غلبها وأعجزها عن الكلام ، فأخذتها فى حضنى ،
نيمت رأسها على صدرى ؛ رجوتها أن تهدأ وتحكى لى ما رأتها بالتفصيل . فنظرت
فى عيني بلمعة من الدهشة لاهتمامى بأمر نور الصباح التى لم أعرفها ؛ ثم تعاظمت
دهشتها فنزعت رأسها واعتدلت مستندة على درفة الباب ، وبدا على وجهها أنها
أمام قصة طويلة معقدة وانها تحاول اختصارها بقدر الإمكان ..

قانون الجنون

.. " أنت تعرف نور الصباح ؟ شوادفى حكى لك عنها ؟! أكيد !! ما أعرف ما الذى فكره بها الآن ! هو الذى فكرنى من حوالى يومين بدون مناسبة أوقفنى وسألنى عن أخبار نور الصباح ! قلت له : من مدة لم أزرها ! وفى الحال اشتقت إليها وقلت يا بنت لعله الفأل الحسن ! مادامت سيرتها جاءت فلا بد أنها تطلبك ! لا بد أنها محتاجة لك ! من يعرف لعلها شفيت أو تحسنت !! فى نفس الليلة جاءنى مشوار قريب من المستشفى قلت يا بنت هذا من تدبير الله أوصلك لحد عندها من غير تعب فاطلعي عليها !! " ..

" ما حالها ؟! حالها عدم ! كنت دائماً أزررها كلما توفر معى القرش !! المسكينة لم تكن تعرفنى فى كل مرة !! يجيئون بها لى فى الإستراحة ! أو تصحبنى الممرضة إلى حجرتها !! تروح تبحلق فى بعيون زائغة ! تبتسم فجأة ! تقول : أزيك يا أختى وازى أولادك مش بخير ؟ وأبوكى طلع من السجن ولا لسه ؟! وأمك هنا معانا فى البلد وبتسلم عليكى كتير دانا حتى لسه شايفها دلوقت حاكم الناس هنا فى البلد دى مش طايقين بعض بياكلوا فى بعض ، أهلاً وسهلاً يا أختى عاملة أيه ؟ بقى نبقى جيران الحيط فى الحيط وما أشوفك غير مرة واحدة كل يوم ؟! " ..

" هلوسة فى هلوسة تقطع فى قلبى لمدة نصف ساعة فأترك لها طعاماً وفاكهة ونقوداً للتمورجية !! .. أرجع فأبقى أياماً طويلة أبكى كلما تذكرتها ! أنوى أن تكون آخر زيارة ! بعد شهرين أو ثلاثة يقول لى قلبى أنها تعرفنى ولا تعرفنى فى نفس الوقت !! عمرها ما نطقت اسمى ولا ذكرت أى شخص ممن تعرفهم !! قلبى يقول لى : يا بنت روحى لها إنها ستذكر اسمك هذه المرة لو نطقته تكون شفيت والباقى على الله وعلى !! " ..

" أول أمس ذهبت إليها ! وجدتها مريضة فى جسلها !! قالوا إنها كانت هادئة ولا يتسبب عنها أى ضرر !! وكانت تمسك بطنها وتتألم ! تتألم كالعاقلة الكاملة العقل !! تتكلم عن الوجع فى بطنها !! تطلب الدواء والغذاء !! تطلب أن يراها الحكيم !! تقوم بنفسها بتنظيف المواعين وترتيب الصحون وغرف الأكل فيها !!

تسوى الفراش !! تعطف على غيرها ! تعاملهم جميعاً كأبنائها ! حتى العجائز منهم
كانت تعاملهم كأطفالها !! التمورجية السستر صديقتى ! أقصد صارت صديقتى !
أهديتها قميص نوم مرة ؛ وطرحه مرة ثانية ! وعلبة روج مرة ثالثة ! غير الفلوس !
وأعطيتها عنوان بيتى ! كل ذلك لكى تحس بمعزة نور الصباح عندي فتتذكرنى
بهديتى وكلمتا تذكرتنى عاملت نور الصباح بما يرضى الله !!.. هى الأخرى
صاحبت نور الصباح وأحببتها وأصبحت ترعاها حتى هدأتها ونظفتها وبقيت معها
بالصبر والروح الطيبة وطولة البال تكلفها بأعمال وتحنو عليها حتى أصبحت
تستطيع الجلوس معها بالساعات الطويلة تأخذ وتعطى فى الكلام والحديث كأى
واحدة عاقلة لكنها لا تتذكر أى شئ عن اسمها عن أهلها عن بلدها عن أى شئ من
أيامها الماضية !! وحينما تقول لها السستر أنت اسمك فلانة وبلدك كذا وأهلك كذا
توافق ولكنها تنسى دائماً !! ولو قالت لها السستر فى مرة ثانية اسماً ثانياً ومعلومات
ثانية توافق ولا تتذكر ما سمعته من قبل حتى ولو كان بعد ساعة واحدة !!..

" لما افاقت لنفسها بقى دماغها غائباً !! طلبت الأكل فأكلت باستطعام !!
ردت الروح فى وجهها ! وبعد أن كانت تمشى فى جنينة المستشفى شاردة ضالة
أصبحت تمشى فيها بقصد الفسحة بين الأشجار وقطف بعض الثمار والضحك على
بقية زملائها حيث أصبحت تنتبه لحركاتهم الغريبة وكلامهم الأغرب !!..

" فى المستشفى ليسوا كلهم غرقى فى الجنون الشرس الشرير !! فيهم نصف
العاقل ! فيهم الشديد العقل لكنه تعب فى وسط عقلاء النص نص فجاء ليجد
الراحة وسط الجانين !! وفيهم مدعى الجنون هرباً من الإعدام من جريمة من ثأر من
أى بلاوى !! كل هؤلاء رأيتهم بعينى ومشيت فى الجنينة مع نور الصباح أيام كان
الشيطان سارحاً بها وهى ذاهلة عن كل شئ حولها !!..

" حكى لى التمورجية السستر ما يشيب الطفل : ولد ابن حرام من عمال
المتعهد الذى يورد للمستشفى مأكولات وحضروات ! سرح بعقل نور الصباح !!
تسلل إلى الداخل يسحبها معه حتى زلقها فى ركن بعيد بين شجرتين فى آخر
النهار قبل التمام بمدة قليلة ! وفعل فيها الفعل الحرام ! مرة فمرة فمرة صارت

العملية بالنسبة لها لعبة أطفال لذيذة !! رأتهما امرأة أروبية تدعى الجنون ! قالت
لناس من زوارها فقالوا للإدارة فلم تصدق ونهرتهم وطردتهم وحبست الولية !!
" فلما اشتد الوجع على نور الصباح نطقتها !! جاءها عقلها فى شدة الوجع
فنطقت : أنا حامل !! فهزأوا بها ومسخروها !! وكانت التمورجية السستر فى
إجازة يومها ! فإلتمت النساء المجنونات كلهن ورحن يولدن نور الصباح فى الجنينة
يعبثن بها حتى بهدلتها آخر بهدلة مرطنتها فسقطت فادقة الوعي تنزف وهن
يجرجرنها كالذبيحة غارقة فى دمها !!.. لحقوا بها فى آخر لحظة ! نقلوها إلى عنبر
العلاج !! وثانى يوم جاءت التمورجية السستر وتولت العناية بها !! وثالث يوم
جئت أنا لأراها متمددة فوق الطاولة فى أواخر الغيوبة !! قعدت بجوارها وقتاً
طويلاً أبكى من كل عين حقان ! من حالها ومنظرها ! وأتعجب كيف يجى شوادفى
بسيرتها ؟ وتجيئنى أمها وأمى فى المنام ؟ وأسمع أن البورى طلع من السجن ؟ كل
ذلك فى يوم بليلة لكى أجيء إلى هنا وأراها فى هذه الحالة التى لا تسرحيباً ولا
عدواً ؟ ..!

" سبحانك يارب أنت شاهد على !! إن كنت أكذب تخرسنى ! نور الصباح
فتحت عينيها فرأتنى بجوارها ! بخلقت فى وجهى مدة طويلة ! جرى الدم فى
وجهها ! ظهر الفرحة عليها شيئاً فشيئاً ! رفعت رأسها مقدار شبر ! ونطقتها ! أي
والله العظيم نطقتها بلسانها واضحة : و داد ؟! بنفس صوتها القديم الذى أحفظه !
وبنفس طريققتها التى أحبها !! لم أستطع ضبط نفسى من الفرحة ! أطلقت زغرودة !
ملت عليها ! أخذتها فى حضنى صرت أقبها ودموع الفرحة تفرقنى : يا حبيبتى !
عرفتيني يا حبيبتى ؟! أيوه أنا و داد حبيبتك الوحيدة فى الدنيا ! الحمد لله أحمدك
يارب !! ..

" لكن ! فرحة ماتمت ! إنكفأ دماغها على ذراعى ! إنتهت ! نقلب مهما
نقلب ! نجس النبض نهز الرأس لا فائدة !! راحت !! من شدة صدمتى عجزت عن
الصوات !! ونخذ عندك نواح القلب المشقوق !! ..

" كله كوم ؟ وكونى لم أقدر على استلام جثتها لدفنها هنا بجوار أمها كوم
ثانى ! هذا ما يقطع قلبى !! أنا صحيح مفلسة ونقلها مشكلة على وحدى ولكنى

الله العظيم ندمت على عدم استلامها ولا أعرف كيف تركتها وعدت !! ..
يا حبيبتي يا نور الصباح تكون هذه نهايتك وأمام عيني ؟! ليتني ما رحمت ولا
رأيتك ! ليتني ما صبحت هذا اليوم ! كنت سأرمى نفسي من شبك القطارا
سبحان من هداني وثبت عقلي في رأسي حتى وصلت !! .."

" نفسي مكسورة !! قلبي مشقوق ! حثة نور الصباح تتخشب في عروقي !!
أريد أن أطلع من هدومي ! أكره الدنيا وأحبها في لحظة واحدة !! من شدة خوفي
أريد أن أطلع من هذه الحالة بأى شكل ! بسرعة ! شئ في صدري يقول لي : يا
بنت عيشي ما تبقى لك من عمر ولا تفكري في أى شئ !! .. وشئ في قلبي يقول
يارب ماذا تفعل المسكينة ابنتي لو أفكرني الله مثلما أفكر نور الصباح وهي في
عز شبابها ؟! .. ويرد عقلي ويقول : يا شيخه فضك من هذه الوسوس وأنت لست
تفهمين أكثر من الله سبحانه وتعالى الله سيتولاها ولن يطاوعه قلبه على تركها
يتيمة وحدانية !! .."

" نار تأكل قلبي الآن !! كان بودى لو بقيت المرحومة بوعيها نصف يوم !
لكى تدلنى على تحويشة عمرها وعمر أمها !! لم يكن عندهما القليل ! أمها كسبت
مكاسب الدنيا والآخرة ! ونور الصباح لم تكسب القليل ! ثلاثة أرباع ما كسبه بدر
السعيد من بيع أطيانه ومواشيه ومن لعب القمار كان يصير ذهباً في يدي نور
الصباح وصدرها وأذنيها ! باعت منه القليل كما قالت لي ! وفي الحق ما صدقتها
فهي فيها خصلة أمها : تحب أن تخزي العين تتقى الحسد ! وتحب تخزين الذهب
ولاتتزين به إلا عند مشاورير الشغل لكى يثق الناس فيها !! نور الصباح كانت
صديقتى الروح بالروح وكانت تكذب على الكذبة ولا تطاوعها نفسها فتقول لي
الحق ثاني يوم !! لمحت لي قبل مرضها أنها تنوى شراء بيت في بلدة بعيدة لتقبض
منه إيجاراً شهرياً تستريح على حسه بقية عمرها ! وفكرت في فتح محل لبيع
الفواكه ! وفكرت في فتح قهوة ! وهذه المشاريع كلها أليست تحتاج لفلوس ؟!
ولا بد أن الفلوس كانت عندها تحت البلاطة !! .."

" تعرف ؟ قلبي يحدثني أن شوادفي هو الذى فاز بالعملية كلها ! هو كالطربة لا
ترد ميتاً !! حالتي وديدة كانت تثق فيه ! أقطع ذراعى إن ما كانت تثق فيه ! أقطع

ذراعى إن ما كان سرح بها وعرف مكان فلوسها وذهبها !! على كل حال ما أنا متأكد منه أنه ساعد خالتي وديدة على تشغيل شىء من فلوسها عند بعض التجار بمعرفته وشاهدتها أكثر من مرة وهى تقبض الأرباح من تجار الخضار فى السوق !! وقبل مرض نور الصباح بأيام قليلة كانت تكلمنى عن نيتها فى فتح موضوع الفلوس مع شوادفى !! وهذا الملعون لم يزرها مرة واحدة فى المستشفى ولم يفتح سيرة الفلوس أمام أى أحد !!.

" هيبه !! ماذا أقول ؟! حسبى الله ونعم الوكيل !! " ..

الإياب

وأطرقت وداد في صمت لمدة طويلة ، فكأنا جالسين في سرادق العزاء . أردت أن أبدد هذا السكون المفاجئ الكئيب ، فاعتدلت أمام منقذ النار صرت أنفخ في بقايا الفحم حتى شبت النار . كان ثمة حجارة لم تحترق بعد ؛ فأخذنا نشربها في تأن شديد . ثم وجدتني أقول لها :

- " قلت في أول كلامك كلمة حكمة : يجب إلا يضيع الواحد من عمره دقيقة واحدة ! فقومى إذن فاغسلى وجهك وسرحى شعرك وغيرى هذا الثوب ثم تعالى !".

رمقتني في تردد سامان قرفان ، وصارت تنفخ الدخان ببطء كأنها تستخسره في الهواء . عاجلتها :

- "ها أنت أضعت من عمرنا دقائق طويلة وأضفت إلى همومنا هموما جديدة!!
تعال نعيش اللحظة يعنى نعيشها ! ننسى كل شئ! الحى أبقى من الميت !!".

هزت رأسها في استسلام : ماشى . ونهضت في قليل من التكاسل . دلفت إلى الحمام فغسلت وجهها وتعطرت وتزينت بالأبيض والأحمر ، ولبست قميص نوم عارى الصدر والأكتاف يشف عن الجسد بكل تفاصيله . فما أن دخلت على هكذا حتى نهضت جيوش من النمل دفعة واحدة فغزت سائر عروقي فنحفت قلبى بشدة وظل يخفق كأنه الزناد يدق زلطة يطق منها الشرر ليشبظ في دمي السخن فيشتعل جسدى بالنشاط..

إستأنفنا الشرب من جديد وقد شعرت أننى صرت شخصا جديدا تماما ، كأن سيرة الموت قد حقنتى بمصل الحياة ، كأننى أزمع أن أتحدى موتا يقف لى بالوصيد . تغيرت فى نظرى جميع معالم الأشياء ، زهزت ، صرت أشعر أننى مستعد للتسامح فى أشياء كثيرة ، والتغاضى عن أشياء كثيرة ، والتسليم بما قد تتمخض عنه الأمور من أحداث أو مفاجأة بنفس راضية دون أدنى اعتراض ..

جميع الحبال بداخلى تنشد تتصلب . من شدة الفوران تبخر القلق فازدادت الصلابة واحتقنت العروق ونفرت وغادرت مخادعها سعيا إلى اتصال حميم . الثلاث

الحجارة الباقية شربناها فى حوالى نصف ساعة ، نحلل القبل والمرمغة والمهرس
النشوان المجنون . من ربوة عالية إلى ربوة أعلى ، ومن شعاب إلى هضاب ، ومن
مرتفعات إلى منخفضات ، ومن قمم إلى سفوح تكشف للجمل بكل وضوح عمل
أنه بالفعل .. لا يستطيع النفاذ من سم الخياط . لم يكن الفشل ذريعا ، لكن النجاح
لم يكن كاملا . كنت فى الواقع أتخاور ، وأحيانا أتصارع ، مع جثة نور الصباح ،
التي - رغم أنى لم أكن رأيتها رؤية العين ولا سمعتها - لم تكن لتغفر لى أو لوداد
محاولة الإنتشاء فوق جثمانها وانتهاك ذكراها . كانت تتقلب بين ذراعى كالمتهنة
كالمقهورة المغلوبة على أمرها . حين قرطاس الماء الكثيف تحت اللش فى الحمام لم
يستطع نزع جثة نور الصباح من أحضانى أو محوها من دماغى ..

أوقفت الماء بعصبية وناديت :

- " وداد ! "

فجاءت منفوشة الجسد والشعر . وجدتنى أسألها :

- " لو سافرنا بعد قليل يمكن أن نلحق نور الصباح قبل أن يدفنوها ؟! "

إتسعت عينا وداد ، صاحت :

- " الله أعلم ، ولكن ما قصدك ؟! "

أخذت أجفف جسدى :

- " نسافر ونستلمها !! "

- " معك فلوس ؟! "

- " معى أجرة القطار ! أما مصاريف نقل الجثة فعندى فكرة نتصرف بها ! ما

رأيك لو سافرنا فى قطار الصحافة ؟! "

- " ينصر دينك ! خلاص ! نسهر حتى موعد القطار ! أخرج حتى أستحم !

ولع النار وخط براد الشاى ! أنت ابن حلال ! لن أنسى لك هذا الجميل طول
عمرى ! "

و حين ارتفعت تكبيرة الفجر كنت أمضى وبجوارى وداد ، محتشمة الثياب تحت

عباءة الفجر الرمادية ، فى طريقنا إلى محطة السكة الحديد . وكان ذهنى مشغولا

بكيفية التأثير على مجموعة من الناس لإقناعهم بنقل الجثمان من المستشفى إلى
دمنهور بالمجان .

لأول مرة أعرف أن مستشفى الخانكة غير مستشفى العباسية إلا أن الناس في
بلادنا يطلقون اسم الخانكة على المستشفيات معا ، بل يطلقونه على كل من يظهر
عليه شبهة اختلال ولو طفيفة في عقله ؛ بل وحتى من يتكلم في بلادنا كلاما غير
موزون يوصف في الحال بأنه : خانكة ! أى أنه مجنون يستحق الذهاب إلى الخانكة.
و حين وصلنا إلى مستشفى العباسية أخبرتنى و داد أن مستشفى الخانكة - المقامة في
بلد اسمها الخانكة على مبعده حوالى ساعة سفر بالسيارة من القاهرة - مجعولة
للحالات الخطرة ، للمجانين الحقيقيين الذين يخشى من حالاتهم على الناس
والأطفال وكل شئ ..

رأينا على باب المستشفى كثيراً من الناس يتناحرون مع البواب إحترقنا الزحام
إليه . سالناه عن الجثة التى ماتت بالأمس واسمها نور الصباح ترك خان ؛ فقال إن
رجلا فى الداخل جاء يتسلمها ويقول أنه أحد أقاربها . غمزته و داد بالقطعة
الفضية، فتنحى لنا عن الباب وأشار إلى العنبر الذى ينقل إليه الموتى لحين تدبير أمر
دفنهم . على باب العنبر لفت نظرنا رجل يجلس على درجة السلم السفلية مرتكزاً
بكوعيه على ركبتيه مسنداً رأسه بين كفيه فى استغراق تام كأنه مات وانفصل عن
كل ما حوله . كان شكله غاية فى التعاسة والبؤس بصورة مؤلمة ، وقد صنعت برك
الدمع على صفحة وجهه قشرة شمعية لامعه ، وملامح وجهه مهانة متهدلة . شعرت
بالإنعطاف نحوه ، ملت عليه ، تأملتة ، إنه مألوف لى ، أقتربت منه ، وقفت
أرقبه . رفع رأسه ناظراً فينا . إنه البورى . شهقت و داد ضاربة صدرها وقد عقد
الدهول لسانها :

- " البورى !؟ بسم الله الرحمن الرحيم !"

تمتم وهو ينهض فى استخذاء وهزال :

- " و داد !؟ إزيك يا و داد !"

إرتمى عليها محتضنا مقبلا ، ثم انفجر فى بكاء حاد ، بكاء طفل عشر على أمه
فجأة بعد طول تشرد و ضياع ..

- " طلعت إمتى يا بورى ؟! "

- " من كم يوم كده ! ليتنى ما طلعت ! يظهر أننى لا بد أن أرجع إلى السجن!! لم يعد لى أحد فى هذه الدنيا ! لا طعم للحرية ! نور الصباح مات ياودادا جاءتها حمى النفاس كما يقولون هنا !! يا ربى ! حمى النفاس هذه لا تجى إلا لمن كانت حبلى وولدت فى ظروف سيئة فمن أين تجى لنور الصباح ؟! ألا تظنين يا وداد أنهم قتلوها ؟! إننى أسمع أنهم يقتلون المرضى هنا بحقنة وبالكهرباء ! إذا تعبوا معهم ! ولكن يا ربى ! أنت كنت تزورينها يا وداد فهل كانت حالتها خطيرة ؟ هل كان يركبها الهياج ؟! أنا لا أظن أبداً !! نور الصباح لم تكن مجنونة ! كانت مصدومة ! حسبى الله نعم الوكيل !! "

وراح يواصل البكاء ومن خلفه وداد مثل الكورس كأنهما فى مسابقة نواح ملتاع . ووقفت بينهما حائراً خجلاً لا أدرى ماذا أفعل ، رحت أغالب الدمع وأوقف ارتعاش شفتى السفلى . بصعوبة بالغة ومن خلال صوت مرتعش قلت :

- " لماذا كنت تجلس هنا هكذا ؟! هل أنت الذى جاء يستلم الجثة ؟! "

شوح بذراعه ، صاح بلهجة طفل تعيس عاجز:

- " طردونى ! مارضوا بتسليمها لى ! أولاد الكلب المجرمين ! حتى الجثة لا

يسلمونها لأهلها ! يخافون أن نكتشف أثر الجريمة !! "

- " كيف منعوك من استلامها ؟ ما السبب ؟! "

- " ليس معى بطاقة شخصية ! "

صاحت وداد :

- " ربى ! قطعنى ! ياما نصحونى أن أعمل لنفسى بطاقة !! "

- " أنا معى أوراق تثبت شخصيتى !! "

طلبنا مقابلة مدير المستشفى . قدمت له ما معى من أوراق تتضمن شهادة الميلاد

وصحيفة الحالة الجنائية وشهادة اتمام الابتدائية وبعض أوراق خاصة بالمعهد ، واسمى

مطبوعاً تحت نصف عمود من الكلام حيث كتب محررها الأستاذ الكبير أمين الخولى

تعليقاً وصفنى فيه بالأديب الأستاذ . حكيت للمدير ظروف نور الصباح بكل

تفاصيلها كما عرفتھا ؛ حتى بدا أنه أقتنع بتسليمها لنا ؛ فقال :

- " ولكن هل جئتم بسيارة النقل ؟! "

فبكينا ثلاثتنا في الحال بشكل مثير للإشفاق فعلا ؛ أبلغناه خليل البكاء أن ظروفنا المالية لا يعلم بها إلا الله وأنا مع ذلك مضطرين للقيام بهذا العمل الإنساني لدفن الجثة بجوار أمها . رق قلب الرجل ، وطمأن خاطرنا بأنه سيحاول استدعاء عربة الإسعاف لنقلها على حساب الحكومة . وبالفعل أمضى الرجل أكثر من ساعتين في اتصالات تليفونية وكلام وصياح وشخط ونظر حتى جاءت السيارة بالفعل وتم تجهيز الأوراق التي وقعنا عليها ثلاثتنا ، وتصريح الدفن .. وحينئذ بالجنحة ملفوفة في ملاءة قديمة ، متصلة كلوح من الثلج . ركبنا بجوارها ، وانطلقت السيارة . وفي طريق العودة كنت أغزرهم بكاء ، بشكل أدهشنى ، ولم أجد له نظيرا في حياتى السابقة .

- " قفزت وداد من عربة الإسعاف إلى باب الوكالة وقفز البورى وراعها وأنا من خلفهما . هب شوادفى واقفا فى مواجهتنا ينظر فينا بتوجس مرتهب :
- " خير يا عجر ؟! "

صاحت وداد :

- " جئنا بجثة نور الصباح ! "

بصوت دافئ فيه تهجد وخشوع صاح شوادفى :

- " خير ما عملتم !! إن شاء الله ربنا يجازيكم خير الجزاء فى الآخرة !! يا زينهم يا عتريس ! "

هكذا نادى . فخرج زينهم من حجرته مهرولا :

- " خير يا شوادفى ؟! "

بنبرة استسماح ورجاء لينة :

- " جهز لنا الأوضة بتاعتك ! جثة نور الصباح وصلت ! ربنا يكرمك ويكفيك شر المرض ! "

ثم امتدت أصابعه الغليظة الكبيرة فمسحت دمة تحدرت رغما عنه على خده . وهتف الشيخ زينهم :

- " لا إله إلا الله ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! وسعوا يا أولاد ! جاهزين يا شوادفي !".

لحظتُذ كان السائق وزميليه يلباسهما الكاكي والكاسكيت الأحمر بطابعه العسكري قد أسرعاً بسحب النقالة الخشبية المسجي فوقها الجثمان : تلقاها أحدهما خارج السيارة والآخر من الطرف المقابل حتى نزل هو الآخر ، فمضيا ، الأول معطيا ظهره للنقالة والآخر وراءه ممسكا بطرفيها الآخرين . إحترقا فناء الوكالة إلى حجرة الشيخ زينهم العتريس فدخلاها . فى الحال انداح فى الأفق صوت رنان بالغ التفجع والحرارة ، كان صادرا من حجرة الشيخ زينهم بصوت زوجته وابنتيه الكبيرتين ؛ على سبيل التحية الواجبة لا استقبال الميت . سرعان ما خرجت قطيطة من حجرتها مولولة ؛ تبعتها دميانة من البكية المقابلة ، ونزلت قوت القلوب العجوز جدة وداد تتدحرج على السلم نائحة بصوت هزيل مبحوح متوجع :

- " قلب أمك يا أختى ! ما كانش العشم يا حبة عيني !".

فى لحظات معدودة كان فناء الوكالة قد امتلأ بألسنة لهب حارقة من الصوات المتناح فى مظاهرة كبيرة ؛ بقدر ما أثارته من هياج وانزعاج درف النوافذ المجاورة ؛ فإن شوادفي كان يستقبله فى شئ كثير من الزهو والرضا . وحين خرج رجلا الإسعاف بالنقالة الفارغة إلى السيارة إلتقاها شوادفي فغمز كل واحد ببريزة فضية أثناء السلام عليه ، وذهب ليسلم على السائق بنفس المنحة الفضية . ثم انعطفنا جميعا إلى شغل الصوات والبكاء فلم نسمع هدير سيارة الإسعاف وهى تنصرف . كنا فى الضحى ما نزال ؛ والبعض من سكان الوكالة لم يخرج إلى عمله بعد . ولهذا امتلأت حجرة الشيخ زينهم بعدد وفير من نساء الوكالة وجيران الوكالة بعضهن لم تسمع أصلا بنور الصباح . كذلك امتلأت مصطبة شوادفي وباحة البوابة على اتساعها بالمتقرفصين والمتربعين لا أحد يدري من أين جاءوا . خبط الشيخ زينهم بعكازه الأرض فى رعشة صوت رهيب :

- " يا جماعة ! الله وكيل ! البنت لم تكفن ! ولم تغسل ! وهذه الملاءة القديمة لا تصلح كفنا !".

يكاد شال عمامته يسود من شدة الوسخ لكنه يملك صوتاً ملائكياً جباراً ، رفيع
النبرات حاد كشفرة الموس يخرط في القلب والأعصاب خرطاً يصعد بالسامعين إلى
أعلى السموات السبع ويهبط بهم إلى قاع الأرض فكأنهم ريشة في مهب رياحه
العاصفة . كنا مجموعة من الرجال كعائلة واحدة تتربع على الحصيرة حول المقرئ ،
نخفض الرؤوس في خشوع ونسبس بالإستغفارات وبالشهادتين يعقبها تنهد عميق
حار . فيما بين الربيعين انفتحت صنابير الكلام تحكى ذكريات نور الصباح وجمالها
القاتن وحلاوة طبعها وأدبها وأخلاقها وشبابها الذي لم تهناً به يوماً واحداً . وبنبرة
يشع فيها الصدق قال شوادفى :

- " الحمد لله أن ألهنا القدرة على القيام بالواجب ! إنها بنت حلال والله !
عاشت عمرها فى نكد وحسرة !! وحق الواحد القهار يا جماعة أنسى يتفتت قلبى
عند رؤيتى لمغترب يعود إلى وطنه ما بالك لو كان المغترب جسداً ميتاً ؟! تذوب
روحى ! أبيع كل ما وراثى فى سبيل إكرامه ! إن كسفة وجه الإنسان صعبة لا
يقبلها الله بالنسبة للإنسان الحى فما بالك بكسفة وجه الميت ؟! "

الشيخ زينهم العتريس تلقف منه حبل الكلام ، فاختصنا بكلمة عن معنى الوفاء
عند الله ، وقيمة الجيرة ، وحفظ العشرة ، والتراحم والتواد ، وكيف أن شيخه
وقطبه العتريس يرحمه الله كان يقول كذا وكيت فى هذا الشأن أو ذاك . ثم إن
المقرئ استأنف القراءة بربع أخير ألحقه بطائفة من قصار السور ختم بعلمها منادياً
بالفاتحة ؛ فرفعنا الأكف جميعاً واندججنا فى قراءتها بخشوع كبير . ونهض الخانوتى
ليوصل المقرئ إلى داره ؛ وذهب رمضان عريجة لينفذ أو ليخطط لجرمة جديدة ؛
ومضى شوادفى إلى ضجعتة المعهودة فوق المصطبة بجوار البوابة ، ومضى الآخرون
كل إلى شأنه . دعوت البورى لينام فى حجرتى حتى الصباح لكنه أصر على
الإنصراف . ولم يكن يخطر ببالى أنه معزوم عند وداد إلا بعد أن خرجت فى عمق
الليل ذاهباً إلى دورة المياه عبر الفناء فلمحت خيالهما معا على حافة الشرفة تلفهما
ملاءة من الدخان الرمادى الخفيف .

الفجر الأسود

كانت الوحشة تغمر شارع السوسى وما حوله . هذا مابدا فى عينى لأول وهلة من لحظة أن تجاوزت مبنى المديرية . الصبح ليس ككل الأصبحة الماضية . العين لا تخطى أن ثمة كآبة مشبعة بالرطوبة تخيم على البنية والأرصفة وأسفلت الطريق وطوائف البشر ، بل وفى ضوء الشمس الشاحب الخالى من الدفء رغم أن الشمس البازغة الحمراء كانت ترقد فوق مبنى المديرية مباشرة . الحركة بطيئة والناس يمشون فى سأم وقلة حماسة . حتى حمير العريجية وخبولهم كانت تدلى آذانها وتركض منكسة الرأس فى الأرض مسبلة الأجنان كأنها مساقاة إلى الذبح . الأفندية الموظفون يطوون الجرائد تحت آباطهم ، بعضهم يخطف المانشتات الكبيرة فيما هو سائر على الرصيف يتلكأ واثقاً من أن غيره سيتفادى الإصطدام به . العمال والحرفيون والباعة يتجمعون أمام محلات الفول والطعمية يلوكون الساندويتشات فى غير شهية ، كل واحد يحاول الإنزواء على نفسه وتجنب فتح أى حديث مع الواقف بجواره . الطلبة الكبار يمشون فرادى بعد أن كانوا زرافات زرافات ، فكأنهم ضربوا فى السر ضربات قاصمة فصلت بين أبناء الحى الواحد الذين تعودوا انتظار بعضهم وربما المرور على بعضهم البعض فى البيوت للنزول سوياً والإنضمام إلى بقية أبناء الحى لكى يتوجه ركبهم الطازج المنهل الجميل إلى مدرسة معيطى الثانوية أو مدرسة الزراعة على ترعة المحمودية أو مدرسة الصنایع أو معهد المعلمين أو معهد السكرتارية؛ هاهم يسيرون فى حماسة مضطعة وانشغال مفتعل ، حتى إن لحق أحدهم بالآخر ألقى عليه صباح الخير وتلقى صباح النور ويروح أحدهما يحاول استباق الآخر فى السير لبيدو للناظرين أنه ليس معه ؛ فيبدو الجميع مسرعين لاهئين مضطربين لا علاقة لأحدهم بالآخر . أما الأطفال الصغار فإن وجوههم ليست تحمل نظرة كل يوم ، معظمهم مكشر مكلبظ الوجه كأنه مضروب ومنكد عليه قبل خروجه مباشرة .. فما الذى حدث فى المدينة يا ترى هذا اليوم؟! من الواضح أن مصيبة عظيمة قد نزلت بالقوم فيما نحن فى الوكالة ملتئين فى دفن نور الصباح وتأبينها ؛ بل الأرجح أنها حدثت منذ قليل ..

على مقهى البسفور أكلت شريحة الخبز المحشوة بالفول مع كوب الشاي بالحليب ، ودخنت سيجارتين بلمونت من الخمسة الفرط التي اشتريتها منذ قليل . ونظرت فى ساعة المقهى المعلقة على الحائط فوجدتها تقرب من التاسعة صباحا ؛ فأيقنت أن محمد أبو سن زمانه الآن قد فتح الدكان وأشعل البخور وركب الفتارين الزجاجية على صدغى الباب وجلس يتصفح جريدة الأخبار . صورته الماثلة وهو تصفح الجرنان نبهتنى إلى الجرنان ؛ إذ لابد أن يكون نبأ المصيبة التي لابد أنها حلت بالمدينة قد وصل أمرها إلى الجرائد فاشارت إليه فى ركن قصى بعيدا عن أخبار الرئيس والحكومة . كشك السجائر الملاصق للمقهى يبيع الجرائد ؛ هاهى ذى الجرائد مفردة تتدلى من حبال مشبوكة بمشابك الغسيل . ما نشيت بخط كبير أحمر: حل جماعة الإخوان المسلمي ن . الصفحة كلها على طولها لا تتسع لأى خبر آخر ، كل العواميد بالبنت الأسود الكبير وتحتها خطوط ، والصفحة مزينة بصفوف من صور لوجوه ملتحية ترتدى الطرايش والعمائم والطواقى ، وزبيبة الصلاة فى جباهم مقروحة رمادية ومسحة الصلاح تطفى على مسحة التشدد والصلابة . أجلت قراءة الموضوع إلى حين الوصول للدكان لأقرأه على مهل ..

حودت على شارع السوسى . بضع المحلات ما تزال مغلقة وهذا لا يحدث فى العادة ، فأبدأ لايطئ أصحاب المحلات فى اللحاق بزبدة البكور لرش الأرض أمام محلاتهم واستجلاب الفأل السعيد بوسائل شبه سحرية بتعاويد يقرأها الواحد منهم فى سره ؛ فمن المستبعد أن تكون راحت عليهم نومة حتى العاشرة صباحا . دكان محمد أبو سن هو الآخر مغلق لأول مرة فى حياته فى غير أيام السوق . أيقنت فى الحال أن محمد أبو سن قد تم القبض عليه مساء أمس أو ربما فجر اليوم . اقشعر بدننى ، جف ريقى من شدة الخوف الدايم ؛ صرت أتلفت حوالى فى استرابة أحاول نفى صلتى بالدكان الذى أقف أمامه ، ثم ضحكت من نفسى فى نفسى غير أنها ضحكة تمخضت عن رحيق مر ؛ إذ دهمنى شعور بتوقع القبض على فى فترة لاحقة . تمثلت لى كل صور التعذيب التي أسمع عنها داخل السجون السياسية خاصة مع المتهمين . بمحاولة قلب نظام الحكم بالحق أو بالباطل ، فمر يلهنى خاطر جارم الملامح يندرنى بضرورة الهرب فى أسرع وقت ، الإختفاء من هذه المدينة

فوراً، ولكن إلى أين ؟ لو سافرت إلى قريتي فلن أكون يبعيد عن أيدي الشرطة. ولكن ما بالي أشغل نفسي بالهرب قبل أن أتأكد من حقيقة ما جرى ؟ هنا طراً خاطر جديد أقوى : لو بدوت خائفاً فسوف يتشكك في أمرك ذلك الخفى الذى يتعقبك ويعرف عنك كل شئ ؛ وجدتنى استريح لهذا الخاطر على أساس أن هذا الذى لا بد أنه يتعقبني لا بد أيضاً أن يكون ملماً بحقيقة أمرى ومن ثم يعرف أننى لست عضواً بالجماعة ولست أمارس أى نشاط من أنشطتها وإن كنت أجلس مع دواي من أعضائها المنظمين القائمين بأعمال فعلية فى حركة الجماعة . سرعان ما اكتشفت سذاجتى ، فدفعنى الخوف إلى المشى على غير هدى .

وهكذا وجدتنى أحترق وصلة محل العصير إلى شارع الصاغة الذى اعتدت أن أبتهج بفتارينه الزجاجية تبرق فيها الجوهرات والمشغولات الذهبية فى صفوف مترابطة على الجانبين ، تتخللها محلات تبيع الحبوب أو الزكائب أو الخيش . وجدتنى تلقائياً أعرج على دكان حمدى الزواوى . شئ عجيب ؛ كأن أيام حمدى الزواوى ساعة منضبطة تمشى بدقة منهلة ؛ هاهو ذا يفرك أرغفة الخبز فوق صينية الفول يشرع فى تناول فطوره . ما أن رآنى أسد فتحة الباب حتى ضرب جهته بكفه كأنه يقول : " إنت ابن حلال مصفى " لكنه قال : " تجى فى وقتك دائماً " . كعادتى قفزت راكباً فوق البنك امام صينية الفول ؛ فقفز هو خارجاً ووقف بالباب صائحاً: " صينية كمان يا حندوقة " ؛ وقفز عبر البنك إلى الداخل . مزق الرغيف فاقتطع لقمة صار يقلب بها الفول فى الطبق فتصاعد الرائحة النفاذة للزيت الحار بالليمون وخلطة التوابل . قال من شديدين متكورين :

- " شفت ماجرى ؟! "

- " مالحكايه بالضبط ؟! "

- " كان أسود فجر على البلد !! الحكومة قبضت فى الفجر على جميع أعضاء الإخوان المسلمين وعلى كل صاحب لحية كبيراً وصغيراً !! ليتها أمسكتهم فى السر والكتمان كما خيل لها أن تفعل !! إنما هى استعملت الخشونة والعنف ! فتشت البيوت شقا شقا ! قلبت عاليها واطيها ! بهدلت الدنيا ! تطاولت على السيدات بالبذاءة وفحش القول والضرب بالشلوت !! نساء صوتت بحرقه واستغاثة ! أطفال

تصرعت ومازال الخوف يسكن قلبها وحاجات مؤلمة !! قد بكيت والله حتى انفلق
دماغى لما وقع بصرى منذ قليل على أطفال محمد الخوالقة وهم متوجهون إلى
المدرسة كأفراخ تمشى ذليلة مقهورة متجهمة الوجه بائسة !! هو جارنا وقد صحونا
على الضجة عند القبض عليه وكان أطفاله وأطفال الجيران يصرحون فى رعب وهم
يرون العسكر يقتحمون غرف نومهم ويهدلون أمهم ويضربون أباهم فى قسوة
ويلقون به فى عربة البوكس فورد !! شف كم طفلاً من أطفال الحضانة رأى أباه
مخطوفاً وأمه تنضرب بالشلوت لتكف عن الصوات ويبتهم يتبعثر وكل مستورهم
ينفضح !! شى فظيع يا جدع ! والله ما يرضى الله بهذا أبداً !! هل يتركهم الله
يفعلون بالناس هكذا !! ما أظن ! إن انتقامه سيكون شديداً !! صديقك محمد
أبوسن ! هذا الرجل السكرة ! كنت تعال شف ماجرى له عند الفجر وهو قائم
يتوضأ ! لو كان من مطاريد الصعيد قتال قتلى ما أمسكوه هكذا ولا ضربوه
وجرحوه على الأرض تزغذه دباشك البنادق وهراوات العسكر !! ما هذا الذى
يجرى للناس فى عهد الثورة !! إفرض أنهم حاولوا قتل الرئيس عبد الناصر ولهم
جهاز سرى يدرّب الشبان على القتال ! إفرض أنهم ينوون القيام بثورة ! وأنت
معك القوة ! يا أخى اقبض عليهم وحاكمهم باحترام فى حدود القانون ! إنهم ناس
مسلمين وموحدين بالله مثلك ليسوا من اليهود ولا الإنجليز !! ثم ما الداعى للقبض
على العجائز المسنين وعلى الطلبة وتلاميذ المدارس ؟ سيد العليشى مثلاً سيضيع عليه
العام الدراسى ويعلم الله كم عاماً آخر سيضيع عليه !! ولكن ! أقول لك : مالناش
دعوة ! هى معنى كانت بلد أبونا !! أنا صعبان على الأطفال ! بكره يكرهوا الدين
والقرآن والوطن وصنف الحكومة حتى كلمة الثورة نفسها سيتعقدون منها طول
حياتهم !! والله لو كنت من جمال عبد الناصر ما كان يهمنى من أى أحد! ولماذا
تهتم يا جمال ؟ أنت عملت الثورة والناس أيديتك وأحبتك وفرحت بك فما الداعى
لأن تنكد عليهم بهذا الشكل !! أهى حرب !! كل ياعم كل خلنا نفوز باللقمة
التي فى أيدينا ! يا عالم إن كنا نلأقيها بكره أم لا !! ..

وغمرنا صمت عميق استمر طويلاً فيما نأكل بشهية فائقة ونقضم رؤوس البصل الأخضر في قرقشة لذيذة . وفجأة طرقت حمدي الزواوي بأصبعه كأنه تذكر شيئاً خطيراً ؛ ثم هتف :

- " على فكرة ! بيت قريبك كان فيه تفتيش ! الحاج مسعود زوج ابنة عمك كان منظره يهلك من الضحك ! لم يكن حزيناً على أخذهم لولديه الكبيرين والتشليت في كل أفراد الأسرة ! إنما كان بلطم ويشق الهدوم على برنيات السمن وبلايص المش التي انكسرت وأجولة البطاطس والعدس التي اندلقت بحثاً عن ذخيرة وأسلحة !! هذه والله حكومة عبيطة وغشيمة ! تظن أن القبض على الناس في الفجر يعتبر سراً ! وتنسى أن الحوارى التي خرجت هي نفسها منها تلتصق فيها البيوت التصاق الناس بالناس ! وأن من يتقلب في مرقده في آخر الحارة يشعر به الصاحي والنائم في أول الحارة ! إن كل فرد في الحارة الطويلة يعرف أن فلاناً يوجعه ضرسه وفلانة كانت تلد وفلاناً ضرب امرأته للأسباب الفلانية !! التفتيش كان كأنه في بيتنا !! والحكومة من عبطها تنسى أن الناس متشابكين ! فلان الفلاني من الإخوان المسلمين وأنا لست منهم بل مع الثورة لكن فلان الفلاني هذا في النهاية قريبى ابن خالتي زوج أختى ابن عمى زميل مدرستى صديق طفولتى !! يا حكومة يا هبلاء يا بنت القحبة ألم تفكرى فى هذا ؟! إنك لا يمكن أن تنزعى الشخص من داره إلى السجن نزع الشعرة من العجين لأنه ليس شعره ، وأهله ليسوا بعجين إنما الشخص المقبوض عليه يتسلخ ويترك تسليخات فيمن حوله ! تساوى كم طلعة هؤلاء الأطفال الأبرياء هذه الطلعة الحزينة البائسة إلى مدارسهم ؟! داهية تسم بدن الذى لا يحس ولا يشعر ! على إيري هذه الثورة التى تذلل الأطفال وتكسر أنفهم !! " ..

تأثرت جداً من كلام حمدي الزواوي . كان رغم مظهره اللامبالي وملامح وجهه المنبسطة شديد الغضب مع أنه ممن يحبون ثورة يوليو وينبهرون بشخصية جمال عبد الناصر . لحيد إندوش دماغى دوشة شديدة ، إمتلاً بطنين يعكس إحساساً بأن عشرات الناس يتعاركون بعيداً جداً بصوت مدو غير واضح ؛ وكان عقلى يحاول النفاذ من هذا الطنين ليمسك ببرق الصفاء لعله يستكشف سبباً يدعو للإطمئنان

قليلاً. جعلت أدخن بلذة شاردة وقد اسودت الدنيا فى وجهى تماماً ، وبدأ لى الرجوع إلى بلدتى أمراً بغيضاً غاية البغض لكن لا مفر منه . إن الظروف كلها تتكاتف لتدفعنى إلى البلدة دفعاً ، فعلى أسوأ الأوضاع لن يكون هناك شوادفى يكبس على يافوخى مطالباً بالإيجار وبمعرفة كل شئ عنى وعن حياتى ؛ لكننى سرعان ما أصابنى الدوار كأن رأسى اصطدمت بحائط صلب ، لحظة أن تبينت أننى فى هذه المدينة يمكن أن أجوع وأتعري وأنام على الأرصفة كالقمامة دون شعور بالفضيحة أما فى بلدتى فلست أستطيع : رأيت أمى قاعدة فى فتحة باب دارنا مدارية نفسها فى درفة الباب ترقب الطريق فى انتظار قادم مجهول لا يأتى أبداً ، تضع يدها على خدها كالمحكوم عليها بالبؤس الأبدى ، مرتدية جلابيتها السوداء الكالحة ، متبشقة بالطرحة الجرباء ؛ وقد كبرت الملامح فى وجهها الأبيض الشاهق المستطيل كفردة أرنب ممسوكة من أذنيها ؛ تنهد من أعماق قلبها كلما رأت أفندياً ماراً ، من معلمى المدرسة أو موظفى الوحدة الصحية أو الجمعية الزراعية . رأيتنى أهرب منها كما تعودت فأتسلل داخلاً من باب دارنا الآخر المطل على عطفة تفصل بين دارنا ودار أبناء عمى ! فلقد عرفت من تنهيداتنا المستمرة فى ازدياد أن فشلى فى الدراسة هو الذى سبب لها كل هذه الحرقعة ، هى التى ثمنت أن ترانى أفندياً بشهادة رسمية من الحكومة ؛ وكانت هذه الأمنية قاب قوسين أو أدنى من التحقيق لولا خيبة الأمل التى حلت بى . فوجئت أن الدار أضيق مما كنت أتصور ، أظلم مما كنت أتذكر ؛ الحجرة التى تنام فيها قدرة ضيقة كظيمة مظلمة رطبة سوداء الحوائط بهباب الكون ولبنة الجاز ، تفوح منها رائحة الصنمان والعرق المخزون والعطن ؛ الحصرير متآكل الأطراف والوسط كالمنخل كالشبكة وأعواد البردى المتصلبة من فرط القدم والوسخ تترك آثارها محفورة على جلودنا فتبقى ظاهرة على وجوهنا وأفخاذنا وضلوعنا كشبكات مطبوعة بالحفر كنعش ولدنا به ؛ المخدات صلبة مزيتة ؛ البطانية مدعمة بقطع من الخيش والهلهيل القديمة ؛ القتال يبدأ فى عز الليل حينما تنوق أجسادنا المنهدة لساعة نوم عميق ، حيث تتحرك جيوش حرارة من حشرات البق والقمل والبراغيث تتحرك فى أسراب ودوائر وبؤر ، تتخندق فى خياطة ملابسنا من الداخل وفى جميع أنحاء المخدات فيما بين الغرز ، لتغير على

أجسادنا المهذودة المهزولة ، فتظل طول الليل تتقلب فوق نار من اللسع والقرص والنغز لا يخبو لها أوار ، تمتد أيادينا لتهرش فتتلامس أطراف أصابعنا مع أسرابها الآمنة منتفخة بدمائنا ملساء ناعمة ؛ ملابسنا دائماً مبرقشة يبقع من الدم الأحمر ، فأجسادنا وهى تدافع عن نفسها ضد جحافل القرص تتقلب تتحرك بالأرض بأعواد البردى فتتنفص الحشرات الشاردة فينسكب ما نهبتة من دمننا ؛ الحجر لا تدخلها الشمس أبداً ، والفرش - إن جاز تسميته كذلك - يظل فوق السطح طول النهار فتهرب منه الحشرات إلى مستقر لها فى نفس المنزل حتى تتجمع وتزحف إلينا لتتوالد فوق أجسادنا كقطيع من الأغنام يرعى فى حقل بلا صاحب ؛ أبى العجوز البائس المعدم يفهم فى السياسة مع ذلك ، يظل طول الليل ممسكاً بلمبة الجاز يشعل منها فتائل من ورق الجرائد يمرر شعلتها فى أركان الحجر فوق المصطبة الرفيعة التى ينام فوقها ؛ تزكم أنوفنا روائح كثيرة نفاذة خائقة ؛ رائحة البودرة التى توزعها الوحدة الصحية على الناس لنرش بها الفراش والمنزل كله ، رائحة دماء البق المنفصص والمحترق وهى حريفة مقبضة زاعقة ، رائحة احتراق الورق ، رائحة فساء الإخوة الصغار المستغرقين فى النوم من فرط التعب لا يشعرون بشئ بعد أن اخشوشنت جلودهم فلم يعد يؤلمها قرص كما فرغت دماؤهم فلم يوجعها لسع ؛ أبى الذى يفهم فى السياسة والذى كان فى يوم من الأيام زعيماً وفدياً فى بلدتنا وتم عزله بعد حل كافة الأحزاب ، يقول إن مقالة بصراحة لمحمد حسنين هيكل ليست صريحة تماماً إلا فى كونها أحرقت سرباً كاملاً من البق حيث أن لهبها يرتفع سارحاً فى زاوية الركن فتتسلخ حباب البق عن طين الحائط تتساقط فى قلب اللهب فنسمع طقطقتها فيعزوا أبى ذلك - فى كثير من الزهو والثقة - إلى أن صورة هيكل المنشورة على صدر المقال أوهمت البق أنه موفد من قبل جمال عبد الناصر ليقول أن الذى أمر المحتل الإنجليزى بالرحيل عن البلاد ليس بعاجز عن إجلاء وإنهاء احتلال البق والقمل والبراغيث لأجسادنا وفراشنا ودورنا ؛ وكان رجال الصحة يجيشون أحياناً إلى دورنا يحملون بخاخة كبيرة كبخاخة الماء التى كنا نسقى بها الزرع ونرش الأرض أيام عزنا قبل الثورة ، فيرشون دورنا وفراشنا ، ومن يغمزهم بقرش أو بنصف فرنك يتركون له قليلاً من السائل فى زجاجة ؛ فكأن أبى حينئذ يوجه لهم

الشكر في حماسة بما يكاد يكون خطبة سياسية يقول فيها إن حرب الاستنزاف هذه يجب أن تظل معلنة على هذا العدو المحتل حتى يدركها عبد الناصر بجيوشه الجرارة وأبطاله المغاوير من الضبط الأحرار البواسل . رأيت كنية المنذرة التي تعودت أن أتسلل إليها كل ليلة هرباً من جحيم الحجر فأظل أتقلب على خشبها العارى طول الليل يسلقني البرد فأنكمش في نفس قدر الطاقة . آخر ليلة نمتها فوق هذه الكنية كانت الدار كلها حزينة من أجلى ؛ أمى لا ترفع يدها عن خدنها ؛ أبى يزور عنى كلما جاءت عيني في عينه ؛ أخى الذى يتعلم صنعة النجارة يتيه على بأنه سيصبح صاحب صنعة فى اليد أماناً من الفقر بعد أن كنت أتيه عليه بالتعليم فى مدارس البندر ؛ أخى الذى يتعلم صنعة الخياطة يحاول كسب ودى لمعرفة ما ورائى من خبرة مع نسوان البندر والسينما وركوب الدراجات مما يوقنون أنه السبب فى إفسادى وإلهائى عن التعليم ، إخوانى الذين يشتغلون أنفاراً فى حقول الوسية ينظرون لى بخيبة أمل إذ كانوا يتعجلون اليوم أتوظف فيه لأقبض راتباً شهرياً يدفعونه للبقال وللكسوة .. فى فجر تلك الليلة خرجت متسللاً نحوى الوفاض من كل مليم ، مشيت سنة كيلومترات حتى محطة القطار فى بلدة مجاورة ، ركبت القطار مستسلماً لكل الإحتمالات ؛ كان القطار فارغاً تماماً فلم يشعر بركوبى أحد، نجحت فى الإختباء من الكمسارى فى دورة المياه حتى محطة دسوق فنزلت وعدت ماشياً فى الإتجاه العكسى حتى انتهى الرصيف فمضيت بين الفلنكات مشواراً طويلاً وخرجت من بين السلاك الشائكة على شارع فى وسط البلد ؛ ظلمت أتسكع فى الشوارع على غير هدى ، مررت بمسجد سيدى ابراهيم الدسوقى ، شعرت أنه ينادينى ، عرجت عليه ، دخلت الميضاة فاستنجيت ثم توضأت ثم عبرت إلى المحراب فأقمت صلاة الصبح ثم تربعت بجوار المنبر شاعراً بهدوء منقطع النظر، أمامى عشرات من طلبة المعهد الدينى يتربعون فى أركان المحراب على مسافات شاسعة مندجحين فى قراءة الكتب فوق كراسيها الخشبية كالصليبان بهلطقة وبسبسة ولعاب سائل وحماسة فائقة ، بعض الأجساد تمددت فى صحن المحراب واستغرقت فى النوم بكل اطمئنان ، تلفت حوالى قليلاً ثم مددت ساقى ثم طرحت ظهري على الأرض شابكاً ذراعى تحت رأسى متأملاً فى السقف المقبب المزركش بخطوط

زخرفية متداخلة تتضوأ بألوان زاهية حمراء وخضراء وزرقاء مبهجة ثم ما لبثت حتى استغرقت فى نوم هنىء عامر بالونس فظلت أصوات صاحبات باعة العرقسوس وشخايل باعة الحلوى ونداءات الباعة وصيحات الجاذيب وكركرة العجلات وغناء المذياع تحيط نومى العميق ببطانة من الأانس الجميل المبهج حتى رأيتنى أطفو شيئاً فشيئاً على سطح بئر النوم فأفتح عينى على يد حانية كأنها تنتشلنى من الأعماق برفق ؛ كانت صفوف المصلين قد التأمّت وارتفع اللغط ؛ إنتفضت قائماً متجهماً إلى الميضاة ثم عدت فلهقت بصلاة الظهر جماعة ثم خرجت بين أرهاط من الخارجين ؛ إتجهت مباشرة إلى شارع مجاور لمحطة السكة الحديد ، إنعطفت منه إلى حارة جانبية، حيث يوجد فى أوله مكتب عيد العزيز الخبى الحامى ، فى شقة فى الدور الأرضى غائصة فى الأرض تسبح فى الرطوبة عبارة عن حجرة على يمين الداخل وردهة فى المواجهة تتسع لمكتب وأربع مقاعد كانت منجدة ذات يوم لكنها تهرأت وتكسرت سستها فغاصت مقعداتها وأصبح الجلوس عليها لأكثر من عشر دقائق مؤلماً جداً، الحجرة مكتوب على بابها على رقعة سوداء صغيرة كلمة : الحامى ، والباب مفتوح وبالحجرة مكتب أكبر كثيراً وبضع مقاعد جلدية سليمة ونظيفة ودولاب زجاجى كبير ملئ بالكتب المجلدة، وفوق المكتب أكداس من الملفات وسماط جلدى ونشافة خشبية ودواة حبر من البللور كبيرة وخنجر ورق ومسطرة ومجموعة ريش وأقلام ، وهى حجرة خالية دائماً إلا فى لحظات من أول النهار وأول الليل حيث تمتلئ الحجرة بالفلاحين والمشايخ من أصحاب القضايا الأزلية التى لا يتم الفصل فيها أبداً، ويعلو صوت نقاشهم واحتدادهم ؛ أما مكتب الردهة فى مواجهة باب الشارع فإليه يجلس توحيد المغربى بجسده التخين المرغدد ووجهه الدائرى الأبيض المتدفق بالدماء فى ملامح مكتنزة متكورة تضيق عيناه على اتساعهما وله تحت الذقن لغد جميل وغمازة فى منتصف الذقن وغمازتان فى الخدين المنتفخين قليلاً ، أقرب الناس شبيهاً بأبى فى خلفية الملامح ، سريع الضحك سريع البديهة سريع التقاط المفارقات ولوامع السخرية وغوامض الكلم ومكر الغمز فى الحديث ، يضحك بتشحير أول الأمر ثم ما تلبث الضحكة حتى تكرر فى صدره فيحمر وجهه يحنقن ويكون قد أعطى نفسه فرصة التفكير فى إعداد الرد المناسب الذى لا ينجيب ولا يطيش ولا

يُخرج عن الموضوع أو عن حدود الأدب مهما كان مضطراً لذلك ؛ هو أنيق فى
ملبسه ، على سنجة عشرة دائماً ، رباط العنق كأنه منحوت فوق صدره بالمشبك
الذهبي ، وأزرار القميص والسترة من فوقه من أعلى صوف الإنجليزي وكذلك
السروال والطربوش الأحمر القصير المعلق دائماً على مشجب خلف ظهره بجوار
السترة حيث يبقى جالساً بالقميص وحمالات السروال على كتفيه كالصلبان ، فمثله
لا بد أن يتقن مظهر الأفندى بقدمية واحكام وإخلاص حتى لا يترك لطبقة الأفندية
الأصلاء مثلباً يهاجمونه منه كدخيل عليهم . ذلك هو توحيد المغربى ابن عمى
وزوج عائشة بنت عمى الأكبر ، وهو وكيل هذا المحامى لكنه أكثر منه وعياً ولباقة
وخبرة بالقنون ومعاملة العملاء وأنواع مشاكلهم التى يستقطب منها القضايا
يشجعهم على إقامتهما فى المحاكم التى يرشدهم إليها كجهة اختصاص ، ليظل
يستنزف أموالهم لسنوات طويلة إذ يظل يلقي الرعب فى قلوبهم بتجسيد مخاطر
القضية التى لا يتم الفصل فيها أبداً وتنفذ الأسباب لتأجيل جلساتها ؛ هو أيضاً
مثقف مع ذلك ثقافة واسعة رغم أنه لم يحصل على أية شهادات دراسية فيما عدا
التعليم الأولى ، يقرأ العقاد وطه حسين والمازنى والمنفلوطى والغزالي وخالد محمد
خالد ، يشتري جميع الصحف والمجلات على اختلاف أنواعها وألوانها فيقرأها
بسرعة ملهلة ، كما أن لديه مكتبة منزلية عامرة ومبهرة يعبر منها لأبى كلما نزل
البلدة عصر الخميس من كل أسبوع ليغادرها فجر السبت ، يحاجج الخطباء
والوعاظ ويعارض المعارضين والمؤيدين على السواء يقنعهم دائماً بتسرعهم بخطل
آرائهم بغفلتهم عن الجانب الفلانى والزاوية الفلانية ، يخطب وده مرشحو الدائرة
والأعيان تحسباً ليوم يرشحون فيه أنفسهم لأى شئ يستلزم تأييده ومناصرته ،
يدخن فى اليوم مائة سيجارة على الأقل من النوع المبطط ماركة كوتاريللى حيث
يرمى السيجارة بعد منتصفها بنفسين ثلاثة ليشعل غيرها فى الحال بالقداحة المعمرة
بالبنزين ، وعلبته ممدودة على الدوام أمام الضيوف حتى غير المدخنين ، يصر على
تقديم القهاوى والشايات بغزارة من مقهى على ناصية الشارع العمومى حتى يأخذ
العملاء راحتهم فيتكلموا بوضوح وهدوء ليتمكن هو من إحكام الحصار حول
رقابهم بحيث لا يفلتوا بأى حال من الأحوال ، يقنعهم بأن هذه القضية أو تلك

براءتها ربما السجن سنوات فحسب بدلاً من الإعدام ، يقول ذلك ليس من موقف المتفاوض في أتعاب بل من موقف الأخ الحانى الواقف فى صفهم حريصاً على مصلحتهم حتى إنه يطلق على المتهم اسم : إبننا فلان أو عمنا أو خالنا فلان ؛ لا بد من توقيع العقد ودفع العربون والرسوم والدمغات ودمغات الدمغات وبرطيل الكتبة والدفترخانة وبقاشيش السعاة والفراشين ، وإن هى إلا دقائق معدودة حتى يتحول كل ذلك إلى ملف أنيق مطبوع ينتقل ليوضع فوق مكتب الأستاذ بعناية كباب رزق جديد . فى هذا المكتب زرت ابن عمى مرات معدودة بصحبة أبى ، فكان يبالغ فى الترحيب بنا وينهب بنا إلى شقته فى حارة بعيدة شرقى المدينة حيث تتغذى وتفرح بنا بنت عمى عائشة. وقد زرتة وحدى حوالى ثلاث مرات على امتداد سنوات الدراسة فى مديرية دمنهور فلاحظت أنه لا يرحب بى كثيراً بل يهملنى طويلاً ثم يسألنى عن الجماعة وعن أحوالى بغير حماسة وفى صوته نبرة جادة متغطسة وفى النهاية يسألنى إذا ما كنت أطلب شيئاً يمكنه القيام به ، فحين أؤكد له أن زيارتى محض زيارة فحسب يغمزنى بشلن فضى ويحملنى أمانة السلام . ولم أكن أحب زيارته أبداً إلا تحت ضغط قاهر ؛ مثلما حدث ظهر ذلك اليوم عقب تلك الليلة الليلية : دخلت عليه وكان قادماً لتوه من المحكمة فجعل يتصفح الجرائد مع فنجان من القهوة ؛ فلما شعر بظلى يقترب رفع رأسه فابتسم ببشاشة وجهه المعتادة وأوشك أن يقف ليسلم على لكنه بدا كأنه تذكر فجأة أننى ولد فاسد بلطجى ضرب معلمه وانطرد من التعليم مخيباً أمل الأسرة كلها ؛ ظهرت على وجهه كل المقابلات التى انفرد به أبى فيها يحدثه عن أمرى وما سببه له من وجع فى عموده الفقرى ؛ وهكذا سلم على بأطراف أصابعه فى غير حماسة وقد انكششت الابتسامة على شفثيه وغاضت الدماء فى خديه تم سحب يده من يدي فأشار بها نحو الكرسي كأنه يعطينى الإذن بالجلوس ، فجلست لصق المكتب ؛ تناول صندوق السجائر وهم بتقديمه نحوى لكنه استدرك فارتد به فأخذ لنفسه واحدة أشعلها ورشفت من الفنجان رشفة ثم ألقى ببصره على الجريدة المفتوحة مستأنفاً القراءة عاقداً حاجبيه فى تركيز مضيقاً جانبى عينيه خلف المنظار الطبى السميك المستدير كقعر الكوب الزجاجى . إغثظت منه لأننى كنت بحاجة لتدخين سيجارة رغم أننى

كنت و طنت العزم على الاعتذار إذا ما عزم على زاعماً أنني لا أدخن وان فساد أخلاقي مجرد إشاعة ظالمة ؛ أما وقد فعل ما فعل وأثبت لي أنني في نظره فاسد فاسد مهما حاولت الإنكار أو التحلى بحميد الخصال فإننى ما دريت إلا وأصابعى تمتد بكل جسارة فتتنقض على العلبة المفتوحة فتأخذ سيجارة ثم على القداحة فتشعلها ، وبكل تبجح واستدراراً للكبرياء انجمعت واضعاً ساقاً على ساق وجعلت أدخن فى شراهة لذيدة متحدية، وقد عقدت العزم على الرد عليه بأقصى ما عندى من خشونة إذا حاول جرح إحساسى بأى حركة أو كلمة أو نظرة؛ لكنه لحسن الحظ لم يفعل، بل تجاهل الأمر تماماً وظل مستمراً فى القراءة لكن صفحة وجهه تشى بأنه يكظم غيظاً وحنقاً شديدين . نويت الإنصراف فور انتهائى من تدخين السيجارة دون أن أسلم عليه أو أستأذن منه ؛ إلا أنه سرعان ما طوى الجريدة وشد خيط الابتسامة الشاحبة على شفثيه المكتنزتين مثل شفثى عمى تماماً ، ثم تنهد قائلاً فى أسى :

- " والآن ماذا وراءك أيها الشقى التعس ١٢" ..

- " لاشئ ! مسافر إلى دمنهور فقلت أمر عليك لأننى لم أرك منذ ما يزيد على أربع أو خمسة شهور ! " ..

تجاهل كذبتى :

- " ولكن لماذا تسافر إلى دمنهور اليوم ١٢" ..

- " الأستاذ طارق الشوباشى ناظر مدرسة الزراعة من بلدتنا كما تعرف! وعدنى بأن يقدم لى التماساً بالعمو عنى وإعادتى إلى المعهد بعد أن تأدبت عاماً كاملاً وعرفت أن الله حق !! " ..

ولم يكن هذا قد دار بخلقى قبل هذه اللحظة مطلقاً ، بل لا أعرف كيف قلته ، لكن بدا على توحيد ابن عمى كأنه تنبه إلى فكرة طيبة كانت غائبة عنه ، وبدا من الواضح انه استحسناها واكتشفها:

- " والله معقول اقل له إن توحيد ابن عمى يهديك أزكى السلام ويقول لك إنه لن ينسى هذا الجميل طول حياته وسيرده لك فى الأفراح بإذن الله!! " ..

ثم نهض واقفاً، جمع كومة الجرائد والمجلات فتأبطها ، وضع القداحة فى جيب السترة الداخلى تاركاً علبه السجائر لأن يجيبه أكثر من واحدة وفى بيته الأكثر.

مضى خارجاً من المكتب منادياً على الولد الفراش منبهاً عليه أن يفتح المكتب ويرش أرضه في تمام الخامسة ؛ ومضى أمامي والولد الفراش في اثره ، فتلكأت قليلاً ، وبسرعة طويت علبة السجائر فوضعتها في جيبي ولحقت بهما على الباب . مشيت بجواره بقلب خافق بين الأمل والرجاء والخوف من ظلال ليل مقبل بعد قليل قبل أن أدبر له مأوى أو مثوى . قرب المحطة توقف :

- " ستركب القطار طبعاً ! لم يعد أمامك سوى ربع ساعة ! إكتب لي خطاباً فور وصولك بلغني فيه عما تم مع الأستاذ الشوباشي ! هاك ربع جنيه صرف به نفسك ! أراك على خير ! مع السلامة ! " ..

قبضت على ربع الجنيه ، سلمت عليه بقبضة مضمومة ثم اتجهت إلى شباك التذاكر مباشرة لألحق بقطار دمنهور الذي يصلها في مدخل المساء ...

رأيت كل هذا وأنا متربع فوق بنك حمدي الزواوي أدخن وأرشف من كوب الشاي في حيرة وشروء . شدني صوت حمدي مشوحاً بذراعه أمام عيني : " إليه ! رح في ؟ تلاقيك بتفكر في السجن " ، فانتبهت مرتعداً ، ولكن سرعان ما بدا لي السجن أرحم بكثير جداً أو على الأقل ليس أسوأ من العودة إلى بلدتي . لحظت منذ اعتدلت هابطاً عن البنك ، سلمت على حمدي ، ومضيت فاتحاً صدري أبجلق بنظرات متحدية في أي شرطى يقابلني .

البير وغطاه

وقع الخبر على رأسى كدبشة مديبة ثقيلة نالتنى على بوزى فدوختنى . كدت
أضرب صدرى كالنسون صائحاً : ياهوى ! لكننى عاجلت الصدمة بابتسامة شاحبة
حاولت أن أحجب بها نيراناً إرتفع أوارها فى صدرى ؛ ثم رأيتنى أنظر لشوادفى
بكل قدرتى على الإستنكار :

- " يا راجل حرام عليك ! ماهدفك من هذه الإشاعة ؟! " ..

كركر شوادفى بالضحكة كطفل عابت شقى :

- " سبحان الله ! رح بنفسك وشف بعينيك حتى تصدق !! " ..

- " وداد ! تزوجت البورى ؟! كيف ؟! " ..

- " لست أعرف ما الغريب فى الأمر ؟! " ..

- " لا يركبان ! غطاء صغير لإناء واسع !! " ..

- " اسم الله عليك يا أخانا ! هذا هو المطلوب ! يسقط الغطاء فى قلب

الإناء !! " ..

- " هو لا يكون غطاء إذن ! هما معاً يحتاجان لغطاء !! " ..

- " دعك من هذه الخطرفة ورح خذ الحلاوة ! إنهما الليلة يحتفلان بالسبوع !

ركب الخليفة وبدأ المولد الذى لن ينفض أبداً !! " ..

- " هذا آخر ما كنت أتصوره ! ولكن كيف حدث هذا من ورائنا ؟! إنهما

حويطان !! " ..

- " أنت نائم فى العسل هذه الأيام ! منذ مدة وأنت مطيور ! من ياترى أكل

عقلك ؟! وراءك سر هذه الأيام ! إن قلته لى نلت خيراً وعافاك الله ! وإن كتمته

جعلت من صدرك قبراً تتعفن فيه جثث الأسرار فيشمها كل من يقترب منك !!

طهر نفسك يا أخانا على الدوام !! إنفض ! أرأيت إلى الحمار يبرك فى الأرض

فجأة ويروح يتمرغ وينفض نفسه وينهق بكل قوة غيظه وألمه ؟! إنه مسكين ! لو لم

يفعل هذا ما استطاع استئناف الحمل ! إنه ينفض الألم والحسرة وسوء حظه لأنه لا

يقدر أن يستدير ليقبض على زمارة رقبة راكبه فيأكلها ! شيال الحمول لا بد أن يفعل هذا وإلا برك تحت الحمل فلم يقم أبداً ! ..

كلامه كان مقنعاً ، لكننى مع ذلك يجب أن أحذره إن الأرض التى تصلح لأن أتمرغ فوقها مثل الحمار لأنفص نفسى ليست هى صدر شوادفى بالناكيد . إلا أنسى لم أجد مفرأ من البوح له بأصل المشكلة التى باتت تؤرقنى : أصدقائى كلهم تم القبض عليهم مع أنهم ليسوا جميعاً من المشتركين فى تدبير أى حوادث اغتيال . أعرف أن خلية دمنهور بالذات من أهم الخلايا وأكبرها ربما لطبيعة أهلها ، فلقد سمعت أحاديث كثيرة من بعض المهمين فى التنظيم يرجعون فيها كثرة عدد الصالحين فى هذه المديرية إلى كونهم فى معظمهم من أصل مغربى متجذر فى الأرض من أيام الفاطميين ، والمغاربة بطبيعتهم أميل إلى التصوف والجهادة ، لا غرو فالسيد أحمد البدوى وإبراهيم الدسوقى والشاذلى والمرسى أبو العباس والقبارى والقنائى والسيوطى والطراطوشى وغيرهم من أصحاب الأضرحة والمقامات كلهم من المغاربة الصوفيين الذين تجذروا فى مصر فبات لهم فى نفوس المصريين مقامات عالية ومكانات مقدسة ذات جلال . من هنا فإن إخوانية الدمنهوريين فى جميع أنحاء المديرية ربما كانت أعمق من غيرهم لأنها تتفق تماماً وطبيعتهم ، وهم تبعاً لذلك أعصاب قوية فى جسد التنظيم الأم ، فمنهم أهم كوادره ، ومنهم طائفة متميزة من عتاة المتكلمين هيهات أن يفلت المستمع من سحرهم وصدق صلاحهم وصفاء قلوبهم ومغالاتهم فى الإلتزام بالقيود وجهادة النفس وإخماد أطماعها وتطلعاتها وقتل مصادر اللذة فيها . وإنى قد أعترف بتصلبهم الشديد فى الذى يصح والذى لا يصح من أمور الدين والعبادات إلى حد بالغ الحدة والقسوة أحياناً على من يخضع لتعاليمهم .. لكن يصعب على الإعتراف بأنهم يقومون بشغل العصابات من قتل وتخريب وتدمير ؛ ربما لأننى ما زلت أعيش ها هنا بعقلية الريفى الساذج السليم النية والطوية .. فليكن أمرهم ما يكون لكننى لا أنسى أن منهم من كان يعطف على ويساعدنى على أمور المعاش دون أن يكلفنى من أمرى عسرا بل حتى دون أن يلزمنى بالإشتراك فى التنظيم ..

هكذا أنهيت كلامي لشوادفى . فحينئذ اعتدل واندمج فى تفكير عميق ؛ جعل يلف سيجارة ؛ أشعلها وسحب الأنفاس بعمق ؛ ثم شوح قائلاً بلهجة من ينبهنى إلى موضوع طال الفصل فيه مع أنه محسوم من الأساس :

- " يا أخانا إن وداد الغازية والبورى وسيد زناتى ورمضان عريجة وقطيطة وقوت القلوب الشامية ودميانة كلهم ليسوا مثلك محتاجين لمساعدة الإخوان المسلمين !! إنهم إخوان مسلمون من حالهم بغير أن يكونوا أعضاء فى جمعية الإخوان المسلمين !! ألم تأخذ فى المدرسة قرآنا يقول إن الله سبحانه وتعالى يكره الأحزاب والشيعة ؟ دعك من مثل هذه الحجج التى تداوى بها كسلك !! الذين ذكرتهم لك يقلبون عيشهم بعرق الجبين ولا أحد منهم إلا ويبيت متعشياً فى أمان الله !! أنت عدم المواخذه يا أخانا تبحث عن سلاسل تكتف بها نفسك !! لم يكفك أنك جالس فى مطرحك الضيق لا تتحرك بل تجئ بسلاسل من حديد تربطها فى عنقك !! إن التعليم لمثلك مفسدة يا أخانا !! وها أنت ذا فسدت فى التعليم وانتهى الأمر فهل تقضى بقية عمرك تبكى على شهادة لم تنلها بسبب شراسة أخلاقك وتعديك على معلمك ؟ من قال إنك مظلوم سواك ؟ فضها سيرة واشتغل أى شغل يأتى بنقود فالشغل ليس عيباً مهما كان منظره إنما العيب أن تمد يدك لتسجد أو تسرق !! يا أخى فلتسرق ولكن بصنعة لطافة دون أن تمد يدك للنشل !! إفعل مثلما يفعل الكثيرون !! هل تظن أن كل رائج بالمال جاء به من عمل شريف ؟ بالعكس يا أخانا فكلما كثر المال فى يد الشخص كان دليلاً على قلة شرفه !! أنت تؤمن بالمثل القائل عن بلدنا إنها بلد بتاعة شهادات وأنا أحب أن أرى من ألف هذا المثل الكاذب لأضربه جزمين على بوزه !! نحن بلد لا قيمة للشهادات فيها حتى شهادة أن لا إله إلا الله يقولونها برو عتب !! إسمع هذه الحكاية البسيطة : فى نجع مجاور لبلدتنا فى الصعيد الجوانى كان يوجد رجل غلبان يدعى أبو رزق حاله مثل حالك مفلس على الدوام وبوزه فقر ونحس ولهذا أطلقوا عليه اسم أبو رزق! من فقره ونحسه تزوج وأنجب وهو بغير عمل ولا صنعة! فلما نخ ظهره تحت الحمل الثقيل ذهب لواحد من عائلته فى الفرع الغنى فتوسط له عند القسيس كى يعينه فراشاً فى الكنيسة ! سأله القسيس هل تجيد القراءة والكتابة ؟

قال نعم ! هل تجيد عمل كيت وكيت ؟ قال نعم ! هل تستطيع الحضور كل يوم في الساعة الفلانية وتنصرف في الساعة الفلانية ؟ قال نعم !! فأمر بتعيينه في الحال لأنه سينفع الكنيسة في أمور كثيرة ! لكن القسيس وهو يوقع قرار التعيين توقف فجأة وسأله : أظنك تحمل الشهادة الإبتدائية ؟ فبوغت أبو رزق وقال : لا والله لم أحمل شهادة أبداً !! حينئذ طوى القسيس أوراقه وقال : متأسف يا ولدى فالقانون عندنا أن أى موظف لا بد أن يكون يحمل على الأقل الشهادة الإبتدائية !! فمضى أبو رزق مغناظاً يندب حظه التعس !! كانت امرأته أشطر منه وأذكى وكانت تشتغل دلالة تشتري الأشياء بالتقسيط وتبيعها للناس في البيوت بالنقد الفورى ! أخذته ورحلت به إلى بلد أخرى لا أحد يعرفهم ! هدفها أن يتخلص زوجها من نحسه !! دربته على شغل التجارة ! أنت وغيرك من التجار الكبار يمدونه بما يطلبه من بضاعة يسدد ثمنها بعد أن يبيعها ! خذ وأعط يصير المال مالك هكذا آمن أبو رزق بهذا المثل فطبقه على نفسه فأصبح صاحب رسمال كبير يملكه غيره وينتفع به هو !! بيعة في أثر بيعة إفتتح دكاناً ! أصبح للدكان مخزناً ! المخزن اتسع وفاض ! صار للدكان فروعاً في كل البلاد ! بات أبو رزق من أصحاب الأموال !! ثم من أصحاب العقارات والأطيان والألقاب والمعارف من عليه القوم وحكام البلاد !! يمشى وسط حرس كبير ، وعربة تجرها الخيول المطهمة ! وأرصدة في البنوك ! أصبح يتبرع لفعل الخير ويتبنى الكنائس والمساجد يعشقه المسلمون وصار عندهم فرحة بكشك !! إستقبلته الكنيسة التي طردته من جنتها فذهب ليزورها ويتبرع لها !! إستقبلته الكنيسة باحتفال كبير ! القسيس نفسه ألقى خطبة في الإحتفال حممت الرجل بماء العطر والطهر الربانى المبارك !! وحينما ظهر للقسيس أن سعادة الباشا هذا هو نفسه أبو رزق الذى جاء ذات يوم يطلب شغلاً داعبه قائلاً : ولماذا لم تفكر فى الحصول على شهادة يا سعادة الباشا وهى سهلة عليك ؟ فضحك أبو رزق وعلق على المأى بقوله ساخرأ : لو كنت أحمل شهادة لكان زمانى الآن فراشاً فى الكنيسة !! وهكذا أمرك أنت أيضاً يا أخانا ! تريد أن تصبح فراشاً فى الكنيسة وتندم على ضياع الفرصة !! إسمع يا أخانا ! تريد من غد أن تجئ لتحاسبنى فتدفع ما عليك من شهور طويلة ويبقى معك ما تفتنظز به وتنغغ نفسك ؟! دعنى

أتصرف! بشرط أن تكون لينا! تملح! تكبر سخك! هل البورى مفتوح أكثر منك؟ نعم! هل هو أجدع منك وأذكى؟ إنه ملحاح ولا يربط نفسه بأى أوهام مثلك! لقد تزوج ووداد واعتبرها مشروع شغل!! سيشتغل مع سيد زناتى هو ووداد يصبحان من ضمن عدة الشغل عند سيد زناتى! سيكسبان الذهب!! أنت أيضاً يا أختانا تستطيع أن تكون عدة شغل عند سيد زناتى!! أنت لون من العدة يمكن أن يتفوق على جميع الألوان! سيفرح بك سيد زناتى ويعطيك عمولة كبيرة! وكلما أظهرت نشاطاً يزيد فى العمولة ويجعلك من المقربين إليه! ترجع آخر النهار من شغلك تجهز لك العشاء من الفراخ المحمرة واللحم المشوى وتسكر معه بالخمر التى يقطرها بنفسه لنفسه!! هيه! ماشى!! إتفقنا!! لاتهز رأسك وتدلبل أذنيك كالخمار الحرون! قل نعم أو لا!!..

- " نعم! " ..

هكذا وجدتنى مضطراً لنطقها بخرج وليكن ما يكون . فلأجرب هذا العمل لأعرفه على الأقل ؛ فإن الرغبة فى التجربة عندى أقوى من الرغبة فى الكسب أو العمل فى حد ذاته فى هذا المجال بالذات . ما أدهشنى حقاً هو حماسة شوادفى ، الذى ما صدق أن نطقت بنعم حتى انتفض قائماً ؛ ولأول مرة أراه يغادر المصطبة قائلاً :

- " قم بنا! " ..

ثم مضى أمامى يجر ساقيه ويتبختر كخرج حمام من الطين الأسود ، يتمايل يمنة ويسرة فى طريقه إلى حجرة سيد زناتى .

البلايص

حجرة سيد زناتى متحف صغير مبهر. هى أوسع حجرة فى الوكالة كلها ، ولا بد أنها كانت مصممة لغرض إدارى ، إذ أنها فضلاً عن اتساعها تتكون من ثلاث طوابق واطئة بعض الشيء ؛ الطابق الأرضى للنوم وكذلك العلوى ، أما ذلك الأوسط فقد خصص لقعدة سيد زناتى وسهراته واستقبال أفراد العدة عند التحاسب. جدران الحجرة كلها مغطاة بستائر من الكتان وردية اللون مغسولة جيداً، تتخللها شرائح من المرايا كصالون الحلاق تعطى الحجرة عمقاً واتساعاً كبيرين ، هناك صورة لجمال عبد الناصر باللباس العسكرى أثناء توقيع اتفاقية الجلاء مبروزة بماء الذهب ومعلقة فى حائط الصدارة . فضاء الحجرة مزين بالورق الكريشة الملون فى عناقيد وافرغ وأشكال متكورة كالثريات والفاكهة . على الأرض كليم نظيف ، فوقه مجموعة من الشلت الصغيرة والكبيرة والمساند . الجو معبأ بروائح التبغ المحترق والمحمص والكحول والسمن البلدى المقدوح والتقلية ..

كان سيد متربعا فى الصدارة فوق شلثة ومسندين ، كل مسند عبارة عن فخذ هيفاء كالسنيورة براقه العينين ، هاتان هما زوجتاه الحديثتين الصغيرتين . على مقربة من الباب ترربع - متقابلتين - سنيورتان سميرتان تتألق فى وجهيهما نضارة مدهشة لا تتألق إلا فىمن يعتبرن جماهن شيئاً ثميناً يتعهدنه بالتربية والتغذية بعيداً عن مشاكل الحياة. أعرف أن هذه القمحية اللون المكحلة العينين تحت مقصوص شعر الجبين المتسرب من تحت المنديل أبو أوية المشغول بالترتر والقل ، بوجهها المستطيل ككوز العسل، وصدرها المشدود على وترين عريضين تحت جلباب من الشيت المشجر بألوان زاهية ؛ هى زوجة الأولى هنية ، التى تعتبر أساس شغلته وأول عدة اشتغل بها فى حياته ؛ يقال عريشية الأصل مدربة على شغل أهلها كقصاصة أثر . أما هذه الجالسة قبالتها كالفهد بوجه دائر مورد مكتنز الملامح واسعة الفم دقيقة الأسنان يلمع فى شديقها الجميلين بريق سن ذهبى ، سائبة الشعر ينساب على كتفيها فى جدائل سوداء فكان وجهها مشكاة مضاعة مشكوكة فى خيط خفى بين سحب من الظلال السمراء ، كل تفصيل فى جسدها بض متخثخ ، يكاد يتفجر فى غير امتلاء

مع ذلك ؛ فإنها زوجه الثانية ستات ، التي أثبتت أنها العدة الحقيقية ؛ تتميز بأنها واسعة الرزق باستمرار ، تسيل لعاب العمدة ومشايخ البلاد وأعيان المدن وكبار تجارها ؛ تعرف كيف تدحلبهم فتضحك على ذقونهم تسقيهم الأونطة ؛ هي التي تكفلت بتدريب الزوجتين الحديثتين وقد اختارت واحدة منهما ليتزوجها سيد زناتي أو كما يقول أهل السينما إكتشفتها وجلبتها ، تلك هي الجالسة على يمينه الآن واسمها إكرام ، واسم الدلع كرملة . أما الثانية على يساره - وهي الرابعة - فقد اكتشفتها هنية في سوق الحياة فاختارتها زوجاً لسيد زناتي أي ألحقتها بالعمل ، واسمها جنات واسم الدلع جنونة . لاتغار إحداهن من الأخرى ؛ فالزواج بالنسبة لهن جميعاً هو مصلحة يشتركن في بنائها مع سيد زناتي . إنهن ذكيات مفتحات دائرات بقدر ما هن فائنات موهوبات ؛ يعرفن أن العدة يجب أن يكون عائلة واحدة تحمي بعضها وتحنو على بعضها ؛ وهذه العائلة يستحسن بل يجب أن تكون بوثيقة شرعية ..

نهضوا جميعاً في استقبالنا باهتمام شديد . سلمنا عليهم واحداً واحداً . تربع شوادفي فيما بين إكرام وستات ، فيما تربعت أنا بين هنية وجنات . ما أن جلسنا حتى لاحظت وجود وابوري غاز مشتعلين بنار هادئة أمام كل من هنية وستات ؛ على الوابور الذي امام هنية طاسة كبيرة ملانة بالتبغ عرفت في الحال أنه فرط أعقاب السجائر التي لا يتكيف سيد زناتي إلا بدخانها رغم وجود أكثر من علبة بلمونت كبيرة مطروحة على الأرض تدخن منها كل من جنات وإكرام . على نار هادئة راحت هنية تقلب في التبغ بملعقة لكي تحمصه فتطرد من جوفه بقايا أنفاس الآخرين ورائحة الصنان والزفارة الناتجة عن سحق بعض الأعقاب في الأرض بالأحذية . أما الوابور الثاني أمام ستات ففوقه حلة متوسطة الحجم فيها ماء حتى الحافة ؛ في قلب هذا الماء في قلب هذه الحلة حلة أخرى صغيرة عائمة ملانة بالسبرتو الأحمر ؛ فوق هذه الحلة مصفاة ؛ فوق المصفاة غطاء ؛ على وهج النار الخافتة جداً يزداد غليان الماء في قعر الحلة الكبيرة فتشتد الحرارة على الكحول الأحمر في الحلة الصغيرة فيتحول إلى بخار يتصاعد فيلتحق ببخار الماء فيمتزج به في طلب اللجوء إلى غطاء الحلة الأملس فيعيد غطاء الحلة تسليمه إلى موطنه من جديد

يسقطه قطرة فقطرة في قلب الحلة الصغيرة وقد تحول إلى ما يشبه صفاء اللؤلؤ ؛ فإذا ما ارتفع صوت اصطكاك الحلة الصغيرة بالحلة الكبيرة علامة نفاذ الماء أطفئ الوابور وتركت الحلة حتى تبرد ، ثم تجئ ستات بزجاجة من زجاجات الويسكى ، وبواسطة قمع صغير تعبئ الكحول الأبيض المقطر بعناية في الزجاجة ؛ ثم توضع مع الكئوس أمام سيد زناتي بجوار الفول السوداني المقشر والترمس والخس والمش ؛ ليشرّب ويدخن حتى آخر الليل ، حيث تبقى من عليها الدور في المبيت في حضنه هذه الليلة في حين تنصرف الأخرى كل إلى سريرها ، إذ أن هنية تحضن من اكتشفتها وكذلك تفعل ستات . هكذا يطلع النهار على سيد زناتي وهو في مطرحه هذا كملك الملوك في حضنه سنيورة تسقيه شهد المحبة ويروي ظمأها بالحنان والفتوة . فما تكاد الشمس تبعث رسلها إلى فناء الوكالة مارة على سيد زناتي في قعدته هذه من خصاص الشباك المطل على الشارع ؛ حتى يكون جميع نسوانه قد صبحون واغتسلن وتزين على سنجة عشرة ، تحولن إلى سيدات من أبناء البيوتات الكبيرة ، تفوح منهن روائح عطر ثمين من ماركات شهيرة غالية الثمن كضرورة من ضرورات الشغل ؛ يلمع الذهب في صدورهن ومعاصمهن وأصابعهن وأذانهن . بعدها بقليل يهل الرجال بقية العدة ، ما بين بك أوجه من جلالة الملك، أو أفندي من موظفي الحكومة، أو عمدة من عليه القوم أو معلم في هيئة مقاول أو شهبندر التجار؛ كل واحد من هؤلاء سيتسلم واحدة منهن، ليسرح بها على باب الله؛ لكل ثنائي خط معلوم وهيئة مرسومة بل وحوار محفوظ بل وخريطة للحركة مخطوطة ، كل ذلك يتكره ويخططه سيد زناتي بعقريّة فذة فيما هو جالس يسكر ويلهو ، يحسب كل خطوة من خطوات العدة بل يكاد يحدد بكل دقة كم جنيهاً سيعود به هذا الثنائي أو ذاك تبعاً لطرافة فكرة كل ثنائي أو تراء موقفه وقدرته على استقطاب المشاعر والخواطر المقنعة . بمجرد اتكالمهم على الله تكون الجرائد والمجلات كلها قد سربت إليه من حديد شبك الشارع ، فيضطجع على أي سرير فيقرأها كلها بحرفنة ووعي ، ثم يستغرق في النوم العميق حتى الثالثة بعد الظهر فيصحو كالحصان ، ينزل إلى الطابق الرضوي فيجد أن من كانت في حضنه قبل ساعات قد أعدت له الطست وحلة الماء ، فيستحم ويرتدي أنظف الثياب ، ويخرج ليتسوق

الطعام من فراخ ولحوم وخضروات وفاكهة وسجائر وكحول ، ليعود فيشمر ذراعيه كأشطر السيدات فيندمج في تنف ريش وتخريط بصل ودعك طماطم وغسل ارز وقدح سمن ، حيث يحلو له أن يتابع نضج الطبخ على البوابير ملطفاً حرارة الجو بكأس من الكحول الأبيض المقطر ، ويمز بقضيمات منتزعة من الحلل ، منه مز ومنه اختبار لاستواء الطبخ .

.. ما تكاد الشمس تسحب سفرائها من فناء الوكالة تمهيداً لقطع العلاقات بسيادة الظلام حتى تكون العدة قد شرعت تتوافد عائدة ، ثنائى بعد الاخر ، فى مواعيد منضبطة ، لا بد ان يسمع الجميع أذان المغرب فى هذه الحجرة ؛ وغير مسموح بهامش للتأخير أبعد من أذان العشاء . الثنائى العائد ما أن يصل حتى تفتح المرأة حافظه يدها فتدلق الغلة على منديل مفرد أمام سيد زنائى ، حيث يرتبها فيما هو يجمعها فى حركة واحدة ، يعدها بسرعة هائلة ، يشرد قليلاً كأنه يراجع هذا الرقم على رقم قدره فى ذهنه للمشوار ، فى العادة إن لم يجى الرقم كما توقع فإنه ربما زاد قليلاً أو كثيراً . يعيد عد النقود فى ترتيب آخر حيث يفصل عنها قيمة العمولة فيطويها كالسر يغمز بها الرجل قائلاً : ليلتك فل . يفصل مبلغاً آخر هو عمولة زوجه التى رافقت الرجل ، يضعها فى حيب من حافظته الجلدية الكبيرة ؛ يضع الجزء المتبقى فى حيب آخر . ما أن يكتمل جمعهم حتى تكون الطبلية الكبيرة قد امتدت بعيد من الأطباق يتصاعد منها الدخان الشهى ؛ يأكلون ، يدخنون ؛ يحتسون الشاي . ثم يبدأ الشطر الأول من السهرة ، يسميه سيد زنائى بالفرشة ، قوامه حشيش وأفيون ، هنية هى الخبيرة بأمور الرص والتوليع والتسليك والتحصية والتعسيل لأنها حشاشة قرارية ومتولية لحسبة الحشيش فى الحياة المزاجية لسيد زنائى. غير أن القعدة ليست تحشيشاً وأفينة فحسب ؛ إنما لها قوام يصلبها ويبدأ فى العادة مع أول حجر ، حيث يجى ورق اللعب الجديد دائماً ، علبتان مضمومتان للعبة الكونكان على مدى حوالى ثلاث أو أربع ساعات لا بد وأن تنتهى وقد عادت العمولات كلها من جيوب الرجال إلى حيب سيد زنائى . غير أن سيد ولد مجدع ، لا يرضيه أن ينزلوا من عنده بلاييص لا يملكون أحجرة الحنطور أو ثمن الفطور، قرض كل واحد جنيهاً يسترده فى سهرة الغد . ثم إنهم يشرعون فى الإنصراف

مع دقة الساعة الحادية عشرة ، ليخلو سيد زناتى بنسائه الأربع فى قعدة خصوصية ، حيث يبدأ الشطر الثانى من السهرة ، قوامه الكحول الأبيض المقطر ..

من حسن حظنا ، شوادفى وأنا ، أن جئنا فى بداية الشطر الثانى من السهرة . تذوق شوادفى كأساً وضعه أمامه سيد زناتى فتقلصت ملامحه من شدة حرارة الكحول الشارخ فى الحلق ، ثم قال :

- " جئتك بعدة تصلح طبلة وطاراً معاً !! لك أن ترى فيه الطبلة أو الطاراً! أخونا هذا ابن حلال على ضمانتى ! ومفتح ودابير ! يريد أن يأكل عيشاً بعرق جبينه ! عنده مخ نظيف ! كان فى المدارس وأوشك أن يصير معلماً لولا سوء الحظ! مقصودى أنه متعلم وسوف ينفعك !" ..

صرت هدفاً لغابة من العيون الساحرة راحت تطوف بجسدى كله متمعنة فاحصة ، يتصاعد منها الترحيب مخلوطاً بزهو وإثارة وقليل جداً من الإمتعاض . قال سيد زناتى وهو يسلط عينيه فى عينى :

- " ياترى هل يعرف شغلنا؟! إن شغلنا صعب لا يقدر عليه أى أحد!! المسألة ليست مسألة تعليم أو مدارس!! إنها توفيق من الله!! أهم شئ فى شغلنا أن الانسان منا يكون فى وجهه القبول! القبول اساسى فى شغلنا! طالما فى وجهك القبول من الأساس فإن الناس يصدقونك فى كل ما تقول وتفعل حتى لو كنت كذاباً أفاقاً! وحتى وهم يعرفون أنك تسرح بهم!!" ..

قال شوادفى مشيراً بأصبعه إلى وجهى كنجاس متودك يجيد عرض بضاعته :

- " أخونا فى وجهه مائة قبول! أنظر فى جبينه ترى شكل الهلال!! وأسنانه مفلوجة من الأمام كما ترى!! أى أنه محظوظ بإذن الله!!" ..

مرة أخرى راحت العيون تطوف بى تتفحصنى تتلکأ عند جبينى وثرغى ، فيما رحى أتبسم فى شعور بالخرج . قال سيد زناتى :

- " أهلاً به إذا كان معذوراً فى قرشين فإن جيبى تحت أمره!! ولكن عليه أن يكون محباً لشغلنا هذه أولاً حتى يشتغلها . بمزاج رائق كهواية محببة! فلو أحبها سيجد أفكاراً كثيرة يبيعه للناس بالذهب!! شغلنا شغلة كلام حلو منسق! وتمثيل

أحلى ! إن كنت عدم المواقظة موهوباً فى هاتين الناحيتين فإن مستقبلك معنا عسل
وقشطة ! فما هى مواهبك؟! ..

رد شوادفى بسرعة :

- " إن أحنانا عضو فى فريق التمثيل فى الحرس الوطنى ! ومغرم بتأليف
القصص والروايات ولديه كلام حلو ! والأهم من ذلك عنده رغبة فى العمل!!
جربه وأنت مغمض العينين وسوف تشكرنى بعد ذلك!!" ..

إنبسطة ملامح سيد زنائى وشع البريق الفضولى فى عينيه الواسعتين طويلتى
الرموش :

- " دعنى إذن أفكر لك فى رسماية ! ولكن ماذا كنت تشتغل فى الأيام
الفاتئة؟! " ..

تكفل شوادفى بالرد :

- " كان له صديق تاجر قماش من الإخوان المسلمين ! فكان يساعده فى
الذكان فيعطيه ما فيه القسمة!!" ..

شدتنا صبيحة استحسان قادمة من ناحية الباب ، فإذا هى ستات وقد كررت
صبيحتها :

- " بس ! جاءت الفكرة يا سيد زنائى ! الفكرة جاءتنى ! حلو ! الإخوان
المسلمين ! الجدع ابن حلال فعلاً يا شوادفى ! أنا التى سأدربه ! إتركوه لى أنا !
سأسرح معه ! سأقول لك الفكرة يا سيد وأنت تلفها وتطبخها ! أما الجدع
فسيعرف الفكرة عند التنفيذ!!" ..

شوح شوادفى قائلاً فى تفاؤل :

- " الحمد لله ! الخير على قدوم الواردين ! " ..

وتراجع سيد زنائى بظهره إلى المسند ساحباً نفساً من السيجارة :

- " خلاص ! على خيرة الله! " ..

عدلت ستات نفسها ناظرة فى تتأملنى بدقة كأنها تقلبنى التقلبية الأخيرة قبل أن

تشتزبنى :

- " حبيبى ! لى طلب بسيط هل تفعله من أجل خاطرى؟! " ..

- " طبعاً طبعاً !! " ..

هكذا قلت مستشعراً الصدق في لهجتي ، ثم أضفت :

- " لإمرى ! " ..

تحول وجهها إلى ابتسامة مضيئة بنور أحمر فاتن ، ثم هزت دماغها مطوحة
بفصل من شعرها إلى الوراء ، وأردفت :

- " عندك ملابس نظيفة طبعاً ومحترمة ؟ " ..

- " عندي بعضها ! يمكن أن أغسلها ! " ..

- " لا ! سيد زناتي يشتري لك بذلة كاملة محترمة من سوق العصر ! سوق
الكاتنو فيه ملابس يبيعه البكوات والأفندية بعد لبسة واحدة ! تشتري لك منها
واحدة أو اثنتين بفلوس قليلة ونحاسبك عليها مما سيكرمك الله به إن شاء الله !
فاهمني يا سيد يا زناتي ؟ لا بد أن تشتري له بذلتين من سوق الكاتنو ! على
مقاسه وآخر شياكة ! بقميص أفرنجي وكرافطة !! و.. ممكن تنظر لي يا جدع ؟ " ..
نظرت إليها محاولاً اعتقال ضحكة ، لكنني كنت مستمتعاً جداً بهذا المشهد
الذي بدا لي طريفاً مسلياً . إستشعرت لذة فائقة من تركيز النظر في عيني هذه البطة
الواسعتين المكحلتين ؛ مصدر اللذة فيما شعرت أن عينيها كانتا تمتصان نظري
تتشربان نظراتي في استيعاب واسع الحدقتي ن؛ فشعرت بلذة إضافية لمجرد تصوري
أن القدر ربما يدبر لي مع هذه المرأة الشهية الجذابة جولات مشيرة . أسبلت عينيها
قائلة في حسم :

- " أمامك عشرة أيام لنبدأ العمل !! " ..

قال شوادفي مشوحاً :

- " عشرة أيام بحالها ؟ لماذا ؟ " ..

صوبت ستات عينيها على شوادفي :

- " هذا شغلنا يا شوادفي ! العبارة ليست جهجهون ! الجدع لا بد أن يربى

لحيته !! " ..

- " يربى لحيته ؟ سيشتغل فقيهاً أم طريباً ؟ " ..

تجاهلته ستات ونظرت لي :

- " هذا هو طلبى عندك ! من الآن لا تحلق ذقنك ! بعد عشرة أيام تعال وأنا أنسقها لك أجعلها على شكل ذقون الإخوان المسلمين ! ويكون سيد زناتى اشترى لك البذلة ! رح معه إلى سوق الكانتو بعد يومين ثلاثة ليقيسها عليك ! " ..
قال شوادفى :

- " ما رأيك يا أخانا !؟ " ..

- " موافق طبعاً ! " ..

فقال سيد زناتى :

- " خلاص ! قابلنى بعد غد لنشترى لك أجمل بذلة تعجبك وتعجبنى ! " ..

فانبرى شوادفى :

- " إذن أسمعونا الفاتحة ! " ..

أوشكت ضحكى على الانفجار ، لكننى اعتقلتها بشدة ، حينما رأيت الجميع - للهشتى - قد رفعوا أكفهم نحو السماء واندججوا فى قراءة الفاتحة بورع متقن كأنهم فى المسجد إثر انتهاء الصلاة . مسح الجميع بأكفهم على وجوههم ، ثم إن شوادفى وجه الكلام لى قائلاً إن الفاتحة تقصم ظهر الخائن ، فأومأنا جميعاً بالموافقة على قوله ، وشربنا نخب الفاتحة كل واحد رشفة من كأس واحد . وكانت الحجرة قد بدأت تبدو حميمة جداً ، بدرجة سمرتنى فى قعدتى كأننى لا أبغى انصرافاً ؛ لولا أن شوادفى رمانى بنظرة تحتية ذات معنى فهمت منه أن الجماعة ورائهم شغل فى الصباح الباكر فضلاً عن أن سيد زناتى ورائه مزاج لا بد أن يشوفه قبل انبلاج الفجر . نفضت نفسى قائماً ، سبقت شوادفى إلى الباب فالسلم فالفناء متجهاً إلى حجرتى مفعماً بمشاعر كثيرة مبهمة مشوية بنوع من القلق ؛ إلا أننى ألاحظ أنى استعذبها ولا أرحب بالتفكير فيها ؛ ربما لأننى كنت متحمساً للتنفيذ فى حقيقة الأمر . والشئ الوحيد الذى كنت واثقاً منه هو ذلك الهدير الضاحك الذى انبرى يهدر فى صدرى بضحكات صاعقة ترجنى رجاً ؛ فأيقنت أنها لا بد أن تكون ضحكات ذلك المسمى بالشیطان .

الإهاب

شكل وجهى فى المرأة أزعجنى وأثارنى ؛ كدت أنكر أنه وجهى ، حيث كبرت لحيتى إلى حجم عقلة الأصبع فاخفت بشرتى الشقراء تحت فروة خشنة من الشعر الضارب إلى الشقرة كفروة الخروف، تبدأ بشريحتين بجوار الأذنين تتسعان على الصدغين والخدين والذقن وواجهة العنق. وكنت أجد صعوبة فى احتمالها وأشعر بضرورة التخلص منها وأكف عن الهرش فيها؛ لكننى سرعان ما نسيت حملها شيئاً فشيئاً حتى بدأت أعتادها..

وحتى بعد أن كبرت لحيتى لم أكن قررت بعد ما إذا كنت سأقبل الإنتماء إلى طائفة كهذه من النصايين والمحتلين هم فى الأصل من السفلة الذين من المفروض أننى ذدهم اجتماعياً وأخلاقياً وأدبياً وما إلى ذلك من تعبيرات تفتننى! فالواقع أننى منذ مدة طويلة وأنا تراودنى الرغبة فى إطلاق لحيتى ولو على سبيل التجريب أو التمرد على شكل المؤلف المثير للسأم ؛ ولم يكن يمنعنى من هذا سوى أننى أرى كل من هب ودب يطلق لحيته لينصب بها على الآخرين أو يعلن انتماءه إلى طائفة معينة ؛ ثم إن إطلاق لحيتى سيدمغنى بطابع الإخوان المسلمين فأعرض للترحى ووجع الدماغ بغير داع . إلا أننى فرحت بمنظر لحيتى الطويلة، فقد أضفى على وجهى طابع الصلاح رغم عدم وجود زيبية الصلاة فى جبهتى؛ كما أضفى على شخصيتى مظهر الفنانين والشعراء والأدباء والفلاسفة..

سيد زناتى إهتم بمراقبة لحيتى بانبساط وتفاؤل، وقال إن اللحية قد أكدت له - بحسن منظرها - أننى أنحدر بالفعل من سلالة طيبة إذ أن شكلى هكذا يذكره بشيوخ كثيرين من أهل الصلاح الحقيقى. إمتدت الأيام العشرة إلى شهر كامل حتى باتت لحيتى غابة كثيفة ؛ فاصطحبني إلى سوق الكانتو ، فاشترى لى بذلة كاملة لم أكن أحلم بأناقته طول حياتى السابقة ، من تلك البذلات التى أراها على أجساد عليه القوم من البكوات ومشاهير الناس ، بتفصيلة محكمة الأناقة متسقة على جسدى بالمليمتر . ومضينا فى ممر السوق الحافل على الجانبين بشتى أنواع الملابس المعلقة على مشاجب وحمالات ، قد تم تجديدها بوسائل جهنمية جعلتها تبدو

وكانها خارجة لتوها من المصنع . طوائف من الناس يقفون في قلب الطريق فيخلعون ملابسهم علناً ليقبسوا بعض الثياب ينخرطون في صياح وضجيج وصخب يدخلون في مساومات وفصال وحلف إيمان مغلظة . هاهنا يتم تغيير الأشكال وربما تحويلها : فلاحون خشنون حفاة يتحولون إلى أفندية ذوى أناقة تجذب الإحترام ؛ وشبان واولاد بلد يتحولون إلى أبناء ذوات بقمصان نصف كم بتفصيلات أجنبية ؛ آخرون يتحولون إلى ما يشبه البلياتشو . هنا عالم العجائب ، أغرانا بشراء معطف من الجبردين لى وواحد من الجوخ لسيد ، مع قميص من اللينوه وآخر من البوبلين ، ورباط عنق ، وجوربين ، وحذاء من الشمواه ؛ كل ذلك لم يتكلف خمس جنيهات ، لدرجة أن سيد زناتى أعطانى - بالمره - ثلاثين قرشاً ليكون حسابه عندى خمس جنيهات على القفل . خلعت ملابسى القديمة لأقيس هذه الجديدة فى قلب السوق الحافل وسط أعداد لا تحصى من البشر دونما حرج ، حيث يتعاون جميع هؤلاء البشر على أن يتم كل هذا وسط الزحام فى سهولة ويسر عجيبين ؛ حتى وأنت تقيس الهدمة سيشارك أكثر من واحد من الزبائن الواقفين فى إبداء الرأى تطوعاً : تمام ! لائقة ! مفصلة عليك ! مثل الكعكة ! يا حلاوة ! نصيبك ! حظك . بمب ! مبروك ! .. ثم إنك إذا اختلفت مع البائع حو السعر فلا بد أن يتدخل البعض لإنهاء العراك الفصالى بكلمات ملطفة ربما حلت الإشكال بالفعل : شوية عليك وشوية عليه ! نقسم البلد بلدين ! إعطه كذا ! .. وهكذا رأيتنى فى مرآة البائع الواقفة بجواره كالباب المفتوح أفندياً ابن ناس . أخيراً دخلت فى الإهاب الذى طالماً وقفت أمامه صاغراً من المدرس إلى الطبيب إلى المدير إلى وكيل الوزارة إلى كل من أذاقونى وأهلى صنوف العسف والقهر والذلة . فى الحال استيقظ الغضب فى صدري دفعة واحدة كأن جميع محاسبه قد سابت بفعل تلف لا إصلاح له ؛ شعرت أن قراراً يتشكل فى رأسى بأننى لا يجب أن أخلع هذا الإهاب السلطوى المهيب ما حييت ؛ بالحق أو بالباطل ، مهما كانت الظروف والأحوال . وقال صوت فى مؤخرة رأسى إن بلادنا لا تطلب من أحد شهادة أو سنداً قانونياً أو عرفياً لأى يفعله أو هيئة يضع نفسه فيها حسب مزاجه ، إذ أن كل شىء فى بلادنا يمكن أن تشتريه ! إما بالنقود وإما بالنفوذ أو بأى سلطان ، فما بالى لا أتشبث بإهاب يرضى غرورى بغض النظر

عما إذا كنت استحققه أو لا ؛ لقد رأيت ، أو لعلى سمعت قولاً مأثوراً ، معناه : إذا كنت فى بلد لا تؤمن بالله فليس هناك تهمة بالكفر ؛ وإنى فى الواقع لزعيم بأنى فى بلد لا تؤمن بالشرف إلا من قبيل الدعاية والمنظرة والفسخورة الكذابة ، فليس ثمة ، بالتالى ، تهمة بالعار ..

وهكذا مضى سيد زناتى بجوارى كأنه خفىرى الخاص أو ناظر زراعتى ، يحمل ثيابى القديمة ، يتورد وجهه ببسمة كبيرة مضيئة مزهوة كأنه أنهى من رسم لوحة فنية ناجحة وهاهوذا يطلب رأى الجماهير فيها ، يكاد يوجه الشكر والتحية لكل من يرمقنى بنظرة إعجاب بأناقتى . ولما رأتنى ستات على هذا المنظر لم تتمالك نفسها من الفرح فأطلقت زغرودة بغير صوت إذ اكتفت بوضع كفها كالمظلة على فمها ولعبت لسانها كالمكوك فى غبطة وسرور واضحين ؛ ثم أمرتنى بخلع هذه الملابس والإحتفاظ بكويتها لنبدأ بها مشوارنا المنتظر ..

بعد أن شاهدت حلقة لحساب الليلة ، وجلسة القمار المعتادة ، وانصراف كل أفراد العدة ؛ بدأت سهرتنا الخاصة مع نشرة أخبار الحادية عشرة ؛ حيث عجزت عن رفض دعوة سيد زناتى على كأسين من الكحول الأبيض المقطر أو ماء جهنم كما يسميه ؛ إحتملت لهيبتها الشارخ لأنى تعشيت معهم عشاءاً دسماً مشبعاً . جاءت ستات بأدوات الحلاقة الخاصة بسيد زناتى فإذا هى فى غاية النزاهة ، شفرة كشفرة الحلاق نظيفة ماضية ، فرشاة ذات يد من العاج كبيرة ، أنبوبة معجون ، طاسة نحاسية ، شريحة من جلد السيور لشحذ الشفرة . للهشتى لاحظت وجود بعض أعداد من مجلة الدعوة ؛ أخذت ستات تتصفحها حتى جاءت بصورة بعرض الصفحة للشيخ حسن البنا بطربوشه القصير والنظرة الحاملة الوادعة فى عينيه ؛ راحت تتأمل فى لحيته بدقة ؛ ثم ربتنى أمامها ، فردت الفوطة على صدرى ، رغت الصابون بالفرشاة فى الطاسة ؛ رسمت بالفرشاة خطوطاً على وجهى حددت بها شكل الذقن كما تريدها ، تنظر فى الصورة ، وفى وجهى نظرة ، تمسح الصابون بإبهامها عن بعض البقع . فلما نجحت فى تحديد الخريطة التى سيتم إزالة الشعر عنها جعلت تكثف الصابون فوقها ، وبدرية هائلة راح معصمها المتختم الختقن بالدم والإثارة يروح ويحجى فوق خدى وأسفل عنقى وبجوار أذنى . ثم جاءت

بالمراة فصوبتها فى وجهى ، فهالنى منظرى ؛ كان صورة طبق الأصل من وجه
الشيخ حسن البنا . دهشت للتطابق بين شكلى اللحيين . لحظتها فهمت لماذا
دوخنى سيد زناى فى سوق الكانتو بحتاً عن طربوش قصير . وحين جاءت به ستات
ووضعتة فوق رأسى محاولة ضبط وضعه بحيث يظهر من تحته جانب صغير من
جبينى ، نظر سيد زناى فى وجهى بإعجاب شديد ثم شوخ بذراعه مؤكداً أننى فى
باكورة الصباح سأتكلم على الله مع ستات لنلقط رزقنا .

الكواليس

الحظة التي رسمها لنا سيد زناتي كانت واسعة الأفق ، دقيقة التفاصيل ، محكمة الأطراف ، عبقرية ، لدرجة أنه زودنا بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي ذر، التي يتردد ذكرها بكثرة على ألسنة المتحدثين من الإخوان المسلمين . دهشت جداً ؛ إذ كيف عرف سيد زناتي كل هذه المأثورات بل كيف تأتي له العلم بأصولها حتى أنه ينتخب منها هذه العناصر بالذات دون غيرها لكي نستخدمها كأدوات مساعدة نستند عليها وقت اللزوم. هاهو ذا يجري أمامنا ما يسمى بالبروفة أو التدريب ، بأن يتقمص أدوار شخصيات قد تعترضنا أو تناقشنا أو تستدرجنا في الكلام أو تدخلنا لمعرفة حقيقة أمرنا بالضبط؛ ينبهنا إلى ما يتعين علينا قوله هنا أو فعله هاهنا ، وأي الكلمات وأي الحركات تكون طوق النجاة عند استحكام المور أو تأزم المواقف..

كانت ستات أبرع مني بكثير جداً في الردود والتعقيبات المتميزة بذكاء خارق. كنت لسذاجتي أظنها وسيد زناتي لا يقرآن ولا يكتبان ؛ فلما لاحظت بدهشة بالغة صحة نطقهما للغة العربية الفصحى بتشكيلاتها الصحيحة وحروفها المفخمة خيل لي أنني أجلس مع رهط من كبار المثقفين المتنكرين . لم تطل بي الحيرة في أمرهما ؛ فسيد زناتي قابل دهشتي الواضحة بابتسامة مشرقة قبل أن يخبرني بأنه وستات من حملة الشهادة الابتدائية نظام زمان بالمصاريف حين كانت ابتدائية ذاك الزمان تتفوق على توجهية اليوم في مستوى العلوم والتحصيل واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. ثم برق في عينه كثير من التحدي وهو يشير بأصبعه عمودياً إلى الأرض قائلاً إن الحجرة السفلية فيها تلال من كتب أدبية وثقافية ومجلات ربما لم أسمع بها في حياتي رغم أنني أعتبر نفسي من المثقفين وألبس لباس الأدباء . وقبل أن أستعد لامتحانه عاجلني بقائمة هائلة من الكتب الثمينة التي قرأها - وبعضها بالإنجليزية - مرات عديدة، من روايات تشارلز دكنز وشيكسبير إلى مقدمة ابن خلدون والأمالى والبيان والتبيين وزعماء الإصلاح لأحمد أمين وقادة الفكر لطفه حسين والعبرات والنظرات للمنفلطي ؛ كما قرأ تفسير الجلالين وتفسير القرطبي ،

ودواوين أبي القاسم الشابي والشوقيات والبارودي وحافظ، وعبقريات العقاد ،
وتاريخ ثورة ١٩١٩ ومصطفى كامل للرافعي، ولديه مجلات أبوللو والكاتب
المصري والرسالة والثقافة ، فإنه - يقول - ابن شيخ يحمل شهادة العلمية من الأزهر
الشريف وما يزال على قيد الحياة في بلدتهم كفر بولين ، وأن سيد حين رسب في
الدراسة الثانوية عدة مرات رفض العودة إلى بلدتهم لأن المشنقة كانت في انتظاره
ينصبها أبوه الشديد القاسي ، خاصة أن سيد أرهقه بالمصاريف من ناحية وبكثرة
شكوى الناس منه من ناحية أخرى إذ أنه كل يوم يشتبك في خناقة أو يضبطه
البوليس باشتباه في السرقة . ذلك أن سيدا كان يسرق بالفعل ليغطي مصاريفه ،
غير أن براعته في السرقة كانت تنجيه من المهالك ، لكن ما كل مرة تسلم الجرة ؛
إذ وقع في قبضة البوليس متلبساً بسرقة دكان بقالة مع اثنين من أصدقائه ، قاموا
البوليس بشدة لكنه تغلب عليهم ؛ فكان نصيب سيد ثلاث سنوات قضاها في
الحبس ، ليخرج منه شخصاً آخراً ، نسي أنه كان يهوى الأدب والشعر على وجه
التحديد ، لكنه لم ينسى هواية القراءة فظل مواظباً عليها . وإنه ليعترف بأن القراءة
أفادته كثيراً جداً ، فيها قد شعب مداركه واستغل خياله وأصبح مدرباً على حسن
التصرف في الخروج من المآزق ..

سيد زناتي إذن هو الصورة التي أراني قريب الشبه بها إلى حد كبير جداً ؛ فهل
تراني أسير في نفس الخط وصائر إلى نفس المآل كنتيجة حتمية ؟ هنا قام زلزال في
قلبي ، فصارت الأرض تميل بي يمنة ويسره ، وصرت أحاول التماسك بأي شكل .
ثم رأيتني أسأل سيد زناتي ولكن في صيغة شبه تقريرية :
- " أنت طبعاً كنت تمنى أن تواصل الدراسة فتصبح شاعراً أو أديباً
مرموقاً؟" ..

فبثقة شديدة ، وبكل بساطة :

- " في الأول كنت كما تقول ! لكنني ما من شريد بائس قابلته في الحياة إلا
يتضح لي أنه من هواة الأدب والشعر والزجل وأنه بسبب هذه الهواية المهيبه ركبه
لبؤس فلاحصل ولا وصل ! وفي يوم رأيت بيرم التونسي جالساً على مقهى يأكل
كسرة فول ويتخايق مع الجرسون على قرش تعريفه ! كان منظره يصعب على

الكافر ولحظتها كان صوت أم كلثوم فى راديو المقهى يصدح بأغنية الأمل صارخاً
بألم : ما التقتش إليك وسيلة ! ولم يكن الجرسون يعرف بالطبع أن هذا البائس
الذى يصر على استرداد قرش تعريفه هو نفسه مؤلف هذه الأغنية الفياضة بالكرم
والنور والخير ! ولو عرف لما صدق أن هذا الرجل محتاج لهذا القرش فعلاً !! لحظتها
طلقت هذه الهواية بالثلاثة ! وأنا الآن كما ترى فل ! أعيش كما أهوى ! حر نفسي !
أضع رجلى فى عين التخين ! أكل أحسن أكل ألبس أفخر لبس أفعل ما يحلو لى !!
فاسمع نصيحتى ونفض دماغك من هذه الأمنيات الطموحة المكلفة إن كنت تريد أن
تعيش لك يومين فى أمان ولذة واطمئنان !!". ..

نبرة الصدق كانت واضحة فى صوته. ومن الواضح أنه يريد بإخلاص أن أُنجح
فى مهمتى هذه تمهيداً للنجاح فى مهام أخرى كثيرة سوف تتبعها لابد . فجأة قال
وهو يلكنزنى بكأس صغيرة من الخمر الصحيحة من قنينة زوجته الصغيرتين :
- " إسمع هذا المطلع : من غير ما تتكلم .. عرفت قصدك إيه .. إيديه أهيه!
سلم .. حتى سرك ليه ؟ نظرة عينيك ! لمسة إيديك ! كل اللى فىك يقول
وداع ! .. خلاص ! وداع ! .."

ونظر فى عينى منتظراً التعليق ، فقلت منبهراً إنه مطلع جميل حقاً لأغنية من
الأغنيات العصرية . قال إن لديه الكثير منها ، أكمل بعضها وأهمل الآخر . أسمعنى
عدة مطالع متتالية فى خيط واحد ، لا يكتبها سوى واحد متودك فى أمور الهوى
والموازين الشعرية والكلمات الجارية على ألسنة الناس . كما أسمعنى بعض أغنيات
كتبها لمطربى الفراح والموالد والصلوات بعضها وصل بصوت مطربها إلى إذاعة
الإسكندرية مثل أغنية يقول مطلعها الشبيه بالفولكلور : نحاصم شهر وصالح يوم ..
يوم فى الشهر ارتاح م اللوم .. ياللى مقضى هوانا خصام .. كفاية تسعة وعشرين
يوم . سألته لماذا لا يقدم إنتاجه للإذاعة والسينما والإسطوانات ؟ فشخر من شدة
سذاجتى قائلاً إن الإذاعة ليست لأمثاله ، ثم قال إنه يكتب لمزاجه ، وإن له
لأصدقاء وصديقات من فناني كباريهات مدينة الإسكندرية يزورونه أحياناً فى
الوكالة ويزورهم فى الكازينو عندما ينهب للتصيف وغالباً ما ينزل ضيفاً على
أحدهم فعندها يهبط الوحى فيرسل المطالع والكوبليهات بغزارة . وقال بكل بساطة

مدهشة إنه صديق لبعض كبار الضباط فى المديرية وبعض المشاهير من رجال الحكم المحلى ؛ فلم أشك فى كلامه ، إذ إنه بالفعل شخصية جذابة توحى بالثقة والشهامة والإيثار والقوة والفحولة ؛ تلك فى الواقع صفات بارزة فيه . نظر فى ساعة يده الجوفياى الصفراء ذات الجلد السوداء ، إشارة إلى أن موعد انصرافى قد حان ، فتهيأت للإنصراف ؛ فقال كأنه يعطينى الدرس الأخير :

- "شغلنا هذه أساسها الجرأة وجمود القلب! وعدم الخوف! إن خوفك هو الذى يشير إليك دائماً بأصبع الإتهام! هو الذى يبلغ عنك الشرطة أما الشرطى فغافل وليس بساحر يضرب الرمل ليعرف ما فى داخلك!! كن أمكر منه فلا تريه ما بداخلك!! كيف ؟ بهرود الأعصاب ! بالوجه الكالح الثابت ! بالقلب الجامدا! بالكلام الموزون بالجواب على قد السؤال كلمة ورد غطاها هذا أول درس تتعلمه إذا وقعت فى تحقيق أو محضر ! لو زدت حرفاً واحداً فإن هذا الحرف ربما يكشف المستور ! إحفظ الخطة التى وضحتها لك جيداً وكن ثابتاً أمام ستات فلا خوف منها!!".

وسلم على ؛ فمضيت نشوان الرأس بنخمر المغامرة المثيرة . وكانت الساعة تقرب من الثالثة صباحاً ، ويجب أن أكون مستيقظاً فى الساعة حتى تتكل على الله فى الثامنة . ولم يكن فى جفونى أى رغبة فى النوم ، لكننى مع ذلك أسلمت نفسى للفراش وجعلت أستعيد شريط ماحدث وأسترجع تفاصيل الدور الذى سأمثله فى الصبح فى هزلية غاية فى الطرافة والإحكام .

القبول

وفقاً للخطة التي رسمها لنا سيد زناتي كان هناك مراقب لاشأن له بنا ؛ تمنيت أن أكونه بدلاً من التورط في القيام بدور فعلى قد يعرضني للبهدلة . سيركب المراقب معنا أى مواصلة نركبها كشخص لا علاقة لنا به ؛ يتابعنا خطوة بخطوة دون أن يلحظ ذلك أحد على الإطلاق ؛ حتى إذا دخلنا في مجال الفعل دخل وراءنا كمواطن من عموم المواطنين؛ فإذا لاحظ أننا قد تعرضنا للمأزق أو ورطة عابرة فإنه يتدخل باعتباره من أهل الخير ليساعد في إخراجنا من المأزق بسلام . هذا إذا كان الأمر بسيطاً ؛ لكنه موهل للتدخل على مستويات كثيرة ملهشة ، كأنه يتدخل بالعراك لصالحنا بحجة التخليص أو الوقوف بجانب المظلوم ، أو يتدخل لتعطيل الخصم عن اتخاذ موقف بشأننا حتى نتمكن من الزوغان ، أو يتدخل لتضليله . فإن وصلت ورطتنا إلى حد تقف عنده جهوده كأن يقبض علينا البوليس مثلاً فإنه يكون أسرع من البرق ، إذ يقفل عائداً إلى سيد زناتي لإخباره بأمرنا كى يسرع في التصرف ، ويبقى هو مع ذلك يتابعنا من بعيد لبعيد . على أن من أكبر مهامه معرفة حجم التدخل الذى حققناه لينقل عنه تقريراً مفصلاً إلى سيد زناتي ..

ركبنا القطار إلى مدينة دسوق ، قاصدين مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى على وجه التحديد . كان اليوم جمعة ، والحظة أن نحضر صلاة الجمعة فى مسجد الدسوقى من أولها ، بحيث ألحق بمكان قريب جداً من قاعدة الإمام قبل صعوده إلى المنبر: فالمفروض أننى مدرس لغة عربية فى إحدى المدارس الثانوية فى الفيوم مثلاً ، جئت إلى هذه البلدة أنا وزوجى - هذه - لكى تزور الدسوقى وبعض أقارب لنا ؛ فاحتك بى نشال صفته كذا وكذا - حسب مواصفات بعض مشاهير النشالين فى هذه البلدة - إحتال علينا متنكراً فى هيئة شيال سيوصلنا إلى عنوان أقاربنا ، لكنه فى منتصف الطريق اختفى بحقائبنا التى تحوى هدمونا ومتاعنا ، وبعد اختفائه ظهر لى أنه قد لهف المحفظة من جيب السترة الداخلى حينما رفعت ذراعى لأساعده فى الشيل حيث انفرجت فتحة السترة فبرز طرف المحفظة فنشلها بخفة يد لم أشعر بها وفيها نقودى وبطاقتى الشخصية ؛ وقد ذهبنا إلى البندر فحررنا له محضراً بالواقعة

وهذا رقمه وتاريخه - (وهو بالمناسبة محضر حقيقي أجريناه بالفعل في قسم الشرطة ونحن في الطريق إلى المسجد) - وكان الفصل السخيف أننا حين وصلنا إلى أقاربي وجدنا رب البيت بعيداً عن السامعين في محنة ربنا يفك ضيقته - (مشيراً من طرف خفي ذكى إلى أنه مقبوض عليه ضمن حركة اعتقالات الإخوان المسلمين التي لاتزال طازجة) - والمشكلة الآن أنني وزوجي نبغى السفر إلى محل إقامة أهلنا في الصعيد الأقصى ، وليس معنا من النقود لا أبيض ولا أسود ..

كانت زوجتي - ستات - ترتدى ثوباً غاية في الحشمة والوقار يليق بزوجة أفندي من كبار موظفي الدولة ، تغطي وجهها ورأسها كله بطرحة بيضاء لا تفصح عن ملامح وجهها وإن أبرزت شبحها بجسداً. وكنت قد أعدت في رأسي الدبياجة الموضوعية سلفاً بإتقان، والتي تتألف من بضع آيات معينة وجزء من حديث نبوي شريف وبعض كلمات شهيرة من شعارات الإخوان العميقة المؤثرة، معجونة في بعضها بلباقة في إطار معنى مستهدف : أن يتأثر الإمام بموقفي ومأزقي المادى من الوجهة الإنسانية المحضة ، وأن يعتبر بهذه الأوامر الإلهية والأسانيد الدينية والأخلاقية التي تضع أي متدين حقيقي أمام ضميره ؛ وأن أعجز في الحديث غمزات مواربة دون تصريح كامل ، بحيث يفهم الإمام من طرف خفي أنني في حقيقة أمرى عضو كبير وضالع في جماعة الإخوان المسلمين وأنى هارب من أمام عين الحكومة بحثاً عن مأوى وأنى أطلب هذه المساعدة لتمكننى من الهرب إلى مكان أبعد حتى تنجلي الغمة عن سماء البلاد . كان لا بد أن أبح في أداء هذا الدور المركب حتى أستفيد قدر الإمكان من حالة التعاطف القوية بين عامة الناس وجماعة الإخوان المسلمين من أبنائهم وأهلهم ، إلى جانب أن الكثيرين سيتعاطفون معنا ليس حباً في الإخوان بل كرهاً في هذه الثورة التي أشبعتهم إرهاباً وأوامر عسكرية ..

حضر الإمام فوجدنى في انتظاره لصق المنبر مندجاً في قراءة خافتة ، في حالة متقنة من التهجد والتبيل العميقين ؛ ثم قمت فأديت بعض الركعات ، ثم زحفت نحو الإمام فسلمت عليه والتحمت به . يبدو أن جوهر الأحاديث التي طالمنا سمعتها بشغف من أصدقائى المقبوض عليهم جميعاً قد حضرت كلها ، فصار لسانى يسبح بمهارة في بحر من العبارات السخنة البراقة ، تركزت في جانب كبير منها على

طلب الستر من الله فيما نحن مقبلون عليه من ظروف وأحوال وأحداث ، وحول مظاهر الضلال والفساد ، والضعف البشرى فى عصر المادة ، والخوف من الطغيان ومن بطش الطاغوت الذى حل بصدور القوم لينزع مكانة الله . لفرحتى الشديدة لاحظت أن الإمام يتجاوب معى فى انفراده ، إذ يتابع كلماتى فيؤيدها بالدعاء بطلب الرحمة والهداية والرجاء فى أن ربنا يولى من يصلح . حينئذ طرقت الحديد وهو ساخن :

- .. تصور يا مولانا أنه قد حدث لنا اليوم كذا وكيت فى بلدتكم المباركة!؟" ..

فلما انتبه وبان عليه الإهتمام عاجلته : أعلم يا مولانا أن اسمى كذا وكذا ، وأصلى وفصلى كيت وكيت ، وحكايتى ربنا ما يوريك . ثم أشرت إلى زوجتى الزائفة التى كانت منزوية إلى بعيد وسط موجة خفية لكنها ملحوظة من نظرات التساؤل والإستنكار والسخرية . فبدت على وجه الإمام أمارات الأسف والتأثر الشديدين ؛ ثم شيع لزوجتى نظرة مستطلعة تفيض بالخرج والأسف . هى الأخرى كانت جاهزة ؛ فما أن تلقت نظرة الإمام حتى نكست رأسها فى الأرض وصار جسدها يهتز بعنف علامة على أنها مندججة فى بكاء حاد خشية الفضيحة مما يدل على أنها لم تتعرض لمثل هذا المأزق السخيف من قبل . قال الإمام بصوت متهدج :

- " دعها تنتقل إلى زاوية النساء هاهنا !! كل ظالم منه لله !! لا تحملهما على كل حال فأهل الخير كثيرون والحمد لله ! وبإذن الله كله يهون ! " ..

قمت متجهاً إلى سنات ، فأنخيت عليها وربت على ظهرها برفق هامساً فى أذنها بعض همسات . فسربت يدها بمنديل حريرى من تحت الطرحة ومسحت عينيها من دموع زائفة ؛ ثم استندت على يدي قائمة ، منكسة رأسها ، إذ أن معظم الصفوف قد جعلت تنظر إلينا فى استطلاع ، تركز البصر على لحيتى وطرحتها البيضاء ، وطرבוشى القصير المطابق لطرבוوش حسن البنا حتى فى ضجعتة قليلاً إلى الوراء ، والعطر السخى الوقور المنبعث منا كريح المسك الرصين النفاذ . إتجهت هى حيث أشرت لها على زاوية النساء ، فيما عدت أنا فتربعت فى مكانى بجوار الإمام ، مستغرماً فى حالة الحرج والأسف التى رسمتها بدقة مستفادة من التدريبات الطويلة

فى الفريق المسرحى للحرس الوطنى التابع لشعبة الإخوان المسلمين ومقره نادى الموظفين بدمنهور الحبيبة . طاف بى خاطر عبقرى أوحى لى بأن هذه فرصة يجب أن أختبر فيها قدرتى على التمثيل ، فبالغت فى الإندماج ، صرت أستهدف عواطفى بمشاهد مؤثرة وكلمات ومواويل وأغنيات باكية ، حتى ارتعشت عضلات وجهى بالفعل فضغطت بأسناني على شفتى السفلى ، وأطبقت جفنى كأننى أعصر ليمونة جافة لم يتساقط منها سوى قطرات هزيلة من دمع تسحيح . لم أكن فى الواقع محتاجاً لأكثر من هذا ، إذ ماكدت أخرج المنديل لأجفف به عينى حتى جاءنى صوت الإمام كأنه صوت الخلاص والإطمئنان :

- " وحد الله يا رجل! كل شئ سيهون بإذن الله! ربنا يفك ضيقتك وضيقتنا جميعاً ويرد غريبتنا!! إن أهل الصلاح والتقوى لا يهانون! وإن شاء الله ستجد أولاد الحلال دائماً فى سكتك! ولكننى أنبهك إلى أن نواحيننا كلها ملغومة بالشرطة وأخشى أن تكون فى رحلتك هذه كالمستجير من الرمضاء بالنار!! إن هنداوى دوير من بلدة تجاورنا وهو من هو فى الجهاز السرى ولهذا فالمنطقة كلها مقلوبة!! إن كنت واحداً منهم فإن الله معك ولن يتخلى عنك!!" ..

فكأنه ضغط على زر كهربي فانهمرت دموعى فى الحال غزيرة ساخنة حقيقية ، حتى صرت لا أستطيع إيقافها ؛ وفى أعماقى فرح طفولى غامر لنجاحى المبهر فى الإختبار ..

حين صعد الإمام على المنبر خطب خطبة فى منتهى الذكاء واللباقة، شرح فيها ما يطرأ على المجتمع والناس من قلة تراحم ومن تجاف ، نتيجة الخوف من غير الله ؛ وصب جام غضبه على الأيام السوداء والزمن الوغد الذى أسلمنا للإستعمار الكافر بالله ليسومنا سوء العذاب ، ويوصل الشر فى نفوسنا حتى بعد رحيله ؛ ودعا الله أن يحمى الثورة المباركة لأنها خلصتنا منه بأعجوبة كما أزال رمز الطغيان دون إراقة قطرة دم واحدة وهذا كرم من الله للشعب المصرى لأن الدماء دائماً هى دماء الشعب عندما تسيل على الأرض ؛ والتمس للثورة العذر فى تأخير مواسم الحصاد والرخاء ؛ وحث الناس على العودة إلى مبادئ التراحم والتقوى كشاطئ أمان وحيدىن أمامهم ؛ إذ أننا فى مثل هذا الزمن الوغد إن لم نتراحم فنساعد بعضنا

بعضاً والملاآن يكب على الفارغ فلن يرحمنا الله سبحانه وتعالى بل سيسلط علينا من أنفسنا من يفسق فينا ويسفك الدماء .. اللهم لا تؤاخذنا بما فعله السفهاء منا.. آمين.. اللهم ولّ أمورنا خيارنا ولا تولى أمورنا شرارنا.. آمين.. اللهم كن لنا ولا تكن علينا.. آمين.. اللهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. آمين.. آمين.. آمين!! كانت آمين هذه الأخيرة ترج أرجاء المسجد كأنها صادرة عن كائن خرافي يملأ أحشاء الكون كله ؛ وصحن الجامع الحافل الواسع اللامع بالثريات والرخام والألوان السقف الزخرفية البديعة يردد أصدااء الآمين .. آمين .. آمين في مساحات عريضة متكاثفة كمواكب صوتية تسعى إلى معانقة السماء ..

بعد الصلاة في التسليمة الثانية كان خفقان قلبي قدم تزايد بصورة مقلقة ؛ لولا أنني لاحظت أن الإمام يسرع في ختام الصلاة كمن وراءه مهمة كبيرة يود إنجازها قبل إنصراف المصلين . وفعلاً ، ماكاد بعض المصلين يتأهبون للإنصراف حتى انتفض الإمام واقفاً :

- " لحظة من فضلكم يا عباد الله ! " ..

فتوقف الجميع ، وعادت الأحذية إلى أماكنها ، واستقر بعضها في أيدي أصحابها . رفع الإمام ذراعه في تأثر وانفعال :

- " يا إخواننا من عباد الله ! ربنا لا يوقعنا جميعاً في أي ضيقة! وهذا أخ مسلم تعرض لظرف سخيف هو وأولاده في بلدتنا فوق أن ظروفه في الأصل صعبة من حالها! فالمؤمن مصاب كما تعرفون ! وهو الآن لا يطلب من الله أكثر من المساعدة ولو بأجرة السكة الحديد ليعود إلى أهله آمناً مكرماً ! إن الله يحب الذين آمنوا والذين يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ! والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ! " ..

في الحال أسرع واحد ففرد منديلاً على الأرض ورمى فوقه ثلاثة برايز فضية ذات رنين حلو صاف . تبعه غيره فوضع ربع جنيه ؛ ثم انهالت الشلنات والبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش كالمطر . صار قلبي يتراقص طرباً على أنغام الفضة وهي تشخلل هاطلة مصافحة وفودها المتواصل ، فيما نكست رأسى متمتما بالدعوات كالأغنية تحت موسيقى الفضة . كومة النقود ترتفع وتتسع ، والقروش

البرونزية الحمراء المشرشرة الثقيلة تتدحرج ساحبة معها أنصاف الفرنكات الخفيفة إلى بعيد فسرعان ما تشكل حاشية سرعان ما تتحول إلى كومة بجاورة . كنت حائراً في كيفية التصرف لولا أن جاءني صوت صاحب المنديل يوجه النصيحة في صيغة غير مباشرة :

- "لم فلوسك يا حاج ! أنت مكسوف ولا ايه ؟ حظ في جيبيك واستنى لسه الخير كثير جاى !!".

رفعت رأسى ناظراً تجاهه فإذا هو المراقب المكلف بمتابعتى ، وقد تقمص دور واحد من المصلين المتبرعين . صرت أكبش وأضع فى جيوبى بسرعة وأتزان ؛ والقادمون من آخر المسجد يرون كومة النقود صغيرة فيزيدون الهبة أضعاف ما انتووه . قبل خروج آخر مصل فوجئنا ببعض الرجال الملتحين ذوى الجلابيب القصيرة والذلات والقفاطين يقبلون نخونا حاملين بعض اللفائف يقدمونها إلى :

- "لقمة صغيرة !".

حدست أنها تحوى خبزاً وكباباً مشوياً . شكرتهم ودعوت لهم بالستر . ثم حملت الهبة ونهضت واقفاً أتلفت بحثاً عن ستات ، التى رأيتها تقبل نحوي كالأوزة الوقورة تتعثر فى خجل متقن الصنع . فلما رأت المراقب واقفاً قبالتى ظهر عليها كأنها لا تعرفه ولا شأن لها به . رأيت من الذوق - وحسن الصنعة أيضاً - أن أسلم عليه شاكراً فضله وفضل بلدياته على إكرامهم لنا هذا الكرم الوفير ؛ فأرخى جفنيه على عينيه وهو يسلم على ويغمزنى بقبضته قائلاً بلهجة ذات معنى :

- "إتكلوا على الله ! طريق السلامة ! خلى بالك من نفسك ! ربنا معك !".

مددت ذراعى لستات فتأبطته فعبرنا عتبة المسجد إلى الشارع ؛ فمضينا بخطوات بطيئة وقورة فى اتجاه السكة الحديد . مررت بمحلات حلويات الصردى فاستيقظت طفولتى المحرومة من حلوى الصردى المشهورة فى قرينتنا ، كدت أعرج عليها لشراء بعضها لكنى رسمت الجهامة على وجهى ومضيت نحو شباك التذاكر فقطعت تذكرتين إلى دمنهور ..

ولم تكن الشمس قد لمت كل غسيلها بعد من فناء الوكالة حينما دخلناها مندجحين فى الدور بتصلب يصعب تفتيته، حيث كانت ستات ماتزال تتأبط ذراعى،

ومشيتنا ما تزال وقورة بطيعة غير أنها تكساد ترقص طرباً. كانت رائحة الدجاج المحمر تستقبلنا مغطية على صبيحات شوادفي الصاخبة بالغبطة والمزاح والسخرية :
- " ياترى على النفخة الكدابة دى سبع ولا ضبع ؟! " ..

فرمت إليه ستات بنظرة متعالية من فوق كتفها واستأنفت السير بجوارى بحركة مسرحية راقصة . وكان سيد زناتى قد سمع زفة شوادفي فخرج لاستقبالنا فى فتحة الباب حيث أحمر وجهه من شدة الإنبساط والتفاؤل . فما كادت نظراتنا تتلاقى حتى اتسعت البسمات وتلألأت على الوجوه . سلمنا على سيد بحرارة أفعمته بالأمل الكبير ..

جلسنا نعد النقود . كانت أكثر من مائة وخمسين جنيهاً ، ثروة كبيرة جداً بالطبع . وزعها سيد ، فنحنى أربعين ، وأربعين لستات ، وثلاثين للمراقب ، وبضع برايز زائدة أرسلها لشوادفي تحية له على اكتشافه لى كعدة جيدة ، وتقديراً لنجاحى أعفانى سيد من دفع الجنيهات الخمس التى كسانى بها . وبعد أن أنهى قسمته العادلة أشعل سيجارة محمصة واستند بظهره على المسند :

- " هذا هو الشعب المصرى ! كل قرش دفعه كان يتمنى فى الواقع لو كان سهماً فى قلب العدو ! إنه يكيد به للحكومة ! ويشترى الواحد لنفسه جميلاً مشابهاً إذا ما وقع ذات يوم فى مأزق مماثل ! الحمد لله أن وفقك فى مهنتك ! أنا كنت متأكداً من هذا ! وهذا هو المبلغ الذى كنت أتوقعه !! الآن عليك أن تستعد يوم الجمعة القادمة لتكرار نفس العملية فى بلدة ثانية فى مسجد كبير مشهور ! ولكن بتمثيلية جديدة سيوفقنى الله فى اختراعها حينما تسخن دماغى ! " ..

قرب انتهاء السهرة كانت دماغ سيد زناتى قد سخنت بالفعل ، وتمخضت عن تمثيلات كثيرة . ورغم أننى لم أكن على شئ من الحماس لتكرار العملية ربما بدافع الحرج وربما الخوف ؛ فإننى انصرفت على وعد بالججى فى باكورة الصبح لأسرح مع ستات سرحة سريعة . ما كدت أرمى نفسى على الفراش حتى فاحت فى خياشيمى رائحة عطر ستات فاستحضرت جسدها كله ووضعتته فى حضنى طوال الليل .

الليلة الكبيرة

كانت ستات تنسق لى لحيتى استعدادا للقيام بنفس التمثيلية غدا الجمعة فى مسجد الأحمدي بطنطا . عندما صافحت أنفاسها العطرة وجهى وهى تقرب بفمها المطبق على عقدة الفتلة التى تنتف بها الشعيرات الهشة حول أذنى وأنفى ، تذكرت لحظتها أننا وحدنا فى الحجرة بطوابقها الثلاث ، وأنسى جالس على نفس الشلثة التى يجلس عليها سيد زناتى . خفق قلبى بشدة وتسارعت أنفاسى كأننى اكتشفت نفسى عارياً فجأة فى قلب الشارع ، أو كأننى لقيت فى الطريق لقيه ثمينه وأخشى أن يشاركنى فيها من رأتى أو ينتزعها منى ..

كان سيد زناتى قد سافر فجر اليوم إلى القاهرة لحضور الليلة الكبيرة لمولد الحسين ابن على عليهما السلام . تلك هى عادته السنوية : حضور الليالى الكبيرة لموالد المشاهير من الأقطاب الدسوقي والأحمدي والحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والنبوية والقنائى وحتى ذلك المسمى بأبى سريع المدفون فى مكان بعيد فى أقصى الصحراء القاحلة والطريق إليه شديد الوعورة ، ومع ذلك يحرص على الذهاب إليه أكثر من حرصه على أى شىء آخر ، لأن سره باتع ، يكفى أن هذا العدد الغفير من الناس من جميع أنحاء البلاد يسافرون إليه دونما أى شعور بالمشقة ؛ أغلب الظن لقضاء أسبوع كامل فى لهو وصخب لا تحدهما حدود ، حيث يفجر الناس ويفسقون عياناً بياناً دونما رقيب أو حسيب . الموالد بالنسبة لسيد زناتى - كما فهمت من شواهد كثيرة - تعتبر سوقاً واسعاً لمشروعاته العديدة فى التفرير بالسذج والإستيلاء على ما معهم من نقود ، حيث يبيع لهم الأوهام والضلالات . على أن أهم ما يجذبه إلى الموالد هو الإلتقاء بأمرأة تصلح أن يضمها إلى عدته أو برجل يصلح للقيام بإحدى المهمات . أما مولد الحسين بالذات فإن سيد زناتى ينهب إليه بدافع التقوى فحسب ، وبحكم حبه الحقيقى لآل البيت كلهم . زيارته السنوية للحسين والسيدة والنبوية هى نذر لا يبد أن يفى به مهما كانت مشاغله كثيرة . فى العادة يأخذ نساءه الأربع ، لكنه اليوم صعب عليه أن يضيّع على ستات وعلى نفسه فرصة مكسب كبير ربما أكبر مما حصلناه من مساجد أخرى ومحطات

سكك حديدية ، فأكد لنا أننا سنعود من طنطا آخر النهار مجبورين بإذن الله وعلينا أن نفسخ أنفسنا فى طنطا ونتعشى بأى مبلغ يرضينا ..

صارت يد ستات تدعك خدى برفق ونعومة بحثاً عن أى شعرة متخفية لكى تنزعها بالقتلة . جعل صدرها يلامس كتفى ويتهدل فوقه . سخنت الدماء فى عروقى ، إنتفض بداخلى شعور بالرغبة العارمة التى لا تقاوم . أمسكت بيدي ستات ، دعكت شفتى فيهما على سبيل الإمتنان لعنايتها بى . كان سيد زناتى قد ترك لى ربع زجاجة كونياك أعدل بها مزاجى هذه الليلة حتى أنام بعمق استعداداً لمشوار الغد . قلت لستات إننا يجب أن نراجع تفاصيل التمثيلية التى سنلعبها غداً ؛ فقامت وجاءت بالزجاجة ، وأعدت بعض المزة الشهية، وأعدت النار وحجارة الجوزة لنشرب حجرين يعدلان مزاجها الميال للحشيش أكثر من الخمر التى تعتبرها رجساً من عمل الشيطان ..

إشتعل مزاجنا واشتط إلى بعيد ؛ فسرح بنا زورق الحديث فى مسالك ودروب وشعاب غريبة وبعيدة : حدثتها عن الكثير من وقائع حياتى ، عن قرىتى ، عن أهلى ، عن البنت التى كنت أحبها فى البلدة ، عن ابنة عمى والجفاء القائم بينها وبيننا ، بل حدثتها عن حبنى لبدرية بحرارة أوشكت أن تقودنى إلى الإعتراف بما حدث بينى وبينها ؛ كما حدثتها عن مشاكل النفسية مع زملاء المعهد من أبناء الأسر المستريحة وتحيز الأساتذة لهم والنظر إلى أمثالنا باحتقار وتأفف ؛ وعن المشاكل القضائية التى قامت بين أبى وأبناء إخوته حول ميراث قطعة أرض مالحة بيعت فى النهاية لنسدد بثمنها الضئيل أتعاب المحامين ورسوم المحكمة التى استندناها عند رفع الدعوى . وكنت الاحظ أنها تستمع لى بشغف واهتمام ، ونظراتها تشع بالتعاطف الممزوج بالإستلطاف والإعجاب ، بل صرحت بأنها تستطيب قلبى . هى الأخرى حدثتني عن نفسها : إن أمها من بلدة كوم حمادة وأبوها من بلدة الطود ؛ كان جاويشاً فى الجيش ومات فى حصار الفالوجا فى حرب فلسطين فى أواخر الأربعينيات . تزوجت أمها من شيخ خفراء البلد السابق ، زواجاً عرفياً بدون ورقة رسمية إذ أن أمها كانت تريد أن تحافظ على المعاش الذى تتقاضاه من الحكومة كل شهر وفى نفس الوقت تنعم بزواج ينفق عليها ويرضى شهوتها . وكانت ستات فى

السادسة عشرة من عمرها حين استملحها زوج أمها فبات يغازلها غزلاً صريحاً مكشوفاً ، وينتهز الفرص للإفراد بها وتفتيح وعيها على ما لم تكن تعرفه من أمور النساء . وقد حاولت هي أن تهرب منه لكنه حاصرها بقوة ، غرر بها ، سلبها عفافها ذات يوم في عشة الدجاج فوق سطح المنزل مثل فيلم كمال الشناوى وشادية . وأحست هي باللذة فاستمرت اللعبة أصبحت تستجيب له كلما دعاها بل أصبحت تنتظره كل ليلة . وكان قد هدهدها بالقتل إن هي أخبرت أمها بذلك أو جاءت بسيرة ما حدث أمام أى أحد . إلى أن ظهر المستور بانتفاخ بطنها ، فتم عزلها في المنزل خشية الفضيحة . إرتاعت أمها طالبت زوجها بالتحقيق فى الأمر لمعرفة اسم المعتدى كى يدفع ثمن غلطته . المولم أن زوج أمها عقد لها بالفعل محاكمة ليلية قاسية محاولاً إجبارها على ذكر اسم الفاعل ، أى فاعل ، يذكر لها أسماء معينة يشك فيها لكى تختار واحداً تتهمه . عقدت اللهشة لسانها ، لم تعرف كيف ترد ، لا تجحد غير البكاء والتهديد بحرق نفسها . فى لحظة يأس صرحت لأمها أن الفاعل هو زوجها لا أحد غيره . واجهته الأم ، وواجهته ستات ؛ فما كان منه إلا أن انهال عليهما ضرباً بالمسوقه ، وعير الأم بابتها ، زعم أنهما جلبتا له الفضيحة والعار ، رفع صوته بالغضب والهياج قبل أن تحاصره الشائعات فى الكتمان : خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم . الفضيحة أصبحت حاضرة فى كل مكان فى البلدة تفضى بها شواشى النخيل للريح فتلقح بها شبايك البيوت وأسطح المنازل وموردة الغسيل على شاطئ المصرف ووابور الطحين . الأم المسكينة الغلبانة لم تجحد مهرباً من الهرب ، فكرت فى الموت لكنها كانت مؤمنة ؛ ثمنت أن لو كان للبننت أخا أو ابن عم أو ابن خال إذن لأراحها من عار البننت . فى فجر يوم مسود الوجه سحبته الأم وخرجت متوكلة على الله إلى أى مكان لا يعرفها فيه أحد . أدركتهما الشمس المسودة الوجه كجمرة غطسانة فى غبار الفحم المهيب نارها . تحت ظل صفصافة بعيدة فى زمام بلدة بعيدة أجلستها الأم فى دورة حوض ساقية مهجورة ؛ فشختها ، سطختها على ظهرها ، جاءت بعود أخضر من جذر الملوخية أو البطاطا لا تذكر ، أدخلته فيها عن آخره ، فكان سيخاً من الحديد المحمى بالنار قد اندب فى أحشائها فثقبها . صوتت من نخاع قلبها ، فكتمت أمها أنفاسها

بطرف شاشها فصارت تعض الشاش تزوم تزار ، والدماء تنهمر زاحفة ببطء فى حوض الساقية تتخلله كتلة صغيرة . إنزلقت منها كتلة كبيرة لزجة عرفت من قلبها أنها الجنين ، فراحت تغالب الألم والعذاب تتمنى أن تأخذها غيبوبة لا تفيق منها أبداً. مع ذلك رأت أمها وهى تسرع بتجفيف دمها وغسلها ، تمسح بالحفان من بر الساقية وتغسل ، تضع فيها بعض أشياء مصنوعة من بعض أصناف العطاره داخل حفاض ، حتى أوقفت سيل الدماء . حملت نصفها الأعلى بكل ما تبقى فيها من قوة بائدة ؛ مضت تخرج نصفها الأسفل على الأرض وحدائل شعرها متدليلة تكنس الأرض كجدائل الصفصاف. وسط أشجار التيل نيمتها ممددة على ظهرها ، خلعت الملس الأسود المكشكش الأضلاع ، فردته فوق شواشى أشجار التيل ، فصنع مستطيلاً من الظل حبس تحته الهواء غربله حوله إلى نسيم طرى فى قيظ الضحى فى عز زمته النيل فى بثونة . جلست بجوارها تبكى بحرقة ينتفض جسدتها فتصدر الأرض من تحتها ونيناً كالدوى المكتوم الذى يحدث عند اقتراب القطار من بعيد:

- " بقى كده يا ستات ؟ إخص عليكى يا أختى ! طب قوليلى من الأول قبل ما تقع الفاس فى الراس ! فطينينى ! لكنه الكلب المسعور ! ربنا ينتقم منه ! أشوف فيه يوم ! أشوفه متقطع حنت تحت عجل القطر ! أشوف الكلاب بتاكله ! أنا أستاهل يتعمل فى كده ؟ ! ليه يارب ؟ ! دانا مؤمنة ومصلية ! دانا غلبانة وحدانية ! ! يمكن أذنبت وأنا ما اعرفش ! إنت وحدك اللى تعرف والعبد ما يعرف ! إنت اللى عالم بحالى ! أروح فىن بيها دلوقت ؟ ! ساحنى يارب ! النبى حبيبك تساحنى ! سايقة عليك الإمام والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسيدنا الحسين ! خذ بيدى ونجنى من دي البلوى ! نذر على إن نجيتنى من الفضيحة وسترت عرضى أن أعمل ختمة وليلة لأهل الله ! ! .."

كانت ستات تعرف أن أمها لن تغلب إذا ما استراب فيها أحد من السائرين . خلل الغيبة المتقطعة شعرت ستات بأمها وهى تترك القفة بجوارها وتقوم فتجمع أعواد الحطب والقش وفروع الأشجار اليابسة ؛ جاءت ببعض قوالب من الطوب نزعته من عشة متهالكة بجوار الساقية ، صنعت منها كاتوناً ، كومت فيه الحطب ،

أشعلت فيه النار ، أخرجت من القفة حلة فيها دجاجة مسلوقة بالأمس ، وضعتها فوق النار ، صارت تنفخ وتمروح بذبل جلبابها ؛ حتى سخن المرق ؛ فأنزلت الحلة ووضعت مكانها حلة صغيرة مليئة بالمغات المخلوط بالسمن والسمن البلدى . ثم انقطعت الصلة بين ستات وبين كل شئ حولها لمدة طويلة كأنها الدهر ؛ إلى أن شعرت بيد تلكزها برفق تحت ذقنها ، ثم يدين ترفعان رأسها عن الأرض ، فاعتدلت قاعدة شاعرة ببطن أمها يلتصق بظهرها . بيسراها أحاطت كتفها الأيسر؛ بينما صارت تغرف بالمغرفة من السلطانية وتقربها من شفتى ستات هامسة بصوت يشبه مواء القطط : " إشرى يا اختى ! كلى ! " ، فتشرب ، وتفصص لحم الدجاجة إلى شرائح تسربها فى فم ستات . ثم قالت الأم وهى تعيدنها برفق إلى وضعها متمددة على ظهرها :

- " فيه كمان فرختين طايين ! أول ما تجوعى اطلبى وأنا أسخن وأديكى ! " ..
ونفضت إلى الكانون فافرغت شراب المغات المحلى بالسكر فى كوب كبير، وعادت فأنهضتها من جديد وسقتها كوب المغات ثم نيمتها . وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الإحمرار حينما اقترب منهما رجلان أحدهما عجوز والآخر شاب فتى . تقدم العجوز فسأل الأم عما تفعله فى أرضه ؟ فانهمرت باكياً ، حكى له كيف أن زوجها فلان الفلانى من البلدة الفلانية قد أغضبها فسحبت ابنتها هذه قاصدة أهلها فى كوم حمادة لكن البنت كانت حاملاً فتعبت فى الطريق فسقطت وهى الآن لا تعرف ما الذى ستقوله لزوجها الغائب فى ترحيلة شغل . فتقرفص العجوز بجوارها ، وأرسل ابنه الشاب إلى البلدة فجاء بحصير وبطاطين ومخدة وداية وعشاء وسكر وشاى . قلبت فيها الداية فاطمánt على سلامتها ، سقتها شيئاً ثم فرشت الحصير والمخدة ونقلتها إلى نومة مريحة بغطاء ؛ وجلست مع الأم فاندججتا فى همهمة وحديث غير مفهوم لها . تناولن العشاء أرزاً محمراً باللحم البتلو والحمام . وهبط الليل فاشتعل منقد النار ، وجاء كل أصدقاء العجوز وأولاده فسهروا معه فى سفح الساقية تحت شجرة الصفصاف حتى الصباح ؛ فانصرفوا ؛ وجاءت زوجته وبناته يحملن الفطير الذرة واللبن الرائب والقشدة والرقاق الناعم والبيض المقلى فى السمن . أكلن ، وبقين فى كلام وحديث حتى أذان المغرب فانصرفن ماعدا الداية .

وبعد العشاء جاء العجوز بصحابه فسهروا ثانية . وكانت ستات قد شعرت بأنها استردت بعض وعيها ، فصحصحت ، شبعت من الطعام ، شعرت أنها فى الصباح يمكن أن تستأنف السير مع أمها إلى أى مكان تريد . الرجل العجوز إتضح أنه شيخ عرب ؛ لم يقبل ترك الأم وابنتها وحيدتين فى الطريق فى هذه الظروف، فأمر ابنه أن يوصلهما بالركائب حتى يسلمهما لأهلها فى كوم حمادة ؛ مما اضطر الأم إلى قبول الذهاب لأهلها رغماً عنها . هناك لم يجد الشاب أحداً يستقبله ليعمل معه الواجب ، تركهما عند باب الدار وقفل عائداً . الأم نفسها لم تجد من ييش فى وجهها لأن الخير المشنوم سبقها واستقر ؛ فأمضيتها ليلة فى غاية من السوء فى دار أهلها، حيث لم يبق من أهلها على قيد الحياة سوى خالة رجلها والقبر، وابن عم عجوز شغلته تملى فى بقايا بيوت الوسية لا يمكن فى البلدة أبداً . فى الصباح خرجت الأم وابنتها من جديد . إلى بلاد الله خلق الله، بلد تشيلهما وبلد تحطها حتى وصلتا إلى دمنهور المدينة الواسعة التى يتوه فيها الناس وتنسى الخطايا . باعت الأم عقدا وقرطا ذهبين كانا كل حيلتها ، إشترت عدة شاي بنصيحة أهل الخير ، إستقرت على الرصيف أمام محلج بركات تقدم الشاي والقهوة والقرفة والينسون لعمال المحلج والدكاكين المجاورة ، وتطبخ العلس والفسول النبات لإفطارهم ، هى تصنع ذلك وستات تحمل الطلبات على الصينية توصلها هنا وهناك . بحثنا عن مأوى للنوم ، دلما أولاد الحلال على وكالة عطية . فى نفس ليلة وصولهما كان سيد زناتى خارجاً لتوه من السجن وجاء يسكن الوكالة ؛ وطد علاقته بشوادفى حتى أدخلى له هذه الحجرة . كانت الأم وابنتها فى الحجرة السفلية فصار سيد زناتى يشاغب ستات يطارحها الغرام وهى تصده بقوة وعقدة نفسية من الرجال . إلى أن لمست حبه لها واستعداده للتضحية من أجلها ، فرضيت به زوجاً على سنة الله ورسوله . ما كادت الأم تطمئن إلى أن ابنتها أصبحت مسئولة من رجل شديد البأس حتى ودعت الحياة فى هدوء ، وبدون مرض ، نامت فى الليل كالعادة ، وفى الصباح لم تستيقظ ؛ فأقام لها سيد زناتى جنازاً لائقاً ، ودفنها فى مقابر الصدقة ، ومنع ستات من شغلة الشاي هذه ؛ أخذ يدربها على شغله الذى أحبته بقدر ما أحبت شخصية سيد ، فهو ما يزال يحبها أكثر من بقية زوجاته وإن كانت عافيته

باتت تذهب كلها للصغيرين ، وما يزال يجد متعة في أن يقرأ لها في آخر الليل ما يعجبه من صفحات كتبه ومجلاته التي باتت هي تنسقها وتحافظ له عليها ، باتت تحبها هي الأخرى ، لأنها علمتها أشياء لم تكن تخطر لها على بال ..

كانت سحب الدخان تملأ فراغ الحجرة وكنا كسمكتين في بحر من الدخان الأزرق الرمادي ، والجو ساحر ، وستات كالبطية الكبيرة تترجرج بالحيوية منفعة بالحكي تضحك تارة تعبس أخرى لكن في إطار من المرح الجميل. كانت وهي تحكي تسقيني وتلامسني وتحاضنني وتعانقني بكل بساطة وأريحية وثقة بالنفس قوية، كصديق يتصف بالجدعنة والصفاء ، فلم يطرأ على ذهني أنها امرأة وأنشى كالبطة فيما أنا شاب مهروس بشوق الرغبة المكبوتة من زمن طويل . مع ذلك كنت أشعر بلذة شديدة العذوبة ..

وفيما تغمرنا هذه اللحظة البديعة ، تصاعد عند البوابة لفظ فيه خشونة وشخط وأمر ونهى . همست ستات بشئ من الإضطراب :

- " الحكومة وصلت ! منذ مدة لم نر وجهها ! على كل حال هم لن يفعلوا بنا شيئاً لكنهم مزعجون لا نأخذ منهم غير النكد والسفالة وقلبة الأدب ! أنا الأخرى أعطيتهم على دماغهم لا أفوت لهم فائتة ! لكني لن أقدر الليلة أن أمسهم بسوء لأن سيد غير موجود وهم من النوع الذي يخاف ولا يخشى ! أقل شئ سيأخذوني إلى البندر لأنام في التخشبية مع المومسات والسناكيح ! ولهذا سأفعل هكذا ولن أفتح الباب حتى لو كسروه !! " ..

ثم رفعت جذعها الممتلي ، ومدت ذراعها البضة نحو أعلى الحائط بجوار الباب ، فضغطت على زر النور فانطفأ ، سقط فوقنا الظلام الدامس . بدربة أزاحت منقذ النار وكرايب العدة إلى جنب ، وزحفت بإليتيها على الأرض فحاذتني . إصطدم وجهها بوجهي وامتزجت أنفاسنا فطوقت عنقها فهبطنا سوية على الأرض متمددين؛ فإذا بي أغيب في حضنها الثرى السخي ، فأختفى تماماً في بطانة من القטיפفة الناعمة الحارة المثملة . ميزنا في اللغط صوت شوادفي :

- " ياب.. ياب.. به سعادتك بتشرفنا هنا باستمرار !! أنت سعادتك تعرف أن وكالتى لا يسكنها أحد من الإخوان المسلمين!! لا يسكنها سوى الإخوان الكفرة!!

سوى الغلابة المقاطيع ! فلماذا تشك في كلامي ؟ أنا من نفسي سأبلغكم في الحال إذا اشتبهت في أي واحد ! ألا تذكر سعادتك أنني جئت من نفسي لخدم مكتبك وسلمتك أوراق الولد الذي كان عندي وقبضتم عليه ؟ أنا لست منتظراً تشريفكم للتفتيش كل يوم والثاني ! لا يرضيني تعبك فخل عنكم التعب !! ..

ميزنا صوت الضابط يرد عليه في غطرسة وجفاء وسوقية :

- " يا ابن القحبة أقول لك إن واحداً من كبار الإخوان يسكن هنا مع زوجته ! هي بالأمانة سمينة مربربة ! بيضاء موردة الخدين ! وهو مدرس لغة عربية في الفيوم يعنى هارب ! تابعهما المرشدون حتى رأوهما يدخلان هنا فلا يخرجان ! رأوهما أكثر من مرة ! فهل نكذب مرشدينا ونصدق خولاً مثلك ؟ ..

- " يا سعادة البية الخول ليس أنا فأنا مثل أبيك ولا يصح أن تغلط في بدون سبب ! وأنا صاحب وجع لو ضربتني كفا وقعت ميتاً ! ربنا يحميك لشبابك فأنت مثل إبني وأولادي كبار مثلك ولهم في مراكزهم شنة ورنه !! ..

همست ستات وهي تحتويني بعمق:

- " كذاب ! ما أحد يعرف له أهلاً ولا بلداً !! ..

وهمست أنا :

- " يا ابن الكا.. ا.. لب ! سلمت الأوراق ولم تعطها لي كما اتفقنا ! يالك من جبان لئيم ! ..

اللغظ يقترب ، يزداد خشونة . صوت زغد واحتجاج وزمزقة . صوت شوادفي

يعدد :

- " هذه الحجرة يسكنها ولد طالب بمعهد المعلمين أغلب من الغلب وفي حاله وسبق أن عرضت عليك أوراقه ! هو الآن مسافر إلى بلدتهم وسيعود غداً صباحاً !! وهذه حجرة دميانة وها أنتم تسمعون صوت عذاب القرد العجوز يبحث عن خلاصه أنظر من هذا الحرم الواسع ترى كل شيء !! وهذه حجرة المواوي مفتوحة وهاهو ذا متلقح كالبهيمة أمامكم !! فتشوه فرما يجبي في جيبه شيئاً من الإخوان المسلمين !! وهذه حجرة المداح وزوجته وطفليه مفتوحة هي الأخرى على وسعها فتشوا أجسامهم لو أردتم !! وهذه حجرة رمضان عريجة الذي يشتغل معكم مرشداً

وأنتم أدرى بتحركاته الآن مني !! وهذه حجرة زينهم العتريس وأولاده ادخل
نشرب الشاي معهم مساء الخير يا زينهم !! وهذه حجرة الولية بتاعة البنحت
والودع وهي سهرانة الآن عند صاحبها وداد !! وهذه حجرة الولية بتاعة الدق
سالخير يا حلبيه !! لو أحببت أن تدق لك اسمك على سمائة ذراعك تكون عملت
بطاقة شخصية أحسن من بطاقتكم لا تضيع ولا تتلف !! هذه حجرة قطيطة بتاعة
الحلاوة سا الخير يا قطيطة سلمى على البيه ! على فكرة عندها فراخ بلدى محترمة لما
تحب سعادتك تأكل ظفر !! وهذه حجرة سيد زناتي صاحبكم حبيبيكم وأنتم
تعرفون عنه كل شئ .. و.. تاهت ولقيناها ! سيد يقول لكم على كل شئ دائماً
وأنتم تثقون فيه فاسألوه عن حقيقة الأمر !! من حسن الحظ أنه سافر اليوم هو
وعدته كلها إلى مصر لمولد الحسين شئ لله يا أم هاشم ! هاهى كل الحجرات
أمامك يا بيه مفتوحة فادخلها كيف تشاء لكن لا شأن لنا بالمغلقة لأنها أمانة فى
عهدتى طالما أصحابها غائبين ! إن كنت تظن أن أحداً يختبئ فى هاتين الحجرتين
المفلقتين فهات لى إذنا من النيابة وتعال نكسرهما على عهدة النيابة لأكون أنا فى
السليم ! أنت رجل بتاع قانون وتعرف مسئوليتى !!"

سمعنا صوتاً جديداً لعله صوت ضابط آخر يقول فى نبرة وعيد وتهديد :

- " على كل حال ! الوكالة ليست بعيدة عن أعيننا ! سنترقب هذا الرجل فى
كل وقت ! فإن ظهر خارجاً من هنا فإننا سنذكر هذا العمود كله فى طيزك ! لن
نرحمك ! ستكون متستراً على محرم وستدخل السجن ! نهايتك على يدى بإذن الله
يا شوادفى الكلب ! هيا بنا !!"

وصار اللغظ يتباعد . ولست أدرى أمن الخوف واليأس أم من الرغبة الحارقة
والتحام الجمرة بالريح حدث رغم أنه لم يكن وارداً فى الحسبان . ذلك أن اللغظ ما
كاد يختفى نهائياً حتى كنا ؛ سنات وأنا ، قد تحولنا إلى جسد واحد ينتفض بعنف
اللذة النشوانة المجنونة العفية وعمق سحرها واشتداد حرارتها يكاد يفتت نفسه
يذيتها فى لهب صبى مشتعل الأوار ؛ نشوة بدت بلا بداية ولا نهاية وإن تخللتها
محطات عابرة لالتقاط الأنفاس . ومع ضوء الصباح نزلنا إلى الحجرة السفلية
فاغتسلنا وتناولنا فطوراً شهياً ، فى صمت عميق . وبدون أى كلمة ، وبكل تفاهم

صامت شفيف تربعت أمام ستات ، التي أمسكت بموس الخلاقة وراحت تزيل لحيتي بهدوء ومزاج رائق . فلما نظرت في المرآة رأيتني وجهاً جديداً تماماً كامل النضارة والتألق برائحة الكولونيا . ثم قمت فارتديت ملابسى كاملة ، وقامت ستات فواربت الباب برفق ، فدخل ضوء الصباح مرطباً رمادياً أليفاً حميماً ، وفتحت شراعة الشباك ، فسالت خيوط الشمس كالعسل تفرش نفسها على الأرض . وجاءت بعدة الشاي واشتعل الوابور . وفوجئنا بالجراند كلها طازجة تنسرب من شراعة الشباك تسقطها يد خفية تعودت أن تفعل هذا كل يوم . رحلت أتصفحها بشغف ؛ وعلى إيقاع وش الوابور الأليف الونيس رحلت أقرأ بصوت عال لكى تسمع ستات ، فيما راحت هى تنصت بشغف وتهز يدها بالبراد فوق اللهب . ورحنا نترقب وصول سيد زناتى لنتندر أمامه بما حدث ، ليفكر لنا فى تمثيلية جديدة بعد أن انكشفت الفولة القديمة .

الليلاء

صار من الواضح أن شيئاً غير طبيعي لابد قد حدث لسيد زناتى وجماعته فى مولد الحسين . فمند بحيته وهو مكفهر بصورة ظاهرة للعيان مع أنه يجتهد فى إرخاء عضلات وجهه وشدها على قالب الإبتسامة العريضة ليبدو طبيعياً . ولكن من الذى يصدقه ؟ إنه ينسى من حوله نسياناً تاماً لفترات طويلة يمضيها فى شرود مع الشرب بتركيز عميق ؛ وكالمجنون الدرويش يقطع لحظات شروده بشهقة أو أهة أو زومة ذات معنى لا تصدر إلا كرد فعل لاكتشاف جديد ؛ مما يشير إلى أنه فى حوار عميق مع نفسه تظهر آثاره على صفحة وجهه بوضوح فى بسمة عابرة أو غضبة مفاجئة بلا سبب واضح . ثم إن الأشياء تقع من يديه بسهولة لاختلال فى أعصابه أو لعدم الإحساس بالأشياء فى بعض اللحظات . ولأول مرة فى حياته ينقلب فى لعب القمار وكان من الواضح أنه يلعب لمجرد استبقاء الرجال حوالبه أطول فترة ممكنة ثم اضطر إلى الموافقة على انصرفهم ، حتى خبر مجئ البوليس إلى الوكالة وتربصه بنا لم يترك عليه أى أثر يذكر حتى لكأنه لم يسمعه أصلاً تقول الكتابات المطبوعة على ورق لفها إنها من شارع المديرية فى دمنهور وليست من سيدنا الحسين كما وعد قبل سفره ، هاهى ذى ملقاة بجوارنا على الأرض فى إهمال كجثة القتيل . أخيراً طلب العشاء فانفكت اللفائف وطرحت محتوياتها من كباب وكفتة وكبدة ومنخ وسلطات أكلنا بتركيز برعوس منكسة لا ينبس أحدنا بحرف . من لحظتها كف سيد عن فتح فمه ، وكالأخرس جعل يطلب الأشياء بالإشارة الحاسمة التى لا تحتمل التأويل أو التأجيل . وأخيراً زهقنا أنا وستات :

- " حصل إيه يا فلانة ؟! .."

- " مفيش ! .."

- " حصل إيه يا علانة ؟! .."

- " مفيش ! .."

- " طب قولى أنت يا فلانة ؟! .."

- " أنا شخصياً ما اعرفش ! .."

- " طب وانت يا علانة ١٢" ..
- " علمى علمكم ١١" ..
- " طب مالك يا ابو عرب ١٢" ..
- " شوية كده فيه مسألة شاغلانى !"
- " نسيك تنام ؟" ..
- " لا ! سأروق حالاً !" ..

وفعلاً بدأ يعتدل مزاجه قليلاً بعد الكأس العاشرة وحرق حوالى ربع أوقية الحشيش الأخضر الفواح ذى النفس الكثيف الدخان . إلا أن ضحكاته كانت صافية، ونظراته تائهة ، ونكاته سمجة قديمة تافهة لا تبعث على الضحك بقى تبعث على الرثاء خاصة أنه يفترض أنها ستطربنا بطرافتها وعمق دلالتها ، بضحك عالٍ أجوف ، فنضحك على ضحكته حتى صرنا كالمجانين المستغرقين ضحك هستيرى بلا سبب واضح . إلا أننا وسات التقطنا خيطاً تلافت نظراتنا بسرعة خاطفة لكنها كافية للتلاقى : لقد ضبطنا سيد زناتى أكثر من وهو يسرب إلى جنونه نظرات قلقة يائسة فيها إشفاق وأسى ؛ فأدركنا أن السبب يكمن فى شئٍ خاص بها ..

ثم إن الخيط بدأ ينجلي شيئاً فشيئاً وببطء شديد ، فقال المرسل الخفى بيز وعينى ستات أننا قد التهينا فى حالة سيد زناتى وأهملنا حالة جنونة مع أنهم الأليق بالحداد . كانت فى حالة يرثى لها حقاً ، شاحبة الوجه تبذل جهداً . كى تبدو متماسكة طبيعية . كانت تقريباً شبه ذاهلة كأم فقدت جميع أبنائها واحدة فى زلزال كونى ، ومن حين لآخر تضع يدها على بطنها متألمة فيها من بطنها أصوات زغولة وكر كبة . ولو تمعنا فيها من لحظة وصولهم فى الضحى لعرفنا أن حالة سيد كانت فى الواقع رد فعل لحالة جنونة غير الطيب إضافة إلى أن عودتهم فى الضحى تعنى أنهم لم يحضروا الليلة الكبيرة ..

وكان الليل قد بدأ يسعى حثيثاً نحو المنتصف حينما هدا اللغظ فى فناء المر بين طوائف النائمين فى العراء خاصة أولئك التجار المتقلبين والباعة الس استعداداً للتبكير بالفرش فى سوق إحدى القرى المجاورة . صارت أصداً

تؤرب إلى هسهسات ووشوشات ، ليطفو على سطحها صوت دندنة جذابة جداً .
على أثر زحفها كفت الأصوات كلها كأنها تدعو صاحب الدندنة إلى رفع صوته .
كانت مجرد ياليل فى دائرة نغمية بهلوانية بين صعود وهبوط كأنها تنطق الآه
بعشرات الأحساسيس نياية عن آلاف المستمعين بالنبرة التى تطن فى صدورهم
بجميع درجات الإنفعال . ماكاد يخطمها بوقفة حاسمة كالنقطة فى نهاية الجملة حتى
ارتفع هدير جارف كرعء السماء صائحاً: " الل.. ا.. ه.. الله ا تانى والنبي
ياجدع ا الله يفتح عليك ! إيه الحلاوة دى ؟ كروان ؟! " . فى الحال تحول الجميع
الذين هم كل واحد من بلد ، إلى مستمع واحد . سمعنا أصوات أبواب حجرات
الوكالة تفتح لكى تشارك فى الإستماع وتشارك بالحضور فى مضاعفة التشجيع .
حتى شوادفى هو الآخر صاح من فوق مصطبته :

- " أنت ليلتك فل من زمن طويل لم تعرج ا بشرة خير إذن ! فهذه الوكالة
منحوسة بالدم ! آن الألوان لفرحة نشتاى إليها ا فغن ا غنى فيها ياجدع كيفما
يحلو لك ! نريد الليلة أن نضربها صرمة هذه الدنيا الوسخة !! " ..

فى الحال تقلبت صفحات جميع الألوان على وجهى سيد زناتى وجنونة . بدأت
جنونة تفقد السيطرة على نفسها ، ركبها الهم ، تقلصت ملاحظها تقبضت عقدت ما
بين حاجبيها ظهر عليها رعب حقيقى غير مفهوم . جمدت ملامح سيد جمود
الموت ، تحجرت الإبتسامة على شفثيه صارت كفتحة فم الجمجمة . تلملت جنونة
فى جلستها غيرت من وضعها عدة مرات صارت من فرط القلق تجرب وضع رأسها
على كفها فى الدقيقة الواحدة أكثر من مرة . أخيراً نظرت إلى سيد فى ضراعة
حقيقية ، شدت صوتها بصعوبة فائقة من قاع بعيد :

- " عن إذنك يا سيد أنزل امدد شوية تحت ا أنا تعبانة ا دماغى حينفلق
نصين!! " ..

فتحركت الإبتسامة على شفثيه كسمكة ميتة تتهدل بين فكيه ؛ هز رأسه
بالموافقة فيما تزوم عيناه بنظرة كدنا نسمعها تقول : الأمر هكذا إذا ؟ لا بأس لا
بأس!! لكن سيد لم ينطق مع ذلك بحرف ، بل نظر إلى الصغيرة الثانية على يمينه
وأذن لها بحركة من ذقنه أن تصعد هى الأخرى لتستريح إن كانت مرهقة من السفر.

قلبت أمره فى الحال كأنها كانت تنتظره ، وكانت أسرع من جنونة من النهوض ، بل إنها مدت يدها لجنونة فتعلقت هذه بها ونهضت واقفة تكاد تترنح. عبر فتحة الباب الداخلى فى المواجهة كان السلم الخنزونى الضيق ذى الدرايزين الحديدى الصدى يئن فى يدي امرأتين إحداهما تهبط إلى أسفل والأخرى تصعد إلى أعلى، فكنا نشاهد ظهراً موحرة مديبة يلقي ظلّه على وجهه بصدر مديب ينسلخ كل منهما عن الآخر . فتح سيد علبته الصفيح وعبأها بسجارة حمصة التبغ يحتفظ بها فى كيس كبي ر؛ ثم أشعل سيجارة نفث دخانها بعمق ؛ ثم هب واقفاً ، عبر فراغ الحجرة إلى الباب المطل على الفناء ؛ فلبس شبشبته ونزل إلى الفناء قائلاً إنه سيعود بعد قليل ليكلمنى فى موضوع ..

بقيت وحدى مع ستات والعرايشية .. ما كادت خطوات سيد تلتحق بأرض الفناء حتى مالت كل من العرايشية وستات نحو بعضهما فى انجذاب مغناطيسى يعكس شوقاً حاراً للودودة والنم ، ثم دار الهمس بفحيح يتلون بإيقاعات رهيبية ، حتى اضطرت لثنى جذعى وإماله رأسى نحوهما لكى أتمكن من الإستماع ، لكن صوت المغنى كان قد انجلى وتوهج ولعلع ينضح بالحرقة ونار الجوى والعذاب والحيرة والالم والتفجع :

- " أنا لو شكيت ربع مايبى للحجر ليدوب.

الأوله للنبي .. والثانية لايوب

والثالثة غربتى .. والرابعة المكتوب

والخامسة كنت غالب .. صبحت أنا المغلوب

والأوله للنبي ...

- " يا .. ا .. ا .. ه .. كمان والنبي ! الله يفتح عليك ! " ..

- " سجان بقتل الغرام مأمور ومتوصى

عايش على خروم الباب كل من بص

شعلل قليب السجين بالنار وبالبحس

أنا قلت يا سجان ببحس لى أشوف نخلى

قال لى عشانك ياواد مأمور ومتوصى

قاضى الغرام بربرى واللى حكم تركى
صفيت لمن يازمن لما حتصنى لى
دا الغالى بعته رخيص وترخص الغالى

كان فى صوته حرقة ولوعة ، وبجة نواح رنانة كصليل أجراس الكنائس . ورغم الضجة الصخبة التى هبت فجأة بصيحة استحسان مدوية تكاد تفتت أصحابها فى سبيل أن يستمر هذا المغنى فى إرسال نواحي الشجى الأسيان الملتهب اللاهب ؛ رغم ذلك فإن بكاء جنونه العنيف المنتحب قد صعد إلينا من الحجرة السفلية بكل وضوح يكاد يفتت أكبادنا ؛ بكاء إنسانة معذبة لا تملك من أمر نفسها شيئاً لعلها هى ذلك السجين الذى إأتمر عليه مأمور بتوصية خاصة ؛ لعل بكاءها نعيًا لحاله ، لعله إشفاقاً وتأثراً على ذلك لو شكى ربع ما به للحجر لذاب من شدة التأثر..

صار من السهل اكتشاف الروابط بين هذا المغنى بكلماته وأنغامه وبين ما يحدث الآن لكل من جنونة وسيد زناتى . هذا المغنى ليس مجرد مغن ؛ إنما هو بالإضافة إلى ذلك عاشق حقيقى ومكتو بنار أحرق قلبه لاشك . وهذا المعشوق باعث هذه النار فى قلب هذا المغنى إما أن يكون على وجه التحديد جنونة أو تكون هى فى موقف مشابه . هذا الغناء إذن هو إذاعة موجهة إلى السجين والسجان بعرضحال يطلب الإنصاف والتعاطف..

بعد أن شبت ستات والعرايشية من الودودة المقطومة الحروف الخارجة من الأنف أحياناً ، صحت فيهما بعصبية أن يطلعانى على حلية الخبر قبل أن يصينى الجنون . جعلت ستات تطوح كفيها فى ولولة واستهوال تخبط صدرها بيدها . مالت العرايشية نحوى بابتسامة ذابلة بجفاف الحلق من الخوف والتوجس ، قالت إن سيد زناتى كان نازلاً بهن على سرادق الطريقة الشاذلية كالعادة كل عام . إحتفل الرجال بهم قدموا لهم ثريد العشاء بهير اللحم . أثناء العشاء لاحظ سيد أن رجالاً من المتحلقين طبق الثريد الجاور كانوا يركزون البصر على جنونة كالمذهولين . ولاحظت العرايشية أن سيد قد انبسط فى أول الأمر إذ أنه تعود على مغازلة الناس لجنونه وانبهارهم بجمالها الفلاحى الوحشى الذى يفلت عيارهم غصباً عنهم ؛ لكن العرايشية بدأت هى الأخرى تهتم بالأمر بعد أن رأت أن دم سيد قد بدأ يتعكر على

وجهه المكفهر ؛ إذ أن الذين ينظرون إلى جنونة صاروا يميلون على بعضهم بعضاً
يتهامسون يعيدون النظر ثم يتهامسون ويتناحرون فتنفلت أصواتهم فنسمع بعضهم
يقول فى ثقة :

"هى ! نعم هى ! أقطع ذراعى إن ما كانت هى بعينها ! لو علم الناس أنها هى
وموجودة هنا تكون فرجة خطيرة ! تكون أسود ليلة ! هل الجماعة هنا ؟! أنا شفت
فلان نفسه هنا ! وفلان أيضاً ! يا للمصيبة ! الغريم وغريمه وغريم الغريم كلهم معنا
هنا ؟! أكون مقسوما لنا أن نرى كارثة ؟! ربنا يستر ولا يحدث التلاقى !! الواجب
أن نبلغهم ! الواجب ألا نبلغهم !! لا ! نبلغ اللحم على الأقل لكى يلم لحمه !!
فضوها سيرة يا إخواننا واخزوا الشيطان ! ليتنا ماجئنا هنا ! ليتنا ما شفنا ! خلاص!
لا شفنا ولا رأينا !! وهل نستطيع ؟! .. العرايشية تأكدت أن سيد قد أنصت لهذه
الدمدمة الكلامية كلها . أما جنونة والمضروبة الأخرى فلم يلحظا شيئاً ساعتها .
أحست العرايشية أن سيد زنتى انقلب حاله إعتراه القلق منذ أن تابع حيران الشريد
وهم يغسلون أيديهم ويتسللون واحداً وراء الآخر خارجين من السرادق مع أنهم
من المفروض أن يبقوا للمشاركة فى الذكر وفى خدمة غيرهم من القادمين الجدد .
ظهر على سيد أنه متوجس من حدوث شىء ، لكنه أمسك نفسه وظل مبتسماً يسلم
على الناس ويرد تحيتهم . وكان قد جلس مع نسوانه الثلاث فى الصف الأيمن
القريب من الطريق العام ، على يمينه جنونة ، وعلى يساره المضروبة الأخرى ،
وبجوارها العرايشية ، عيناها سائحة على الطريق تتسلل بين قامات الرجال باحثة عن
مقدم خطر توقعت حدوثه . وقد حدث ، لم يمض أكثر من ربع ساعة حتى رأوا
مجموعة من رجال شبان يزحفون نحو السرادق فى تهيب وحذر منبهرين بالأضواء
والصخب ، ظهر من بينهم بعض الذين كانوا يأكلون بجوارهم ، وقد جعلوا يغمزون
القادمين الجدد فيما يشيرون إلى جنونة ، فما يكاد الواحد منهم ينظر إليها حتى
يفتح فمه فى ذهول ، وتفلت منه صيحة ترقة : "هى طبعاً ! يابنت الفرطوس !"
وكان البعض منهم ينصرف مسرعاً بعد نظرة التأكد ، والبعض الآخر يبقى واقفاً فى
مكانه لا يريم ولا يجول بصره عن جنونة ..

المصيبة أن جنونة هي التي فضحت نفسها بنفسها دون أن تدري ، سقطت من
فمها شهقات عديدة لدى وقع بصرها المفاجئ على أكثر من شخص ، مع كل
شهقة كان سيد زناتي ينظر إليها وإلى الشخص فتعاضم دهشته . وكان الصييت قد
انجلى ولعلع صوته في الميكرفون ، تطرحت على وحداته وأنغامه أجساد الذاكرين
فاشتعل السرادق بالسهلة وبالصلاة على النبي مدوية في كل الأرجاء في كل حي .
إلا أن وفود الغرباء الناظرين إلى وجه جنونة لم يتوقف سيله كل دقائق بوجوه
جديدة ترشقهم بالنظرات المنذلة تتسلق جسد جنونة كله بأسف أو حسرة أو
تشف أو احتقار أو إشفاق . إلى أن دخل وفد مكون من خمسة شبان أنقاء يجذبون
شاباً أنيق الثياب جميل الصورة كسيدنا يوسف الصديق ، لكنه مهزول ضعيف
البيان كالناقة لتوه من مرض طويل قاس . وقف في مواجهتهم كطفل منبهر بالعثور
على لعبته الحبيبة التي كانت ضاعت وفقد الأمل في لقائها ؛ كاد يصيح من شدة
الفرح باسمها ؛ لكنه كان خجلاً حياً ، أطبق فمه لحظة أن شرع يهتف ؛ ثم
انهمرت الدموع من عينيه بغزارة ، فصار يمسحها بكفه الواسع لتعود فتنهمر من
جديد ؛ وإذا به ينهار قاعداً في مواجهتها . أما هي ، فياحسرة عليها ، راحت لونها
وجاءت لونها ، لم تتمالك نفسها من لطم خلعها بكفها في حرقة ولوم وتأنيب ،
نكست رأسها في الأرض لتتكون في حجرها بحيرة من الدموع حسرة على سيد
زناتي وما جرى له ساعتها من حرقة وحيرة ، كمن غطسوه في قازان مياه مغلية .
مادروا إلا وهذا الشاب النحيل قد نهض متسللاً نحو الميكرفون ، منتهزاً فرصة انتهاء
الصييت من وصلته التي اختتم بها طبقة ذكر وصار للذاكرين أن يجلسوا لالتقاط
أنفاسهم استعداداً لطبقة آخرة . أمسك الشاب بالميكرفون ، وتسلفت الآه من
صدره ربانية ندية مبللة بعرق من حرارة الشوق ؛ ياليل ياعين وحدها لمت عليهم
جمهور بقية السرادقات المجاورة والمارين في الطرقات . دخل الشاب بموال حكى فيه
قصته منذ اختفت حبة قلبه حتى اليوم ، وتفاصيل ماجرى للأهل والخلان . صار
جسد جنونة يهتز بعنف البكاء مثلماً يحدث الآن . شعر سيد أنهم صاروا فرجة
الناس كلها ؛ مال على أذن العرايشية ورسم لها أن تصطحب جنونة وتتسلل بها
خارج السرادق توهم الناظرين أنها ذاهبة بها إلى دورة المياه عند الباب الأخضر ؛

على أن تنتظر بها هناك . وبعد برهة مال على المضروبة الأخرى ورسم لها أن تلحق
بهما في هدوء . وبعد وقت قليل تسرب هو خارجاً ورائهن متحسناً الطينجة في
جيب الصديري والمطواة قرن الغزال متخفية في أسورة الفانلة الحابكة . ما كاد
يلحق بهن حتى احتواهن بذراعيه فرمى بهن في أول عربة أحجرة صادفته ، صائحاً
بالسائق : باب الحديد بسرعة يا اسطى . فلاحقوا بأول قطار أقلهم إلى دمنهور في
مطلع الضحى . وآخر ما كانت تتصوره العرايشية أن الشاب المغنى يعرف خط
سيرهم فيلحق بهم إلى الوكالة وهو وبعض صحابه الذين كانوا معه ؛ وهاهو ذا
يطارد جنونة بغنائه ، هو ذا الآن يرفع عليهم صوته بقضية يطلب الحكم فيها بقضاة
عدول ومحلفين منصفين ..

رأيتنى أهب واقفاً ، وأنزل مدفوعاً برغبة جامحة في رؤية هذا الشاب والإستماع
إلى شكواه بدقة وإمعان لعلى أقف على كل تفصيلا فيه .. هالنى منظر الجموع
المتراصة فى كل فناء الوكالة لا أحد يشعر بهم ؛ وقد بدا أنهم جميعاً قد عثروا
صدفة على ليلة فرح مجانية آمنة من المكيدة والغدر فأثروا قضاءها حتى النخاع طرباً
وانبساطاً . بحثت عن بقعة أجلس فيها قرب المغنى ، الذى وقف فى المنتصف تقريباً ،
وأحاط به جمع من رفاقه بمثابة بطانة تردد خلفه بعض الترجمات الموجهة . كان
يلف حول نفسه من حين ليواجه كل مجموعة لبعض الوقت ، شأن المغنين المحترفين
المدرين على معاملة الجمهور ..

سمعت صوت سيد زناتى ينادينى . تلفت حوالى ، فإذا هو جالس على مصطبة
شوادفى يجرع كئوس الكحول المقطر ويدخن سجائر الحشيش .. خرمت إليه بين
أجساد متكورة وأخرى متربعة أو متفرصة أو راکسة ، وكل الأعناق مشرئبة
شاخصة إلى المغنى . كانت المصطبة مزدحمة ، يجلس عليها وحوها إلى جانب
شوادفى سيد زناتى وزينهم العتريس ورمضان عريجة والبورى والحانوتى ومتعهد
أطفال الشحاذاة والمداح والمواوى وبعض ناس من حيران الوكالة ..

كان المغنى قد تعب من الشكوى ، وطال انتظاره لطلعة وجه محبوبه . وبعد أن
كان يدور حول نفسه أثناء الغناء بحاملة للجمهور صار يتلفت بحثاً عن وجه محبوبه
ليس بين الجالسين فحسب بل وخلف الأبواب والتبائيك ؛ فلما يمس من ظهوره

أطلق الموالي يناديه بصريح العبارة وضراعة النغم ؛ يسوق عليه الأولياء والأقطاب أن يتعطف عليه فيريه وجهه ولو للمحة عابرة ، أن يرحم ، أن يقدر هذه الرحلة الشاقة التي قطعها وراء طيره كى يراه ويتأكد أنه ما يزال على قيد الحياة ؛ ناهيك عن غربته السابقة وما حدث له فيها من عذاب أليم بسببه ..

هنا قال سيد زناتى فى حرارة كأنما يحدث نفسه :

- " الولد قطع قلبى يا جدعان ! ماعدت قادراً على احتمال المزيد ! أنا من دم ولحم فلا بد أن يكون فى قلبى رحمة ! قسماً بالله لأطيين قلبك وأداوى جرحك ربنا يداوى لنا جروحنا جميعاً !! سأفعل ما يفعله الرجال الذين لم تكن تحلم برؤيتهم !! سأشتريك بفعل خير منقطع المثل ! تظننى قاطع طريق ابن ليل تأويه وكالة عطية !! لا يا حبة عينى وحق أمك التى لم أتشرف بمعرفتها بعد ! أنا سيد زناتى والأجر على الله !! سأحكم بالعدل وأنا راسخ صامد ! ليس من قضاة تحكم بالعدل فىنا فلا جرب أنا الليلة مقعد القاضى !! إذا كان الحكم سيوجع قلبى وهو عدل فإن الحكم بغير العدل سيقطع قلبك !! " ..

تيقنت لحظتى أنى أشهد شخصاً آخر تماماً . وتبادل الجالسون نظرات عابثة ظننا منهم أن فرط الشرب قد أدخل سيد زناتى إلى مرحلة الشعور بالعظمة والهديان؛ فيما عدا شوادفى بالطبع ، الذى يفهم شخصية سيد زناتى على حقيقتها بكل دقة ، وإلا ما تجنبه وسلم بوجوده كنجم من نجوم الوكالة ليس من الذكاء كسب عداوته إذ أنه - كما حكى لى شوادفى مراراً - بقدر أن شرسته وعنفه ينطوى على جدعنة وطيبة قلب لا مثيل لهما . وكنت أظن أن شوادفى يقول ذلك على سبيل تبرير مبالغته فى تقدير سيد زناتى تقديراً ربما وصل إلى حد الخضوع لإرادته فى بعض الأحيان . وضح الآن أن سيد قد حكى له الحكاية ليكون سنداً له إذا ما تفاقم الأمر . هاهو ذا يوجه إلى شوادفى نظرة ذات معنى؛ فهمها شوادفى فى الحال؛ فأوماً للشيخ زينهم العتريس ؛ فقرب هذا رأسه من رأس شوادفى ، الذى مال على أذنه فهمس بشئ تلقاه زينهم العتريس بهزة من رأسه ؛ ثم نهض متجهاً إلى المغنى ملوحاً بعصاه فى الهواء علامة على طلب الصمت بلهجة من يقول : سمع هو.. و.. و.. فصمت الجميع ، وانتظر المغنى باسمًا . فاتكأ زينهم العتريس على عصاه وصاح :

- " أنتم ليلتكم فل بالصلاة على الحبيب ! ذى ليلة من ليالى العمر ! شرفنا المغنى وصحبته الله يعمر بيتهم ! ربنا يمتعهم جميعاً بزيارة النبی مثلما أمتعوننا !!
أسمعوني الصلاة على النبی ! زيدوه صلاة ! الأمر وما فيه أن الجدع المغنى يتنع من أول الليل حتى أول نهايته ونحن نسمع ونقول الله الله دون أن نضع فى أعيننا حصوة ملح ! إن المغنى من لحم ودم مثلنا ! زمانه الآن يموت من الجوع وهو غريب عن بلدتنا والغريب مكروم لأجل النبی ! أسمعوني الصلاة عليه ! زيدوه صلاة ! يكفيكم هذا الليلة أم أنكم نسيتم قيامكم فى طلعة الضوء لتفرشوا فى السوق وبينكم وبين بلدة السوق مشوار سخن ؟! أما الجدع المغنى فوراءه هو الآخر سوق أنقح وأشد !! هو بصراحة معزوم عندنا الليلة ! فهات صحبتك وتعال يامن وهبك الله موهبة الكروان !! " ..

دبت الحركة والحيوية فى الجموع تحت الأضواء الكابية كموجات بحر يثور قاعه بالإضطراب فصارت تتلاطم كمياه عكرة مسودة مزرققة ؛ كل واحد راح يحامى على موقعه يتمدد محددًا بجسده حدوده الآمنة ؛ فى تناحر ولكز ولطم ولكم وجذب ودفع وهمس وصيحات مكتومة وتهديد تتلوه صفعات وركلات وبصفات تقابلها شلاليت ؛ فيما وقف المغنى وبطانته فى بقعة محايدة فى الوسط ينتظرون بتوحس سيادة الهدوء حتى ينفذوا إلى طريق نحو مكان العزومة . هى زومة واحدة بعثها شوادفى من فوق المصطبة كزارة السبع الذى يظهر فى مقدمة بعض الأفلام الأجنبية: فتح فمه وأغلقه فحسب ، فكأن بوابة ضخمة زيقنت بخشونة فيما تجر ثقلها . فى الحال كفت الحركة تماماً كأن شوادفى بهذه الزارة قد طرح فوقهم غطاء الصمت والسكون .. فصار الفناء كأرض ترتص فوقها كئبان وأكوام من الرديم الأسود ..

شرع المغنى وبطانته يتحركون خلف الشيخ زينهم العتريس فى اتجاه البوابة عبر برزخ رفيع بين الكئبان وبعضها مشمرا ذيل حلابه . إلا أن سيد زناتى نهض مقبلاً مشيراً بذراعه للشيخ زينهم أن يرتد عائداً بهم إلى حجرته . فمضى بهم ؛ فيما سحبنى سيد من يدى ومضى بى نحو البوابة دون أن يفتح فمه . وخرجنا ، جعل يمشى فى سرعة وحماسة بخطوات متسقة رشيقة واثقة ، وثوبه الحرير السكروتة ذى

اللون السمى ، بنصف ياقة وبكمين يضيقان عند الرسغين بلا أسورة تشطرها من الداخل كسرة المكواة الحادة ، يهفهف مع الخطوات مزغرداً بالريح . ذقنه فى مستوى صدره ونظره ممتد إلى بعيد تركيز غريب . وكنت ألهث بأقصى طاقتى لكى أحاذيه فى السير فلم أجد فرصة لأى أسئلة ؛ لكننى توجست من هيئته الجادة بوجهه المكفهر المهموم ، وحدثت أن يكون ذاهباً لاستدعاء الشرطة للقبض على المغنى وصحبته ملفقاً لهم تهمة مطاردته حتى مسكنه للإعتداء عليه بنية خطف زوجه . منظره يقول هذا . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيتة يخرم فى الشوارع الأمامية النظيفة الغالية الأسعار فى كل شىء مبتعداً عن منطقة البندر بشرطته ؛ وإذا هو يتوقف أمام محل ختعن الكبابجى ، أشهر وأكبر مطعم فى المدينة لا يرتاده سوى عليه القوم الذين يفهمون فى أصناف اللحوم وطزاجتها ونفسها الشهى . تقدم من الكيس فطلب ثلاثة أرطال من الكباب والكفتة وستة أزواج من الحمام ؛ دفع مبلغاً مدهشاً دون أن يطرف له جفن ؛ دفع بقشيشاً براحة اليد للرجل الموضب وظل يراقبه حتى انتقى له أطايب القطع . حملنا اللفة الكبيرة الفخيمة وخرجنا إلى السوق ، فاستبضع أكياساً من الفاكهة مع زجاجة كونيكا وتشكيلة من الأجبان والمخللات . حملنا كل ذلك وعدنا بنفس السرعة دون أن ينبس أحدنا بحرف . إلا أنه عند اقترابنا من بوابة الوكالة نظر فى دهشتى مبتسماً لأول مرة منذ عودته من المولد ، وفى غبشة البدر النائى أضاءت البسمة وجهه فغيرت معالمة تماماً ، فبدأ الجانب المتأخم لى جميلاً وقوراً ذا هيئة تليق بكبار المفكرين والأدباء المستغرقين على الدوام فى النظر والتحليل . لوى رقبته ناظراً فى وجهى :

– " طبعاً تستكثر المبلغ الذى صرفته الآن مع أننى قادم من سفيرة مكلفة ؟! الفلوس فى النهاية هى أتفه ما فى الأمر كله ! ليتها فى داهية فلوس !! إن الجدعنة غالية الثمن يا صاحبى وليس كل جدع يقدر على دفعه مع أنه جدع !! أما الفلوس فأمرها ساهل فمثلما تجى تذهب ومثلما تذهب تجى !! أما ثمن الجدعنة فلا يذهب هدرأ أبداً !! هذه أغلى نصيحة تأخذها من أخيك سيد !! ما تعرف ديتة إقتله !! وما لا تعرف ديتة سايسه !! والباب الذى يجيشك منه الريح سده واسترح ! وإن واثاك خير يكلفك شراً فاستغن عنه يكون أكسب لك !! تلك هى معتقداتى فى

الحياة ومع ذلك لا يستطيع العمل بها معظم الوقت ! فإنها تحتاج لتدريب قوى منذ الصغر ولهذا فأنا أقولها لك حتى تضعها مسماراً في رأسك !! أنت إن عرفت أشياء كهذه ولم تعمل بها تتعذب في حياتك كلما فعلت عكسها !! وعلى فكرة ! إن كل ما أفعله في حياتي هو عكس ما أتمنى وما أرضى ولست أعرف حتى الآن لماذا أفعل ما أفعل وإن عرفت فربما أقلعت لكنني أعرف في قرارة نفسي أنني لا بد أن أعرف ذات يوم ولا بد أن يعتدل ميزاني وأعيش كخلق الله ولو ليوم واحد !! أنا الليلة سأعوض كل ما فاتني من سلوك حسن !!"

ثم دلف من خلل الباب بجانبه ؛ فتبعته ، فشيئنا صوت شواذ في بالهنا والشفاء ، ملوحاً إلى أنه قد يلحق بعد قليل .

المرسال

لا بد أن بالحجرة سحر جعلها كالمطاط تتسع للكثيرين رغم الظن بضيقها .
العرايشية متربعة على جانب من فتحة الباب ؛ وستات فى مواجهتها على الجانب
الآخر . الشيخ زينهم العتريس فى الصدارة ؛ بجواره المغنى ، وثلاثة شبان يقاربونه
فى العمر وفى اللون والوسامة وخفة الظل والعمامة الصعيدية المتأنقة فى لفة الشال
وطرفه المتدلى على جانب الرقبة ، والثوب النظيف ذى الأكماس الواسعة والأتاك
التعريض . أبدا لا يظهر عليهم أنهم أهل بلطجة أو صياغة أو خربشة ، إنما يشملهم
سمت وقور ، أقرب إلى حياء الفنانين وتواضعهم ..

رمىنا السلام وأنزلنا اللفائف . فتناولت كل من العرايشية وستات بعضها . قامتا
فى الحال فنزلتا إلى الحجرة السفلية . نهض الجالسون فى استقبالنا ، فسلمنا عليهم
بحرارة شديدة ، ثم اتخذ سيد زناتى مجلسه المعتاد ، وأشار لى فجلست قبالة بجوار
الشيخ زينهم فى مواجهة المغنى واثنين من صحبه ، وبجوارى الثالث يفصل بينى
وبينه الشيخ زينهم ، وأفصل بدورى بينه وبين ستات . قال سيد زناتى وهو يدور
برأسه نحوهم فى ترحيب وأريحية :

- " أنتم شرفتم ! أهلاً وسهلاً ! " ..

- " الله يشرف مقدارك يا راجل يا أمير الأمرا ! " ..

هكذا نطقوا فى نفس واحد . كان المغنى قد تربع فى ثقة واطمئنان كأنه وثق
تماماً من وصوله أخيراً إلى شاطئ الأمان وهامى ذى مراكبه الحائرة التائهة ترسو
على البر بعد طول شتات رهيب وسط عواصف وأنواء . وضع كفه على صدره
علامة الإمتنان ، ومشيراً إلى ذاته : محسوبكم بديع عبد المولى ؛ ثم أشار إلى من
يجاوره : وهادى أبو الحسن ؛ وإلى الجاور له : جلال الحمدي ؛ ثم إلى الجاور لى فى
مواجهته : وحجاج أبو سماعين ! أصحاب الروح بالروح مولودين مع بعض متربين
مع بعض ما نفترق عن بعض ما نتخير عن بعض ولا عن السامعين ! ..

قلنا جميعاً فى نبرة استحسان :

- " أهلاً وسهلاً بكم ! شرفتم ! أحسن ناس ! " ..

أضاف المغنى كأنه نسى معلومة مهمة فى شهادة ميلاده :

- " مركز جرجا ! " ..

- " أحسن ناس ! " ..

زادت همهمة الرد فى وقع الشبشب الحرىمى المطرقة بحدة على درجات السلم . كانت العرايشية مقبلة بالصينية ، عليها الأكواب والزجاجتين والأجبان والمخللات . انحنيت فسحبت الطبلية العجيبة التى صممها سيد بحيث يمكن تطبيقها كالحقيبة وركننها بجوار الحائط كمسند للمرفق . فردتها ، بمساعدة الشيخ زينهم وضعت عليها ما معها ؛ ثم أقعت ؛ صارت توزع الأكواب أمام الجالسين ؛ فتحت زجاجة إذ قبضت بطرف أسنانها الجميلة على قطعة الفلين فشدها ؛ صبت فى كل الأكواب ؛ إعتدلت فى قعدتها بجوار الباب . ثم دخلت ستات بصينية كبيرة ؛ فرفعنا الأكواب فى أيدينا ، فصارت تنقل من الصينية إلى الطبلية أطباق الكباب والكفتة والحمام والخبز والفاكهة ؛ ووقفت فى انتظار الأوامر ، فشييع لها سيد زناتى نظرة ارتفعت لأعلى قليلاً ثم هبطت إلى أسفل ، فاستدارت ستات نحو السلم فصعدت درجتين ونادت ؛ ثم هبطت أربع درجات ونادت ؛ نفس النداء : فلانة ! ففى الحال سمعنا خطوات النازلة ورأينا شبح رأس الصاعدة . دخلنا تربعن أربعتهن فى بقعة صغيرة متاخمة للباب حيث قربت هن العرايشية طبقاً متخماً بالكباب ..

شمر الشيخ زينهم ذراعه صائحاً : باسم الله ، وشرع يأكل ؛ فانقضضنا جميعاً على الأكل والشرب حتى أتينا على كل ما أماننا فى لحظات معدودة . وكانت شهية الحرىم أقل ، فتبقى فى طبقهن بعض قطع تملأ رغيفين ، وقدراً لا بأس به من الأجبان . وإذا بنا نسمع لغطاً عند البوابة يطول أمره ويتردد فيه اسم الحاج سيد زناتى ، مما جعل سيد زناتى ينتبه مبتسماً فى إصغاء ويقول فى نبرة تهاؤل : بشرة خير ! لقد حججنى بالجان ! .. بعد قليل سمعنا صوت خطوات قادمة ؛ فى أثرها ظهر شوادفى داخلاً بانحناءة كبيرة كى لا يصطدم رأسه بخلق الباب . سلام عليكم وعليكم السلام ؛ ثم تقرفص أمام بقايا الطعام فسحب رغيفاً حشاه بعض قطع منتقاه من اللحم ثم طواه كالقرطاس وجعل يقضم ويتكلم معاً :

- " هناك مجذوب يسأل عنك يا أبا عرب ! يقول إنه مرسال خصوصى قادم لك برسالة من سيدى القنائى !! " ..

صاح الشيخ زينهم العترىس قبل الصعايدة :

- " شىء لله يا سيدى عبد الرحيم ! " ..

وشوح سيد زنائى بذراعه علامة على أنه يرغب فى زحلقتة ؛ ثم أشار إلى رأسه بحركة من يقول : أنا فايق للمجازيب الساعة دى ؟! فقال شوادفى بكل جدية :

- " لا ! إنه ليس من المجازيب الذين هم فى بالك ! ليس معتوهاً ! بل إنه فى منتهى الإتران والعقل ! شكله ومظهره لا يقل عن شيخ طريقة محترم ! إصح للون ! أنا أيضاً فكرت أن أزحلقة وحاولت لكنه مصمم على مقابلتك شخصياً لأن الرسالة أمانة والأمانة كما يقول لا بد أن تسلم لصاحبها يداً بيد !! كأن سيدى عبد الرحيم القنائى ما يزال على قيد الحياة يبعث بالمراسيل !! إنما الرجل فى عينيه عقل لا يتزعزع ! قصدى أن تقابله على الأقل لتعرف من هو وما خبره ! بسرعة وتنتهى منه لأنه مصمم على الجلوس بجوارى حتى يراك !! ظنى أنه يخال ليقتضى الليلة عندى بالجمان لكن مظهره يشى بالفلوس وبأنه متعود على العز والسيادة !! " ..

تفكر سيد زنائى قليلاً فى انشغال بال ، فهتف زينهم :

- " وما المانع يا مولانا ؟ ليس كثيراً على سيدى عبد الرحيم أن يبعث المراسيل وهو نائم فى ضريحه !! إن سره باتع ما فى ذلك شك ! ومن يدرينا ؟! لعلها رسالة مهمة فلا داعى لأن نستهزئ بالرجل والإفاننا نستهزئ بسيدى عبد الرحيم شخصياً إذ أن كرامة المرسال يا مولانا من كرامة سيده ! أخذت لى بالك يا مولانا ؟! صرت أشعرت الآن يا مولانا أننا لو كسفنا هذه الرجل فلن يوفقنا الله فيما نود فعله !! " ..

شوح شوادفى وهو يطرح بأخر قضة فى فمه الشبيه بشاروقة الفرن :

- " الرجل يا أخانا قال شيئاً غريباً ! قال إنه خرج من حضرة سيدى عبد الرحيم بعد صلاة العشاء فقطع الطريق من قنا إلى هنا ماشياً !! وقد تأخر كل هذا الوقت لأنه حود فصلى ركعتين فى مسجد سيدى جلال بأسيوط ! وحود فصلى ركعتين فى السيدة زينب ! ومثلهما فى مسجد الإمام ومسجد السيدة عائشة

والسيدة نفيسة ! ووجد نفسه قريباً منا فانتهاز الفرصة فصلى ركعتين فى رحاب شيخ العرب وركعتين فى رحاب أبى العينين ! وفى دمنهور صلى ركعتين فى جامع التوبة قبل أن يجرى إلى الوكالة !! ظننته يهذى لكنه قال أمانة بطحت دماغى ياأخانا! قال إن سيدى عبد الرحيم القناوى كان يعرف أن سيد زناتى سيقضى الليلة الكبيرة كلها فى مولد الحسين ولهذا أرسل رساله إليه فى الشادر الذى كان فيه فلما ذهب إليه رأى سيد زناتى يركب الأوتوموبيل مع حريمه عائداً إلى هنا فتركه مدركاً أن سيدى عبد الرحيم هو الذى أوعز إليه بالرحيل لأن الله يحب أن يستره وسيدى عبد الرحيم لا يفعل هذا إلا مع من يتوقع أن يكون من بين مريديه المهمين الذين يعطيهم سره !!"

حينئذ هتف الشيخ زينهم العتريس فى وجد ملتهب وصادق الحرارة :
- "الله أكبر ! الله أكبر ! اللهم صلى على كامل النور ! إبعث يا عم ! بالجمود قلبك ياذا الرجل ! تسمع كل هذا ولا تأتى به فى الحال ؟! أعف عنه يا سيدى عبد الرحيم ! حلفتك بحق سيدى العتريس !!"

إقشعر بدننى وسمعت طقطقة شعيرات فى رأسى فهرشت مكانها ، وانعكست أنوار اللمبة النيون المدورة الملتصقة بالسقف ، على الوجوه ، فبدت الوجوه كلها ذات لون فزدقى شاحب . وقال سيد زناتى وقد ضوعفت حبرته :
- " حاجة ما كانت على البال ! فلا حول ولا قوة إلا بالله ! يا قاعدين يكفيكم الله شر الداخلين !!"

وقالت العرايشية بصوت متهدج بحرارة الإكتشاف وفطنة أهلها سكان المخيمات من البدو الرحل :
- " قلبى يحدثنى أن الرسالة التى يتكلم عنها هذا المرسال تتعلق بما نحن فيه الآن!!"

- " الخير على قدوم الواردين ! يعلم الله أنى ما قصدت إلا خيراً ! على كل حال هاته يا شوادفى !"

بخطوتين اثنتين صار شوادفى فى قلب الفناء صائحاً :

- " تفضل يا شيخ العرب ! الدار أمان !"

فسمعنا صوت حوقلة وبسملة وهمهمة مبهممة مع خطوات تقترب . ثم أطل علينا سميت عملاق مهيب ملء هدومه . فقمنا جميعاً واقفين لنسلم عليه فى احترام وتبجيل . كان أبيض الوجه دقيق الملامح وسيماً ، بلحية طويلة كثيفة نظيفة لكنها تتخللها شعيرات بيضاء مهيبية إلى حد الإيحاء بالرهبة ؛ يختفى فمه تحت جسور من الشوارب الملتحمة بشعر الخدين ؛ يلبس جلباباً من الصوف الفرسكا ذا لون رصاصى تطل من فتحة صدره خطوط القطنية الشاهى تحتها ، تلمع فى ثناياها نقط صغيرة هى الأزرار الصدفية للصدىرى تحت القطنية الشاهى ؛ يتعمم بشال حريرى كبير فوق زعبوط مغربى مدبب كالمهرم أحمر اللون ؛ يضع على كتفيه عباءة من الجوخ الأسود، ينتعل حذاء برقبة وأستك ؛ ويده عصا رفيعة من الشوم المهذب ؛ لكأنه عمدة بلدة كبيرة ، إلا أن عينيه المكحولتين فيهما شرود أشبه باللهول ، لا تستقر نظراتهما على شئ بل هى أصلاً غير مصوبة إلى شئ ولو بشكل عابر . إن لمعة الجنون بارقة فيهما بصورة غامضة لكنها مؤكدة على نحو ما . قال بصوت غنائى رصين رحيم فصيح النطق لبق العبارة منغوم كالفقيه إذ يتلو القرآن المرتل :

- " السلام على من اتبع الهدى من أبناء حواء وآدم ! " ..

- " عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! " ..

سلمنا عليه واحداً واحداً فكان يجارينا فى كبرياء وغطرسة كمن يريد الإنتهاء من مهمة ثقيلة ممجوجة ، إذ يكتفى بلمس أطراف أصابعنا فى سرعة . وسعنا له مكاناً بجوار سيد مباشرة ، واختصه سيد بشلطة سمينة ، لكنه رفضها بلطف مفضلاً الجلوس على الأرض متربعاً بحذائه كيفما اتفق . ما كاد يستقر فى قعدته حتى أخذت جنونة تعيد تنسيق ما تبقى من طعام داخل الطبق وتقدمه له فأزاحه بلطف أيضاً، وفى صمت ، أخرج من جيبه الجانبى ثمرة شقها نصفين فوضع النصف فى فيه ودس الآخر فى سيالته ..

- " تشرب شاي يا شيخ العرب ؟ " ..

- " تشكر تشكر يا ولدى ! لكن أزيجوا من أمامى هذه الزجاجات الكريهة !

أنت يا ابن الزناتى لا تعرف قيمة نفسك ! وسيدى القناوى يعرفها ! " ..

إمتدت يد العرايشية فجمعت الأكواب ؛ فمد ذراعه فى لطف وغمغم بما يعنى أنه رجع فى كلامه ثقة منه فى حسن نيتهم وأنه لا يجب أن يقطع مرحهم وصفو مزاجهم . فأعادت العرايشية الأشياء كما كانت ؛ ثم ترددت قليلاً ، ثم صبت الخمر فى كل الأكواب . هنا التفت الرجل إلى سيد زناتى :

- " هيه! أنت الحاج سيد زناتى طبعاً ! صورتك معى من لحظة خروجى ! زودنى بها سيدى عبد الرحيم ! أما الرسالة فإنها بسيطة لكنها مهمة : يقول لك سيدى عبد الرحيم القناوى رضى الله عنه وأرضاه : الأمانة التى لقيتها ذات يوم فى عرض الطريق لا تفرط فيها حتى تردها لأصحابها كاملة غير منقوصة ليجازيك الله خير الجزاء !! " ..

ثم صمت . فحط علينا صمت مطبق ، وأجهت أبصارنا كلنا إلى سيد زناتى ؛ الذى اندمج فى شرود عميق حجظت له عيناه ، فراح يفكر فى انشغال مهموم :

- " أمانة ماذا ؟! أنا لم ألق أى شىء فى الطريق طول عمرى ! ياما حلمت فى طفولتى بمحفظة ألقاها فى الطريق أو كنز فى حفرة لكن شيئاً من هذا وذاك لم يحدث أبداً !! يعلم الله أنى ما أذكر شيئاً ! فإن كان سيدى عبد الرحيم متذكراً فساكون مسروراً لو فكرنى !! " ..

شوح الرجل قائلاً فى فروع بال :

- " هذا ما قاله لى شيخى ومولاي ! وما على الرسول إلا البلاغ ! اللهم إنى قد بلغت! اللهم فاشهد !! " ..

فبدا الإنشغال فى أعيننا جميعاً ؛ وظهر التوجس واضحاً فى عيون الصعايدة . قال الرجل كأنه يشفق علينا :

- " على كل حال أنا قاعد فى رحابكم لبعض الوقت فرما تتذكر ! سيدى عبد الرحيم لا يكذب ولا يخترع ! كل ما فى الأمر أن الحياة هو ولعب وزينة والإنسان فيها نساى بطبعه ! عودوا إلى ما كنتم فيه فاشربوا ورفشوا ! لا يخذعنكم وجود جسدى أمامكم ! فساخطف رجلى للصلاة فى مسجد سيدى أبو المكارم بجواركم !! إتركوا جسدى فى حاله حتى أعود إليه فأحملة فأمضى به إلى شيخى ومولاي كى أبلغه رد الرسالة !! " ..

ثم تلملم في جلسته ، صار يعدل نفسه وسمته في عدة اتجاهات حتى تمكن من تحديد جهة القبلة ، فولى وجهه تجاهها ، فصار وجهه قبالة السلم الداخلى بانحراف يسيرة ، وظهره في مواجهتها بانعطافة حادة ؛ مما جعل الحريم ينزوين عن الساحة الفراغية أمامه كأنهن يخشين من قطع الطريق أمامه إلى السماء . اندمج في صلاة حقيقية قطعت صلته بالجالسين تماماً . إعتدل سيد زناتى مفتعلاً ابتسامته قائلاً :

- " يرجع مرجوعنا لموضوعنا ! ما حكايته بالضبط ياسى بديع !؟ لا تخبئ شيئاً فنحن إخوة ! قل لنا الحكاية من طق طق لسلامو عليكم ! " ..

فاعتدل بديع متنفساً الهواء بعمق ، كأنه أنقذ من الغرق .

بديع

.. "حكاييتي بعد الصلاة على الحبيب عجب في عجب ! لو كتبت بسن الإبر
على مآقي البصر لكانت عبرة لمن اعتبر !! ظلمنى الصديق والحبيب والزمن !..
" كان ياما كان شاب اسمه بديع ! شغلته فكهانى ! ربنا فاتح عليه ! لديه محل
فى سوق البلد ورسمال وفير والأشيا معدن ! قلبه مجروح بسهم الفن ! وجرح الفن
دواؤه الحب !!..

" كان يحب الله فى خلقتة ! فى برتقاله وعنبه وعنابه وخوخه ورمانه وبلحه
وكمثراه والمأنجو والجوافة والتفاح والتين ! عشق بستان الله تبارك صنعته : إذا
كانت هذه فاكهة الدنيا المباحة حتى للفاسقين فما بالك بجنة الآخرة المدخرة للأبرار
والصالحين والمطهرين !!؟..

" أصبح يغنى للفاكهة كأنه يغنى للحب نفسه ! ويغنى للحب كأنه يغنى
للفاكهة بأنواعها : يافكيه وبديع ياتين ياللى حلف ربنا باسمك ياتين !! بلادك بعيدة
ياعنب والغربة محطفت لونك !! يا صوابع الحبيب ياموز !! ياورد الخدود ياتفاح !!
ياخوخ عخانونا الحبايب واحنا لم خنا !!..

" فكهانى فكيه ! قلبه نزيه ! يغنى فى الأفراح بالبحان !! كل الصبايا فواكه !
وكل عروس فكيه !! موال الفكهانى لا يتبدل أبداً وإن تجدد دائماً !! لو نساء
يذكره به العشاق فى الأفراح !..

وصل الكلام فى الغنا لفكيه ! أخت صاحبه العزيز ! لا عمره شافها ولا كان
يحلم أن يشوفها ! لكنها أخذت مواله رسالة شخصية لها !! أحبت الفكهانى وقعت
فى غرامه وهو لا يدري !!..

" الحب كالعطر لا يتخفى أبداً ! وصل الخبر بالشوق للفكهانى ! حرك شعوره
شعلل فواده ملاء بالشوق بالخيال بالأمان أصبح يغنى للحبيب بالعينية ! أصبح يغنى
لحبيب معين مقصود لذاته !! أصبح موال فكيه قاصداً شخصية فكيه وحدها بعد
أن يقصد الفاكهة فى أصل وجوده !!..

" سخن قلب الكلام فأضاء النغم وأجلى الصوت صاعداً من قلب موجوع
لسعته نار الحب بحق وحقيق !! بعد أن كان الغناء خيلاً حلواً أصبح تجربة حية
تخلب لب السامعين تصل إلى قلوبهم بسرعة النار في حطب جاف!!..

" فى البلدة مائة فكيةهة بالاسم ! لكن موال الفاكهة هو الذى أصاب بغير
تصويب فرشح بدلاً من الفاكهة فكيةهة أخت صاحب الفكهانى المغنى !!..

" قال الفكهانى المغنى : يا دار ما دخلك شر ! فأنا فكهانى ميسور الحال تتمناه
أى فكيةهة فى البلد ! وحببية القلب هى أخت صاحبى فما الذى يمنعنى من
خطوبتها على سنة الله ورسوله والمؤمنين ؟!!..

" جمع الفكهانى وجوه قومه وراحوا يخطبون فكيةهة للفكهانى ! المغنى صاحب
أخيها الروح بالروح !! لكن الزمن طبيعته الغدر بسبب وبلا سبب !! قوبل
الفكهانى بما لا يستحقه من الجحود والنكران !! رأى الفكهانى غدر الزمن فى عينى
صديقه العزيز فركبه الهم والألم !!..

" صاح الفكهانى من فجيئته : ما الذى غيرك يا عبد المولى وأنت صديقى
الصدوق ؟!! لا أنت صديقى ولا أعرفك وليس لك عندى أى طلب ولا أى
حاجة !!.. لماذا يا عبد المولى كفى الله الشر ؟!! ليس صديقاً من تغزل فى أخت
صديقه علناً وفضحها فى نفي الأفرح ! ألك عين بعد هذا كى تجى وتطلب يدها ؟!
أتريد أن تكمل الفضيحة ؟! أجمعلهم يقولون كان بينه وبينها أمر الله ؟! أتظن أن
بجيتك خاطباً يعفك من ذنب الخيانة والبدء بالعيب يا بديع ؟! من الذى أطلعك يا
بديع على الأماكن التى وصفتها فى موالك من جنسها ؟! لقد أبدعت فى وصفها
يا بديع فأين رأيتها وكيف تمليت من صورتها لتعرف لون عينيها وطول رموشها
وجدائل شعرها ونحول خصرها ورمان صدرها وخوخ خدودها وتفاح كعبها ؟!
أرأيت كل ذلك بعينك يا بديع ؟!!..

" قال الفكهانى لصديقه القديم الحميم : يا عبد المولى إنه موال قديم قدم
الفاكهة والجنائنية ألفه غيري عن الفاكهة الفكيةهة ولم أضف إليه إلا صوتى الذى
يشيل مشاعرى فوق حسى !!..

" قال عبد المولى ي: ولكننا لو زوجناك أختى فكيهه تثبت للناس أن الفضيحة كانت على أساس فلا دخان بغير نار !! وسيصدق الناس أنك بحكم صحوبيتك لى اتصلت بأختى من وراء ظهري وهذا تطير دونه الرقاب !!..

" يهديك يرضيك يا عبد المولى ! لا فائدة !! يا عبد المولى أنا واقع فى حب البنية من أظافر قدمى إلى شعر رأسى !! لا فائدة !! يا عبد المولى والبنت تحبنى وترحب بالزواج منى ! ركه العفريت : بنت من هذه التى تحبك : أتقولها فى وجهى يا بديع ! ألسأ أملاً عينيك إذن ؟ أعندنا بنات تعرف هذا الكلام ؟! الحساب ليس وقته الآن يا بديع وأنت من الآن لم تعد صاحبى ولم أعد أعرفك !!..

خرج الفكهانى غارقاً فى دموعه ووجعه ! شعر أنه ربما يكون أخطأ فى حق البنية ! صمم أن ينقلها من الفضيحة بأى ثمن لأن الشبان سيتراجعون عن التقدم لخطبتها ولسوف يكون مصيرها واحداً من اثنين : إما أن يلتزم أحد شبان عائلتها بالزواج منها وإما أن يقتلها عبد المولى يعنى هى فى الحالين مقتولة مقتولة !!..

- " راح الفكهانى يبعث المراسيل كل يوم بغير جدوى ! عبد المولى يرفض كل محاولة للكلام فى الموضوع من أساسه ، لم يكرم وفادة الكبراء الذين توسطوا لديه !! البنت راشدة والفكهانى كامل الرجولة فلماذا لا يتم الزواج بإرادتهما ؟! إشتكى الفكهانى للعمدة ! العمدة سأل البنت هل ترغبين فى الزواج من بديع يا فكيهه قالت نعم ولا زوج غيره مدى الحياة !! فلما سمع عبد المولى قولها هذا قصرت رقبتة أمام الرجال فبيت النية على قتلها فى أواخر الليل !!..

" تأكدت البنت من غدر أخيها ! فحين أصبح الصباح لم يجدوها فى الدار ولا فى البلدة كلها !! قامت المناحة ! أصبح الفكهانى أكثر انشغالاً بالبحث عنها من أخيها !! داخ ورائها فى كل البلاد ! صرف رسماله فى السفر ! أغلق دكانه ! ساءت حاله ! أصابه الهزال ! جاعوا بينات الدنيا فلم يقبل بغيرها بديلاً !!..

" صار الغناء فى الأفراح والموالد سلوته الوحيدة يطفى فيه ناره ! صار يعنى كما يقرأ الساحر تعاويذه وتعازيمه لعل ضراعتة تصل إليها حيثما تكون فيرق قلبها فتعود إليه !! والزمن الغدار النذل يمضى ببطء فلا يأتى البريد بأى أخبار !! نسيها الناس باتت مجرد خبر قديم لا يصح تذكره !! أصبح اثنان فقط فى هذه الدنيا

ينتظران فكيهة : بديع ليتزوجها ويبدأ حياته وجنته ! وعبد المولى ليقتلها ويغسل عاره ..

" وبالأمس بينما كان المغنى يتجول فى شوارع مولد الحسين جاءه نفر من صحابه بالبشارة : طائر كالتائه منك ظهر الليلة فى قفص مع سجان فى الشادر الفلانى !! الروح ردت فى الفكهانى ! إندفع يجرى ! لم تسعه الدنيا من الفرح لما رأى طيره يجلس أمامه وجهها لوجه ! كاد يرمى فى حضنها ويكى ويشتكى لها لوعة الفراق وفرحة اللقاء غير المنتظر ! لكنه لم يستطع لأن طيره كان فى يد غيره ! كاد يسقط مغشياً عليه من القهر لولا أن أهمله الله برؤية النفير لحظة انتهاء الصييت ! أمسك بالنفير وراح ييئه ذات نفسه ! فى غمضة عين وانتباهتها لم يجد طيره !! آكان حلماً كاذباً لمدة وجيزة ؟ ..

" نزل يجرى متخبطاً فى الشوارع ! رأى السجان يضع طائره فى سيارة ! والسيارة تنطلق ! صاح كالثكلى يستنجد بالناس لإيقاف سيارة خطفت قلبه ! من حسن حظه شاهده واحد من الشادر يعرف السجان معرفة شخصية ! أعطاه اسمه وعنوانه ! رمى الفكهانى بنفسه فى سيارة وأوصاها بأن تلاحق السيارة الحاملة لطييره ! لحق بها ! ركب نفس القطار ! جاء إلى هنا !! ..

" أما الفكهانى المغنى فإنه أعوذ بالله من قولة أنا !! وأما فكيهة فإنها هذه التى تجلس بجوار الباب وقد تغير شكلها أصبحت من الهوانم تكشف وجهها وذراعها ولا بد أنها أطلقت على نفسها اسماً آخر غير اسمها الحقيقى !! ..

وفكية

.. " نعم أنا أحببته ! أحببت بديع الفكهاني من قبل أن يضعنى بدلاً من الفاكهة فى الموال !! كونه صاحب أخى من صغرهما لا دخل له فى الموضوع !! يعنى لو ما كان صاحباً لأخى عبد المولى كنت سأحبه سأحبه !..

" هو كان يدخل دارنا مع عبد المولى كثيراً لكن عمرى ما تملت منه ولا شفت شكله كله ! إنما شفت حسه عندما يعنى فى الأفراح ! لا فرح بغير صوت بديع الفكهاني يعنى فيه !! ولا فرح إلا وأنا جالسة على سطح الدار ومن حولى كل الصبايا تتفرج على بديع الفكهاني ! حسه الخلو يسعى فوق الأسطح يأسرنا فنبكى من الفرحة ونفرح من البكاء لا نريده ينتهى أبداً من الغناء !! كل الصبايا كن يحبينه ! لأنه هو الفرحة ! حتى اسمه ! حين يذكر أمام أى صبية أو أمام أمها فإنها فى الحال تبسط كفيها نحو السماء تهتف : إنشاء الله يارب بشرة خير !!..

" سيرة بديع الفكهاني إذا جاءت فى أى كلام فإنها بشرى بالفرحة الذى لا بد سيقام ليغنى فيه ويشعل عيال الرجال وقلوب الفتيات وصدور النساء !! وكل صبية تسمع غناء بديع الفكهاني يجيئها هاتف يقول لها إن بديع يقصدها هى بالذات ويعنى لها !! تشعر بنفسها فى الحال ! تزداد النصف حلاوة ورواقه !! لما يعنى بديع الفكهاني ينسحر الرجال ينسون همومهم يتصالح المتخاصمون ليجلسوا معاً صاف يالبن حتى يسمعوا المزاج دون تنغيض ! الفرحة يعم ويشمل ! الكل يصير عريس يعود إلى داره رائق المزاج خلى البال يقيم عرساً فى داره !! شوارع البلدة تقرأ كلها تسهر الدكاكين فى الحوارى تباع وتشترى والحركة لا تكف !! طوائف جاءت من البلاد القريبة لتسهر فى الفرحة ! والكل فى حركة وبهجة وزغاريد وأعيرة نار لكن صوت بديع الفكهاني هو الذى يغطى على كل شئ ! يدلق النفير موجاته فيحضنها الهواء يوزعها بالعدل على كل أذن فى كل دار ! ويكون أوضح وأصفى للساهرين فى الغيطان !!..

" يوم المنى ليلة أن شعرت أنى فكهة الموال وأننى العنب والخوخ والرمال والتفاح والمشمش والمالجو والكمثرى !! فى مواله القديم كان يشبه الناس بالفاكهة

فليتذاك سمعته يشبه الفاكهة بي ! فالعنب فيه عناقيد صبرى ! والخوخ سرق حمار
خدى ! والتفاح يتساقط من كعبي!!..

" من القلب للقلب رسول هكذا يقول المثل ! وقلبي دائماً أصدق من عقلي!
سمعت الطرق على بابها فانتفضت تلقيت المرسال الذى تبه قلبي إلى أن الموالم جواب
مبعوث لى أنا وحدى ومكتوب عليه اسمى وعنوانى وأوصافى !! صورتى كانت فيه:
العين الواسعة طويلة الأهداب ! والرقبة الطويلة العريضة النحر !! مرة فى إثر مرة !
ليلة تعقب ليلة ! شعرت أنه يتعذب يصرح طالباً أن أحسن عليه أن أرد ولو بكلمة
بلمحة بإشارة يد تخبره أن الرسالة وصلت وأنى على العهد باقية حتى يحين أوان
اللقاء!!..

" أقول الصراحة : بعثت إليه ا هل أنكر ؟ هل أقدر على الإنكار ؟ هل
يستطيع الزمار تغطية ذقنه أثناء النفخ فى المزمار ؟ ولماذا أنكر ؟ هل فعلت
حراماً ؟ وقعت فى المحذور ؟ إرتكبت جريمة بشعة ؟ بعد الشر عنى فأنا تربيت
على الغالى ! لست أفعل جريمة إذا بعثت لصاحب أخى بالسلام مع أخته ! مجرد
السلام ! بعلمها دخل سلامى فى الموالم ! وجاء فى الموالم جواب يرد على السلام
بألف سلام وتحية ! طلب الدخول من الباب الشرعى ! رحبت طبعاً ورقص قلبي
من الفرح ! لن أجد عريساً أحسن من بديع ولكن كيف أقول هذا وبلدتنا تحرم
كلمة الحب إذا طلعت من فم الصبية أو صرح بها الصبى ؟ هل البنت فى بلدتنا لها
رأى ؟ الحب موضوع للغناء فحسب !! خفت أن أبعث له بالسلام ثانية ! سكت
وأنا على جمر النار!!..

" وفى ليلة دخلوا على القاعة ! قالوا إن بديع الفكهانى فى المنذرة مع عبد المولى
جاء يخطبنى وعبد المولى يعاركه يجبس دمه فى كل كلمة ! ما أعرف لماذا كبرت فى
دماغ عبد المولى ؟ جاء الجدع يخطبنى وهو الذى تتمناه أى فتاة من أكابر العائلات!
ووضع نفسه تحت أمر عبد المولى يطلب منه يشاء ليتم الفرح !! هب فيه عبد المولى!
خلق له خصومة غير مفهومة!!..

" عبد المولى مخه ناشف ! ونشfan مخه خرب بيتنا أكثر من مرة ! حكم على
بالإعدام ! شردنى ! حرمنى من حبيب قلبي الذى تمنيته وتمنى هو رضائى!!..

" كرهت عبد المولى لأنه يحدد مستقبلى فى سجن لا نهاية لمدته !! من الغيظ
تحديته ! قلت للعمدة بالفم المليون وبصريح العبارة إنى أحب بديع الفكهانى ولن
أتزوج بغيره !! غلى الدم فى عروق عبد المولى ! إستعد لقتلى فى نفس الليلة ! قتلى
للمرة الثانية !! لم يهمنى القتل بالسكين بعد أن ذبح قلبى وصى دمى بغير سبب
سوى الغرور وحب النفس !! ..

" أنا لم أهرب من القتل ! إنما هربت انتقاماً لنفسى من عبد المولى !! رحبت
بالموت لكننى لو تركته يقتلنى شفيت غليله ورفعت رأسه فى البلد على حساب
ظلمى وحسرتى !! قلت لنفسى : أنانية بأنانية ! سوف أهرب لأجعل عبد المولى
يعيش بقية عمره غارقاً فى العار حتى أذنيه !! ..

" وأنا لم أكن عاراً عليه لكنه هو الذى خلق العار لنفسه ولى ! فليشرب هو
الآخر من كأس الحسرة التى سقانيها !! ..

" كنت أعرف أن من خرج من داره قلّ مقداره ! وأن الغربية ذل وبهدلة !
لكنها أهون ! الغربية نصف الموت الذى كنت سألقاه بسكين عبد المولى ! إنما ربك
كريم ! تركت بر الصعيد كله ركبت القطار إلى طنطا شئ لله يا شيخ العرب ! هو
الذى نادانى ! هاتف قال لى يا بنت اركبى هذا القطار الذى يزدحم عليه الناس
بكثرة ! قلت للناس أمام شباك التذاكر لماذا هذه الزحمة على هذا القطار ؟ قالوا نحن
ذاهبون إلى مولد البدوى قلت شئ لله يا شيخ العرب وركبت معهم ! دخلت مقام
الشيخ أقرأ له الفاتحة وأطلب منه أن يكون معى فى غربتى ويوقف لى أولاد الحلال
فى سكتى بكراماته عند الله !! بعدها بقليل رأيت العرايشية هذه تتكلم معى ثم
تعزمنى على الغداء ! كلمة منى كلمة منها حكيت لها ظروفى كلها !! قالت !
يهمك من شئ طول ما أنت معنا !! ..

" نمت معهم ! بعد انتهاء المولد أتوا بى إلى هذه الدار فبدأ الفأر يلعب فى عبنى
لكن الحق لله فاجانى سيدي زناتى هذا بأن عرض على الزواج حتى أطمئن وأعيش
معهم فى سلام ! قلت : وزوجاتك هؤلاء ؟ قلن قبله : الشرع حلال له أربعاً والمهم
موافقتك أنت !! حسبته فى دماغى : ليس لى مكان ولا أقارب وإن عشت مع

سید زناتی وزوجاته فلن أسلم من الشيطان ولا من لسان الناس فخير لي أن أتوجه
على سنة الله ورسوله وأستريح !!..

" من حسن حظي أن سيد زناتي لا يحب خلفه الأولاد ووجع دماغها !! ومن
يعيش بين قوم لا بد أن يتطبع بطباعهم ! فكل النساء هنا يعرين أذرعهن وشعورهن !
لكنني بفضل الله لم أتجاوز الحلال خطوة واحدة ! " ..

الفاجعة

إعتدل الرجل المجذوب فواجه الجالسين ، وطوى المسبحة الطويلة فدسها فى جيبه ووضع يديه مطبقتين فى حجرة ؛ ثم قال كأنه لم يعترف بكل ما دار من حوله :
- "والآن ماذا أقول لسيدى عبد الرحيم ؟! هل تذكرت ذلك الشيء الذى لقيته فى الطريق فحملته إلى هنا لتنتفع به أو تدخره ؟!" ..
فنهزه سيد زناتى بعصبية لم يستطع السيطرة عليها :
- " إنتظر يا عم حتى نحل هذه المشكلة العويصة !!" ..
ثم انتبه إلى أنه شوح فى وجه الرجل بغلظة على أثر نظرة عتاب قاسية وجهت إليه من عين الشيخ زينهم العتريس ؛ فيما يشبه الاعتذار أعاد قوله بهدوء :
- " عدم المواخذه نحن الآن فى شدة ! أنت طبعاً غير دار بشئ مما يجرى حولك ! فحللك فى صلاتك وأورادك حتى نحل هذه المشكلة التى لم تكن تتوقعها !
أدع لنا فى صلاتك أن يوفقنا الله إلى الحل الصحيح !!" ..
بدا على وجه الرجل المجذوب أنه لم يفهم شيئاً مما قيل بل لعله لم يسمعه أصلاً ،
إذ قال كأنه يبلغ الرسالة لأول مرة :
- " يقول لك سيدى عبد الرحيم إحتفظ بالأمانة حتى تردها لأصحابها-
الأصليين ! هذا كل مافى الأمر !!" ..
- " ديك الأمانة على ديك أصحابها ! أقول لك إننا فى مأزق حرج فلا تخرج
منه وتشتت سخنا !!" ..
- " وأنا أقول لك قولة سيدى عبد الرحيم : إحتفظ بهذه الأمانة حتى تردها
لأصحابها !!" ..
- " حاضر ! حاضر ! سمعاً وطاعة ! فهمنا ! حين أكتشف هذه الأمانة سأذهب
بها بنفسى إلى سيدى عبد الرحيم شخصياً !!" ..
- " وإذن فلا تتأخر لأن قطارنا يتأهب للحركة ! يادوب تقوم فتلبس
هدومك !!" ..

ثم نكس رأسه وأخذ يتمتم ببسبسات غامضة . ونهض سيد واقفاً ، قفز إلى الباب المطل على الفناء ، نادى شوادفى بأن يجئ حالاً . فكح شوادفى وسلك صوته بصعوبة من قلاقل النوم ، وقال بصوت متحشرج إنه قادم ..

وكان ضوء الصبح قد صبغ الدنيا بلون الإردواز ، وبدأ يحتاط بضوء اللمبة النيون المدورة ويخنقه . ثم دخل شوادفى يدعك في عينيه مبدياً دهشته من عمق نومه لدرجة أن الجميع النائمين في الفناء قد انصرفوا دون أن يشعر بهم ؛ وتساءل إن كان ما حدث بالأمس من فرح حقيقي حافل قد حدث حقاً أم أنه كان يحلم بذلك فوق المصطبة ؟ فقال سيد زناتى إنه حدث والدليل على ذلك أن المغنى لم ينصرف بعد ؛ ثم أضاف أن الفرغ الذى بحق وحقيق هو ما سيحدث بعد قليل . وكان قد انتعش فجأة بمجرد وصوله إلى الباب وعودته ؛ ثم أيقظ انتعاشته بكأسين متتالين من الكحول الأبيض المقطر ؛ ووزع دوراً من السجائر وحببات الفاكهة على الجالسين ؛ ثم قال بلهجة حكيم نطاسى فهم الدهر والأعيه وأخذ من متع الحياة كفايته :

- " شف يا أخ العرب ! أنت قطعت قلبى ! وأنا لا يطاوعنى قلبى أن يكون حقلك حلمك عندى وأحرمك منه ! يكفى أننى تمتعت به وقتاً طويلاً من الزمن اختصر من زمن متعتكم معاً !! كل شئ قسمة ونصيب !! فهذه هى حبيبتك فكيهة ! سأطلقها الآن ! ولتعقد قرانك عليها فى أى وقت تشاء ! ولك أن تتسلمها الآن معززة مكرمة ! إن فكيهة جوهرة ثمينة وبنت حلال عفيفة نظيفة الذيل هذه شهادتى أمام الله ! أنت جدير بها وهى جديرة بك ! لها مبلغ فى دفتر التوفير يمكن أن ينفعكما ! والآن شف شغلك يا شوادفى !! "

ترجع شوادفى موجهاً الحديث إلى :

- " هات ورقة وقلماً يا أحنانا وأنا أملى عليك ! "

بدت فى عيون الرجال نظرة استفهام غامضة ، تلقفها سيد زناتى ، فشرح لهم فيما يشير إلى شوادفى بكل جدية :

- " هذا هو مأذون الوكالة ! وهو الذى عقد قرانى على زوجاتى وكل من تزوج فى الوكالة !! "

ثم سحب أجنده من قعر طاقة مجاورة لكتفه ؛ نزع منها ورقة سلمها لي مع الأجنده لأسند عليها . فلمع في عيني شوادفي ذكاء جهنمي ، قال :
- " لقد تزوجتها باسم جنات عبد الخالق أبو عيش !! فهل تطلقها الآن باسمها الحقيقي ؟! " ..

طق الشرار في عيني سيد زناتي كأنه انتبه لهذا المأزق على حين غرة ، لكنه هتف :

- " معك حق ! ولكن لا ! لو طلقناها باسمها الجديد وهو الصحيح نكون طلقنا امرأة أخرى ! طلقها باسمها المكتوب في عقد القران : جنات عبد الخالق ! وأضف إلى اسمها عبارة : التي أتضح الآن فقط أن اسمها فكيهة كذا !! " ..
قال شوادفي كأنه يدعو لنفسه بإعلان مجاني :

- " رأيت ؟! هذه ميزة أن تعقد قرانك عندي ! عند غيري كان لابد أن تحدث الآن مشكلة تعطل الطلاق ! هي نفس المشكلة التي كانت تعطل الزواج ! هيا يا أختانا فاكتب ما أمليه عليك من صورتين لكي يأخذ كل من الطرفين صورة من عقد الطلاق !! " ..

وجعل يملئ على صيغة الطلاق ، والرجال يتبادلون النظر ويكتمون الضحك واللهشة والممزوجة بحب المغامرة لطرافتها ، كأننا جميعاً أطفال نمارس لعب مشروع. حتى إذا ما انتهى من الإملاء نقلت من العريضة صورة ثانية ؛ ثم قدمتهم لسيد زناتي فوق عليهما بإمضائه ، وبلحونة فبصمت ، ولنفسى فوقعت بشهادتي والشيخ زينهم العتريس فوق بشهادته ولشوادفي فوق أيضاً . سلمت لكل من الطرفين صورة ، أطبقها ووضعها في جيبه . ثم حانت منى لفتة عفوية إذ سقطت عيني في عيني الرجل المخبوب ، فاصطدمت ببركان من النار المتأججة تعمل على إخمادها قوة خرافية ..

تأهب الرجال للقيام ، فيما راحت ستات تبكي في صمت ، تجاوبها العرايشية بدمع قليلة . أما "المضروبة" الأخرى - والتي هي من اكتشاف ستات - فقد حط عليها فحول تجمد في عينيها فاستسلمت لشروء مذعور ؛ ربما لأنها بدأت تتذكر مصيراً مشابهاً قد يحقق بها ذات لحظة قادمة ..

وقف الرجال بالفعل ؛ فاضطرب الرجل المجنون فجأة وظهر عليه التوتر وهاج
البركان المشتعل في عينيه ، لحظتها فحسب ، شعرت أن عينيه ليستا بعيني ناسك
مجنون بالعشق الإلهي ولا يمكن أن تكونا كذلك . فانتابني كثير من القلق
والتوجس . راحت جنونة تعانق النساء وتبكي بكاء الفرح العميق كأنها تقول لمن
بشفرة يفهمها جيداً : العقبى لكن بإذن الله تتحررن من هذه الوهدة في الغربية
الذليلة فتعدن إلى وطن الحلم القديم الأصيل .. وسلم الرجال على سيد زناتي
واندجوا في شكر وترحيب ودعوة لزيارة الصعيد . ثم تسلت جنونة فأنت ببقجة
ثيابها التي وضح أنها أعدتها من قبل ، وحين سلمت على سيد لفت يدها بطرف
شاهها، فقال لها :

- " إعتبرني أنا لك ولبديع ! لن أنساك أبداً يافكيهة ! أقصد يا جنونة ! " ..
إنسلت بديع بلهفة فدفع جنونة أمامه محضناً عليها ، ومن خلفه صحابه ،
فالمجنون فسيد زناتي فزينهم العتريس فأنا تقرع خطواتنا على السلم في جلبة
كبيرة ..

صرنا في قلب الفناء . وهنا انفجر البركان الذي في عيني الرجل المجنون . لم
يستطع السيطرة على نفسه ؛ إنفرط الهيكل الذي كان يضع نفسه فيه، فصار يشوح
بحركات سوقية ويكاد يشخر ويسب الدين . لعله فعل ذلك بصورة أو بأخرى قبل
أن يتكلم ؛ لكنه سرعان ما عاد فتشبت بالشخصية التي جاء بها ، فصاح :

- " قف مكانك أنت وهو ! " ..

كان الصوت مختلفاً تماماً ، ليس ذلك الصوت الناعم الذي ينم عن سداجة
وصفاء ، بل كانت صيحة ابن ليل خشنة قاسية . مع ذلك استرد هدوءه موجهاً
الكلام لسيد زناتي فيما تسمر الجميع في أماكنهم متوجسين منهولين :

- " نخت الأمانة يا زناتي ! لم تسمع نصيحة سيدي عبد الرحيم ! كان يجب
أن تسلم الأمانة إلى أهلها ! " ..

- " أي أمانة يارجل يا طيب ! الأمانة هناك في السجن ! " ..
- " هذه الأمانة التي لم تفهمها أيها الغبي رغم أنك رجل داير ومفتح ! " ..
وأشار إلى جنونة ، ثم كرر :

- " هذه هي الأمانة ! لا بد أن تسلمها لأهلها !! " ..
- " وأين هم أهلها ؟! " ..
- " أنا أهلها ! ولا بد أن تسلمها لي غضباً عنك وعن أى مخلوق !! " ..
صاروا ينظرون فيه بتوجس وذهول كبيرين . وقالت جنونة فى اضطراب
واضح:

- " أنا يا عم لا أعرفك ! فمن أين طلعت لى ؟! " ..
بسرعة هائلة امتدت يده فخلعت اللحية المستعارة ، ورفعت العمامة ، وصاح
بلهجة تتضح بالغدر والندالة :

- " أنا أخوك عبد المولى يا فاجرة ! حتروحى منى فىن ؟! " ..
صرخت جنونة وتهاوت ، فتلقفها بديع وأسندها مغشياً عليها من هول المفاجأة،
حملها كلبشة القصب على كتفه وانطلق يهرول نحو البوابة . لكن يد عبد المولى
كانت أسرع من البرق ، شددت الطبنجة من تحت إبطه ، فى لمح البصر دوى
الرصاص منطلقاً متلاحقاً فى دربة ومهارة . سقط بديع بحمله على الأرض ، فلاحق
بهما وأفرغ فى رأسيهما رصاصات ؛ وأسرع يغير مشط الرصاص بمشط جديد ،
لكن سيد زناتى كالفهد انقض عليه من الخلف فطوقه بذراعين كالحديد ، فسقطت
الطبنجة من يده فالتقطها واحد من صحاب بديع ثم تذكر فتركها تسقط من يده
إثر صرخة من شوادفى تحذره من البصمات وتغيير المكان . ثم تقدم فكتف عبد
المولى بجبل من مسد .

الحنين

طال بي السأم والقرف والفلس ، ودوشة الدماغ . كل يوم والثاني فى تحقيق ، من المباحث إلى النياحة إلى المحكمة . من حسن الحظ أن مصاريفى فى الأيام الأخيرة كانت قليلة ، والعمل كان نادراً . مزاج سيد زناتى بات متوعكاً مختلفاً ، لا يجيد رسم الخطوط التى تدر دخلاً كبيراً . ضولت المشاوير التى أقوم بها مع ستات ، دارت فى فلك تقليدى قليل الخبرة وإن كان يأتى برزق المصاريف اليومية : الإدعاء بأننا غرباء تعرضنا للسرقة ونطلب من الله ولا يكتر على الله أجرة القطار ، فلا يجتمع فى المنديل إلا ما يزيد عن أجرة القطار فعلاً بما يكفى عشوة ليلة أو ليلتين ..

كانت ستات قد استجابت لنصائحي السرية فنفرت من المشاوير السخيفة التى لم تكن تحبها فى الأصل لولا ضغوط سيد وظروف أكل العيش ؛ من قبيل النصب على بعض العمد ومشايخ البلاد وذوى الأملاك المتصايين ؛ بإقامة علاقة وهمية معهم تستنزف فيها مواردهم المادية دون أن تنيل الواحد منهم من جسدها شيئاً إلا اختلاس قلبه أو خطف حوضن عابر ، لزم سبك الشغل ..

وبدا سيد يحن لشيطان التأليف وكتابة الأغنيات التى ينوى هذه المرة أن يأخذها مأخذ الجد فيسعى بها إلى الإذاعة والمطربين والأفلام ، فكان يسمعى كل ليلة أغنية كاملة جديدة تعكس أخلاقيات الشارع والحارة بألفاظ سوقية لكنها طريفة ومسبوكة فى أشكال موسيقية لها جمالها الخاص مع ذلك ، من قبيل : خذ من قلبى وصر .. ياللى ساقينى الشقا والمر ؛ وياواد ياحموه سامعنى ولا لاه ؛ والغاوى ينقط بطاقيته .. إلخ إلخ . وكنت أقول له رأيى بصراحة ، فيظهر عدم الإهتمام به ، ويقول إننى مغرم بالأغنيات الذواتى الخرعة المايعة وإن المستقبل كله لهذا اللون من الأغنيات التى تشخر وتغنج وتشم وتسب الديك مثلما يفعل الناس فى الشارع ؛ إذ أن مثله الأعلى محمود شكوكو يعتبر أشهر من غنى فى العالم العربى كله . العجيب أن الرسائل التى بدأ يبعث بها إلى الإذاعة والمطربين والملحنين على عناوينهم التى أخذها من مجلات الكواكب وآخر ساعة كان يتلقى عليها ردوداً ترحب بأغنياته فى إعجاب شديد وتبلغه بأنها رهن التنفيذ ..

ولم يكن هذا ليضيرنى فى شىء ، خاصة أننى طوال قعدتى معه أكل شارب مدخن محشش دون أن أدفع شيئاً ، سواء سرحت فى مشاوير أو لم أسرح . على أنه كان ينجح فى الإنتفاع بى ، فبصنعة لطافة جعل منى سكرتيراً خاصاً له ، يملينى الأغنيات كى أكتبها فيما هو مندمج فى لعب القمار ، يرسلنى لشراء الفراخ والطعام الذى - كما ينبهنى دائماً كميرر لمشوارى - ساكل منه ؛ أساعده فى الطهى والتنظيف ؛ أذهب لاستطلاع بعض الأماكن التى قد ينوى القيام فيها بإحدى عملياته ثم أعود فأقدم له تقريراً شفويّاً . شهور طويلة تعقبها شهور أطول ، فى أثرها شهور أكثر طولاً ومللاً والضنك يتزايد ، وسيد زنائى يفقد شيئاً فشيئاً تمام السيطرة على زوجاته الثلاث ، فأصبح يتحمل شخطنهن ونظرهن ، ويمضغ بعض الغمزات القاسية التى يوجهنها إليه ، ويتلع ألمه إذا عادت إحداهن متأخرة فى عمق الليل . لكنه كل حين كان يفقد صبره ، فيطيح فيهن جميعاً بضرب مبرح يكاد يكون شروعا فى قتل ، بقضيب من الحديد وبالكرباج وأحياناً بالرأس والبونية والشلايت ؛ وفى مرات عديدة حلف على الواحدة منهن ألا تنام فى بيته ما دامت تأخرت ، فتجلس المسكينة ساعات طويلة على عتبة الباب فأفتح لها باب حجرتى لتنام فيها فيما أقفل عائداً إلى سيد فأبقى معه حتى الصباح ؛ وذلك أنه كان قد بدأ يطيل قعدة القمار حتى ضحى اليوم التالى ، سئمت تماماً ، تيقنت أن حياتى فقدت كل معنى ، صرت أحن إلى أماكن القديمة التى انقطعت عنها ؛ فأهرب من مغناطيسية زنائى لأيام طويلة ، أتسكع فيها طول النهار ، أحوم الأماكن التى كان لى فيها أصدقاء وزملاء وذكريات ؛ أصطدم بالوحشة والكآبة والملل ، فثلاثة أرباع أصدقائى مقبوض عليهم ، إما لأنهم من الإخوان المسلمين ، أو من الشيوعيين ، أو من أنصار العهد البائد ؛ إن بالحق أو بالباطل . إشتقت للإفطار مع حمدى الزواوى فى دكانه ، لكننى فوجئت بالدكان مغلقاً لعدة أيام ؛ فلما اضطرت للسؤال علمت أنه تم القبض عليه هو الآخر منذ وقت بعيد فأودع سجننا مجهولاً بتهمة غامضة مجهولة ..

لكننى أدمنت حارة بنت عمى لسبب لا أدريه ، صرت أمر بها كل يوم تقريباً فى أوقات متغيرة ، حيث أحترقها من أول شارع الصاغة أو من آخره ؛ فأرأتى

مرغما على الإلتفات والنظر مرتين ، من منزل بنت عمى ؛ كأنتى أبحث فى هذين
المكانين عن شىء حميم ضائع لا أفقد الأمل فى العثور عليه ..

إلى أن فوجئت بها ذات يوم خارجة من الحارة ، وحلها ، تاركة منزلهم فى
وسط الحارة محودة على الرصيف إلى الشارع العمومى ماضية فى اتجاه مبنى المديرية
المتاخمة لمحطة السكة الحديد ، دققت فيها النظر جيداً ؛ توقفت عند شفيتها بالذات
كعلامة تميزها . كانت هى بعينها ، بدرية ، لكنها تلتف بمعطف من الفرو الأسود
كاهوائيم الكبار ، وجورب أسود على حذاء أسود ، وتبششق بطرحة سوداء .
انتقلت إلى الرصيف الآخر كى أواجهها . واجهتنى بابتسامة شجعتنى . إندفعت
نحوها ، كدت آخذها بالحضن لكننى وضعت كل حرارة الفرح فى يدى إذ
ضغطت بهما على يدها الرخصة البضة :

- " إزيك يا بدرية ! والله زمان ! " ..

- " فىن أراضيك ؟ ما شغلتك هذه الأيام ؟ " ..

- " لم ألتحق بعد بعمل ثابت لكنها مستورة والحمد لله ! " ..

- " الحمد لله ! " ..

- " أين تذهبين الآن ؟ " ..

- " لست ذاهبا إلى أى مكان ! يمكن أن أوصولك ! " ..

- " يا مرحبا ! " ..

مضيت بجوارها صامتا ، متحرجا بعض الشىء ، حتى وصلنا إلى ميدان الساعة .
فتوقفت ، جعلت تشير لى على بيتها الكائن ضمن عمارة مميزة الطراز ولونها مرما
فى آخر هذا الشارع الفرعى ، فى الدور الرابع . بيت - تقول - مريح وجميل لا
يعيبه سوى أنه قطار الدلتا يمر بجذائه فكأنه يخترق قلب العمارة يشطرها ويكمل
الكارثة بصغيره الحاد كصوات المرأة الثكلى . قالت أيضاً أنها تفضل عدم الذهاب
إلى بيتها الآن لأنها فى ظروف سيئة والبيت فى ظروف أسوأ ؛ وأنها تؤجل دعوتى
إلى بيتها لوقت آخر ؛ لكن لا مانع لديها الآن من أن ترافقنى فى الطريق أو تجلس
معى فى أى مكان لبعض الوقت . أشرت لها على قهوة الطلبة القريبة ذات الجدران
الزجاجية . قالت : ليكن ؛ ومضت بجوارى فدخلنا المقهى . قلت فيما أقلب الشاى :

- " من فرحتى برؤيتك نسيت أسألك عن لبس الأسود فى أسود ! ما الحكاية !؟" ..

نظرت فى وجهى باستنكار شديد ممزوج بالدهشة مع قليل من الاستخفاف :
- " أنت إذن غائب عن الوعى ! لا تعيش فى الدنيا ! ألم تقرأ الجرائد أو تسمع الراديو أو الناس !؟ أمرك عجيب والله يا جدع !!" ..
- " كفى الله الشر ! ماذا حدث يا بدرية !؟" .

حاولت أن تتكلم ، وبدا أنها تبحث عن صوتها ، عن قدرتها على تحريك شفيتها . إحمر وجهها صار فى لون اللهب ، تقلصت شفيتها السفلى وانثنت تحت فكها العلوى ؛ وهطلت الدموع من عينيها . سرت عدوى البكاء فى بدنى ، فرحت أقاوم رعشة قوية تشملنى من رأسى إلى قدمى ؛ وبين حين وآخر أتمالك نفسى وأجفف دمعى صائحا بها : مالك يا بدرية !؟ فتشرع فى الكلام فيغلبها الدمع فيتحشرج صوتها ويضمحل قبل أن تتمكن من إتمام لفظة واحدة . وهكذا لمدة تزيد على الساعة ، وجهى فى وجهها نرتفق المنضدة يكاد رأسى يقرع رأسها نحاول أن نبعد الأنظار عنا بقدر ما نستطيع ، والجرسون يتابعنا من تحت لتحت بأسى شديد تتضح نظراته الخاطفة بالعزاء والمواساة . أخيرا اقتحم علينا المنضدة ببسمة عذبة كأنه يمس بها على رأسينا : " وحدوا الله بقى حرام اللى بتعملوه فى نفسكم ده !" ، ورفع الصينية بالشاى فاتجه إلى النصبه الرخامية المستطيلة المتكررة فى مرايا الجدران ؛ ترك الشاى وجاء بغيره ساخنا طازجا ، فوضعه أمامنا . صرنا نشرب الشاى ، وكان صوتها قد بدأ ينسكب فى أذنى .

القارورة

.. " لقد شنقوا زوجى ! قالوا إنه من مؤسسى الجهاز السرى ! إختاروا له العمل المناسب ! قالوا إنه كان المختص بشراء الأسلحة وتخزينها بحكم خبرته العسكرية إذ أنه كان ضابطا سابقا فى الجيش !..

- " زوجى كان طيب القلب يعلم الله !! بيتنا ليس فيه سوى مسدسه المرخص والله كان يخاف منه خوف الطفل من لمس اللهب !! لا يخرج من درج مكتبه أبدا!!..

- " ألم تسمع محاكمته فى الراديو ؟! كانت تجى كل يوم فى الجرنان !! " ..
- " ضربوه حتى كسروا عظامه !! كان سيموت وحده بغير إعدام لو تركوه أسبوعا واحدا !! الطبيب الشرعى قال لنا إنه مات قبل شد الحبل !! " ..
- " يا للفظاعه ! عمرى ما رأيت حكومة بهذه القسوة !! هه !! يقولون إن الإحتلال رحل عن البلاد !! والله إنه لم يرحل ! هذه حكومة أوسخ من الإحتلال!! " ..

- " جاعونى ذات ليلة ! صحنونى من النوم ! شحنونى مغماة العينين كالبقرة المربوطة فى الساقية فى عربة زرقاء !! فلما فتحت عينى وجدت زوجى أمامى فى غرفة مكتب فيها أفندى مهيب وضباط وعسكر ! قال الأفندى لرجل ضخم الجثة كالحلوف : إخلع ملابسها وملابسك وهيا أرنا رجولتك وغنجها !! " ..

- " ضربنى بالسكين فى قلبى إبن المفضوحة ! تصورت أننى فى مستشفى المجانين ! وقفت منهولة ! كل شىء فى جسدى ينتفض ويرتج " ..

- " إبن المفضوحة الآخر خلع ملابس به بالفعل ! بقى بالسرورال الداخلى فحسب !! صار يقترب منى كالوحش فاشخأ حنكه !! صوت صرخت تراجعت للخلف ممسكة بطفاية سجائر ثقيلة من البللور متحفزة لشق رأسه بها لو اقترب ثانية!! " ..

- " ابن المفضوحة الأفندى رفع ذراعه يعنى انتظر !! أدار وجهه نحو زوجى قال: تعترف أم نتركه يأكلها أمامك ؟! زوجى قال بكل ثبات : أولا أنا ليس عندى شئ أعترف به وثانيا إن كان عبدك هذا رجلا حقا فليرينى كيف يأكلها !! " ..
- " شعرت كأنه نفخ فى جسدى روح القوة ! نظرت الأفندى للرجل الوحش قال: شف شغلك يا محظوظ فإنها جميلة رغم شفيتها الغليظتين !! صار الوحش يخطو نحوى ببطء فاشنخا حنكه ! الأسنان الصفراء الكبيرة " ..
- " صرت أصرخ وأراجع أمامه حتى مسحت حيطان الحجره بجميع أركانها!! توقف لحظة ثم انقض على مرة واحدة !! زغت من تحت ذراعيه ! ترنحت نشنت بالطفاية على صدره فتلقاها بساعديه فرماها فاندفع بقوة شريرة لا مزاح فيها هذه المرة ! كاد يفلح فى تطويقى وهو يلهث !! " ..
- " زوجى الضابط السابق كان يلعب الرياضة باستمرار وكان قوى الجسد كجذع السنط ! فى لمح البصر سحب كرسيا ثقيل كالداهية ! وبيديه الإثنتين هوى به فوق رأس الرجل الوحش فانطرح على الأرض حثة هامة تندلق الدماء من أذنيه وفمه!! " ..
- " هجموا جميعا على زوجى ضربا بالشلايت والبونيات حتى خلصه الأفندى منهم تجنبنا للوقوع فى مسئولية موته من الضرب !! " ..
- " قلبوا فى الرجل الوحش فلم يحط منطلقا ! ظل منكفئا على وجهه يسبح فى بركة من الدماء !! أشار لهم ابن المفضوحة الأفندى فسحبونى فوضعوا العصابة على عيني ثم شحنونى فى السيارة الزرقاء فتركونى فى قلب البيت وانصرفوا " ..
- " بقى صوتهم فى ردهة بيتى زمنا طويلا يحذرنى من فتح فمى بحرف عما حدث وإلا فالموت فى انتظارى وعائلتى كلها !! " ..
- " لم أقل لك إن أخى الكبير والذى يليه فى السجن حتى الآن بغير محاكمة !! مرة يقولون إنهما من الجهاز السرى ! ومرة يقولون مجرد اشتباه لعلاقتهم العائلية بالعضمة الكبيرة !! منهم لله ! منهم لله !! " ..
- " أحببت زوجى المرحوم حبا كبيرا " ..

- " ما كان قادرا على الانجاب نتيجة إصابة فى جسده أثرت على أعصابه فالها فى حصار الفالوجا فى حرب ثمانية وأربعين !! يا ما حدثنى عن هذا الحصار وكيف أنهم رأوا الموت بأعينهم فى اليوم الواحد أربعاً وعشرين مرة ! قال إن عبد الناصر كان معهم ! قال أيضا إن عبد الناصر كان معهم فى الإخوان المسلمين ! لكنه لم يقل لى ما سر هذا الثأر البائت بين الثورة والإخوان المسلمين !؟ ولم يقل لى ما السر فى الإخوان المسلمين إذا كنا كلنا مسلمين وأقارب !؟ لما كنت أسأله كان يضحك ويأخذنى فى حضنه ويحكى لى عن شهيدات الإسلام حتى أنام .."

- " الله يرحمه كان يحبنى ! كان دائما حزينا من أجلى لأنه السبب فى حرمانى من الخلفة مع أنه لا يقصر أبدا فى واجباته كرجل ! طلبت منه أن أذهب إلى الدكتور فرما يكون العيب منى ! فمنعنى وقال إنه يعرف أن العيب فيه هو ! وأنه متأكد من ذلك من زمان !!"

- " لكى يرضينى ويضمن حبى له كتب باسمى كل ممتلكاته : الشقة وفدان الأرض فى بلدته وبعض المواشى فى حوزة بعض أقاربه ! وأوصى أقاربه عندما زاروه فى السجن ! أخبرهم بكل شىء حتى لا يضايقونى إذا تعرض هو للإعدام .."

- " الله يرحمه كان يعرف أن مصيره الإعدام ! وكان دائما يتصرف على هذا الأساس !! وندم فى حياته مرة واحدة : عندما عرض عليه أصدقائه من المملكة السعودية أن يعيش عندهم كبعض زملائه معزوا مكرما فى نفس وظيفته بالمرتب الذى يطلبه لكنه اعتذر وقال أن مهمته فى مصر وليست فى السعودية وليس من الرجولة ولا من الاسلام أن يهرب من مهمته حتى لو كان يعرف أنه معرض للموت فى سبيلها !!"

- "أنا أقول إن عدم إنجابيه وتأكده من عدم الإنجاب جعله زاهدا فى الدنيا وفى الفلوس !! كان كل همه وكل فرحه أن يرى المساجد ممتلئة بالمصلين كأنهم يصلون له هو !! سعادة الدنيا كلها تحط عليه حين ينجح فى تخليص مسلم حقيقى من ورطة أو سداد دين ! مع ذلك لا يفرط فى حق له عند أحد !! لا بد أن يأخذه على داير المليم ! وربما أنفق على نفس الشخص فى ظروف أخرى ضعف ما كان عليه له .."

- " أقاربه الآن يحبوننى ! لم يظهر منهم أى شىء يقلقنى ، ذهب أبى وسجل كل شىء ! واليوم كنت فى بلدته لتصفية بعض الحسابات مع أقاربه ! أكرمونى كرما شديدا ! حملونى بالفطير المشلتت والقرص والجبن والسمن وعسل النحل ! رأسهم وألف سيف أن أقبل هديتهم .."

- " على فكرة ! يمكن أن تخلصنى من الفطير بدلا من تركه للفساد ! أنا لا ثقل لى عليه ! تعال خذه ! سأنزله لك بالسلة والحبل !!"

- " إعدرنى لعدم دعوتى لك بالصعود إلى الشقة فكل شىء بأوان !! لست أحب أن أريك منظر الشقة وهى فى حالة حداد على صاحبها !! كما أنى أحب أن أحترم ذكراه لوقت طويل !!"

- " ما تقول !؟ مشروعك القديم !؟ زواجنا يعنى !؟ فكرة أن تتزوجنى !؟ أنا موافقة ولكن الموضوع يحتاج لتعب كبير ! لسن يوافقنى عليه أحد ! وربما يحاربنا أقاربه ! تكون فضيحة بجلاجل وأنا لست حملها بعد ما حدث لى !! على كل حال هذا الكلام سابق لأوانه ! نضعه الآن على الرف حتى يؤون الأوان وأعدك أنى إن فكرت فى الزواج فلن أتزوج من أحد سواك إذا شاء الله لنا زواجا !!"

مسك الختام

بعد حوالي عشر دقائق من وقوفى تحت شرفة الطابق الرابع ، هبطت السلة الكبيرة بالحبل . كانت ثقيلة تكاد تهوى إلى الأرض . ينحشر فيها كيس من الدبلان ملآن عن آخره بلفائف الفطير المشلتت والقرص الناعمة الشهية الرائحة وبرطمان العسل النحل وعلبة الجبن . صاحت بدرية من فوق إفريز الشرفة تنبه على بأن أفك عقدة الحبل وأخذ السلة كلها بما فيها . ثم بأطراف أصابعها سحبت من شفتيها قبلة ورمتهى بها . لوحت لها يدي وقد شعرت كأن القبلة الطائرة قد هبطت على شفتى بالفعل فسأل لعابى متحسناً مذاقها ..

علقت السلة فى ذراعى ومضيت من فورى إلى الوكالة شاعراً بالفرح والحماسة لأننى أخيراً سأتمكن من عمل واجب مع سيد زناتى ورجاله ..

دخلت بالسلة إلى حجرتى فوضعتها وقصدت حجرة سيد زناتى . كان الرجال لحسن الحظ كلهم هناك . لم يكن سيد زناتى قد أعد لهم أكلاً كالعادة لأن السوق نائم والدخل معدوم . أدركتهم وهم يتبادلون المقترحات حول علبة السلمون والجبن القديم بالأوطة والخيار . قلت بفخر خفى :

- " لا داعى للمقترحات ! عشاؤكم عندى ! فأننا قادم لتوى من البلد ! " ..

قال سيد وهو يشد الهواء بأنفه :

- " أشم رائحة فطير مشلتت ! " ..

- " مضبوط ! غارق فى السمن طازج ! " ..

- " بنا إذن إلى حجرتك ! أنت عزمتنا فلتكن العزومة فى حجرتك ! نغير الجو

والمكان لعل ربنا يفكها ! " ..

ثم نهض ؛ فنهضوا جميعاً . نزلنا فى موكب لطيف إلى حجرتى ، حوالى ست رجال وثلاث نساء . حملنا معنا بعض الشلت والمساند . جلسنا جميعاً على الأرض ، فردنا الفطير والجبن والعسل فإذا به كمية كبيرة ، حتى اضطررنا لإرسال فطيرة كاملة لشوادفى ، وأنصاف فطائر لمن وجدناهم فى الوكالة ساعتهما . أكلنا حتى امتلأنا وفاض الكثير . قررنا أن نكمل السهرة عندى ، فجئ بكل المعدات من

حوزة وحجارة وزجاجات كحول وحشيش ، وورق اللعب . وبدأت لعبة القمار ساخنة حامية .. وشبه عاريات جلس النساء الثلاث في وسطنا يقمن في مرح بخدمتنا وإلهاء المغلوب حتى ينسى ليزداد غلبه . والليل يمضي بنفس الحماسة دون أن ندري ؛ حتى سمعنا لغطاً شديداً عند البوابة ، وصوت صفعة مدوية قالت إنها على وجه شوادفى ، كما قالت الأصوات المتعجرفة - دون أن تقول - إن الطاقم الذى يعرف شوادفى قد تغير كله ..

ما كدنا ننصت حتى انفتح الباب ؛ وطب فوق رءوسنا وفد كبير من الحكومة باللباس الرسمى والمدنى . أوقفونا ، فتشونا ، أمعنوا فى التفتيش حتى بين أوراق الكتب . حملونا جميعاً ومعنا ورق اللعب والنقود وزجاجة الكحول والمخدرات والجوزة والحجارة ، عبأونا فى عربة الشرطة إلى مبنى المديرية . سين وجيم : من صاحب الحجرة ؟ قلت إنه أنا ! قالوا لى : مبروك عليك ! قضية لابسة لانقض فيها ولا إبرام !! إدارة المسكن للعب القمار ! وشرب المخدرات والخمر ! وتسهيل الدعارة !! ..

زجوا بى فى التخشيبية وحدى . أما الجميع فقد خرج بعضهم بكفالة والبعض الآخر بضمان معرفة سكنهم . ظللت أتمرد فى التخشيبية وحدى كفأر مقهور فى مصيدة لا سبيل إلى الخروج منها ؛ لا أحد يسمع نجبى أو رزعى أو صراخى ؛ حتى هدنى التعب والقهر واليأس فأقعيت على الأرض . ثم تكورت على نفسى ، دافنا رأسى بين ركبتى المنتصبتين . إمتلأت خياشيمى برائحة عطر نفاذ أرسقراطى جذاب . رفعت رأسى مستطعماً كأننى فى حلم . لم أر أحداً فى الظلام سوى كتل الظلام المترابطة فى التخشيبية ، لا حس لا حركة لا صوت . تكورت من جديد فى جلستى المقعبة ، دفنت رأسى ، تسلى العطر من جديد إلى خياشيمى قوياً مبهجاً مثيراً للكآبة معاً ، ذلك أننى تبينت أن يدي قد تركت فى صدرى ووجهى بقايا عطر بدرية الذى تركته فى راحة يدي عند السلام مرتين . وفى الظلام الدامس رأيت قمراً شاحباً مخنوقاً يتمرد على جحافل السحب ليلقى على الأرض نظرة : كانت بدرية تمضى أمامى فى خط مستقيم تتأبط قرطاساً من زهر البنفسج ، فلا

أرى سوى ظهر شبحها الملتف بالسواد يمضى نحو شاهد قبر بدا فى رمشة القمر
كقالب من الرماد الأبيض فوق فيل خرافى بارك على الأرض .

(تمّت)



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043



« المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندي ذى الشكل المحترم
فتسافر به إلى الأسكندرية لتمكث هناك أياماً طويلة حتى
تغربلها وتهز هزها ! يعنى لا تترك فيها حياً إلا وسلبت منه
أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة على الخطوط الطوال !
تختار أشد العربات ازدحاما ! تركب ومن ورائها الأفندي !
ينحشران زحفاً داخل العربة ! عطر المرأة وجسدها مهرجان
كبير . الجميع يحضنون عليها وهى تنزلق من بينهم فى سهولة !
بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق
هو بها فى الحال سعيداً غائباً عن الوعى فيلتصق به الأفندي من
الخلف ! صاحبنا يندلق على المرأة والأفندي فى لمح البصر ينتهى
من تقليبه وسلب محفظته وكل ما معه بخفة يد لا ترى بالعين
المجردة ! ! حين تشعر هى أن صاحبنا المندلق على مؤخرتها قد
اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من
حركات التآلم ثم تستدير ناظرة إلى صاحبنا فى تأنيب واحتقار
فيلتقطها أحد المتابعين فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً
لها فى الأول حتى يبدأ الإلتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها
سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى
ينتهى الأفندي من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل
يهبطان فلا يبقىا فى الشارع برهة واحدة ! لابد من الاختفاء فى
حارات ملتوية أو فى تاكسي أو مترو ! المهم أن من يسعى
وراءهما لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين
عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجروا واحد منهم على
إعلان فضيحتهم إذا اكتشف غفلته فى وقت مبكر ! ! » .

خبرى شلى . اصدق
من استطاع وصف السلوك
الشعبى معايشة داخل
مكانه وليس من وراء
المكاتب المكيفة . قلمه
التمرس عرف كيف يطوع
الحرف الصامت ليغازل
المعنى المطمور داخل اللوحة
الغامضة ، فلا تملك أمام
براعته فى هذا الا أن تزفها -
الحرف والمعنى والصورة -
لنفسك راضياً مستبشراً .

لوم يكتب الرواى خبرى
شلى صاحب « الوند » و
« الأوباش » و « السنيورة »
و « بورترية » و « رحلات
الطرشجى الحلوجى » . . .
سوى « وكالة عطية »
لكفاة .

رواية تختصر لك الحياة
فى مكان واحد هو الوكالة .
وتختصر لك البشر فى
شخص واحد هو
« شوادق » .



دار الأحمدي للنشر

تم اعادة الرفع بواسطة

مكتبة عمرك

ask2pdf.blogspot.com